قادة الفكر الاقتصادى

تأليف
روبرت هيلبرونر
ترجمة
الدكتور راشد البراوى

اهداءات ٢٠٠٢

أسرة د/ عبد الرحمن بدوي

جمعية د /عبد الرحمن بدوي للإبداع الثقافي

القاهرة

قادة الفكر الاقتصادى

تأليف

روبرت هيلبرونر

ترجمة

الدكتور راشد البراوى

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

THE WORLDLY PHILOSOPHERS

By

ROBERT L. HEILBRONER

Published by Simon and Schuster, New York

Copyright (c) 1953, 1961 by Robert L. Heilbroner

مطابع كوستا تسوماس وشركاه

٥ شارع ... - تليفون ٤٤١١٨

١٣ شارع ... القاهرة - تليفون ٥٤٦٣٩

المحتويات

			الصفحة
مقـــدمة الترجمة		... ...	٥
الفصل الأول	:	تمهيد	٩
الفصل الثانى	:	الثورة الاقتصادية	١٥
الفصل الثالث	:	العالم العجيب الذى صوره آدم سميث	٤٥
الفصل الرابع	:	العالم القاتم الذى رسمه القس مالثس ودافيد ريكاردو	٨٣
الفصل الخامس	:	العالم الجميل الذى تصوره الاشتراكيون الخياليون	١١٧
الفصل السادس	:	العالم الصلب الذى بشر به كارل ماركس ...	١٥١
الفصل السابع	:	العالم الفكتورى والجماعات السرية من رجال الاقتصاد	١٩١
الفصل الثامن	:	العالم المتوحش الذى عاش فيه ثورشتاين فبلن	٢٤١
الفصل التاسع	:	العالم المريض الذى عالجه مينارد كينز	٢٨٣
الفصل العاشر	:	العالم الحديث	٣٣٣
الفصل الحادى عشر	:	وراء الثورة الاقتصادية	٣٦٧

مقدمة الترجمة

بقلم : الدكتور راشد البراوى

أسئلة شغلت بال المجتمع الرأسمالى منذ استقرت دعائمه فى أوربا حيث موطنه الأساسى على وجه التحقيق : ما طبيعة هذا النظام المعروف باسم الرأسمالية القائمة على وجود سوق حرة ومنافسة حرة ومشروع حر؟ وهل من قوانين معينة يسير النظام وفقاً لها حتى يحقق الغايات التى يسعى إليها المجتمع ؟ وإلى أين يتجه ، أو ما مصيره بعبارة أخرى ؟ ولا تزال هذه الأسئلة تتردد اليوم ، بل لعلها تزداد إلحاحاً ، بعد ضروب التحدى التى تعرض لها هذا النظام وبخاصة منذ أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها .

وراح فريق من الدارسين والباحثين من ذوى النظرات النفاذة الدقيقة يحاولون الإجابة على هذه الأسئلة ، وتنوعت الإجابات ، سواء فى تفسير العالم الذى نعيش فيه أو فى التنبوء بالاتجاه الذى يسير فيه . فهو عالم بهيج عند آدم سميث ، تلعب فيه المنافسة الحرة الدور الرئيسى ، وتؤدى فيه المصلحة الخاصة فى الأجل الطويل إلى ما فيه مصلحة الجماعة ؛ وهو عالم قادر بفعل هذه القوى والدوافع على تصحيح ما قد يبدو فيه من أخطاء ، بل ومظالم . ولكن هذه الصورة اللامعة سرعان ما ألقى عليها مالتس وريكاردو ظلالا قاتمة من التشاؤم ، ولكنهما لم يدعوا إلى إلغاء النظام . هذه الدعوة صدرت عن فريق من الكتاب أخذوا يدعون إلى إقامة جنة على الأرض ، وطلعوا بمشروعات لتنظيم المجتمع ، يسودها طابع الخيال لأنها لا تتفق مع طبائع الأشياء ، ومن هنا دخلوا فى كتاب الفكر الإقتصادى باسم الخياليين أو اليوتوبيين . ثم جاء جون ستيوارت مل ليحدثنا أنه إذا كانت هناك عيوب فى توزيع الثروة المنتجة فليست هناك قوانين ثابتة تحكم هذا التوزيع وإنما

فى وسع الجماعة أن توزع هذه الثروة حسب الأسلوب الذى تراه أدنى إلى تحقيق العدل .

لقد أعطى مل العالم أملا ، ولكن هذا الأمل سارع إلى تحطيمه رجل تحالفت ظروف العصر الذى عاش فيه ، والبيئة الخاصة التى نشأ فيها ، والحياة القاسية التى عاناها ، فأشاعت فى نفسه المرارة وجعلته ينظر إلى النظام نظرة قاتمة فأعلن أن الرأسمالية مآلها حتما إلى زوال .. ذلك هو كارل ماركس الذى كان مؤلفه « رأس المال » أشبه بكتاب الفناء أو بحكم الاعدام على هذا النظام .

رأى ماركس أن الرأسمالية تسير فى الطريق إلى القضاء على نفسها ، ولكن كاتباً آخر سار خطوة أبعد فقال إن الرأسمالية سوف تؤدى إلى القضاء على العالم بسبب ما تولده الإمبريالية من الحروب . وتلقف الشيوعيون الفكرة ، وراحوا يكسبونها لحماً ودماً ، وجعلوها من المحاور الأساسية فى دعواتهم المتناقضة .

ونشبت الحرب العالمية الأولى . ثم حدثت الأزمة الاقتصادية التى اجتاحت العالم فى خريف عام ١٩٢٩ فكانت ذروة سلسلة من حالات الركود التى تعرض لها المجتمع الرأسمالى ، وهى ظاهرات تفاوت تفسيرها وتعليلها . بدا كأن فى هذا المجتمع مرضاً ، وجاء جون مينارد كينز ليعلن أن فى الامكان التغلب على المرض ، ومعنى هذا أن فى وسعنا أن نتحكم فى مصيرنا ؛ والواقع لقد أصبحنا مسئولين بصورة متزايدة عن حاضرنا ومستقبلنا . وهذا التحكم من جانبنا حقيقة تلعب فيها الاعتبارات الأخلاقية والسياسية دورها الكبير إلى جانب الاعتبارات أو العوامل الاقتصادية .

هذه الإجابات المتعددة والمتنوعة على الأسئلة التى أوردناها فى مبدأ هذه المقدمة ، هى ما يتضمنه الكتاب الحالى . إنه يعرض لنا أفكار ذلك النفر من الكتاب ممن يعرفون باسم الاقتصاديين العظام ، وذلك خلال القرنين الأخيرين أو منذ أن طلع آدم سميث بكتابه « ثروة الشعوب » ، على وجه التحديد .

وتضم المكتبة الغربية عدداً لا حصر له من المؤلفات عن الفكر الاقتصادى أو المذاهب الاقتصادية . وميزة الكتاب الحالى تنبعث من المنهج الذى اتبعه

صاحبه . فهو يبدأ بتوضيح ظروف العصر الذى ظهر فيه الاقتصادى ، ثم يحلل البيئة الخاصة التى نما فيها هذا الاقتصادى والمؤثرات التى كان لها دورها فى تشكيل أفكاره . وبعد ذلك يأخذ فى عرض هذه الأفكار وتحليلها ومناقشتها فى دقة وصراحة ونزاهة علمية تستوقف النظر . فالمؤلف لا يحاول أن يضع التأكيد على ناحية دون أخرى حتى يفرض على القارىء رأياً أو اتجاها معيناً وإنما يلتزم جانب الحياد الإيجابى الدقيق فى عرض آراء هؤلاء الإقتصاديين العظـــام .

والميزة الثانية التى تلفت النظر هى الوضوح الكبير فى عرض الأفكار مهما بلغ تعقيدها كما يتضح مثلا فى الفصول الخاصة بريكاردو وفبلن ، ونستطيع القول إن القارىء العادى الذى ليس على درجة عالية من الثقافة الإقتصادية قادر على استيعاب الأفكار والمذاهب التى طلع بها أولئك الرواد فى ميدان الفكر الإقتصادى .

قد لا تكون أفكارهم والمذاهب التى بشروا بها وضروب العلاج التى اقترحوها غير صالحة تماماً للتطبيق اليوم ، ولكنها تهىء لنا الفرصة كى ننظر إلى المستقبل نظرة يسودها التفاؤل ، إنهم يعلموننا أن العالم الذى نعيش فيه لا يوجد فقط ولكنه ينمو ويتطور ، وأن فى وسعنا أن نوجه عمليه النمو والتطور وأن نتحكم فيها إلى قدر كبير .

وإذا كانت المكتبة الغربية تزخر بالمؤلفات فى الفكر الإقتصادى ، فإن المكتبة العربية تعتبر على النقيض من هذا فقيرة إلى حد بعيد ، وهذا ما دفعنا إلى ترجمة هذا الكتاب حتى يكون القارئ العربى على بينة من تلك الاتجاهات الفكرية التى كانت ذات أثر فى تشكيل العالم مما يثبت بالفعل أن القلم أصدق أنباء من السيف فى أكثر من حالة .

والله الموفق إلى ما فيه الخير .

يناير ١٩٦٣ — راشد البراوى

الفصل الأول

تمهيد

هذا كتاب عن حفنة من الرجال لهم حق عجيب فى الشهرة التى حظوا بها . ولو حكمنا عليهم وفقاً لجميع القواعد التى توردها كتب التاريخ التى يدرسها طلاب المدارس فقد كانوا شخصيات لا يعتد بها ؛ فلم يقودوا الجيوش ، أو يبعثوا بالناس ليلقوا حتفهم ، أو يحكموا الامبراطوريات ، ولم يكن لهم سوى دور بسيط فى القرارات التى تصنع التاريخ . وذاع صيت عدد قليل منهم ، ولكن دون أن يكون أحد منهم بطلا قومياً أبداً . ومع هذا فما فعلوه كان أكثر حسماً بالنسبة إلى التاريخ من تلك الأفعال الكثيرة التى قام بها الساسة ممن استمتعوا بدفء شمس المجد ، وغالباً ما كان الذى فعلوه أبعث على القلق بصورة بعيدة الغور من زحف الجيوش وارتدادها عبر الحدود ، وأقوى على تحقيق الخير والشر من المراسيم التى أصدرها الملوك أو سنتها الهيئات التشريعية . نقصد بهذا أنهم شكلوا وأثروا فى اتجاهات عقول الناس .

ولما كان الشخص الذى يجتذب عقل الإنسان إلى جانبه يملك قوة هى أعظم من قوة السيف أو الصولجان ، فإن هؤلاء الرجال شكلوا العالم وأثروا فى الاتجاه الذى يسير فيه . لم يرفع أحد منهم إصبعه بالعمل ولكنهم عملوا أساساً كطلاب علم — فى هدوء وبشكل غير ظاهر ، وبغير أن يهتموا كثيراً بما قاله العالم عنهم . ولكنهم خلفوا فى أعقابهم إمبراطوريات ممزقة وقارات متفجرة ، ودعموا وقوضوا أنظمة سياسية ، وأثاروا طبقة ضد أخرى بل وشعباً ضد آخر — ولم يفعلوا هذا لأنهم كانوا يدبرون الأذى وإنما بسبب ما كان يكمن فى أفكارهم من قوة خارقة للعادة .

من كان هؤلاء الرجال ؟ إننا نعرفهم باسم الإقتصاديين العظام ، ولكن الغريب هو قلة ما نعرفه عنهم . قد يتراءى للمرء أنه فى عالم تمزقه المشكلات الإقتصادية ويشعر بالقلق على الدوام من ناحية الشئون الإقتصادية ويتحدث عن المسائل الإقتصادية ، يكون الاقتصاديون الكبار شخصيات مألوفة لنا كما هو الشأن بالنسبة إلى الفلاسفة ورجال السياسة . ولكنهم بدلا من هذا ليسوا إلا شخصيات غامضة تنتمى إلى الماضى ، كما ننظر إلى المسائل التى تجادلوا بصددها فى حماس وشغف بنوع من الرعب الذى نستشعره إزاء الأشياء البعيدة عنا . يقال إنه لا سبيل إلى إنكار أهمية علم الإقتصاد ولكنه علم جاف وصعب ويحسن أن يتركلن يألفون عوالم الفكر الغامضة .

وليس ثمة شيء أبعد عن الحقيقة من هذا الظن . فالشخص الذى يظن أن الإقتصاد ليس إلا مسألة تخص الأساتذة ينسى أن هذا العلم هو الذى أحدث الاضطرابات والثورات . والشخص الذى راح يطالع كتاباً فى الإقتصاد ثم استخلص أن هذا العلم يبعث على السأم هو أشبه برجل قرأ كتاباً عن المبادئ الأولية فى علم إيواء الجنود بالميدان ، وإطعامهم ثم قرر أن دراسة فن الحرب لا بد وأن تكون مملة .

كلا ، فالإقتصاديون العظام تابعوا بحثاً لا يقل إثارة — وخطراً — عن أى بحث عرفه العالم أبداً . فالأفكار التى طلعوا بها ، على خلاف أفكار الفلاسفة الكبار ، لم تؤثر إلا قليلا فى حياتنا العملية اليومية ، والتجارب التى حثوا على تطبيقها تخالف تجارب رجال العلم من حيث أنه لا يمكن إجراؤها فى عزلة عن المعمل . إن الأفكار التى طلع بها كبار الاقتصاديين هزت دعائم العالم ، والأخطاء التى وقعوا فيها كانت قمينة أن تؤدى إلى النكبات .

لقد كتب لورد كينز ، وهو نفسه اقتصادى عظيم ، يقول « إن أفكار الاقتصاديين والفلاسفة السياسيين ، سواء كانت على صواب أو خطأ ، أقوى مما درج الناس على فهمه عنها . والحق ، أن العالم لا تحكمه إلا قلة من أفكار

أخرى ، فالرجال العمليون الذين يعتقدون أنهم تحرروا من أية مؤثرات فكرية هم فى العادة عبيد اقتصادى قد أصبح فى ذمة التاريخ . والمجانين الذين يقبضون على أعنة السلطان والذين يسمعون أصواتاً فى الفضاء ، إنما يستمدون جنونهم من كاتب أكاديمى عاش قبل ذلك بسنوات قلائل . وإنى لعلى يقين أننا نبالغ بدرجة هائلة فى قوة المصالح الثابتة إذا ما وازنا بينها وبين العدوان التدريجى من جانب الأفكار » .

من المؤكد أن الاقتصاديين لم يكونوا جميعاً من العمالقة . فالألوف منهم وضعوا كتباً ، بعضها نصب ضخمة للبلادة ، واستقصوا التفاصيل الدقيقة بكل ذلك الحماس الذى اتصف به طلاب العلم فى العصور الوسطى . فاذا كان علم الإقتصاد اليوم لا يبدو إلا فى ضوء خافت ، وإذا كنا غالباً ما نفتقد شعوراً من المغامرة الكبيرة فيه ، فليس له أن يلوم إلا أربابه ذلك أن الاقتصاديين العظام لم يكونوا مجرد عقليات صاخبة. لقد جعلوا من العالم بأسره موضوع بحثهم ، وعرضوا لنا ذلك العالم بمشاعر جريئة كثيرة : تنم عن الغضب أو تبعث على اليأس أو تشيع الأمل . وتطور آرائهم المارقة بحيث تصبح آراء سليمة ، واظهارهم الأشياء التى يعدها الناس دليلا على الإدراك السليم بأنها خرافة ، كل هذا لا يشكل شيئاً يقل عن جهد تدريجى لبناء صرح الحياة المعاصرة .

إننا لا نكاد نتصور مجموعة من الرجال أكثر غرابة منهم — أو مجموعة دونها على ما يبدو من حيث أنه قدر لها أن تعيد تشكيل العالم .

كان من بينهم فيلسوف ومجنون ، وقسيس وسمسار فى بورصة الأوراق المالية ، وثورى ورجل ينتمى إلى طبقة النبلاء ، وزاهد وشكاك وأفاق . وكانوا ينتمون إلى جميع الجنسيات ومشارب الحياة ويمثلون جميع ضروب الأمزجة . كان بعضهم نابهاً والبعض الآخر ثقيلا مملا ، وكان بعضهم حاقداً والبعض الآخر مما يستحيل احتماله . وجمع ثلاثة منهم على الأقل ثرواتهم ولكن الكثيرين منهم ندر أن حذقوا المبادئ الإقتصادية الأولية لإدارة شئونهم

المالية . وكان اثنان منهم من رجال الأعمال المبرزين ؛ بينما لم يزد واحد منهم أبداً عن كونه بائعاً متجولا ، وبدد آخر ثروته .

وكانت وجهات نظرهم عن العالم متنوعة تنوع حظوظهم — إذ لم تكن هناك أبداً جماعة من المفكرين تماثلهم فى ميلهم إلى العراك فيما بينهم . فأحدهم ظل طيلة حياته يدافع عن حقوق المرأة ، بينما أصر آخر على أن النساء دون الرجال بشكل ظاهر . واعتقد أحدهم أن « السادة » ليسوا إلا برابرة ، بينما آمن آخر بأن غير السادة يندرجون فى زمرة المتوحشين . وأحدهم — وكان غنياً جداً — دعا إلى إلغاء الغنى ، بينما استنكر آخر — وهو فقير جداً — الإحسان . وادعى عدة منهم أن هذا العالم بالرغم من نقائصه أفضل العوالم التى يمكن وجودها ، بينما كرس آخرون حياتهم لإثبات العكس .

وألفوا جميعاً الكتب ، ولكن لم يشهد العالم مجموعة أشد اختلافاً فيما بينها . فكتب واحد أو اثنان منهم كتباً لقيت أعظم الرواج والانتشار ، ووصلت مؤلفاتهم إلى الأكواخ المبنية من الطين فى آسيا ، بينما اضطر غيرهم إلى أن يدفعوا تكاليف نشر مؤلفاتهم الغامضة ولم يكن لهم أبداً جمهور من القراء خارج دائرة أشد الناس صلة بهم . وكتب القلائل منهم بلغة كانت تزيد من سرعة نبض الملايين — بينما غيرهم — ولا يقلون أهمية بالنسبة إلى العالم — كتبوا بأسلوب كان غامضاً فى نظر أهل عصرهم كما هو فى نظرنا اليوم .

أما الذى ربط بينهم فلم يكن شخصياتهم أو حياتهم العملية أو ميولهم أو حتى أفكارهم ، إن القاسم المشترك بينهم كان شيئاً خلاف هذا ، ألا وهو نزعة حب الاستطلاع التى كانوا يشتركون فيها . فجميعهم خلب لبهم العالم المحيط بهم بما انطوى عليه من تعقيد وما بدا به من اضطراب ، وفتنهم بالقسوة التى غالباً ما أخفاها عن الأنظار بفضل التظاهر بالتقوى ، والنجاحات التى غالباً ما كان على دراية ووعى بها . وانغمسوا جميعاً فى فحص سلوك الإنسان كما خلق الثروة الدنيوية أولا ثم بعد أن داس على أقدام سواه كى يحصل على نصيب منها .

ومن هنا يمكن أن ندعوهم الفلاسفة الذين يعنون بالأمور الدنيوية لأنهم سعوا إلى أن يضم نظامهم الفلسفي أشد تصرفات الإنسان إتصالا بالحياة الدنيا — أي الدافع الذي يحفزه على اقتناء الثروة . ربما لا يعتبر هذا أجمل نوع من أنواع الفلسفة ، ولكن ليس ثمة نوع آخر أكثر منه مدعاة إلى الحيرة أو أعظم منه أهمية . من ذا الذي يفكر في البحث عن نظام وخطة مرسومة في أسرة فقيرة ودمار ظاهر ينتظرها لاهثة أو يسعى إلى اكتشاف قوانين دائمة ومبادىء في جمهور من الدهماء يسير في الشارع وخضري يبتسم في وجه عملائه ؟ إلا أن هؤلاء الإقتصاديين العظام كانوا يؤمنون أن أمثال هذه الخيوط التي تبدو غير ذات ارتباط فيما بينها يمكن نسجها لصنع طنفسة واحدة ، وأننا لو نظرنا عن بعد إلى هذا العالم المتنافر لألفيناه متوالية منظمة ولرأينا الضوضاء تتحول إلى لحن متسق .

وأنه لقدر كبير من الإيمان حقاً ! ! ومع ذلك ، وبالرغم مما يبعث عليه من دهشة كافية ، فقد أصبح له ما يبرره . إذ بمجرد أن عرض الإقتصاديون النماذج التي صنعوها أمام أنظار الأجيال المعاصرة لهم ، لم يعد الفقير العالة والمضارب أو الخضري وجمهور الغوغاء ممثلين متنافرين ألقى بهم لغير ما سبب مفهوم على خشبة المسرح ، وإنما كان مفهوماً أن لكل منهم دوراً يؤديه يعتبر ذا أهمية جوهرية بالنسبة إلى سير الدراما الإنسانية ذاتها ، سواء كان هذا الدور سعيداً أو غير ذلك . وحين انتهى الإقتصاديون فإن ما لم يزد عن كونه عالماً مضجراً أو عالماً تسوده الفوضى ، قد أصبح مجتمعاً منظماً له حياته الخاصة وهي حياة ذات معنى .

هذا البحث عن النظام والمعنى في التاريخ الاجتماعي هو جوهر علم الإقتصاد ، ومن هنا فهو الموضوع الرئيسي في هذا الكتاب . لسنا نعتزم القيام برحلة نحاضر فيها عن المبادىء ، ولكننا سنقوم برحلة عبر الأفكار التي شكلت التاريخ ، ولن نقابل في طريقنا علماء تربية فحسب ، وإنما سوف نلتقي بالكثيرين من الفقراء . ومن المضاربين الذين أصابهم الخراب ولكنهم

أحرزوا النصر ، ومن جماهير الدهماء ، بل وسوف نلتقى فى موضع أو آخر ببقال . سوف نعود إلى الوراء حتى يتسنى لنا الكشف من جديد عن جذور مجتمعنا فى خضم الأنماط الاجتماعية التى تبينها الإقتصاديون الكبار ، وإذ نفعل هذا فسوف نعرف الإقتصاديين الكبار أنفسهم - لا لأن شخصياتهم غالباً ما كانت بهيجة الألوان فحسب وإنما لأن أفكارهم تحمل طابع الذين ابتدعوها .

وقد يكون من الأوفق لو استطعنا أن نبدأ مباشرة بأول الإقتصاديين الكبار - أى آدم سميث نفسه - ولكن آدم سميث عاش فى وقت الثورة الأمريكية ويجب أن يفسر الحقيقة المحيرة وهى أن ستة آلاف عام منذ بدأ الإنسان فى تسجيل التاريخ قد انقضت قبل أن يظهر أى فيلسوف دنيوى ليتحكم فى المنظر . إنها لحقيقة غريبة ، فقد صارع الإنسان المشكلة الإقتصادية قبل عصر الفراعنة بوقت طويل ، وخلال هذه القرون أخرج فلاسفة بالعشرات ، وأنتج علماء ومفكرين سياسيين ومؤرخين وفنانين بالجملة ، وساسة بالمئات ، إذن لماذا لم يكن هناك إقتصاديون ؟

سوف يتطلب الأمر منا فصلا كى نجيب على السؤال . فإلى أن نسبر غور طبيعة عالم أقدم من عالمنا ودام زمناً أطول بكثير - وهو عالم لم يكن الإقتصادى فيه غير ضرورى فحسب بل وكان شخصاً يستحيل وجوده - فلن نتمكن من إعداد المسرح الذى قد يتخذ فوقه الإقتصاديون العظام أماكنهم . سوف ينصب اهتمامنا الرئيسى على حفنة من الرجال عاشوا خلال القرنين الأخيرين . ومع هذا يجب أن نفهم أولا العالم الذى سبق دخولهم ويجب أن نراقب ذلك العالم الأقدم عهداً وهو يولد العصر الحديث - عصر الإقتصاديين - وسط كل ما صحب ثورة كبرى من اضطراب وألم .

الفصل الثانى

الثورة الاقتصادية

منذ هبط الإنسان من فوق الأشجار واجه مشكلة البقاء لا بوصفه فرداً وإنما بصفته عضواً فى جماعة اجتماعية . أما أنه نجح فى حل المشكلة فيشهد به استمرار وجوده ، ولكن بقاء العوز والبؤس حتى فى أغنى الشعوب لدليل على أن هذا الحل فى أفضل حالاته كان حلا جزئياً .

غير أنه لا ينبغى أن نقسو فى لوم الإنسان بسبب عجزه عن أن يخلق جنة على الأرض ، إن من العسير انتزاع العيش من سطح هذا الكوكب ؛ وإنه لما يثير الخيال بقوة أن نفكر فى الجهود اللانهائية التى لا بد أنها بذلت فى استئناس الحيوانات لأول مرة ، واكتشاف بذور النباتات التى تصلح للزراعة ، واستغلال الخامات المعدنية الموجودة على السطح لأول مرة . فالإنسان لم يوفق فى الإبقاء على جنسه إلا لأنه مخلوق نزاع إلى التعاون مع أفراد الجماعة .

ولكن نفس اضطراره إلى الاعتماد على غيره زاد من صعوبة مشكلة البقاء بصورة غير عادية ، فالإنسان ليس نملة بمعنى أنه غير مزود بنمط موروث من الغرائز الإجتماعية ، إذ على النقيض من هذا تشير طبيعته إلى أنه يجرى وراء مصلحته الذاتية ، بدرجة بالغة . فاذا أجبره ضعف بنيته نسبياً على التماس التعاون مع غيره فان حوافزه اللاشعورية التى لم تروض بعد تهدد دائماً بتحطيم المشاركات الاجتماعية التى يقيمها من أجل أداء العمل .

ففى المجتمع البدائى كانت البيئة هى التى تحدد الصراع بين روح العدوان ونزعة التعاون . فحيث يطالع شبح الموت جوعاً الجماعة كل يوم كما هو شأن

الإسكيمو أو القبائل الأفريقية التى تعيش على الصيد ، فإن مجرد الحاجة إلى الإبقاء على الذات تدفع أفراد المجتمع إلى التعاون فى أداء أعمالهم اليومية . ولكن هذا الضغط الملموس الذى تفرضه البيئة لا وجود له فى مجتمع متقدم . فحين لا يعود الناس يعملون جنباً إلى جنب فى المهام التى تتصل بالبقاء اتصالا مباشراً — والواقع أن نصف السكان أو أكثر لا يمسون بأيديهم الأرض المزروعة أو يدخلون المناجم أو يربون الماشية أو يقيمون المبانى — فإن استمرار وجود الحيوان الإنسانى يعتبر إنجازاً اجتماعياً رائعاً .

ومما يبعث على الروعة حقاً أن يكون بقاء المجتمع معلقاً بخيط رفيع . فالجماعة الحديثة تهددها أخطار لا حصر لها بحيث إذا أخفق الفلاحون من أفرادها فى زراعة المقادير الكافية من المحاصيل ، أو خطر ببال رجال السكك الحديدية أن يصبحوا من المحاسبين ، أو قرر المحاسبون أن يتحولوا إلى عمال يديرون السكك الحديدية ، أو عرضت قلة من الناس خدماتها للعمل فى المناجم أو فى صناعة الصلب ، أو رأت التقدم للحصول على درجات علمية فى علم الهندسة — ونقول بكلمة واحدة إنه إذا عجز المجتمع عن أداء عدد كبير من الأعمال المتشابكة ، لسرى الاضطراب فى الحياة الصناعية على نحو يدعو إلى اليأس . فالمجتمع يواجه كل يوم إمكانية الانهيار ، لا بفعل القوى الطبيعية وإنما بسبب العجز عن التنبؤ بما سوف يعمله الإنسان .

وإذ توالت القرون لم يجد الإنسان سوى طرق ثلاث يتقى بها النكبة .

فهو قد ضمن بقاءه عن طريق تنظيم المجتمع على أساس التقاليد ، ونقل المهام المتنوعة والضرورية من جيل إلى جيل وفقاً للعادة والعرف ، فالإبن ينهج على منوال أبيه وبذلك يتسنى المحافظة على نمط معين . فقد كان « الدين » فى مصر القديمة على ما يحدثنا آدم سميث « يفرض على كل شخص أن يزاول مهنة أبيه ، وكان المفروض أنه يرتكب أبشع تدنيس لحرمة المعتقدات إذا احترف غيرها » . كذلك كانت التقاليد فى الهند إلى عهد قريب تفرض على

الأفراد أعمالا معينة تتفق والطبقة التى ينتمون إليها ، والحق ، لا يزال المرء فى جزء كبير من العالم الذى لم يأخذ بأسباب النظام الصناعى ، يولد ومعه الحرفة التى سوف يتعين عليه أن يمارسها .

ويستطيع المجتمع أن يحل المشكلة على نحو مختلف بأن يستخدم سوط السلطة الدكتاتورية المركزية لحمل الناس على أداء الأعمال التى تراها لازمة لها . فالأهرامات التى أقيمت فى مصر القديمة لم يتم بناؤها لأن فكرة بهذا الصدد خطرت ببال مقاول جرئ ، كما لم تنفذ مشروعات السنوات الخمس بالاتحاد السوفيتى لأنه تصادف أنها تتمشى مع العادات المتوارثة أو المصلحة الذاتية الفردية . فالروسيا ومصر (القديمة) مجتمعان دكتاتوريان ، ولو طرحنا السياسة جانباً فقد كفلا بقاءهما الإقتصادى بفضل ما تتخذه سلطة واحدة من قرارات وما ترى من المناسب فرضه من عقوبات .

وهكذا على مر القرون التى لا عد لها عالج الإنسان مشكلة البقاء باتباع أحد هذه الحلول . وطالما اعتمدت مشكلة البقاء على التقاليد أو إصدار الأوامر فإن المشكلة الإقتصادية لم تؤد أبداً إلى نشوء ذلك الميدان الخاص من الدراسة الذى يقال له علم الإقتصاد . فبالرغم مما أظهرت المجتمعات خلال التاريخ من أشد ضروب التباين الإقتصادى مدعاة إلى الدهشة ، وبالرغم من أنها مجدت الملوك والحكام ، واتخذت من بعض أنواع السمك المجفف والأحجار الثابتة نقوداً ، وقامت بتوزيع السلع حسب أبسط الأنماط الجماعية أو وفقاً لأسمى طراز من الطقوس الدينية — نقول إنه طالما سارت فى حياتها على هدى عادة أو طاعة لأمر فانها لم تستشعر الحاجة إلى الإقتصاديين كى يوضحوا لها هذا كله . كان هناك رجال اللاهوت وأصحاب النظريات السياسية والساسة والفلاسفة والمؤرخون ، أما الإقتصاديون فلم يكن لهم وجود وهو أمر قد يبدو غريباً .

إن ظهور الإقتصاديين كان ينتظر اختراع حل ثالث لمشكلة البقاء :

كانوا ينتظرون لعبة مدهشة ضمن المجتمع فيها بقاءه عن طريق السماح لكل فرد بأن يعمل ما يراه صالحاً بشرط أن يتبع قاعدة مركزية يهتدى بها ، وهذه اللعبة عرفت باسم « نظام السوق » . وكانت القاعدة ذات بساطة خداعة ، ومؤداها أنه ينبغى لكل فرد أن يسعى إلى ما فيه أفضل مصلحة نقدية له . فالإغراء المتولد من توقع الكسب ، وليس الدافع المنبعث من التقليد أو سوط السلطة ، هو الذى يوجه كل إنسان فى ظل نظام السوق إلى العمل الذى ينهض به . إلا أنه بالرغم من أن كل امرئ كان حراً فى الاتجاه إلى حيث تسير فيه حاسة الإقتناء والاستحواذ عنده ، فقد نتج عن تلك العلاقات المتبادلة بين كل الأفراد أداء الأعمال الضرورية للمجتمع .

هذا الحل لمشكلة البقاء والذى يتسم بالتناقض والمهارة والصعوبة ، هو الذى استدعى ظهور رجل الإقتصاد ، إذ على خلاف البساطة التى تتجلى فى العادات والأوامر لم يكن من الواضح أن المجتمع سوف يواصل البقاء فى الحقيقة لو ترك كل إنسان حراً يسعى إلى ما يعود عليه بالكسب . ولم يكن واضحاً بكل تأكيد أن جميع الأعمال فى المجتمع — القذر منها والنظيف على حد سواء — سوف يجرى أداؤها إذا لم يعد العالم تحركه العادة ويدفعه الأمر . حين لم يعد المجتمع يخضع للأحكام يصدرها فرد واحد ، فمن ذا الذى يقول أين ينتهى هذا المجتمع ؟

هذا اللغز هو الذى تعين على الإقتصاديين أن يفسروه ، ولكن لم يكن ثمة لغز يتطلب التفسير قبل أن يصبح نظام السوق نفسه موضع القبول ولم يكن الناس إلى قرون قلائل جداً خلت على يقين إطلاقاً من أنه يجب ألا ينظروا إلى نظام السوق بعين الارتياب والاستياء والشك . لقد عاش العالم أمداً طويلا فى أحضان التقاليد والأوامر ، أما أن ينبذ هذا الأمان ويستبدل به أماناً هو موضع الشك ومبعث الحيرة ، فشىء لا بد لتحقيقه من حدوث ثورة .

وكانت هذه أهم ثورة حدثت من وجهة نظر تشكيل المجتمع الحديث

كما كانت فى أساسها أبعث على القلق بكثير من الثورة الفرنسية أو الأمريكية بل والروسية . وحتى يتسنى لنا تقدير ضخامتها وفهم الاتجاه الذى دفعت بالمجتمع إليه ، يجب أن نهبط إلى أعماق ذلك العالم المبكر الذى طال نسياننا له والذى منه نشأ أخيراً المجتمع الذى نعيش فيه . وبهذا وحده يتضح السبب الذى من أجله كان لزاماً أن ينتظر الإقتصاديون مثل هذا الوقت الطويل قبل أن يظهروا على المسرح .

محطة الوقوف الأولى : فرنسا . السنة : ١٣٠٥ .

نحن الآن فى زيارة إلى أحد الأسواق الدورية Fair حيث وصل التجار المتجولون فى الصباح بصحبة حرسهم المسلح وأقاموا خيامهم البهيجة . وهم يتجرون فيما بينهم كما يتجرون مع أهل الجهة . والمعروض للبيع مجموعة متنوعة من السلع الغريبة : فهناك الحراير ، التفتاه ، التوابل ، الروائح العطرية ، الجلود ، والفراء . وبعض هذه السلع جىء به من المشرق أو من اسكنديناوه ، بينما ورد البعض الآخر من أماكن لا تبعد سوى مئات قليلة من الأميال . ويتردد السادة والسيدات من أهل الجهة على الدكك التى صفت عليها السلع ، تحدوهم الرغبة فى التخفيف من حدة الضجر الذى تسببه حياتهم المملة الفارغة فى قصر الضيعة الإقطاعية . وإلى جانب شراء البضائع الغريبة الواردة من بلاد العرب تراهم يقتبسون فى شغف كلمات جديدة مصدرها تلك البلاد التى تبعد عنهم مسافات طويلة يصعب على العقل أن يصدقها ، ومن هذه الكلمات : ديوان ، شراب ، تعريفة ، خرشوف ، سبانخ ، وقدر jar .

فإذا دلفنا داخل الخيام ألفينا منظراً عجيباً . فدفاتر الأعمال المفتوحة فوق المنضدة لا تكاد تعدو أن تكون مذكرات تقيد فيها العمليات التى تتم . وإليك عينة مستخرجة من دفتر أحد التجار « لى دين قدره عشر قطع ذهبية قبل رجل منذ عيد العنصرة ، وقد نسيت اسمه » . وتقيد الحسابات إلى حد كبير بالأرقام الرومانية وغالباً ما كانت خاطئة وتعتبر القسمة الطويلة ضرباً من

الأسرار الخفية ، واستعمال الصفر غير مفهوم فهماً واضحاً . وبالرغم من زخرفة العرض وحماس الناس فإن السوق صغيرة ، فجملة البضائع التي كانت تصل إلى فرنسا سنوياً عن طريق ممر سان جوثارد (فوق أول كوبرى معلق في التاريخ) لم تكن لتملأ أحد قطارات البضاعة الحديثة ، وجميع البضائع التي كان أسطول البندقية العظيم ينقلها لم تكن كافية لملء إحدى بواخر الشحن الحديثة المصنوعة من الصلب .

المحطة التالية : ألمانيا . السنة : ١٥٥٠

التاجر أندرياس ريف ذو اللحية والذى يلبس بالطو من الفرو ، قد عاد إلى داره في بادن وهو يبعث بخطاب إلى زوجته ينبئها فيه أنه زار ثلاثين سوقاً وأصابه التعب من كثرة الركوب ، بل إنه ليشعر بمشقة أكبر بسبب مضايقات العصر حيث كانوا يستوقفونه خلال أسفاره في نهاية كل أميال ستة تقريباً لأداء الرسم الجمركي بحيث أنه دفع تلك الأتاوة إحدى وثلاثين مرة خلال المسافة بين مدينتي بال وكولونيا .

وليس هذا كل ما في الأمر ، إذ لكل جماعة يزورها نقودها وقواعدها وتنظيماتها ، وقانونها ونظامها . ففي المنطقة وحدها الواقعة حول بادن نجد ١١٢ نوعاً مختلفاً من مقاييس الأطوال ، ٩٢ من المقاييس المربعة ، ٦٥ من مقاييس البضائع الجافة للحبوب ،١٢٣ للسوائل ، ٦٣ مقياساً خاصاً للمشروبات الروحية ، ٨٠ من أوزان الرطل .

ونواصل المسير ، ونحن الآن في بوسطن عام ١٦٤٤ .

هنا تجرى محاكمة روبرت كين « من رجال الدين القدامى ، وهو رجل يتصف بمزايا رفيعة ومن أهل الثراء وليس له طفل واحد . وقد جاء إرضاء لضميره ولإعلاء كلمة الإنجيل » . والرجل متهم بجرم شائن وهو أنه حقق ربحا قدره ستة بنسات في الشلن وهذا كسب مشين فاحش ، وتتناقش المحكمة في هل تصدر قراراً بحرمانه من الكنيسة بسبب الذنب الذى ارتكبه ، ولكن

نظراً لبياض صحيفته فى الماضى فإنها تلين وتتسامح معه وتكتفى بفصله من العمل وتغريمه مابقى جنيه . ولكن المستر كين المسكين بلغ به الاضطراب الحد الذى جعله « يعترف والدموع تنهمر من عينيه » أمام آباء الكنيسة « بما انطوى عليه قلبه من جشع وفساد » . وهنا نجد قسيس مدينة بوسطن لا يستطيع أن يقاوم الإغراء الذى تتيحه له هذه الفرصة الذهبية فيروح يستغل هذا المثل الحى الذى ضربه مذنب ضال ويضرب المثل بجشع كين وذلك حتى يضمن العظة التى يلقيها يوم الأحد آراءه عن بعض المبادئ التى تقوم عليها التجارة ، ومنهـــا :

١ — يجوز للمرء أن يبيع بأعلى ثمن يقدر عليه وأن يشترى بأقل ثمن .

٢ — إذا تعرض المرء للخسارة بسبب البحر وما إلى ذلك فى بعض سلعه ، جاز له أن يرفع ثمن السلع الباقية .

٣ — يجوز له أن يبيع كما اشترى وإن كان الثمن الذى دفعه أعلى مما ينبغى .

ويصرخ القسيس : كل هذا باطل ، باطل ، باطل . إن الجرى وراء الغنى من أجل الغنى هو ارتكاب خطيئة الجشع .

ونعود إلى انجلترا وفرنسا .

ففى انجلترا منظمة تجارية كبيرة هى شركة التجار المغامرين ، وصيغت نصوصها ومن بينها القواعد التى يتعين على الشركاء اتباعها وهى عدم استعمال ألفاظ نابية . وتجنب المنازعات بين هؤلاء الإخوان ، والامتناع عن الميسر ، وعدم الاحتفاظ بكلاب الصيد ، وكذلك لا يجوز لأى منهم أن يحمل حزماً ذات منظر غير لائق . وهذه فى الحقيقة شركة أعمال قديمة ولكنها أقرب ما تكون إلى أحد محافل الإخوة الماسون .

وفى فرنسا أبدت صناعة النسيج فى الآونة الأخيرة قدراً كبيراً من المبادأة ، وأصدر كولبير فى عام ١٦٦٦ قانوناً يهدف إلى القضاء على هـــذا

الإتجاه الخطير الهدام . ويقضى بأن يشتمل نسيج فيجون وسيلانجى على ١٤٠٨ خيط بما فى ذلك الأهداب ، ولا أكثر من ذلك أو أقل . وفى أوكسير وأفالون ومدينتين أخريين من المدن الصناعية يجب أن يكون عدد الخيوط ١٣٧٦ وفى شاتيون ١٢١٦ . وإذا عثر على قماش يخالف نسيجه القاعدة الموضوعة فإنه يعدم ، وإذا تكرر ذلك ثلاث مرات صلب التاجر نفسه .

فى كل هذه المقتطفات المتناثرة التى تنتمى إلى عوالم انقضى عهدها نلقى شيئاً مشتركاً . فنجد أولا أن فكرة صلاحية (ولا نقول ضرورة) النظام القائم على أساس الكسب الشخصى فكرة لم تمتد جذورها بعد . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن العالم الإقتصادى المستقل عن غيره والمنطوى على نفسه لن يتخلص بعد من محتواه الاجتماعى . فعالم الشئون العملية يرتبط ارتباطاً لا انفصام له بعالم الحياة السياسية والاجتماعية والدينية ، ولن نلق شيئاً يشبه حركة الحياة الحديثة وإحساسها إلا بعد أن ينفصل العالمان ، ولا بد من صراع طويل مرير حتى يتحقق هذا الانفصال .

قد يبدو غريباً القول بأن فكرة الكسب حديثة نسبياً إذ تعلمنا أن نعتقد أن الإنسان فى جوهره نزاع إلى الاستحواذ ولو ترك لشأنه لتصرف مثل أى رجل أعمال يحترم نفسه ، كما يقال لنا دائماً إن دافع الربح قديم قدم الإنسان نفســـه .

وليس هذا هو الواقع . فدافع الربح كما نعرفه لا يمتد إلى أبعد من الوقت الذى ظهر فيه « الإنسان الحديث » وحتى اليوم لا تزال فكرة الكسب لذاته غريبة على قسم كبير من سكان العالم ، كما لم يكن لها وجود خلال معظم فترات التاريخ الذى سجله الإنسان . إن السير وليام بيتى وهو شخصية عجيبة عاشت فى القرن السابع عشر (إذ عمل فى حياته فى حانوت ، بائعاً متجولا ، قماشاً ، طبيباً ، أستاذاً للموسيقى ، ومؤسس مدرسة عرفت باسم « علم الحساب السياسى ») كان يزعم أنه إذا كانت الأجور طيبة فانه « يندر » الحصول على

العمل « على الإطلاق » لأن الذين لا يعملون إلا ليأكلوا أو بالأحرى ليشربوا ، قوم فجرة تحركهم الشهوات . وفى هذا المعنى لم يكن سير وليام يعبر عن الأفكار البورجوازية فى عصره فحسب ، بل وكان يلاحظ حقيقة لا يزال فى الوسع أن نشهدها بين الشعوب التى لم تأخذ بأسباب التصنيع . وهذه الحقيقة هى أن القوة العاملة غير المدربة والتى لم تتعود على العمل الأجير ولا تستريح إلى حياة المصنع ولم تعتنق فكرة مستوى المعيشة الذى يرتفع باطراد ، لن تزيد من الجهد الذى تبذله إذا ارتفعت الأجور ، وكل ما فى الأمر أنها تؤدى العمل المنوط بها فى وقت أطول . ففكرة الكسب بمعنى أنه يجوز لكل شخص بل وينبغى له أن يحاول دائماً تحسين حظه المادى ، فكرة كانت غريبة تماماً على الطبقات الدنيا والمتوسطة فى الحضارات المصرية والإغريقية والرومانية وفى العصور الوسطى ، وكانت متناثرة فى عصرى النهضة الأوربية والإصلاح الدينى ، ولم يكن لها وجود إلى حد كبير فى أغلبية الحضارات الشرقية . أما أنها خاصية تشيع فى المجتمع ففكرة حديثة مثل اختراع الطباعة .

إن فكرة الكسب لم تكن بالتأكيد عامة فحسب كما يتراءى لنا أحياناً ، بل إن رضاء المجتمع عن الكسب يعتبر تطور أحدث عهداً وأقل انتشاراً . فقد كانت الكنيسة فى العصور الوسطى تلقن الناس أنه « لا ينبغى للمسيحى أن يكون تاجراً » . وهذا القول المأثور تكمن وراءه الفكرة التى كانت تعتبر التجار خميرة اضطراب فى المجتمع . وفى عهد شكسبير كان الهدف من الحياة بالنسبة إلى المواطن العادى بل وكل شخص فى الحقيقة فيما عدا طبقة الأعيان ، هو المحافظة على مرتبته فى المجتمع وليس العمل على الارتفاع بها . وحتى بالنسبة إلى أسلافنا الحجاج نجد أن الفكرة التى ترى فى الكسب هدفاً يمكن السماح به — أو هدفاً نافعاً — فكرة بدت كأنها مذهب يدعو إليه الشيطان .

كانت الثروة موجودة بطبيعة الحال ، كما كان الجشع على الأقل قديماً قدم القصص الواردة فى التوراة . ولكن الفرق شاسع بين الحسد الذى يولده

ثراء عدد قليل من الشخصيات القوية وبين صراع عام يشيع فى المجتمع من أجل الثروة . ووجود المغامرين ظاهرة قديمة ترجع إلى أيام البحارة الفينيقيين، ونستطيع أن نلقاهم على مر التاريخ على صورة المضاربين من أهل روما ، والبنادقة المشتغلين بالتجارة ، وعصبة الهانسا ، والرحالة البرتغاليين والأسبان ممن سعوا إلى اكتشاف طريق إلى جزر الهند الشرقية وجمع الثروات الشخصية ولكن المغامرات التى يقوم بها نفر قليل شىء يختلف اختلافاً كبيراً عن مجتمع بأسره تحركه روح المغامرة .

ولنضرب مثلا بأسرة فوجرز الأسطورية وهى كبار الصيارفة فى القرن السادس عشر . كان آل فوجرز فى ذروة قوتهم يملكون مناجم ذهب وفضة ، وامتيازات تجارية ، بل والحق فى سك نقودهم ، وكانت الثقة فيهم أعظم من ثروة الملوك والأباطرة ممن مول آل فوجرز حروبهم (ونفقات قصورهم) . فلما مات أنطون فوجرز رفض هانز يعقوب ابن أخيه الأكبر . أن يتسلم تلك الإمبراطورية المصرفية على أساس أن أعمال المدينة وشئونه الخاصة تلقى عليه عبئاً ثقيلا ، وقال جورج شقيق هانز أنه يفضل العيش فى سلام وهدوء ، ولم يبد ابن الأخ الثالث كريستوفر اهتماماً بالمثل . وهكذا لم يتراءى لأى من هؤلاء الورثة أن تلك المملكة من الثروة تستأهل الاهتمام .

وبغض النظر عن الملوك (القادرين على الوفاء بالتزاماتهم) وأسرات متفرقة هنا وهناك من قبيل آل فوجرز ، فإن الرأسماليين الأوائل لم يكونوا أعمدة المجتمع وإنما كانوا طريديه وقوماً اجتثت جذورهم منه . ففى مكان أو آخر نلقى صبياً نشيطاً مثل سانت جودريك أوف فنشال يبدأ حياته متسكعاً بجوار الشاطىء ويجمع مقداراً من السلع من حطام السفن الغارقة يكفيه كى يصبح تاجراً ، ثم يدخر بعض المال وفى النهاية يشترى سفينة يمارس بها التجارة فى أماكن بعيدة تمتد من أسكتلنده حتى فلاندرز . ولكن أمثال هؤلاء الأفراد كانوا قلة إذ طالما كانت الفكرة الغالبة أن الحياة على الأرض ليست إلا مقدمة للحياة الأبدية لهذا لم تكن روح العمل موضع التشجيع ولم تلق ما ينميها بصورة

تلقائية . كان الملوك يريدون الثروة ولذلك شنوا الحروب ، وكان النبلاء يريدون الأرض ولما كان أى نبيل يحترم نفسه لا يرضى أن يبيع الضياع التى ورثها ، فإن هذه الرغبة كانت تجر فى أذيالها الغزو أيضاً . ولكن أغلب الناس أى الأقنان وأرباب الحرف بالقرى وحتى أصحاب العمل من أعضاء النقابات الحرفية ، كانوا يريدون أن تتاح لهم فرصة العيش كما عاش آباؤهم من قبل وكما سيعيش أبناؤهم من بعدهم أيضاً .

فانتفاء فكرة الكسب بوصفها المرشد العادى للحياة اليومية — بل وما كانت تلقاه هذه الفكرة فى الواقع من استنكار إيجابى من جانب الكنيسة — نقول إن هذا كان يشكل فارقاً هائلا بين ذاك العالم الغريب الممتد من القرن العاشر إلى السادس عشر وبين العالم الذى بدأ قبل آدم سميث بقرنين أو اثنين ، يشبه عالمنا الذى نعيش فيه . ولكن كان هناك فارق أساسى أهم من هذا ، ذلك أن فكرة « كسب العيش » لم تكن قد ظهرت بعد إلى عالم الوجود إذ كانت الحياة الإقتصادية والحياة الإجتماعية شيئاً واحداً ولم يصبح العمل بعد وسيلة لغاية هى المال وما يشترى به . كان العمل غاية فى ذاته ويتضمن طبعاً المال والسلع ، ولكن الناس يزاولونه كجزء من تقليد أى كأسلوب طبيعى للحياة . وبكلمة واحدة نقول إن ذلك الاختراع العظيم أى « السوق » لم يكن قد تحقق بعد .

لقد وجدت الأسواق منذ أن بدأ التاريخ . فالألواح التى عثر عليها فى تل العمارنة تحدثنا عن تجارة نشيطة بين الفراعنة وملوك المشرق فى عام ١٤٠٠ قبل الميلاد ، حيث جرت مبادلة الذهب وعربات الحرب بالعبيد والخيل . ولكن بينما التبادل ، أسوة بالكسب ، فكرة قديمة تقريباً قدم الإنسان نفسه إلا أنه يجب ألا نرتكب خطأ الظن بأن بالعالم كله تلك الميول إلى المساومة مما نلقاه عند تلميذ أمريكى فى القرن العشرين . ولمجرد الإيضاح الغريب يقال إنك لا تستطيع أن تسأل بين قبائل الماورى فى نيوزيلند عن قيمة الغذاء الذى تساويه سنارة صيد سمك البنى ، إذ نظراً لانتفاء مثل هذه التجارة يعتبر سؤال كهذا

غير ذى موضوع . وبخلاف هذا من المشروع تماماً لدى بعض الجماعات الأفريقية أن تسأل عن عدد الثيران التى تساويها المرأة — وهو تبادل ننظر إليه بمثل نظرة الماورى إلى مبادلة الغذاء بالسنانير (وان كان ذلك الأسلوب الدقيق عن المهور قد يضيق إلى حد ما الفجوة بيننا وبين المتوحشين) .

ولكن الأسواق سواء كانت مبادلات بين القبائل البدائية حيث تسقط الأشياء عرضاً على الأرض أو كانت تلك الأسواق المتنقلة المثيرة التى عرفناها فى العصور الوسطى ، فإنها لا تشبه نظام السوق لأن هذا النظام ليس مجرد وسيلة لتبادل السلع ولكنه جهاز لدعم حياة مجتمع بأسره والإبقاء عليها .

وذلك الجهاز كان أبعد ما يكون عن الوضوح فى أذهان عالم العصور الوسطى . ففكرة الكسب الواسع الإنتشار كانت تجديفاً كما رأينا . أما الفكرة الأوسع نطاقاً التى تنظر إلى النضال العام من أجل الكسب على أنه قد يربط بالفعل بين أجزاء الجماعة ففكرة كانت تعتبر شيئاً يقرب من الجنون .

وثمة سبب كان يكمن وراء هذا العمى . فالعصور الوسطى وعصر النهضة والإصلاح الدينى — بل والعالم كله فى الحقيقة حتى القرنين السادس عشر أو السابع عشر — لم يكن فى إمكانها أن تتصور نظام السوق وذلك لسبب سليم تماماً وهو أن الأرض والعمل ورأس المال — وهى عوامل الإنتاج الأساسية التى يحدد دورها نظام السوق — لم تكن قد وجدت بعد . إن الأرض والعمل ورأس المال بمعنى التربة والكائنات البشرية والأدوات ، تعيش بطبيعة الحال جنباً إلى جنب مع المجتمع نفسه . ولكن فكرة الأرض أو العمل بوصف كل منهما شيئاً مجرداً ، لم تطرأ مباشرة على العقل البشرى أكثر مما طرأت فكرة الطاقة المجردة أو المادة المجردة . فالأرض والعمل ورأس المال بوصفها « عوامل » إنتاج أى كليات إقتصادية مجهلة وغير ذات طابع بشرى ، أفكار حديثة شأنها فى ذلك شأن التكامل والتفاضل فى الرياضة ، إن لم تكن أقدم من ذلك عهداً فى الحقيقة .

لننظر إلى الأرض مثلا . فحتى القرن الرابع عشر أو الخامس عشر لم تكن هناك أرض على الأقل بمعناها الحديث أى بوصفها ممتلكات قابلة للبيع الحر وتغل ريعاً . كانت هناك أراض بطبيعة الحال — ضياع وأبعاديات إقطاعية وإمارات — ولكنها لم تكن بالتأكيد عقاراً يباع ويشترى كلما دعت المناسبة . كانت مثل هذه الأراضى تشكل جوهر الحياة الإجتماعية وتهىء الأساس الذى تقوم عليه سمعة المرء ومنزلته فى المجتمع والتنظيم الإدارى الذى يطبقه المجتمع . وبالرغم من أن الأرض كانت قابلة للبيع وفق شروط معينة (مع أشياء كثيرة مرتبطة بها) إلا أنها لم تكن بوجه عام للبيع . فالنبيل الذى كان يشغل مركزاً طيباً لم يفكر فى بيع أرضه أكثر مما تفكر جمعية شرفية أو ناد خاص اليوم فى بيع العضوية . إن كل مجتمع يستبعد بعض أشياء لها قيمتها من نطاق العمليات التجارية ومن هذه الأشياء الأرض فى نظر العصور الوسطى .

ويصدق الشىء نفسه على العمل . فحين نتحدث عن سوق العمل اليوم نقصد تلك العملية المتصلة من المساومة والتى يبيع فيها الأفراد خدماتهم لمن يدفع أعلى ثمن ، وكل ما يمكن قوله إن هذه العملية لم يكن لها وجود فى العالم السابق على العصر الرأسمالى . كان هناك خليط من الأقنان والصبيان وعمال المياومة ممن يؤدون هذه الأعمال . ولكن معظم هذا العمل لم يدخل أبداً فى سوق يباع فيها ويشترى . وفى الريف عاش الفلاح مرتبطاً بضيعة مولاه ، فيخبز فى فرن السيد ويطحن الحب فى طاحونه ، ويزرع حقول السيد ويخدمه فى الحرب ، ولكن نادراً ما كان يؤدى له أجر عن خدماته إن كان يؤجر عنها أبداً لأن هذه واجباته بوصفه قناً ولم تكن « بالعمل » الذى يؤديه شخص وفقاً لتعاقد يشترك فيه بملء حريته . وكان الصبى فى المدن يلتحق بخدمة المعلم ، والنقابة الحرفية هى التى تحدد فترة التلمذة الصناعية وعدد زملائه ومعدل أجرته وساعات العمل التى يقضيها والأساليب نفسها التى يستعملها . وكانت المساومة قليلة أو معدومة بين الخادم والمولى إلا فى حالة الإضرابات التى تحدث من حين

لآخر حتى تصبح الأحوال عسيرة لا تطاق . ولم يكن هذا بسوق عمل أكثر مما يشكل نزلاء إحدى المستشفيات سوقاً .

أو للنظر إلى رأس المال . فمن المؤكد أنه كان موجوداً بمعنى الثروة الوطنية فى العالم السابق على العصر الرأسمالى ، ولكن بالرغم من وجود الأموال لم يتوافر الدافع على استخدامها فى أعمال جديدة تقتضى المغامرة إذ بدلا من المخاطرة والتغيير كان الشعار السائد هو التزام السلامة أولا . كان الأسلوب المفضل فى الإنتاج هو العملية التى يستغرق أداؤها أطول فترة وأقل قدر من العمل وليس أقصرها أمداً وأعظمها كفاية . فكان الإعلان محرماً ، وكانت الفكرة التى تذهب إلى أن فى إمكان عضو النقابة أن يخرج منتجاً أفضل نوعاً مما يفعل زملاؤه ، فكرة تنطوى على الخيانة . وفى انجلترا خلال القرن السادس عشر حين أطل الإنتاج الكبير فى صناعة النسج برأسه القبيحة لأول مرة إحتجت نقابات أهل الحرف لدى الملك الذى اعتبر الورشة العجيبة التى تضم مائتى نول وهيئة من العاملين تشتمل على الجزارين والخبازين لترعى القوة العاملة ، خروجاً على القانون لأن مثل هذه الكفاية وهذا التركز فى الثروة يضعان سابقة سيئة .

ومن هنا نشأت الحقيقة القائلة إن عجز عالم العصور الوسطى عن تصور نظام السوق كان يستند إلى سبب طيب وكاف وهو أن هذا العالم لم يكن قد تصور بعد عناصر الإنتاج ذاته المجردة . وإذ افتقدت العصور الوسطى الأرض والعمل ورأس المال فإنها افتقدت السوق ، وإذ افتقدت السوق (بالرغم من وجود الأسواق المحلية البهيجة والأسواق المتنقلة) سار المجتمع على هدى العادة والتقليد . كان السادة يصدرون الأوامر فينشط الإنتاج أو يتراخى طبقاً لها ، وحيث لا وجود للأوامر تسير الحياة فى مجراها الثابت المستقر . ولو أن آدم سميث عاش فى السنوات السابقة على عام ١٤٠٠ لما شعر بالحاجة إلى وضع نظرية عن الإقتصاد السياسى إذ لم يكن من سر خفى يتطلب أن يكشف عنه حتى يتسنى فهم السبب فى تماسك العصور الوسطى ، كما لم يكن

هناك حجاب يجب النفاذ خلاله حتى يمكن الكشف عما وراءه من نظام وخطة. أما أن هناك علم أخلاق وعلم سياسة فنعم إذ كان هناك الكثير مما يتعين تفسيره وتعليله عقلياً ، فى العلاقات القائمة بين السادة الأدنى درجة والسادة الأعلى منهم مرتبة من جهة وبين هؤلاء والملوك من جهة أخرى . وكذلك كان هناك الكثير مما يحير فى الصراع بين الكنيسة والميول الفاسدة لدى طبقة التجار . أما علم الإقتصاد فلم يكن له وجود ، إذ من ذا الذى يبحث عن قوانين مجردة بشأن العرض والطلب أو التكلفة أو القيمة فى عصر كان تفسير العالم فيه واضحاً كالكتاب المفتوح وهو تفسير نلقاه فى قوانين الضيعة الإقطاعية والكنيسة والعادات التى تحكم المرء طيلة حياته ؟ فى ذلك العصر الباكر كان فى وسع آدم سميث أن يصبح من عظماء فلاسفة الأخلاق ، ولكن لم يكن فى الإمكان أبداً أن يصبح اقتصادياً عظيماً إذ لم يكن ثمة ما يفعله .

لم يكن هناك شيء يعمله أى اقتصادى لمدة قرون عدة ، وظل الحال كذلك إلى أن انفجر هذا العالم الكبير الذى يتوالد توالداً ذاتياً وينعم بالاكتفاء الذاتى بحيث يصبح عالم القرن التاسع عشر الصاخب العجول الذى يفسح مكاناً للجميع . ربما تكون كلمة « تفجر » درامية لأن التغيير سوف يتحقق خلال قرون بدلا من أن يتم بحركة تشنجية عنيفة واحدة . ولكن بالرغم من أن التغيير استغرق وقتاً طويلا إلا أنه لم يكن تطوراً سلمياً . لقد كان عملية تقلص مصحوبة بالألم أصابت المجتمع ، أى كان ثورة .

فلكى يتحول الأرض إلى سلعة تجارية — أى تحويل ذلك النظام الهرمى من العلاقات الإقطاعية إلى ذلك العدد الوافر من المساحات الشاغرة والمواضع المربحة — كان لا بد من إجراء لا يقل عن اجتثاث جذور أسلوب إقطاعى فى الحياة ثابت الدعائم ، وتحويل الأقنان والصبيان المتمتعين بالحماية — مهما كان رداء الرعاية الأبوية paternalism استغلالياً — إلى « عمال » كان يتطلب خلق طبقة يملأ الخوف نفوسها ولا تعرف اتجاهاً تسير فيه وتعرف

باسم البروليتاريا . وخلق طبقة رأسمالية على أنقاض رؤساء الحرف كان معناه أن قوانين الغابة لا بد من تعليمها لأصحاب مخازن السلع الجبناء .

وما كان فى المستطاع أن يتحقق أى من هذه الأمور بالطريق السلمى إذا لم تتوافر لدى أحد الرغبة فى إضفاء هذا الطابع التجارى على الحياة . أما كيف تعرض هذا للمقاومة المريرة فلا نستطيع تقديره إلا إذا رجعنا إلى الماضى مرة أخيرة لنراقب الثورة الإقتصادية وهى تتحقق .

نحن الآن فى فرنسا مرة ثانية والسنة هى ١٦٦٦ .

إن الرأسماليين فى ذاك العصر يواجهون تحدياً مقلقاً جعله جهاز السوق الآخذ فى الاتساع أمراً محتوماً ، ونقصد بهذا التحدى التغيير .

وكان السؤال الذى يتعين الرد عليه هو ما إذا كان ينبغى السماح لعضو النقابة الحرفية فى صناعة النسج أن يحاول الابتكار فى صنع منتجاته . وكان الحكم « إذا اعتزم النساج أن يصنع قطعة قماش وفقاً لاختراعه فعليه ألا يضعها على النول وإنما ينبغى له الحصول على إذن من قضاة المدينة كى يستخدم ما يشاء من عدد الخيوط وطولها . وذلك بعد أن يتولى دراسة المسألة أربعة من أكبر التجار سناً ومثلهم من النساجين أعضاء النقابة » . وفى وسع المرء أن يتصور كثرة المقترحات الخاصة بالتغيير والتى كانت تحظى بالموافقة .

وبعد أن حلت مسألة نسج القماش بوقت وجيز رفعت نقابة صناع الزراير صوتها معبرة عن سخطها بسبب ما عمد إليه الحاكة من صنع الزراير من القماش وهو أمر لم يسمع به أحد من قبل . وغضبت الحكومة من مثل هذا التحدى الذى يهدد صناعة ثابتة الدعائم فقررت فرض غرامة على صناع الزراير من القماش بل وعلى الذين يستعملونها . ولكن هذا لا يرضى أمناء نقابة الزراير فنراهم يطالبون بالحق فى تفتيش بيوت الناس وخزانات ملابسهم بل والقبض عليهم فى الشوارع إذا شوهدوا وهم يلبسون هذه السلع الهدامة .

هذا الرعب من التجديد ليس مجرد مقاومة مضحكة من جانب نفر قليل

من التجار إمتلأت نفوسهم بالخوف ولكنه رأس المال يقاتل قتالا جدياً ضد التغيير . وفى انجلترا حدث اختراع ثورى بانشاء آلة تدريز لعمل الجوارب ، فلم يقف الأمر عند حد حبس الترخيص اللازم عن طالبه فى عام ١٦٢٣ بل إن المجلس المخصوص أمر بالغاء هذه البدعة الخطيرة . وفى فرنسا هدد استيراد الأقمشة القطنية المطبوعة بتقويض دعائم صناعة القماش . ولمواجهة الخطر إتخذت تدابير كلفت ستة عشر ألف شخص حياتهم ! ففى فالنس وحدها حكم فى مناسبة واحدة بالشنق على ٧٧ شخصاً ، ويكسر ضلوع ٥٨ على دولاب التعذيب . وارسال ٦٣١ للعمل عبيداً فى القواديس ، ولم يبرىء سوى شخص واحد . وكل تلك الأحكام بسبب جريمة الاتجار فى سلع من القماش القطنى وهى محرمة .

ولكن رأس المال ليس بعامل الإنتاج الذى يسعى فى جنون إلى تجنب الأخطار التى يولدها أسلوب السوق ، لأن ما يحدث للعمل ما يزال أشد بعثاً على اليأس .

ولنرجع إلى انجلترا .

إننا الآن فى نهاية القرن السادس عشر ذلك العصر العظيم الذى شهد توسع انجلترا ومغامراتها . لقد قامت الملكة اليزابيث برحلة مظفرة فى مملكتها ، ولكنها تعود بشكوى غريبة وتصرخ قائلة : « إن الفقراء العالة على الغير موجودون فى كل مكان » ، وهذه ملاحظة غريبة إذ قبل ذلك بمائة عام فقط كان الريف الإنجليزى يتكون إلى حد كبير من الفلاحين الملاك الذين يزرعون أراضيهم ، وهم الملاك فخر إنجلترا الذين كانوا يمثلون أكبر مجموعة فى العالم من المواطنين الأحرار الذين يعيشون فى رخاء . والآن أصبح الفقراء فى كل مكان . فماذا جد من الأمور خلال الفترة الفاصلة بين هاتين الظاهرتين ؟

إن ما حدث كان حركة هائلة من نزع الملكية — أو بالأخرى بداية مثل هذه الحركة إذ أنها لم تكن آنذاك إلا فى مستهل أمرها . لقد أصبح الصوف

سلعة جديدة مجزية ، والصوف يتطلب المراعى التى يستغلها منتج الصوف لترعى الأغنام فيها . وتقام المراعى عن طريق وضع الأسيجة حول الأرض المشاع أى تلك الحيازات الصغيرة المتناثرة (غير المسورة والتى لا تميزها إلا شجرة هنا وصخرة هناك لتفصل أرض شخص عن أرض سواه) . وفجأة يعلن أن الأراضى المشاع التى يجوز للجميع أن يطلقوا فيها ماشيتهم للرعى أو يجمعون فيها البقايا النباتية القديمة ، أصبحت ملكاً لسيد الإقطاعية ولم تعد فى متناول أهل الأبرشية جميعاً . فما كان نوعاً من الملكية المشتركة أصبح الآن ملكية خاصة وحلت الأغنام محل الملاك . ولقد كتب من يقال له جون هيلز فى عام ١٥٤٩ يقول « . . وحيث كان عشرون شخصاً يكسبون عيشهم أصبح رجل واحد مع راعيه يملك كل شىء . . . نعم ، هذه الأغنام سبب كل هذه الشرور لأنها أخرجت الزراع من الريف والتى كان يزداد عن طريقهم كل نوع من الغذاء . والآن نجد أغناماً وأغناماً » .

ويكاد من المستحيل أن نتصور اتساع نطاق عملية إقامة الأسيجة وتأثيرها . فمنذ منتصف القرن السادس عشر وقعت حوادث شغب ضدها ، وفى إحدى هذه الانتفاضات قتل ٣٥٠٠ شخص . وبانتصاف القرن الثامن عشر كانت العملية ما تزال فى أوجها ولم تبلغ غايتها التاريخية الرهيبة إلا فى منتصف القرن التاسع عشر . وهكذا فى عام ١٨٢٠ أى بعد الثورة الأمريكية بخمسين عاماً تقريباً حرمت دوقة سزرلاند ١٥٠٠٠ مستأجر من ٧٩٤,٠٠٠ فدان وأحلت مكانهم ١٣١,٠٠٠ رأس من الغنم ، وعلى سبيل التعويض منحت كل أسرة أخرجت من الأرض ما مساحته فدانان من الأرض دون الحدية .

ولكن الذى يسترعى الاهتمام ليس فقط تلك العملية الشاملة من الاستيلاء على الأراضى . إن المأساة تتمثل فى المصير الذى أصاب الفلاح المالك . فاذ طرد من الأرض أصبح فى حالة ضياع تام . لم يكن فى مستطاعه أن يصبح عاملا أجيراً بالمعنى الحديث نظراً لعدم وجود مصانع مستعدة لاستقباله أو صناعة كبيرة قادرة على أن تستوعبه . وإذ حرم المالك من مزرعته المستقلة

أصبح سارقاً ومتسولا ومتشرداً وعالة على الغير وعاملا زراعياً شقياً أو مستأجراً ، وحاول البرلمان الإنجليزى الذى شعر بالرعب من جراء هذا الفيضان من الفقر الذى اجتاح البلاد ، أن يعالج المشكلة بحصرها وذلك عن طريق ربط الفقراء المعدمين بالأبرشية التى يتبعونها كى تمدهم ببعض العون ، أما المتشردون الذين يجوبون أنحاء البلاد فعاملهم بالجلد أو الكى أو التشويه . ونجد أحد دعاة الإصلاح الاجتماعى فى عصر آدم سميث يقترح جاداً حصر المعدمين المهاجرين بوضعهم فى مؤسسات اقترح فى صراحة تسميتها بيوت الرعب . إلا أن أسوأ ما فى الأمر كله أن الإجراءات نفسها التى اتخذتها البلاد لحماية نفسها من الفقراء — أى ربطهم بالأبرشية المحلية حيث يتسنى إبقاؤهم على قيد الحياة عن طريق إعانة الفقر — منعت الحل الممكن الوحيد للمشكلة . لم يكن السبب أن الطبقات الحاكمة فى انجلترا كانت عديمة الإحساس وقاسية تماماً ، ولكن الأحرى أنها عجزت عن فهم فكرة وجود طبقة عاملة مرنة ومتحركة تسعى وراء العمل أينما وجد طبقاً لمقتضيات السوق . ففى كل خطوة كان تحويل العمل إلى سلعة تجارية ، شأنه فى ذلك شأن تحويل رأس المال إلى سلعة تجارية ، مصدر خوف وموضع مقاومة وسوء فهم .

كان مولد نظام السوق بمقوماته الأساسية وهى الأرض والعمل ورأس المال ، مصحوباً بالألم . وهو ألم بدأ فى القرن الثالث عشر ولم ينته إلا فى التاسع عشر . ولم يحدث أبداً أن ثورة كانت دون هذه من حيث فهمها والترحيب بها وتخطيطها ، ولكن لم يكن أحد لينكر القوى العظيمة التى خلقت السوق . هذه القوى حطمت بشكل خارق قالب العادة ، ومزقت فى وقاحة الاستعمالات التى فرضتها التقاليد . فبالرغم من كل الضجة العالية التى أثارها صناع الزراير عقد لواء النصر للزراير المصنوعة من القماش . وبالرغم من كل ما عمله المجلس المخصوص فإن آلة عمل الجوارب أصبحت ذات قيمة بحيث لم ينقض سبعون عاماً حتى حرم هذا المجلس ذاته تصديرها . وبالرغم من كل عمليات التعذيب على الدولاب المعد لها اتسع نطاق التجارة فى الأقمشة القطنية .

وبالرغم من المقاومة النهائية التى أبداها الحرس القديم خلقت أرض اقتصادية من الضياع الموروثة عن السلف . وبالرغم من عويل الاحتجاج الذى أطلقه المستخدمون وأصحاب الحرف على السواء نشأ العمل الإقتصادى من صفوف الصبيان العاطلين وعمال الزراعة الذين سلبت أرضهم .

إن عربة المجتمع التى ظلت زمناً طويلا تهبط فوق منحدر التقاليد اللطيف ألفت نفسها الآن تدار بقوة آلة احتراق داخلى . فالعمليات ، العمليات والكسب ، الكسب ، الكسب — هذا هو الذى هيأ قوة محركة قوية على هذا النحو المفزع .

فأية قوى كانت بالقدر الذى جعلها تحطم عالماً يعيش فى دعة ومستقر الدعائم وتقيم مكانه هذا المجتمع الجديد الذى لم يطلبه أحد ؟

ليس من سبب ضخم واحد يفسر ما حدث . إن أسلوب الحياة الجديد نما فى داخل القديم كما تنمو الفراشة داخل اليفعة . وحين أصبحت حركة الحياة بالدرجة الكافية من القوة مزقت البنيان القديم . هذه الثورة الإقتصادية لم تسببها أحداث كبرى ، أو مغامرات فردية ، أو قوانين فردية ، أو شخصيات قوية ، وإنما كانت عملية من النمو الداخلى .

فهناك أولا ظهور وحدات سياسية قومية فى أوربا بالتدريج . فتحت وطأة الضربات التى وجهتها حروب الفلاحين والفتوح التى قام بها الملوك أخلى الإقطاع الذى كان يعيش منعزلا فى مستهل أيامه ، مكانه كى تقوم الملكيات ذات السلطات المركزية . وصحب قيام الملكيات نمو الروح القومية وهذا بدوره معناه أن يسبغ الملوك رعايتهم على الصناعات التى يؤثرونها مثل مصانع الأقمشة النفيسة الكبيرة فى فرنسا ، ومعناه إنشاء الأساطيل الكبيرة والجيوش مع جميع الصناعات الضرورية التى تتبعها ، والقواعد والتنظيمات التى لا نهاية لها والتى كانت وباء يلاحق أندرياس ريف وزملاءه من التجار المتجولين فى القرن السادس عشر ، أخلت محلها لقوانين مشتركة ومقاييس مشتركة وعملة مشتركة .

ومن مظاهر التغيير السياسى الذى كان يشيع الثورة فى أوربا تشجيع المغامرة والكشف فى الخارج . ففى القرن الثالث عشر قام الأخوان بولو كتجار لا يتمتعون بأية حماية . برحلتهما الجريئة إلى أرض الخان العظيم ؛ أما فى القرن الخامس عشر فإن كولمبس أبحر بحثاً عما آمل أن يكون الهدف نفسه وذلك فى رعاية الملكة إيزابلا . فالتحول من الكشوف التى تعتمد على الجهود الخاصة إلى الكشوف التى ترعاها الدولة القومية كان جزءاً من التحول من الحياة الخاصة إلى الحياة القومية . وجاءت المغامرات القومية بدورها والتى قام بها الرأسماليون والملاحون الإنجليز والأسبان والبرتغاليون بفيض من الثروة والوعى بالثروة . لقد قال خريستوف كولمبس إن الذهب شىء عجيب مدهش ، ومن يملكه يصبح سيد كل شىء يرغب فيه . بل وبالذهب نستطيع أن ندخل الأرواح جنة السماء . ومشاعر كولمبس هذه كانت تعبر عن روح عصره ، وعجلت بتقدم مجتمع يسعى وراء الكسب واغتنام الفرص ، ويحركه ذلك الجرى وراء المال . وخليق بنا أن نلاحظ بصورة عابرة أن كنوز الشرق كانت خيالية حقاً ، فبالنصيب الذى حصلت عليه الملكة اليزابث بوصفها مساهمة فى الرحلة التى قام بها سير فرنسيس دريك على السفينة جولدن هيند سددت كل ديون انجلترا الخارجية ووازنت ميزانيتها واستثمرت فى الخارج مبلغاً كان كافياً مع الفائدة المركبة عنه كى يفسر ثروة بريطانيا كلها فيما وراء البحار فى عام ١٩٣٠ ! !

ونلقى تياراً عظيما ثانياً من التغيير فى التحلل البطىء الذى أصاب الروح الدينية تحت وقع ما جاءت به النهضة الإيطالية من أفكار تنزع إلى الشك ، وتهدف إلى البحث والاستقصاء ، وتعنى بالإنسان . فحياة اليوم نحت جانباً حياة الغد ، وكما أصبحت الحياة على الأرض أعظم أهمية كذلك صارت فكرة المستويات المادية وضروب الرفاهية العادية . ووراء التغير فى التسامح الدينى كان قيام البروتستانتية التى عجلت بظهور اتجاه جديد إزاء العمل والثروة . كانت كنيسة روما من قبل تنظر إلى التاجر بعين الشك ، ولم تتردد فى اعتبار

الربا خطيئة . أما وقد أصبح هذا التاجر يرقى كل يوم سلم المجتمع ولم يعد مجرد زائدة نافعة وإنما هو جزء لا يتجزأ من نوع جديد من العالم ، صار لزاماً أن يعاد تقييم الوظيفة التى يضطلع بها . ومهد زعماء البروتستانتية الطريق للربط بين الحياة الروحية والحياة الزمنية ، فبدلا من امتداح حياة الفقر والتأمل الروحى بوصفهما شيئاً منفصلا عن الحياة الدنيوية أصبح الحصول على أقصى فائدة فى عملنا اليومى من المواهب التى منحها الله لنا ، جزءاً من التقوى الإيجابية . أصبحت نزعة الإقتناء فضيلة يعترف بها المجتمع ، لا من أجل أن يتمتع بها الفرد على الفور وإنما من أجل مجد الله الأعظم ، ومن هنا أصبح الإنتقال إلى تمثيل الغنى بالامتياز الروحى وتشبيه الأغنياء بالقديسين مجرد خطوة قصيرة .

وتحدثنا إحدى قصص القرن الثانى عشر الشعبية المحلية عن مراب على وشك الزواج سقط عليه تمثال فسحقه وهو يدخل إلى الكنيسة . وعند الفحص اتضح أن التمثال كان لمراب أيضاً ، مما دل على استياء الرب من المتجرين بالنقود . وحتى فى منتصف القرن السابع عشر على ما ذكرنا ، اصطدم روبرت كين المسكين مع السلطات الدينية البيوريتانية بسبب الأساليب التى اتبعها فى عمله . فى مثل هذا الجو من العداء لم يكن من السهل أن يتسع نطاق نظام السوق ، ومن هنا كان قبول الزعماء الروحانيين لفكرة سلامة أسلوب السوق من الأذى بل ولمنافعها فى الحقيقة ، أمراً جوهرياً لكى ينمو النظام تماماً

وثمة تيار عميق آخر يكمن فى التغييرات الإجتماعية البطيئة التى جعلت قيام نظام السوق فى حيز الإمكان فى النهاية . لقد درجنا على الظن بأن العصور الوسطى كانت فترة ركود وانتفاء تقدم ، إلا أنه خلال خمسمائة عام أنشأ أهل العصور الوسطى ألف مدينة (وهو إنجاز هائل) وربطوها بطرق بدائية ولكنها صالحة للاستعمال . وأبقوا على حياة أهلها بالغذاء يأتون به من الريف . كل هذا عمل على أن يجعل الناس يألفون النقود والأسواق وأسلوب الحياة القائم على الشراء والبيع .

ولم يقتصر التقدم على قيام الحياة الحضرية البطيء هذا إذ حدث أيضاً تقدم فنى من نوع هام إلى درجة بالغة . فالثورة التجارية لم يكن فى إمكانها أن تبدأ قبل أن ينمو شكل ما من المحاسبة الرشيدة ، إذ بالرغم من أن البنادقة فى القرن الثانى عشر كانوا يستخدمون أساليب راقية فى المحاسبة إلا أن التجار فى أوروبا لم يكونوا أفضل من تلاميذ المدارس من ناحية الجهل بأصول علم المحاسبة ، وكان لا بد من انقضاء بعض الوقت قبل أن يعم الإدراك بالحاجة إلى إمساك الدفاتر ، ولم يصبح نظام القيد المزدوج أسلوباً قياسياً قبل القرن السابع عشر . وما كان فى الإمكان أن تتم عمليات الأعمال الواسعة النطاق بنجاح قبل أن يصبح فى الإمكان حساب المال بطرق تتفق ومقتضيات العقل .

ولعل أهم ما حدث من حيث انتشار أثره ازدياد النزعة الاستطلاعية العلمية . فبالرغم من أنه كان على العالم أن ينتظر عصر آدم سميث بما وقع فيه من ثورة عميقة فى التكنولوجية إلا أنه ما كان فى الإمكان أن تحدث الثورة الفرنسية لولا أن مهدت الأرض أمامها سلسلة من الكشوف شبه الصناعية الأساسية المتلاحقة . فالعصر السابق على العصر الرأسمالى شهد مولد المطبعة ومصنع الورق والطاحونة التى تدور بقوة الريح والساعة الميكانيكية وحشداً من الإختراعات الأخرى . لقد ثبتت دعائم فكرة الإختراع ذاتها وأصبح الناس ينظرون إلى التجريب والإبتكار بروح ودية .

إن أياً من هذه التيارات لم يكن بقادر وحده على أن يقلب أوضاع المجتمع . والحق ربما كان الكثير منها نتائج وأسباباً لاضطراب عظيم فى التنظيم البشرى . إن التاريخ لا يتحول عن مجراه بصورة مفاجئة ، والاضطراب الهائل بأسره إنما يتمطى ويمتد عبر الزمن . فالشواهد الدالة على طريقة السوق فى الحياة نشأت جنباً إلى جنب مع الطرق التقليدية الأقدم منها عهداً ، وظلت بقايا الأيام السابقة قائمة زمناً طويلا بعد أن سيطرت السوق من الوجهة العملية بوصفها المبدأ الذى يهتدى به التنظيم الإقتصادى . ومن هنا لم تلغ نقابات الحرف والإمتيازات الإقطاعية فى فرنسا إلا فى عام ١٧٩٠ ، ولم يلغ قانون

الصناع الذى كان ينظم أساليب النقـــابات الحرفيـــة فى إنجلترا إلا فى عام ١٨١٣ .

ولكن بحلول عام ١٧٠٠ أى قبل مولد آدم سميث بثلاثة وعشرين عاماً ، نجد أن العالم الذى سبق أن قدم روبرت كين إلى المحاكمة ، ومنع التجار من حمل حزمات ذات منظر غير لائق ، واستشعر الضيق بشأن الأسعار « العادلة » وكافح للإبقاء على الإمتيازات التى تقضى على الأبناء بممارسة حرف آبائهم — هذا العالم أخذت شمسه فى الغروب ، وفى مكانه أخذ العالم يلاحظ ويهتم بطائفة جديدة من التعاليم « الواضحة بذاتها » ومنها :

« كل إنسان يشتهى بطبيعته الكسب الحرام .

« ليس من قوانين سائدة ضد الكسب .

« الكسب مركز دائرة التجارة » .

لقد ظهرت فكرة جديدة إلى عالم الوجود : أى « الرجل الإقتصادى » ذلك الطيف الشاحب لمخلوق يسير إلى حيث يوجهه مخه ، تلك الآلة التى تتولى عمليات الجمع والطرح . وسوف تظهر سريعاً الكتب الدراسية التى تتحدث عن أمثال روبنسون كروزو فى الجزر الصحراوية الجرداء ممن سوف ينظمون شئونهم كما لو كان هناك عدد كبير من المحاسبين الذين يدققون فى حساب البنسات .

ففى عالم الأعمال أصيبت أوربا بحمى جديدة من الثروة والمضاربة . ففى فرنسا عام ١٧١٨ نظم مغامر اسكتلندى يدعى جون لو مغامرة خيالية عنيفة عرفت باسم شركة المسيسبى ، وراح يبيع الأسهم فى مشروع يهدف إلى استغلال جبال الذهب فى أمريكا . وكان الناس ، رجالا ونساء يتقاتلون فى الشوارع من أجل الظفر بالأسهم ، وارتكبت جرائم قتل وجمع البعض الثروات بين يوم وليلة ، فكسب ندل فى فندق ثلاثين ألف ليفر livres [1]

(١) عملة فرنسية قديمة ثم ألغيت سنة ١٧٩٥ حيث حل محلها الفرنك (المترجم) .

وحين أشرفت الشركة على الإنهيار مسببة خسارة مخيفة لجميع المستثمرين حاولت الحكومة تفادى النكبة فجمعت ألفاً من الشحاذين وسلحتهم بالمعاول والمجارف وسيرتهم فى شوارع باريس كأنهم جماعة من المعدنين فى طريقها إلى أرض الثراء[1] Eldorado . وبطبيعة الحال تداعى البناء كله . ولكن: أى تغيير هذا ؟ فبدلا من الرأسماليين الجبناء الذين عرفناهم قبل ذلك بمائةعام أصبحنا أمام جماهير تسعى إلى الإثراء السريع وتتدافع فى شارع كوينكامبوا . وأى جمهور متعطش إلى المال كان يبتلع مثل هذا الاحتيال السافر .

يجب ألا نخطئ الظن . لقد تم العمل وولد نظام السوق ، ومن الآن فصاعداً لم يعد فى الإمكان أن تحل مشكلة البقاء عن طريق العادة أو الأمر ، وإنما يحلها العمل الحر يقوم به قوم يسعون وراء الربح ولا تربط بينهم سوى السوق وحدها . وكانت الرأسمالية هى الإسم الذى سوف يطلق على النظام . وفكرة الكسب الكامنة تحتها كانت متأصلة فى ثبات بحيث سرعان ما سيؤكد أنها اتجاه خالد وموجود فى كل مكان .

وكانت الفكرة فى حاجة إلى فلسفة .

يتردد الحديث عن أن الحيوان البشرى يمتاز فوق كل شيء بالوعى الذاتى . ويبدو أن المراد من هذا أنه بعد أن يقيم هذا الحيوان البشرى مجتمعه لا يقنع بترك الأمور تسير فى أعنتها وإنما يجب أن يحدث نفسه بأن المجتمع الخاص الذى يعيش فيه هو أفضل المجتمعات التى يمكن إقامتها ، وأن ما يشتمل عليه هذا المجتمع من تنظيمات يعكس بطريقته الصغيرة التنظيمات التى أعدتها العناية الإلهية خارج هذا المجتمع . وهكذا يخلق كل عصر فلاسفته والمدافعين عنه ونقاده والدعاة إلى إصلاحه .

ولكن المسائل التى عـنى بها الفلاسفة الإجتماعيون الأوائل تركزت

---

(١) الأرض التى تصور الفاتحون الأسبان أنها ملأى بالذهب فى أمريكا ، وتطلق الآن على أى مكان يسهل فيه الحصول على الثروة (المترجم) .

فى الجانب السياسى وليس الإقتصادى من الحياة . فطالما كان العالم تحكمه العادات والأوامر فإن مشكلة الغني والفقر لم تكن تشغل بال الفلاسفة الأوائل على الإطلاق سوى أنهم كانوا يتقبلونها فى ألم أو يسخطون عليها بوصفها دلالة أخرى على حقارة الإنسان وانحطاطه . وطالما ولد الناس كالنحل ليصبحوا زنابير فان أحداً لم يهتم بالسبب المؤدى إلى وجود الفقراء العاملين ، ذلك أن نواحي شذوذ ملكات النحل كانت أسمى درجة وأعظم إثارة بصورة لا حد لهـــا .

ولقد كتب أرسطو « إن البعض يعد منذ الساعة التى يولد فيها للخضوع والبعض الآخر لإصدار الأوامر » . وهذا التعليق يلخص نظرة الاحتقار أو عدم المبالاة التى نظر بها الفلاسفة فى العصور الباكرة إلى عالم العمل . كانوا ينظرون إلى وجود طبقة دنيا عاملة على أنها قضية مسلم بها ، وأن المال ومسائل السوق لم تكن مرهقة فحسب بل ومن الإبتذال بحيث لا تستأهل الاهتمام بها من جانب السادة ورجال العلم . إن حقوق الملوك الزمنية وغيرها ، والمسائل الكبيرة المتعلقة بالسلطتين الزمنية والروحية — وليست دعاوى التجار المتنافسين — هى التى هيأت المجال الذى تصطرع فيه الأفكار . وبالرغم من أن الثروات الشخصية كان لها دورها قبل أن يعم الصراع من أجل الثروة وينتشر فى كل مكان ويصبح ذا أهمية حيوية بالنسبة إلى المجتمع .

ولكن قد يتجاهل المرء لوقت طويل ذلك المظهر النضالى القذر الذى يبدو به عالم السوق ، ثم قد يثور عليه ويلعنه . وأخيراً ، حين تغلغل إلى أعماق الفلاسفة الخفية أنفسهم ، كان من الأفضل أن نسأل عما إذا كنا لا نجد هنا الشواهد الدالة على نمط رئيسى ، ومن أجل هذه الغاية ولمائتى عام قبل آدم سميث راح الفلاسفة ينسجون نظرياتهم عن الحياة اليومية .

ولكن فى أية سلسلة من الأشكال الغريبة المتعاقبة صاغوا هذا العالم أثناء سعيهم وراء الكشف عن الأغراض الكامنة تحته ؟

فأولا كان الصراع النفسى من أجل الوجود يلقى سببه وغايته فى تجميع الذهب . فخريستوف كولمبس أو كورتيز أو فرنسيس دريك لم يكونوا مغامرين باسم الدولة وإنما كان ينظر إليهم على أنهم أدوات التقدم الإقتصادى أيضاً . وفى نظر أنصار مذهب المعادن النفيسة كما دعا فلاسفة القرنين السادس عشر والسابع عشر أنفسهم ، كان من الأمور الواضحة بذاتها تماماً أن الذهب هو العماد الطبيعى والغاية السليمة من جميع الشئون الدنيوية . كانت فلسفتهم فلسفة الأساطيل الكبيرة والمغامرات ، والثروة الملوكية والشح القومى ، واعتقاد طاغ بأنه لو سار كل شىء سيراً حسناً فى البحث عن الثروة فمن النادر ألا ينعم الشعب بالرخاء .

ولكن بحلول القرن الثامن عشر أصبح ينظر إلى أصحاب مذهب المعادن النفيسة على أنهم سذج ، وظهرت مدرسة جديدة — هى مدرسة علم الحساب السياسى — ويعتبر دعاتها التجارة وليس الذهب المبدأ العظم الذى يعمل على توحيد المجتمع . ومن هنا لم تعد المسألة الفلسفية التى أكبوا على فحصها هى البحث عن طريقة التحكم فى سوق الذهب ، وإنما كيف يخلقون مزيداً من الثروة عن طريق مساعدة طبقة التجار الناشئة على تنمية أعمالها .

وجاءت الفلسفة الجديدة بمشكلة اجتماعية هى كيفية إبقاء الفقراء على فقرهم . كان المسلم به بوجه عام أنه إذا لم يكن الفقراء فقراء فلن يكون فى الإمكان الإعتماد عليهم فى أداء العمل اليومى الأمين دون أن يطالبوا بأجور باهظة . وفى هذا المعنى كتب أحد فلاسفة الأخلاق المبرزين فى عام ١٧٩٢ يقول : « لكى نجعل المجتمع سعيداً فمن الضرورى أن تكون أعداد كبيرة من أفراده شقية وفقيرة أيضاً » . ولذلك كان رجال مدرسة علم الحساب السياسى ينظرون إلى العمل الزراعى والصناعى الرخيص فى إنجلترا ويهزون رؤوسهم علامة الموافقة عليه .

ولكن الذهب والتجارة لم يكونا بالتأكيد الأفكار الوحيدة التى فرضت

نوعاً ما من النظام على فوضى الحياة اليومية . كان هناك عدد لا حصر له من الكتاب ورجال الدين والأفاقين والمتعصبين ممن سعوا إلى الدفاع عن المجتمع — أو استنكاره — بتفسيرات مختلفة كثيرة ، ولكن المشكلة أن جميع النماذج لم تكن داعية إلى الرضاء . فهناك من قال إن من الواضح أن الشعب يجب ألا يشترى بأكثر مما يبيع ، بينما أكد آخر وبقوة أن الشعب يكون فى حالة أفضل تماماً إذا زاد ما يأخذه فى التبادل على ما يعطيه . وأصر البعض على أن التجارة ليست سوى بثور طفيلية تظهر على جسم الفلاح القوى . وذكر آخرون أن الله أراد للفقراء فقرهم وحتى إذا لم يكونوا كذلك فان فقرهم شىء جوهرى بالنسبة إلى ثروة الشعب ، بينما ذهب فريق من الناس إلى أن الفقر شر إجتماعى ولم يستطيعوا أن يتبينوا كيف يمكن أن يخلق الثروة .

من هذا الخليط من التفسيرات العقلية المتضاربة وضح شىء واحد وهو أن الإنسان كان يصر على نوع من التنظيم العقلى ليعاونه على فهم العالم الذى يعيش فيه . كان العالم الإجتماعى يلوح فى الأفق قاسياً ولكن يزداد أهمية باطراد . ولهذا لا عجب أن قال الدكتور صمويل جونسون نفسه « ليس من شىء يتطلب أن توضحه الفلسفة، أكثر من التجارة » . وبكلمة واحدةنقول : لقد حل وقت الإقتصاديين .

ومن الخليط ظهر أيضاً فيلسوف ذو نطاق فكرى يثير الدهشة . ففى عام ١٧٧٦ نشر آدم سميث كتابه « بحث فى طبيعة وأسباب ثروة الشعوب » وبذلك أضاف حادثاً ثورياً ثانياً إلى ذلك العالم الملىء بالأحداث الخطيرة . لقد ولدت ديموقراطية سياسية على أحد جانبى المحيط ونشرت وثيقة إقتصادية على الجانب الآخر . وبينما لم تتبع أوربا كلها قيادة أمريكا السياسية فان جميع العالم الغربى أصبح عالم آدم سميث بعد أن رسم الأخير أول صورة حقيقية للمجتمع الحديث ، وأصبح ما تراءى له هو ما رأته الأجيال التالية . ما كان آدم سميث ليعد نفسه ثورياً إذ أنه لم يفعل أكثر من تفسير ما بدا فى نظره شيئاً واضحاً جداً ومعقولا ومحافظاً . ولكنه قدم للعالم صورته التى كان يبحث

عنها . فبعد « ثروة الشعوب » بدأ الناس ينظرون إلى العالم حولهم بأعين جديدة : لقد شاهدوا كيف أن الأعمال التى يؤدونها تتلاءم مع المجتمع بأسره وأن المجتمع بأسره يسير قدماً بخطى ثابتة قوية نحو هدف بعيد ولكن يمكن أن يرى بوضوح .

الفصل الثالث

العالم العجيب
الذى صوره آدم سميث

لو أن أحداً قام بزيارة إلى إنجلترا فى الستينات من القرن الثامن عشر لكان من المحتمل أن يسمع عن شخص يعرف باسم الدكتور سميث الأستاذ فى جامعة جلاسجو . كان الدكتور سميث معروفاً وإن لم يكن مشهوراً ، فقد سمع به ڤولتير . وكان دافيد هيوم صديقاً حميما له ، كما كان الطلاب يقطعون المسافة كلها قادمين من الروسيا ليستمعوا إلى محاضراته التى تنم عن الجهد والعمق وان كانت حماسية . وفضلا عن إنجازاته المدرسية كان معروفاً بأنه شخصية تلفت النظر نوعاً . فاشتهر مثلا بشرود الذهن ، ومن ذلك أنه سقط مرة فى إحدى الحفر التى تستخدم فى عملية الدباغة أثناء سيره وهو منهمك فى بحث أصولى جاد مع صديق له ، كما قيل أنه صنع لنفسه شراباً من الخبز والزبد ثم أعلن أن ذلك أسوأ فنجان من الشاى تذوقه طيلة حياته . ولكن هذه النزوات الشخصية المفاجئة لم تؤثر فى قدراته العقلية ، فقد كان الدكتور سميث فى طليعة فلاسفة عصره .

وفى المحاضرات التى ألقاها فى جامعة جلاسجو تناول مشكلات الفلسفة الأخلاقية وهى مذهب كان يدل على معان أوسع بكثير مما نفهمه منه الآن ، إذ كانت الفلسفة الأخلاقية تشمل علم اللاهوت الطبيعى وعلم الأخلاق والفقه والإقتصاد السياسى . وبهذا تراوحت بين أسمى النوازع التى تدفع الإنسان إلى النظام والإنسجام . وبين تلك الأفعال الأقل نظاماً وانسجاماً التى يقوم بها خلال تلك العملية الأشد عنفاً وبشاعة التى يحتال بها على كسب عيشه .

وعلم اللاهوت الطبيعي — أى البحث عن غرض يكمن وراء الفوضى التى يظهر بها الكون — كان الهدف الذى سعى الإنسان منذ الأيام الباكرة من تاريخه إلى تفسيره تفسيراً عقلياً . ولو أن صديقنا الزائر استمع إلى الدكتور سميث يفسر القوانين الطبيعية الكامنة وراء ما يبدو به الكون من فوضى ، لأحس بالراحة تماماً . أما إذا تعلق الأمر بالطرف الآخر من صورة الطيف ، أى السعى وراء اكتشاف فن هندسى عظيم تحت سطح ضجيج الحياة اليومية فان هذا الزائر ربما كان يحس أن الدكتور سميث فى الحقيقة يتجاوز بالفلسفة حدودها السليمة .

لأنه إذا كانت الحياة الإجتماعية الإنجليزية فى أواخر القرن الثامن عشر توحى بشيء فهذا الشيء بكل تأكيد لم يكن النظام الذى يتفق مع العقل أو الغرض الذى يتحدث عنه علم الأخلاق . فما أن يتحول المرء ببصره عن الحياة الرشيقة التى انغمست فيها الطبقات التى تنعم بالفراغ فإن المجتمع كان يبدو صراعاً وحشياً من أجل البقاء فى أحط صوره . فخارج صالونات لندن أو ضياع الأغنياء البهيجة فى المقاطعات لا يرى المرء سوى صفات الجشع والقسوة والانحطاط ممتزجة بأشد العادات والتقاليد مجافاة للعقل وأدعاها إلى الحيرة والتى تنتمى إلى عصر سابق يعتبر الآن من المفارقات .

فبدلا من آلة صنعت بعناية وكل جزء منها يسهم فى انتظام الكل كان المجتمع أشبه باحدى آلات جيمس وات البخارية الغريبة ، فى سوادها وضوضائها وانعدام كفايتها وخطرها . وكم يبدو غريباً أن يعلن الدكتور سميث أنه يرى فى هذا كله نظاماً وخطة وغرضاً .

لنفرض أن صاحبنا الزائر توجه لمشاهدة مناجم القصدير فى كورنوول . فهناك يلاحظ المعدنين يهبطون الأنفاق السوداء ، وعند وصولهم إلى القاع يجذبون شمعة من أحزمتهم ثم يتمددون طلباً للنوم إلى أن تسيل الشمعة وتنطفيء. ثم يأخذون فى استخراج الخام لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات إلى أن تحل فترة الراحة التقليدية التالية والتى تمتد هذه المرة بحيث تكفى لتدخين غليون من

الطباق . وهكذا انقضى نصف يوم بأكمله فى التراخى والنصف الآخر فى التقاط المعدن من العروق . ولكن لو سافر الزائر شمالا وتحملت أعصابه النزول إلى مناجم الفحم فى درام أو نور ثمبرلاند لشاهد شيئاً مختلفاً تماماً . هنا يشتغل الرجال والنساء سوياً وقد تجردوا من الملابس حتى أوساطهم ، وأحياناً يصبحون من فرط التعب فى حالة شبه بشرية وهم يطلقون الصرخات المتقطعة . وهم يمارسون أعنف العادات وأشدها وحشية . والشهوات الجنسية التى تثور بمجرد النظر يجرى إشباعها فى مكان مهجور من الأنفاق . والأطفال الذين تتراوح أعمارهم بين السابعة والعاشرة والذين لم يروا ضوء النهار خلال فصل الشتاء كانوا يستخدمون ويساء استعمالهم من جانب المعدنين الذين يدفعون لهم أجراً ضئيلا كى يساعدوهم فى جر براميل الفحم . وكانت النساء الحوامل يتولين جر عربات الفحم كما تفعل الخيل ، وكن يلدن أحياناً فى الكهوف السوداء المظلمة .

ولكن الحياة لم تبد واضحة الألوان والظلال وتقليدية أو وحشية فى المناجم وحدها . ففوق سطح الأرض كان الرحالة المراقب يشهد مناظر لا تكاد توحى بالنظام والإنسجام والخطة . ففى أجزاء كبيرة من البلاد كانت جماعات من الفقراء الزراعيين تتجول بحثاً عن العمل ، فمن مرتفعات ويلز كانت مجموعات من البريتون القدماء (كما أطلقوا على أنفسهم) تتلاقى فى وقت الحصاد ، وأحياناً لم يكن هناك سوى حصان واحد بغير سرج أو لجام للفرقة كلها . وأحياناً كانوا يمشون فقط . وغالباً ما كانت الجماعة تضم شخصاً يعرف الإنجليزية وبذلك يستطيع أن يكون الوسيط بينها وبين أعيان الفلاحين الذين تطلب الجماعة منهم الإذن بالمساعدة فى حصاد محصول أراضيهم . لهذا ليس ثمة ما يدعو إلى الدهشة إذا هبطت الأجور إلى حد أن كان الأجر اليومى ستة بنسات .

وأخيراً لو توقف الزائر فى مدينة صناعية لطالعته بالمثل مناظر أخرى تثير الاهتمام ولكن بغير أن تنم عن النظام فى نظر غير العليم . ربما كان يعجب

بالمصنع الذى بناه الأخوة لومب فى عام ١٧٤٢ إذ كان بناء هائلا (بالنسبة إلى تلك الأيام) ، طوله خمسمائة قدم ويتكون من ستة طوابق ، وبداخله آلات وصفها دانييل ديفو بأنها تتكون من « ٢٦,٥٨٦ عجلة ، ٩٧,٧٤٦ حركة تغزل ٧٣,٧٢٦ ياردة من خيوط الحرير فى كل مرة تدور فيها العجلة المائية وتبلغ دوراتها ثلاثاً فى الدقيقة الواحدة » — ومما هو جدير بالملاحظة بالمثل الأطفال الذين كانوا يرعون الآلات لمدة تتراوح بين إثنتى عشرة وأربع عشرة ساعة فى النوبة الواحدة ، ويطهون غذاءهم على غلايات سوداء بشعة المنظر ، ثم يحشرون للنوم بالتناوب فى ثكنات قيل إن الأسرة فيها كانت دافئة دائماً .

لا بد أن هذا بدا فى نظر أهل القرن الثامن عشر كما يبدو فى نظرنا عالماً غريباً ، قاسياً ، نشأ وسار كيفما اتفق .

إذن فما يلفت النظر بدرجة أكبر أن يكون فى الإمكان التوفيق بين هذا العالم وبين مذهب فى الفلسفة الأخلاقية تصوره الدكتور سميث ، وأن يدعى ذلك الرجل العالم بالفعل أنه اكتشف فى داخل هذا العالم المعالم الواضحة لقوانين هادفة عظيمة تلاءم كلا يحيط بكل شىء وله معناه .

أى نوع من الناس كان هذا الفيلسوف الوديع ؟

« لست أعشق شيئاً سوى كتبى » . بهذه العبارة وصف سميث نفسه مرة وهو يعرض مكتبته التى يفخر بها لصديق . من المحقق أنه لم يكن رشيقاً ، فبروفيله المرسوم على ميدالية يظهر لنا شفة سفلى بارزة ومتجهة إلى أعلى لتلتقى بأنف أقنى كبير وعينين منتفختين تطلان من جفون كثيفة . وكان سميث طيلة حياته يعانى من ألم عصبى فكانت رأسه تهتز ، وله أسلوب غريب متعثر فى الكلام .

يضاف إلى هذا شرود الذهن المأثور عنه . ففى الثمانينات من القرن الثامن عشر وحين كان سميث فى أواخر الخمسينات من عمره كان أهل أدنبره

متعودين بانتظام على ذلك المنظر المسلى الذى يبدو به مواطنهم الذائع الصيت مرتدياً معطفه ذى اللون الفاتح ، وسراويله التى تصل حتى ركبتيه ، وجواربه الحريرية البيضاء ، وحذائه ذى الأبزيم وقبعته المستوية ذات الحافة العريضة والمصنوعة من جلد الجارود ، وعصاه ، وهو يذرع الشوارع الملأى بالحصى وعيناه مثبتتان على اللانهائية ، وشفتاه تتحركان فى حديث صامت . وكان يقف بعد كل خطوة أو خطوتين متردداً كأنما يريد أن يغير اتجاهه أو حتى أن يسير فى الاتجاه المضاد . ولقد وصف مشيته صديق له فقال أنها « تشبه حركة الدود » .

وذاعت الروايات عن ذهوله . ففى إحدى المناسبات نزل إلى حديقة داره لا يرتدى سوى قميص النوم ثم استغرق فى التفكير ومشى خمسة عشر ميلا قبل أن يفيق . ومرة أخرى بينما كان يتمشى مع صديق مشهور فى إدنبره رفع أحد الحراس حربته على سبيل التحية . وفجأة نجد سميث الذى كان يكرم على هذا النحو فى مناسبات لا حصر لها ، يستهويه الجندى الذى حياه فيبادله مثلها بعصاه ، ثم يثير دهشة صديقه بأن يسير وراء الحارس مستخدماً عصاه لمضاعفة كل حركة من الحربة . وحين زال السحر كان سميث واقفاً على رأس درج طويل وعصاه على استعداد . وإذ لم يخطر بباله أنه فعل شيئاً غير عادى لمس الأرض بالعصا واستأنف الحديث من النقطة التى كان قد وقف عندها .

ولد هذا الأستاذ الشارد الذهن فى عام ١٧٢٣ ببلدة كيركالدى فى مقاطعة فايف بأسكتلنده . وكانت كيركالدى تفخر بأن عدد سكانها ألف وخمسمائة وفى الوقت الذى ولد فيه سميث كان بعض أهلها ما يزالون يستخدمون المسامير نقوداً . وحين بلغ الرابعة من العمر وقع حادث غريب للغاية إذ اختطفته جماعة من الغجر كانت تمر بالجهة . وبفضل الجهود التى بذلها عمه (إذ مات أبوه قبل مولده) أمكن تعقب الغجر ومطاردتهم فما كان منهم فى فرارهم إلا أن ألقوا بآدم الصغير على قارعة الطريق . ويقول أحد

الذين كتبوا قصة حياته معلقاً على الحادث « أخشى أنه كان يصبح غجرياً فاشلا » .

وكان سميث منذ أيامه الأولى تلميذاً نابهاً وان انتابته حتى فى طفولته نوبات من الذهول . وكان واضحاً أن العناية الإلهية تعده للتدريس ولهذا حين بلغ السابعة عشر من العمر توجه إلى أكسفورد بفضل منحة دراسية — وقطع الرحلة ممتطياً جواداً — وهناك أقام ست سنوات . ولكن أكسفورد لم تكن فى ذلك الحين قلعة العلم التى صارت إليها فيما بعد . فمعظم الأساتذة نبذوا منذ زمن طويل حتى مجرد التظاهر بالتدريس . وقد عبر لنا رحالة أجنبي عن دهشته من مناقشة عامة جرت هناك فى عام ١٧٨٨ ، ذلك أن الأربعة المشتركين فيها قضوا الوقت المخصص فى صمت عميق وكل منهم منهمك فى مطالعة إحدى الروايات الشعبية الشائعة فى ذلك الحين . ولما كان التعلم هو الإستثناء وليس القاعدة لهذا قضى سميث تلك السنوات إلى حد كبير دون أن يشرف عليه أستاذ أو يحظى بتعليم ، وكان يطالع ما يراه مناسباً ، والواقع أنه كاد يفصل من الجامعة حين عثروا فى غرفته على نسخة من كتاب هيوم « مقال عن الطبيعة البشرية » ولم تكن مؤلفات هيوم بصالحة لأن يقرأها حتى شخص سوف يصبح فيلسوفاً .

وفى عام ١٧٥١ — وكان فى الثامنة والعشرين من العمر — عرض عليه كرسى مادة المنطق فى جامعة جلاسجو ، ثم منح كرسى الفلسفة الأخلاقية بعد ذلك بوقت وجيز . كانت جلاسجو على خلاف أكسفورد مركزاً جاداً للدراسة وتفخر بالمواهب التى تضمها ، ولكنها كانت ما تزال مختلفة اختلافاً كبيراً عن الفكرة الحديثة من الجامعة . فمجموعة الأساتذة الأنيقة لم تقدر تماماً ما كانت تتسم به طريقة سميث من خفة وحماس ، فاتهم أحياناً بأنه يبتسم أثناء الصلاة (ولا شك أنه كان يفعل ذلك أثناء استغراقه فى التفكير) . وأنه صديق حميم لذلك الكاتب الفاضح هيوم ، ولا يلقى دروس الأحد عن الشواهد المسيحية وأنه التمس من مجلس الجامعة الإذن له بالإستغناء عن بدء

الدروس بالصلاة ، وأنه كان يلقى صلوات تنم عن نوع من « الدين الطبيعى » وربما يبدو هذا مناسباً لصورة أفضل إذا ذكرنا أن معلمه هتشيسون كان يشق أرضاً جديدة فى جلاسجو حين رفض أن يلقى المحاضرات باللغة اللاتينية .

إلا أنه بغض النظر عن المنافسة الأكاديمية التى لا بد منها فقد كان سميث سعيداً فى جلاسجو . ففى الأمسيات كان يلعب الوست whist وهى من ألعاب الورق ، وجعل منه شرود ذهنه لاعباً لا يعتمد عليه إلى حد ما . وكان يتردد على الجمعيات العلمية ويحيا حياة هادئة ومنعزلة . وكان محبوباً من طلابه ، ومشهوراً كمحاضر حتى أن بوزول كان يأتى للاستماع إليه . وأكسبته مشيته وأسلوبه فى الحديث الإحترام بحيث كانا موضع التقليد ، بل وظهرت له تماثيل نصفية فى واجهات العرض بالمكتبات .

ولم تكن هذه الشخصية الغريبة الأطوار هى وحدها التى أكسبته السمعة . ففى عام ١٧٥٩ نشر كتابه « نظرية المشاعر الخلقية » فأحدث ضجة عاجلة ودفع به إلى الصف الأول من الفلاسفة الإنجليز . كان الكتاب بحثاً فى أصل الدوافع الأخلاقية التى تحمل المرء على الرضاء عن شىء أو استنكاره . فكيف يحدث أن الإنسان وهو مخلوق تقوم تصرفاته على المصلحة الذاتية ، يكون أحكاماً أخلاقية تبدو فيها المصلحة الذاتية كأنها غير ذات مفعول أو كأنما ارتفعت إلى مستوى أعلى ؟ واعتقد سميث أن الجواب يكمن فى قدرتنا على أن نضع أنفسنا موضع الشخص الثالث أى المراقب المحايد ، وبهذه الطريقة نكون فكرة عن المزايا الأخلاقية (على نقيض المزايا النفعية) للقضية .

واجتذب الكتاب والمشكلات التى عالجها الاهتمام العاجل . ففى ألمانيا أصبحت « مشكلة آدم سميث » موضوعاً محبباً للجدل ، وأهم من هذا من وجهة نظرنا أن البحث لقى الرضاء من جانب رجل نابه ومتآمر يدعى شارل تونشنـــد .

وتونشند من تلك الشخصيات العجيبة التى يبدو أن القرن الثامن عشر

كان يزخر بها . أن تونشند الذكى بل والمثقف ، كان على حد قول هوراس وولبول « رجلا أوتى كل موهبة عظيمة ، وكان يمكن أن يصبح أعظم رجل فى عصره لو أنه اتصف بالإخلاص والثبات والإدراك السليم » . فتقلبه كان من الصفات السيئة التى اشتهر بها ، ورددت بعض الروايات الساخرة عنه فى عصره أنه كان يشكو ألماً فى جنبه ولكن أبى أن يحدد الجانب المصاب ومن الشواهد على افتقاره إلى حسن الإدراك أنه هو الذى عجل بوصفه وزيراً للخزانة ، بالثورة الأمريكية حين رفض أولا حق أهل المستعمرات فى اختيار قضاتهم ، ثم فرض ضريبة ثقيلة على الشاى الأمريكى .

إلا أنه بالرغم من قصر نظر تونشند السياسى كان مخلصاً فى دراسة الفلسفة السياسية ومن هنا كان من المتحمسين لآدم سميث . وأهم من هذا كان فى مركز أهله لأن يعرض على الأخير عرضاً غير عادى . ففى عام ١٧٥٤ عقد تونشند زيجة ناجحة ومربحة حين اقترن بالكونتيسة « دالكيث » أرملة دوق بكلو ، ووجد نفسه الآن يبحث عن معلم خاص يتولى تثقيف ابن زوجته . وكان تعليم أحد شباب الطبقة الراقية يتكون إلى حد كبير من الرحلة الكبرى أى الإقامة فى أوربا حيث يمكن أن يكتسب المرء تلك اللمسة المهذبة التى كانت موضع المديح من جانب اللورد تشستر فيلد . ورأى تونشند أن الدكتور سميث رفيق مثالى للدوق الشاب ومن هنا عرض عليه ثلاثمائة جنيه سنوياً بخلاف نفقاته ومعاش سنوى قدره ثلاثمائة جنيه مدى الحياة . كان العرض طيباً لا يسع سميث أن يرفضه ، إلا أن الرجل فى أفضل الحالات لم يحصل أبداً على أكثر من مائة وسبعين جنيهاً من الأتعاب التى كان الأساتذة فى تلك الأيام يجمعونها من الطلاب مباشرة . ومن اللطيف أن تلاميذ الدكتور سميث كانوا يرفضون أن يستردوا المبلغ الذى يعيده إليهم قائلين أنهم كانوا يحصلون على جزاء أفضل من المال .

وسافر المعلم والدوق الشاب إلى فرنسا فى عام ١٧٦٤ وأقاما ثمانية عشر شهراً فى تولوز حيث اشتركت صحبة مملة كريهة ولغة سميث الفرنسية اللعينة

فى جعل حياته الهادئة فى جلاسجو تبدو تبذلا . وانتقلا بعد ذلك إلى جنوب فرنسا (حيث قابل وعبد فولتير ، وجنب نفسه مغازلات مركيزة عاشقة) ومنها إلى جنيف وأخيراً وصلا إلى باريس . وللتخفيف من ملل الإقامة بالأقاليم بدأ سميث يشتغل فى إعداد بحث فى الإقتصاد السياسى وهو موضوع سبق أن حاضر فيه فى جلاسجو وتناقش بصدده أمسيات كثيرة فى الجمعية المختارة بإدنبره ، وأطال النقاش فيه مع صديقه المحبوب دافيد هيوم ، هذا الكتاب هو « ثروة الشعوب » ولكن كان لا بد من انقضاء إثنى عشر عاماً قبل أن يفرغ منه .

كانت الإقامة فى باريس أفضل حالا إذ فى هذا الوقت تحسنت لغة سميث الفرنسية ، وان ظلت مريعة ، بحيث مكنته من أن يتحدث طويلا مع أبرز مفكر إقتصادى بفرنسا ، وهو المسيو كيناى الطبيب فى بلاط لويس الخامس عشر وطبيب مدام بمبادور الخاص . وكان كيناى قد أنشأ مدرسة جديدة فى الإقتصاد عرفت باسم « المذهب الطبيعى physiocracy » ورسم خريطة للإقتصاد دعاها « الجدول الإقتصادى » . كان الجدول فى الحقيقة دليلا على ما يتصف به طبيب من عمق النظرة ، إذ على خلاف الأفكار السائدة فى ذلك العصر والتى ظلت تعتبر الثروة تتكون من مقادير الذهب والفضة التى يحوزها البلد ، أصر كيناى على أن الثروة تنشأ من الإنتاج وأنها تنساب فى الشعب ، من يد إلى أخرى ، لتعيد ملء الجسم الإجتماعى كما يحدث فى حالة الدورة الدموية . وأحدث نشر الجدول تأثيراً ضخماً . فوصفه ميرابو الأكبر بأنه اختراع يتساوى فى المرتبة مع اختراع الكتابة والنقود . ولكن عيب المذهب الطبيعى يتمثل فى إصراره على أن الطبقات الزراعية هى وحدها التى تنتج « الثروة » الحقيقية وأن الطبقات الصناعية والتجارية يقتصر أمرها على التصرف فى هذه الثروة بطريقة عقيمة . ومن هنا كانت قيمة المذهب محدودة من وجهة نظر السياسة العملية . حقيقة دعا إلى سياسة الحرية الإقتصادية أو الإقتصاد المرسل laissez-faire ، مما يعتبر تحولا حاسما بالنسبة إلى تلك

الأزمنة ، ولكنه إذ حط من شأن الجانب الصناعى من الحياة فقد خالف معنى التاريخ ، ذلك أن تطور الرأسمالية كله كان يشير بغير شك إلى أن الطبقات الصناعية بصدد أن تشغل مركز الصدارة بالنسبة إلى طبقات أصحاب الأراضى .

هذه الفلسفة لم تناسب آدم سميث . لقد تقبل بسرور فكرة تداول الثروة وأقرها ، ولكن الفكرة التى اعتبرت الصناعة عقيمة ومجدبة نوعاً بدت فى نظره تركيباً غريباً للعالم . وأخيراً ، ألم ينشأ فى كيركالدى وجلاسجو حيث يستطيع المرء أن يرى الثروة تخلق على يد كل فرد فى ورش ومصانع أصحاب الحرف ؟ ومع هذا ، فبالرغم من رفضه هذا الاتجاه الزراعى فى عقيدة الفيزيوكرات (كان أتباع كيناى من أمثال ميرابو من المتملقين) فقد كان يكن إعجاباً شخصياً عميقاً للطبيب الفرنسى الذى لو قدر له أن يعيش لأهدى إليه سميث كتاب « ثروة الشعوب » .

وفى سنة ١٧٦٦ توقفت الرحلة فجأة لأن الشقيق الأصغر للدوق والذى كان قد لحق بهما ، قتل فى شوارع باريس . وعاد فخامته إلى ضياعه فى دالكيث بينما توجه سميث إلى لندن ومنها انتقل إلى كيركالدى حيث أقام بالرغم من توسلات هيوم معظم العامين التاليين بينما كان البحث العظيم يتخذ الشكل الذى يريد سميث إظهاره فيه . وقد أملى معظمه وهو واقف مستنداً إلى المدفأة ويحك رأسه فى حركة عصبية فى الحائط حتى أحدث دهان شعره العطرى خطاً قاتماً فى الفروزة . وكان يقوم من حين لآخر بزيارة تلميذه السابق فى مزارعه بدالكيث . وتوجه ذات مرة إلى لندن حيث أراد أن يتناقش بشأن أفكاره مع أدباء العصر ومنهم الدكتور صمويل جونسون الذى أنشأ نادياً كان سميث من أعضائه وإن ندر أن اجتمع مع الفقيه اللغوى فى ظروف ودية . ويحدثنا سير والتر سكوت أنه حين رأى جونسون سميث لأول مرة هاجمه بسبب قول فاه به . ولقد أكد سميث صدق الخلاف . كان السؤال الذى تردد على ألسنة الجميع : ماذا قال جونسون ؟ وأجاب سميث ونفسه ملأى بكل مشاعر الإستياء : « ماذا ؟ » لقد قال : « أنت كذاب » . « وماذا

كان جوابك ؟ » . . قلت « أنت ابن . . . ! ! » وفى مثل هذه الظروف تقابل هذان الأخلاقيين العظيمين لأول مرة وافترقا كما يقول سكوت ، وهكذا كان الحوار الشهير بين معلمى الفلسفة الكبيرين .

والتقى سميث أيضاً بأمريكى جذاب وذكى هو بنيامين فرنكلين الذى زوده بثروة من الحقائق عن المستعمرات الأمريكية وملأ نفسه بالتقدير العميق للدور الذى قد تلعبه فى يوم من الأيام . ولا شك أن تأثير فرنكلين يرجع إليه ما قاله سميث فيما بعد من أن المستعمرات تكون شعباً « يبدو من المحتمل فى الواقع أنه سوف يصبح من أعظم الشعوب وأقواها التى وجدت بالعالم » .

وفى عام ١٧٧٦ نشر « ثروة الشعوب » ، وبعد ذلك بعامين عين نائباً للجمارك فى إدنبره وهى وظيفة ذات مرتب قدره ستمائة جنيه فى السنة وبدون عمل يؤديه . وعاش سميث مع أمه التى عمرت حتى بلغت التسعين ، حياة أعزب فى سلام وهدوء ، قرير العين ، راضى النفس ، وشارد الذهن حتى النهـــاية .

وماذا عن الكتاب ؟

لقد وصف كتاب « ثروة الشعوب » بأنه « ليس ثمرة عقل عظيم فحسب بل وثمرة عصر بأسره » . إلا أنه لا يمكن أن يقال عنه إنه كتاب « مبتكر » بالمعنى الدقيق من الكلمة ، إذ سبقه الكثيرون من المراقبين ممن عالجوا فهمه للعالم . فقد اقتبس من لوك وستيوارت ولوومانديفيل وبيتى وكانتيون ولا نذكر كيناى وهيوم أيضاً . وهو يورد فى بحثه أسماء أكثر من مائة مؤلف . ولكن بينما تناول الآخرون الموضوع من زاوية معينة ، عالج سميث الموضوع من زواياه كلها . وبينما عمل سواه على توضيح مشكلة معينة ألقى سميث الضوء على المشكلات جميعاً . قد لا يكون « ثروة الشعوب » كتاباً مبتكراً ، ولكن لا نزاع فى أنه عمل فذ .

فهو أولا صورة هائلة تبدأ بتلك الفقرة الشهيرة التى يصف فيها التخصص

الدقيق للعمل فى صناعة الدبابيس ، ثم يبحث قبل أن تنتهى الفقرة موضوعات مختلفة من قبيل « الاضطرابات الأخيرة فى المستعمرات الأمريكية » ويبدو من الواضح أن سميث كان يظن أن حرب الثورة سوف تنتهى فى الوقت الذى يصل فيه كتابه إلى المطبعة (، وكيف تضيع حياة الطالب هباء فى أكسفورد ، والإحصائيات عن كميات الرنجة التى جرى صيدها منذ عام ١٧٧١ .

هذا وإن نظرة سريعة على الفهرس الذى جمعه كنعان لطبعة ظهرت فيما بعد لتدل على مدى اتساع نطاق استشهادات سميث وأفكاره . وهنا إثنى عشر بنداً وردت تحت حرف « أ » « A » .

Abbasides	العباسيون	ثراء الإمبراطورية العربية فى عهد
Abraham	ابراهيم	صنج للوزن
Abyssinia	الحبشة	نقود من الملح
Actors, public	الممثلون العموميون	العاملون يؤجرون مقابل الاحتقار الذى يصاحب مهنتهم
Africa	أفريقيا	ملك قوى أسوأ بكثير من الفلاح الأوربى
Alehouses	حانات البيرة	عدد . . . ليس بالسبب الحقيقى فى انتشار المسكرات
Ambassadors	السفراء	الدافع الأول على تعيينهم
America	أمريكا	(وتتلو ذلك صفحة كاملة ملأى بالإشارات)
Apprenticeship	التلمذة الحرفية	تفسير طبيعة . . هذه العبودية القائمة على التعاقد
Arabs	العرب	أسلوبهم فى تمويل الحرب
Army	الجيش	ليس بأمان للملك ضد طبقة غاضبة من رجال الدين

ويشغل الفهرس ثلاثاً وستين صفحة من البنط الصغير ، ويمس كل شيء قبل الفراغ منه . « إن التمتع الرئيسى بالغنى ينحصر فى إظهاره ، الفقر يدفع بالشعب أحياناً إلى عادات غير إنسانية ، المعدة هى الرغبة فى الغذاء تحد منها طاقتها المحدودة ، الجزار : عمل وحشى كريه » . وحين ننتهى من الصفحات التسعمائة التى يتكون منها الكتاب تتراءى لنا صورة لإنجلترا فى السبعينات من القرن الثامن عشر ، نرى فيها الصبيان وعمال المياومة والرأسماليين الصاعدين ، وملاك الأراضى ورجال الدين والملوك ، والمصانع والمزارع والتجارة الخارجيـــة .

ليس كتاب « ثروة الشعوب » بالذى تسهل متابعته . أنه يتحرك بكل ما ينطوى عليه العقل الموسوعى من تفكير ، ولكن بدون الدقة التى يتميز بها العقل المنظم . لقد كان ذلك عصراً لا يتوقف فيه الكتاب كى يقيدوا أفكارهم باستعمال ألفاظ مثل « إذا » ، « واو العطف » ، « لكن » ، وإنما كان عصراً فى إمكان رجل فى مثل مقدرة سميث العقلية أن يتحدث بالفعل عن ضروب المعرفة فى أيامه . ومن هنا فالكتاب لا يحاول تجميل شيء أو التقليل من شيء كما لا يخشى شيئاً . ويا له من كتاب يثير الحنق ! ! فغالباً ما يأبى أن يلخص فى جملة موجزة نتيجة وصل إليها بعد بحث شاق شغل خمسين صفحة . والحجة التى يدلى بها تزخر بالتفاصيل والملاحظات بحيث يتعين على القارىء دائماً أن يستبعد ما تتحلى به من مجاز واستعارة حتى يكشف تحتها البنيان الصلب الذى يربط بين أجزائها . وحين يصل سميث إلى موضوع الفضة يدور حولها طيلة خمس وسبعين صفحة ليكتب شيئاً « بعيد الصلة بها » وحين يتناول موضوع الدين يتوه فى فصل كامل يعقده عن اجتماعيات الأخلاق ، ولكن بالرغم من ثقل الكتاب فانه مليء بالنظرات النفاذة ، والملاحظات والعبارات المنتقاة التى تشيع الحياة فى هذه المحاضرة الكبرى . فسميث أول من أطلق على إنجلترا عبارة « شعب من أصحاب الحوانيت » وهو الذى قال « إن الفيلسوف بطبيعته لا يختلف كثيراً فى عبقريته وميوله عن

الحمال فى الطريق ، كما لا يختلف الكلب من فصيلة الدوراس عن كلب الصيد » . وهو يحدثنا عن شركة الهند الشرقية التى كانت تنهب الشرق فى ذلك الحين فانها « حكومة غريبة جداً » كل عضو يتولى الإدارة فيها يرغب فى مغادرة البلاد . . بمجرد أن يتمكن من ذلك ، والذى من مصلحته بعد اليوم الذى يخرج فيه منها حاملا ثروته ، تصبح غير ذات موضوع تماماً كما لو أن البلاد كلها قد ابتلعها زلزال » .

و « ثروة الشعوب » ، ليس كتاباً مدرسياً بأى معنى من المعانى . فآدم سميث يكتب لعصره وليس لتلاميذ فصله . أنه يشرح مذهباً يراد منه أن يكون ذا أهمية بالنسبة إلى إدارة شئون امبراطورية وليس بحثاً مجرداً يتداوله رجال العلم . فالتنينات التى يقتلها (كالنظام التجارى الذى يستغرق مائتى صفحة حتى يموت) كانت حية وتلهث فى يومه وان أصابها الإعياء قليلا .

وأخيراً ، فالكتاب ثورى . من المؤكد أن سميث لم يتوقع انقلاباً يشيع الاضطراب فى صفوف طبقات السادة ويجلس الفقراء فوق العرش ، وبالرغم من هذا فأهمية « ثروة الشعوب » ثورية . فعلى خلاف الظن الشائع لا يبرر سميث البورجوازية القادمة والآخذة فى الظهور والارتفاع ، ولكنه ، كما سنرى ، معجب بعملها وان شك فى الدوافع التى تحركها ، كما أنه متيقظ لحاجات الأغلبية الكبيرة الكادحة . ولكن غرضه ليس تبنى مصالح أية طبقة . إن الذى يعنيه هو تنمية ثروة الشعب بأسره والتى تتكون عنده من السلع التى يستهلكها جميع أفراد المجتمع ، وهنا ننبه إلى لفظ جميع فهذه فلسفة ديموقراطية وبالتالى جذرية للثروة . لقد انتهت فكرة الذهب والكنوز وخزائن الملوك ، وانتهت امتيازات التجار أو الفلاحين أو النقابات الحرفية . إننا فى العالم الحديث حيث يشكل انسياب السلع والخدمات التى يستهلكها كل فرد ، الهدف النهائى والغاية النهائية من الحياة الإقتصادية .

والآن ما الدروس التى نتعلمها من النص ؟

هناك مشكلتان كبيرتان تستأثران باهتمام آدم سميث . فهو معنى أولا بالكشف عن الجهاز التى يحفظ تماسك المجتمع . كيف يمكن لجماعة كل فرد فيها يسعى إلى تحقيق مصلحته الذاتية ألا تتفكك بفعل القوة الطاردة وحدها ؟ وما الشيء الذى يسترشد به كل امرىء فى العمل الخاص الذى يزاوله بحيث يكون متفقاً مع حاجات المجموعة ؟ وكيف ينجح المجتمع فى أداء هذه المهام اللازمة لبقائه بالرغم من عدم وجود سلطة تخطيط مركزية ومن انتفاء التأثير المؤدى إلى الانتظام والمتولد من التقاليد المتوارثة من قديم ؟

هذه الأسئلة تؤدى بسميث إلى صياغة قوانين السوق . إن ما سعى إليه كان « اليد الخفية » كما دعاها والتى بمقتضاها تسير « مصالح الناس الخاصة وأهواءهم فى الاتجاه » الأكثر اتفاقاً مع مصلحة المجتمع بأسره .

ولكن قوانين السوق ليست إلا مجرد جزء من البحث الذى يقوم به سميث . فهناك سؤال آخر يعنيه وهو : إلى أين يسير المجتمع ؟ إن قوانين السوق مثل القوانين التى تفسر كيف تظل النحلة مستقيمة فى دورانها ، وهى هناك أيضاً مسألة ما إذا كانت النحلة بحكم دورانها سوف تتحرك على طول المنضدة .

إن سميث وكبار الإقتصاديين الذين أعقبوه لا يتصورون المجتمع على أنه إنجاز ساكن حققه الجنس البشرى ، يظل يتوالد بذاته من جيل إلى آخر دون أن يطرأ عليه تغيير ودون أن يقبل التغيير . أنهم على النقيض من هذا ينظرون إلى المجتمع على أنه كائن له حياته الخاصة به . فالكشف عن شكل الأشياء التى سوف تحدث وعزل القوى التى تدفع المجتمع إلى السير فى طريقه — هذا هو الهدف الكبير من علم الإقتصاد .

ولكنا لا نستطيع أن نصل إلى هذه المشكلة الأكبر والأشد سحراً إلا إذا تتبعنا سميث وهو يزيح الستار عن قوانين السوق ، لأن هذه القوانين ذاتها سوف تكون جزءاً لا يتجزأ من القوانين الأكبر منها التى تؤدى إلى رخاء

المجتمع أو انحلاله . فالجهاز الذى يرغم الفرد الغافل على أن يسير جنباً إلى جنب مع غيره سوف يؤثر فى الجهاز الذى يتغير به المجتمع عبر السنين .

ومن هنا نبدأ بالقاء نظرة على جهاز السوق . ليست المادة التى تتكون منها هى التى تثير الخيال أو تحرك النبض . إلا أنه بالرغم من جفافه ، فله أهمية عاجلة ينبغى أن تؤدى بنا إلى النظر إليها بعين الإحترام . فقوانين السوق ليست جوهرية لفهم العالم الذى عاش فيه آدم سميث فحسب ، ولكن هذه القوانين نفسها تكمن تحت نفس العالم الذى عاش فيه كارل ماركس، وكذلك العالم الذى يختلف عنه والذى نعيش فيه اليوم . وما دمنا جميعاً خاضعين لسلطانها ، سواء عرفنا ذلك أو لم نعرفه ، فيحسن بنا أن نبحثها ونتمعنها بعناية .

وقوانين السوق التى يطالعنا بها آدم سميث بسيطة فى أساسها . إنها تحدثنا أن النتيجة المترتبة على نوع معين من السلوك فى إطار اجتماعى معين سوف تؤدى إلى نتائج محدودة تماماً يمكن أن نتنبأ بها . وهى تبين لنا بنوع خاص كيف أن دافع المصلحة الذاتية الفردية فى بيئة من أفراد يحركهم هذا الدافع بالمثل يؤدى إلى المنافسة ، كما تبين كذلك كيف تؤدى المنافسة إلى توفير السلع التى يحتاج إليها المجتمع بالكميات التى يرغب فيها وبالأثمان التى هو على استعداد لأدائها . ولننظر الآن كيف يتحقق هذا .

يحدث هذا أولا لأن المصلحة الذاتية تقوم بدور القوة المحركة التى توجه الناس إلى أى عمل يريد المجتمع أن يدفع ثمنه . وفى هذا يقول سميث « لسنا نتوقع عشاءنا من كرم الجزار أو صانع الخمر أو الخباز ، ولكنا نتوقعه من رعايتهم مصلحتهم الذاتية » . إننا لا نخاطب إنسانيتهم وإنما نخاطب حبهم لذواتهم ، ولا نحدثهم أبداً عن الأشياء الضرورية لنا وإنما عن المزايا التى يحصلون عليها » .

ولكن المصلحة الذاتية لا تمثل سوى نصف الصورة . أنها تدفع الناس إلى العمل ، ولكن شيئاً آخر يجب أن يمنع الأفراد ، المتعطشين إلى الربح ، من

اقتضاء الثمن الفادح من المجتمع ، لأن الجماعة التى لا تحركها سوى المصلحة الذاتية جماعة تتكون من المستغلين القساة . هذا العامل المنظم هو المنافسة أى النتيجة المفيدة من الوجهة الاجتماعية والناشئة عن المصالح الذاتية المتضاربة والتى تحرك أعضاء المجتمع . لأن كل إنسان يبذل أقصى جهده لنفسه دون أن يفكر فى التكلفة الاجتماعية ، يواجهه قطيع من أفراد لهم نفس الدافع وهم فى نفس الزورق تماماً الذى يركبه . إن كلا منهم لن يكون شغوفاً بالإستفادة من جشع جاره إلا إذا دفعه هذا إلى تجاوز مقياس مشترك من سلوك يلقى القبول من الجميع . فالشخص الذى يسمح لمصلحته الذاتية لأن تهرب معه سوف يجد أن منافسيه قد تسللوا لينتزعوا منه حرفته ، فاذا طالب بثمن لسلعة يزيد عن الحد الواجب أو أبى أن يدفع لعماله الأجر الذى يؤديه غيره فسوف يجد نفسه بغير مشترين فى الحالة الأولى وبدون أفراد يخدمونه فى الحالة الثانية. وهكذا نجد كما يحدثنا كتاب « نظرية المشاعر الخلقية » أن دوافع الناس النفعية تتحول بحكم التفاعل بينها بحيث تسفر عن نتائج أبعد ما تكون عن التوقع ونقصد بذلك التجانس الاجتماعى .

أنظر مثلا إلى مشكلة الأثمان العالية . لنفرض أن لدينا مائة من صانعى القفازات . إن مصلحة كل منهم الذاتية تجعله يرغب فى رفع الثمن فوق تكلفة الإنتاج وبذلك يحقق الربح الزائد . ولكنه لا يستطيع ذلك لأنه إذا رفع ثمنه فسوف يتقدم منافسوه وينتزعون السوق منه بأن يبيعوا بأقل من الثمن الذى يطلبه . ولا يمكن فرض سعر مرتفع بغير مبرر إلا إذا اتحد جميع صناع القفازات وكونوا جبهة متماسكة صلبة ، وفى هذه الحالة سوف يتحطم التآلف المتآمر بظهور صانع نشيط من ميدان آخر — وليكن صناعة الأحذية — يقرر أن ينقل رأسماله إلى صناعة القفازات حيث يستطيع أن يسرق السوق عن طريق تخفيض أثمانه ..

ولكن قوانين السوق لا تفرض على المنتجات سعراً تنافسياً فحسب ، بل وتحرص على أن يراعى المنتجون بالمجتمع مطالب المجتمع بشأن مقادير السلع

التي يريدها . لنفرض أن المستهلكين يقررون أنهم يريدون قفازات أكثر مما يجرى إنتاجه وأحذية أقل . بناء على هذا سوف يتهافت الجمهور على المخزون من القفازات فى السوق وتصاب سوق الأحذية بالركود مما يترتب عليه أن تميل أسعار القفازات إلى الإرتفاع كلما زادت مشتريات المستهلكين منها على الموجود منها بالفعل ، وتميل أسعار الأحذية إلى الهبوط حين لا يقبل الجمهور على مخازنها . ولكن إذ ترتفع أثمان القفازات ترتفع الأسعار فى هذه الصناعة أيضاً ، وإذ تهبط أثمان الأحذية تتناقص الأرباح فى هذه الصناعة . ومرة أخرى تتقدم المصلحة الذاتية لتصحيح الميزان ، إذ يتحرر العمال من صناعة الأحذية حين تقلل مصانعها من الإنتاج وينتقلون إلى صناعة القفازات حيث الأعمال فى رواج . والنتيجة واضحة تماماً : وهى ارتفاع إنتاج القفازات وهبوط إنتاج الأحذية .

وهذا بالضبط ما أراده المجتمع فى أول الأمر . وإذ يزداد عدد القفازات لمواجهة الطلب تأخذ الأسعار فى النزول . وإذ يقل عدد الأحذية فسرعان ما يختفى الفائض منها وتأخذ أسعار الأحذية فى الارتفاع من جديد حتى تصل إلى المستوى العادى . فعن طريق جهاز السوق يكون المجتمع قد غير تخفيض عناصر الإنتاج حتى تناسب رغباته الجديدة . وتم هذا دون أن يصدر أحداً أمراً ، أو تضع سلطة تخطيطية جداول زمنية مقررة للإنتاج . وهذا الإنتقال حققته المصلحة الذاتية والمنافسة حين تعمل كل منهما ضد الأخرى .

وثمة إنجاز أخير . فكما تنظم السوق الأثمان ومقادير السلع طبقاً لرأى الحكم النهائى وهو الطلب من جانب الجمهور ، كذلك تنظم دخول الذين يتعاونون فى إنتاج تلك السلع . فاذا كانت الأرباح فى قطاع من الأعمال من الكبر بحيث تتجاوز القدر الواجب فسوف يهجم رجال الأعمال الآخرون على هذا الميدان إلى أن تخفض المنافسة من الفائض . وإذا كانت الأجور فى نوع معين من العمل على خلاف المألوف فسوف يهجم العمال على ذلك العمل المحبب إلى أن تصبح الأجور فيه لا تزيد عما تؤديه الأعمال المماثلة له من حيث درجة

الحذق والتدريب . وبالعكس ، إذا كانت الأرباح أو الأجور أقل مما ينبغى فى مجال معين من الحرف فسوف يخرج منه رأس المال والعمل إلى أن يصبح عرضهما أفضل اتفاقاً مع الطلب عليهما .

كل هذا قد يبدو أولياً نوعاً ، ولكن تمعن ما فعله آدم سميث بكل هذا الذى تحدث به عن دافع المصلحة الذاتية وتنظيم المنافسة . فهو قد يشرح أولا كيف يحال بين الأسعار وبين الاختلاف بطريقة تعسفية عن التكلفة الفعلية لإنتاج سلعة ما. ثم أوضح ثانياً كيف يستطيع المجتمع أن يغرى منتجى السلع على تزويده بما يريد . وأبان ثالثاً كيف أن الأسعار العالية مرض يشفى نفسه بنفسه لأنها تسبب الإنتاج فى تلك الفروع التى يراد زيادته فيها . وأخيراً فسر السبب فى وجود تشابه أساسى فى الدخول عند كل مستوى من الطبقات المنتجة الكبيرة فى الشعب . وبكلمة واحدة وجد فى جهاز السوق نظاماً ينظم نفسه من أجل تزويد المجتمع بحاجته بصورة منظمة .

لاحظ عبارة « تنظيم نفسه » . فالنتيجة الجميلة المترتبة على قيام السوق هى أنها الحارس الذى يحمى بها نفسه . فاذا كان الإنتاج أو الأثمان أو أنواع معينة من الجزاء تشرد عن المستويات التى يقررها المجتمع تحركت قوى تعيدها إلى الحظيرة ويترتب على هذا تناقض غريب : فالسوق وهى ذروة الحرية الإقتصادية الفردية هى أدق من يلاحظ العمل ويوزعه . قد يلتمس المرء قراراً تصدره هيئة تخطيط أو يحصل على ترخيص من وزير ، ولكن ليس هناك التماس أو ترخيص من الضغوط المجهولة التى يحدثها جهاز السوق . وهكذا فالحرية الإقتصادية وهم أكثر مما تبدو به فى مبدأ الأمر . يستطيع المرء أن يفعل ما يحلو له فى السوق ولكن إذا شاء أن يفعل ما لا ترضى عنه السوق فسوف يكون الخراب الإقتصادى ثمن الحرية الفردية .

فهل يسير العالم حقيقة وفقاً لهذه الطريقة ؟ كان الأمر كذلك إلى حد كبير فى أيام آدم سميث . وحتى فى زمنه بطبيعة الحال كانت هناك عوامل

تحد من حرية مفعول نظام السوق ، ومن ذلك الارتباطات بين رجال الصناعة الذين رفعوا الأسعار بطريقة مفتعلة ، والجمعيات المكونة من عمال المياومة ممن قاوموا ضغوط المنافسة حين أدت هذه المنافسة إلى خفض أجورهم ، كما توافرت دلالات أبعث على القلق يمكن قراءتها . فقد كان مصنع اخوان لومب أكثر من مجرد معجزة هندسية ومصدر يعجب له الزائر . كان دلالة على مقدم الصناعة الكبيرة وظهور أصحاب الأعمال ممن كانوا ممثلين فرديين على مسرح السوق وعلى جانب هائل من القوة . لم يكن فى الإمكان بالتأكيد اعتبار الأطفال فى معامل القطن عوامل بالسوق لها نفس القوة التى لأصحاب الأعمال الذين كانوا يهيئون للأطفال المسكن والغذاء ويستغلونهم ، ولكن بالرغم من كل الدلائل المنذرة بالخطر كانت انجلترا فى القرن الثامن عشر تقترب من النموذج الذى تصوره آدم سميث . ولو لم تنسجم معه كلية . كان النشاط الإقتصادى تنافسياً ، وكان المصنع العادى المتوسط صغيراً ، وكانت الأثمان ترتفع أو تهبط فعلا تمشياً مع هبوط الطلب أو ارتفاعه ، وكانت الأثمان تستدعى فعلا تغييرات فى الإنتاج والحرفة . لقد أطلق على العالم الذى تحدث عنه آدم سميث عالم المنافسة الذرية أى العالم الذى لم يكن فيه أى جزء من الجهاز الإنتاجى ، سواء كان العامل أو الرأسمالى ، من الكبر إلى الحد الذى يجعله يتدخل فى الضغوط الناشئة عن المنافسة أو يقاومها . كان عالماً يرغم كل عامل من عوامل الإنتاج على استعجال مصلحته الذاتية فى حرية اجتماعية هائلة للجميع .

وماذا عن اليوم ؟ هل لا يزال جهاز السوق التنافسى يضطلع بوظيفته ؟

ليس هذا بسؤال يمكن أن نقدم عنه إجابة بسيطة . فقد تغيرت طبيعة السوق تغيراً ضخماً منذ القرن الثامن عشر ، ولم نعد نعيش فى عالم من المنافسة الذرية لا يستطيع أى شخص فيه أن يسبح ضد التيار . إن جهاز السوق اليوم يتميز بالحجم الهائل الذى يبدو به المشتركون فيه ، فالشركات العملاقة والنقابات العمالية العملاقة بالمثل لا تتصرف كما لو كانت ملاكاً وعمالا

فردين . وحجمها الضخم هذا نفسه يجعل فى مستطاعها أن تصمد أمام الضغوط التى تحدثها السوق ، وأن تغفل العلامات التى يدل عليها الثمن ، وأن تعتبر أن مصلحتها الذاتية سوف تكمن فى الأجل الطويل فى الضغط العاجل الناشىء عن الشراء والبيع فى كل يوم .

وفضلا عن هذا غير ازدياد التدخل الحكومى من نطاق جهاز السوق . فكما كان شأن السيد فى العصور الوسطى ، فإن الحكومة لا تعترف بسيد لها فى السوق ، وغالباً ما تحدد السوق بدلا من أن تطيعها . أما أن هذه العوامل كلها أضعفت الوظيفة التوجيهية الأساسية التى كانت للسوق فأمر ظاهر ، وسوف نعنى فى موضع قادم بما يقوله الإقتصاديون المعاصرون عن هذه المشكلة . ولكن قد يبدو بالرغم من ذلك أنه بسبب كل الصفة الجديدة التى يتميز بها المجتمع الصناعى فى القرن العشرين ، فإن المبادئ العظيمة عن المصلحة الذاتية والمنافسة لا تزال تزودنا بقواعد السلوك الأساسية التى لا يستطيع أى شريك اقتصادى أن يتغافل عنها كلية مهما حاولنا التقليل من شأنها أو الخروج عليها . لسنا نعيش فى عالم آدم سميث ، ولكننا ما نزال نلمح قوانين السوق لو أننا نظرنا إلى ما دون السطح .

غير أن قوانين السوق ليست إلا وصفاً للسلوك الذى يكسب المجتمع قدرته على التماسك . إن شيئاً آخر يجب أن يجعله يسير . وبعد تسعين عاماً من صدور « ثروة الشعوب » راح كارل ماركس يعلن بصورة تنذر بالخطر أنه أزاح الستار عن « قوانين الحركة » التى وصفت كيف أن الرأسمالية تسير نحو مصيرها فى بطء وعلى غير رغبة منها ، ولكن بقدر محتوم . ولكن كتاب « ثروة الشعوب » كانت له قوانينه عن الحركة . ومهما يكن من أمر ، وعلى خلاف النذير الماركسى تماماً ، فان عالم آدم سميث كان يسير ببطء وعلى رضاء تام منه ، وبصورة حتمية أقل أو أكثر ، نحو مثوى الأبطال .

وكان مثوى الأبطال آخر مقر يتنبأ به معظم المراقبين . فحين كان سير جون بينج يطوف أنحاء الإقليم الشمالى فى عام ١٧٩٢ نظر من نافذة عربته ثم

كتب يقول « لماذا . إن هنا الآن معملا متوهجاً كبيراً . . الوادى كله يضطرب . . قد يكون سير ريتشارد أركريت قد جاء بثروة كبيرة إلى أسرته والبلاد ، ولكنى كسائح ألعن مشروعاته التى زحفت على كل واد بالريف فحطمت الطريق وجمال الطبيعة » . وعند ما وصل سير جون إلى منشستر قال « أوه ! ! إن منشستر هذه أشبه بجحر كلب ! ! » .

والحق أن الكثير من إنجلترا كان جحر كلب . فالقرون الثلاثة التى تميزت بالاضطراب والتى دفعت بالأرض والعمل ورأس المال إلى الوجود بدا كأنها لم تزد عن كونها تمهيداً لاضطراب جديد ، إذ بدأت عوامل الإنتاج التى تحررت حديثاً ترتبط فيما بينها على شكل جديد وقبيح ، ذلك هو المصنع . ومع المصنع جاءت مشكلات جديدة . فقبل الرحلة التى قام بها سير جون بعشرين عاماً كان ريتشارد أركريت الذى جمع رأس مال قليلا من بيع شعر النساء لعمل الشعر المستعار ، قد اخترع (أو سرق) آلة النسيج . ولكن بعد أن صنعها وجد أنه ليس من السهل توفير العمل لإدارتها لأن العمال المحليين لم يكونوا قادرين على التمشى مع « السرعة المنتظمة » التى اتسمت بها العملية — وكان العامل الأجير ما يزال موضع الاحتقار بوجه عام ووجد كثيرون من الرأسماليين كيف أن المصنع الذى بناه حديثاً حرق حتى دمر وذلك لمجرد الحقد الأعمى . واضطر أركريت أن يتجه نحو الأطفال — « إذ كانت أصابعهم الصغيرة نشيطة » — وفضلا عن هذا ، لما لم يكونوا قد اعتادوا الحياة المستقلة فى الزراعة أو الحرف فسرعان ما تعودوا على نظام الحياة بالمصنع . ولقيت هذه الحركة التى أقدم عليها الترحيب بوصفها دليلا على الروح الإنسانية — أليس تشغيل الأطفال مما يساعد على تخفيف بؤس « الفقراء الذين لا نفع فيهم » ؟

لأنه إذا كان ثمة مشكلة استأثرت باهتمام الرأى العام ، إلى جانب ما كان يشعر به من إعجاب ورعب إزاء المصنع ، فقد كانت هى المشكلة القائمة فى كل مكان والمتعلقة بالفقراء الذين لا فائدة منهم . كانت إنجلترا فى عام

١٧٢٠ تزدحم بمليون ونصف مليون منهم — وهو رقم يدعو إلى الفزع إذا ذكرنا أن مجموع سكانها لم يتجاوز اثنى عشر أو ثلاثة عشر مليوناً . ومن هنا كان الجو مليئاً بالمشروعات التى تهدف إلى التصرف فيهم ، ومعظمها يدعو إلى اليأس ، كانت الشكوى العامة منصبة على ما اتصف به الفقر من خمول لا يمكن اجتثاثه ، وامتزج هذا بالذعر بسبب الطريقة التى راحت بها الطبقات الدنيا تقلد من هم خير منها . كان العمال يشربون الشاى فعلا ! ! وبدا أن العامة يفضلون خبز القمح على رغيفهم التقليدى المصنوع من الشوفان أو الشعير ! ! وأخذ المفكرون فى ذلك العصر يتساءلون عما يمكن أن يؤدى إليه هذا كله . ألم تكن حاجات الفقراء (والتى « من الحكمة التخفيف منها ولكن من الحماقة علاجها » كما عبرت عن ذلك إحدى المنشورات المعاصرة) جوهرية لرفاهية الدولة ؟ ماذا يحدث للمجتمع لو سمح بزوال الطبقات التى ينقسم إليها المجتمع والتى لا غنى عنها ؟

ولكن إذا كان الذعر يصف الاتجاه السائد فى ذلك العصر إزاء الجمهرة الكبيرة غير المحدودة الشكل من إنجلترا العاملة إلا أنه على التحقيق لم يصف فلسفة آدم سميث الذى قال : « لا يمكن بالتأكيد لأى مجتمع أن يكون مزدهراً وسعيداً إذا كان القسم الأكبر من أفراده فقيراً وبائساً » . ولم يقف عند حد المجازفة بإبداء مثل هذا البيان الجذرى بل راح يبين أن المجتمع كان يسير حقيقة فى طريق التحسن ويوجه بغير اختيار من جانبه صوب هدف إيجابى . لم يكن يتحرك لأن أحداً أراد ذلك أو لأن البرلمان قد يصدر القوانين ، أو أن إنجلترا تكسب معركة . ولكنه يتحرك لأن هناك قوة ديناميكية مخفية تحت سطح الأشياء التى تحرك الكل الاجتماعى كأنها آلة هائلة . ذلك أن حقيقة هامة استرعت اهتمام آدم سميث وهو ينظر إلى الصورة التى تراءت بها إنجلترا ، وهى الكسب الهائل فى الإنتاجية والذى نشأ عما اتصف به العمل من تقسيم دقيق وتخصص . وهذا ما رآه سميث وهو يتوجه إلى مصنع للدبابيس « إن رجلا واحداً يسحب السلك ، والآخر يمدده ، وثالث يقطعه ، ورابع يجعله

مدبباً ، وخامس يسحقه عند طرفه حتى يستقبل رأس الدبوس . وعمل الرأس يتطلبه عمليتين أو ثلاثاً متميزة ، بل إن وضعها فى الورق حرفة قائمة بذاتها . . لقد رأيت مصنعاً من هذا القبيل يعمل فيه عشرة أشخاص وحيث كان بعضهم نتيجة لذلك يؤدى عمليتين أو ثلاث عمليات متميزة . وبالرغم من أنهم كانوا فقراء جداً . وبالتالى غير مزودين بالآلات الضرورية ، فقد كان فى إمكانهم لو بذلوا الجهد ، أن يصنعوا فيما بينهم اثنى عشر رطلا من الدبابيس فى اليوم . وفى الرطل أكثر من أربعة آلاف دبوس من الحجم المتوسط . وعلى ذلك كان فى إمكان هؤلاء الرجال العشرة أن يصنعوا فيما بينهم ما يزيد على ثمانية وأربعين ألف دبوس فى اليوم . . . ولكن لو أن كلا منهم اشتغل بمفرده ومستقلا عن غيره . . . لما استطاع أى منهم بالتأكيد أن يصنع عشرين دبوساً ، وربما لم يصنع دبوساً واحداً فى اليوم » .

لا تكاد تشعر بالحاجة إلى أن نبين أن أساليب الإنتاج اليوم أشد تعقيداً بصورة لا حد لها عما كانت عليه أساليب القرن الثامن عشر . فسميث بالرغم من كل الذين يجحدونه حقه ، كان متأثراً بمصنع صغير يضم عشرة أشخاص إلى الحد الذى كان كافياً كى يعلق عليه . فماذا كان يمكن أن يراه بصدد مصنع يستخدم عشرة آلاف شخص ؟ ولكن الهبة العظيمة التى هيأها تقسيم العمل تتمثل فى تعقيده — إذ الحق أنها تبسط معظم العمل الشاق . إن ميزته تكمن فى قدرته على زيادة ما يسميه سميث « ذلك الرخاء الشامل الذى يمتد حتى يصل إلى أدنى الناس مرتبة » . ذلك الرخاء الذى شهده القرن الثامن عشر يبدو كأنه شىء قاتم من وجهة نظر المركز الممتاز الذى نشغله فى الوقت الحاضر . ولو أننا نظرنا إلى المسألة فى صورتها التاريخية . ولو وازنا بين حظ العامل فى إنجلترا فى القرن الثامن عشر وحظ زميله الذى عاش قبله بقرن أو قرنين ، لاتضح أنه مهما كانت حياته دنيئة فقد كانت تشكل تقدماً بالغاً . وهذه النقطة يوردها سميث بوضوح فيقول :

« لاحظ معيشة أكثر الصناع أو عمال اليومية فى بلد متحضر ومزدهر

وسوف ترى أن عدد الذين استخدم جزء ، وإن كان صغيراً ، من جهدهم فى تزويده بهذا العيش يفوق كل حساب . فالمعطف المصنوع من الصوف مثلا والذى يكسو جسد العامل اليومى ، وإن بدا خشناً وغليظاً ، هو نتاج العمل المشترك من جانب عدد كبير من العمال . فالراعى ، ومصنف الصوف ، والمشطة ، والصباغ ، والمحلج ، والغزال ، والنساج ، والقصار والمرتب ، وغيرهم كثيرون ، هؤلاء جميعاً يجب أن يضموا فنونهم المختلفة كى يتموا حتى مثل هذا الإنتاج الساذج . وكم عدد التجار والحمالين الذين كان من الواجب استخدامهم إلى جانب هؤلاء . . . وكم مقدار التجارة والملاحة . . وكم عدد بناة السفن والبحارة وصانعى الشراع والحبال . .

ولو فحصنا بالطريقة ذاتها مختلف أجزاء ملبسه وأثاثه المنزلى والقميص الكتانى الخشن الذى يرتديه فوق جسده مباشرة والأحذية التى تغطى قدميه ، والسرير الذى يرقد فوقه والموقد الذى يطهو عليه طعامه فى المطبخ ، والفحم الذى يستخدمه لذلك الغرض والذى يستخرجه من باطن الأرض ويؤتى به إليه ربما مسافة طويلة عبر البحر أو بالبر ، وجميع أدوات مطبخه الأخرى ، وجميع أدوات مائدته من السكاكين والشوك ، والأطباق المصنوعة من الفخار أو كلس القصدير التى يعد عليها ويوزع طعامه ، والأيدى العاملة المختلفة التى استخدمت فى إعداد خبزه ، وجعته ، وزجاج النافذة الذى يسمح بتسرب الحرارة والضوء ، ويمنع عنه الهواء والمطر ، بكل المعرفة والفن اللازمين لإعداد ذلك الإختراع الجميل السعيد . . أقول لو فحصنا كل تلك الأشياء . . فسوف ندرك أنه بدون مساعدة وتعاون الآلاف الكثيرة فلن يتمكن أحقر شخص فى بلد متحضر من تزويده ، حتى طبقاً لما نتصوره باطلا جداً ، بالأسلوب السهل البسيط الذى جرت العادة أن يعيش وفقاً له . ولو قارنا هذا حقيقة بالترف الأكثر إسرافاً الذى يعيش فيه العظماء لوجب أن تبدو معيشته بسيطة وسهلة للغاية بغير شك ، ومع ذلك قد يصبح أن توفير أسباب العيش لأمير أوربى لا يفوق كثيراً دائماً ما يلزم فلاحاً مجداً ومقتصداً كما يزيد

أسباب معيشة الآخرين على معيشة الكثيرين من الملوك الأفريقيين الذين يسيطر الواحد منهم سيطرة مطلقة على حياة عشرة آلاف من المتوحشين العراة وحرياتهم .

ما هذا الذى يدفع المجتمع إلى هذا التضعيف العجيب للثروة والثراء ؟ إن بعض السبب راجع إلى جهاز السوق نفسه لأن السوق تسخر قوى الإنسان الخلاقة فى بيئة تشجعه بل وترغمه ، على الإختراع والتجديد والتوسع واحتمال الأخطار . ولكن ضغوطاً أساسية بصورة أعظم تكمن وراء نشاط السوق الذى لا ينتهى . والحقيقة أن سميث يرى قوانين عميقة الجذور للتطور تحرك نظام السوق فى شكل حلزونى صاعد من الإنتاجية .

وأول هذه القوانين قانون التجميع .

لنذكر أن سميث عاش فى زمن كان فى وسع الرأسمالى الصناعى الناهض أن يجمع ثروة من مدخراته بل وكان يجمعها بالفعل . فريتشارد أركريت الذى كان صبى حلاق وهو شاب مات فى عام ١٧٩٢ مخلفاً وراءه ممتلكات قيمتها ٥٠٠,٠٠٠ جنيه . وصمويل ووكر الذى بدأ كوراً للحدادة فى ورشة قديمة للمسامير فى روزهام ترك من بعده مسبكاً للصلب فى ذلك الموضع قيمته ٢٠٠,٠٠٠ جنيه . وجوسيا ووجوود الذى بتر مصنعه للفخار على ساق خشبية وكتب يقول « هذا لا يصلح لجوس ووجوود » حيثما وجد دليلا على العمل المهمل ، ترك عقاراً قيمته ٢٤٠,٠٠٠ جنيه وأملاكاً زراعية كثيرة . إن الثروة الصناعية فى مراحلها الأولى كانت مستودعاً حقيقياً للثراء يخطف منه كل من أبدى القدر الكافى من السرعة أو الذكاء أو النشاط كى يسير مع تيارها .

وكان هدف أغلبية الرأسماليين الصاعدين الكبير ، أولا وأخيراً ودائماً تجميع مدخراتهم . ففى بداية القرن التاسع عشر كانوا يجمعون ٢٥٠٠ جنيه فى منشستر لإنشاء مدارس الأحد ، وكان المبلغ الكلى الذى أسهم به فى هذه

القضية الكريمة أكبر أصحاب الأعمال فى هذه الجهة وهم غزالو القطن ، ٩٠ جنيهاً . كانت لدى الأرستقراطية الصناعية الشابة أشياء تستثمر فيها أموالها أفضل من هذه الأعمال الخيرية غير المنتجة — كان عليها أن تجمع المال وهذا ما وافق عليه آدم سميث من كل قلبه . وويل لمن لم يستطع هذا التجميع . وفيما يتعلق بالشخص الذى كان يعتدى على رأسماله فإنه يشبه ذلك الذى يسىء التصرف فى إيرادات مؤسسة خيرية بتحويلها إلى أغراض دنسة ، فهو يدفع أجور الحمول بتلك الأموال التى خصصها أسلافه ، كما كان الشأن ، للإبقاء على الصناعة » .

ولكن آدم سميث لم يقر التجميع لذاته . لقد كان أخيراً فيلسوفاً يشعر بازدراء الفيلسوف إزاء غرور الغنى . والأحرى أن سميث كان يرى فى تجميع رأس المال منفعة ضخمة للمجتمع ، لأن رأس المال إذا استخدم فى آلات فإنه يهيئ ذلك التقسيم المدهش للعمل والذى يضاعف من طاقة الإنسان الإنتاجية . ومن هنا يصبح التجميع من أسلحة سميث ذات الحدين : أى أن ما يتصف به جشع الفرد من حرص يرتد ثانية ليحقق رفاهية الجماعة . وسميث لا يشعر بالقلق من ناحية المشكلة التى سوف تواجه الإقتصاديين فى القرن العشرين وهى : هل تشق التجميعات الخاصة بالفعل طريقها من جديد إلى استعمالات أكثر ؟ إن العالم فى نظره قادر على التحسين الذى لا حدود له ، وحجم السوق لا يحد منها إلا مداها الجغرافى . جمعوا المال وسوف يستفيد العالم . هذا ما يقوله سمث . ومن المحقق أنه فى ذلك الجو الشبق الذى عاش فيه لم يكن هناك أى دليل على انعدام الرغبة فى جمع المال من جانب الذين كانوا فى مركز يمكنهم من ذلك .

ولكن — وهنا صعوبة — فالتجميع سرعان ما يؤدى إلى موقف يصبح فيه المزيد منه أمراً مستحيلا . لأن التجميع كان معناه مزيداً من الآلات ، وهذا معناه ازدياد الطلب على العمال مما يؤدى بدوره عاجلا أو آجلا ، إلى اطراد الارتفاع فى الأجور أى أن تمتص الأرباح وهى مصدر التجميع .

فكيف يجرى التغلب على هذه الصعوبة (المشكلة) . ويجرى التغلب عليها بفعل القانون العظيم الثانى فى النظام وهو قانون السكان . فالعمال عند آدم سميث شأنهم شأن أية سلعة أخرى ، يمكن إنتاجهم حسب الطلب . فإذا كانت الأجور مرتفعة تضاعف عدد العمال ، وإذا هبطت تناقص عدد أفراد الطبقة العـــاملة .

ليست هذه الفكرة ساذجة تماماً كما تبدو لأول نظرة . ففى أيام سميث كانت نسبة وفيات الأطفال فى صفوف الطبقات الدنيا عالية بشكل مفزع . وفى هذا يقول « ليس من غير العادى . . فى مرتفعات أسكتلندة ألا يعيش للأم التى ولدت عشرين طفلا سوى اثنين » . وفى أماكن كثيرة بإنجلترا كان نصف الأطفال يموتون قبل أن يبلغوا سن الرابعة ، وفى كل مكان تقريباً لم يعش حتى سن التاسعة أو العاشرة سوى نصف الأطفال . كان سوء التغذية وأحوال السكنى الشريرة والبرد والمرض ظروف تقضى على نسبة مريعة فى صفوف الطبقات الفقيرة .

ومن هنا بينما قد لا تؤثر الأجور العالية إلا تأثيراً طفيفاً فى معدل المواليد ، فقد كان فى الإمكان أن نتوقع لها تأثيراً بالغاً على الأطفال الذين يبلغون سن العمل .

وبذلك إذا كان الأثر الأول الناجم من التجميع رفع أجور الطبقة العاملة فهذا الإرتفاع بدوره يسبب الزيادة فى عدد العمال . وهنا يتولى الأمر جهاز السوق . فكما تؤدى الأسعار المرتفعة إلى زيادة إنتاج القفازات مما يسفر بالتالى عن خفض ثمنها ، كذلك يترتب على ارتفاع الأجور تدفق عدد أكبر من العمال مما يحدث ضغطاً مضاداً على مستوى أجورهم . فالسكان شأنهم شأن القفازات ، مرض يشفى نفسه بنفسه — وذلك فيما يتعلق بالأجور .

كان معنى هذا أن التجميع يمكن أن يستمر فى أمان لأن ارتفاع الأجور المترتب عليه والذى هدد بأن تصبح مواصلة التجميع عملية غير مجزية ، تحد

منه الزيادة فى عدد السكان . فالتجميع يخلق الظروف التى تؤدى إلى توقفه ، ثم يجرى إنقاذه فى اللحظة الأخيرة . والعقبة التى يمثلها ارتفاع الأجور يزيلها النمو فى عدد السكان ذلك النمو الذى جعلته الأجور البالغة الارتفاع فى حيز الإمكان العملى . هناك شىء يخلب اللب فى هذه العملية الآلية التلقائية من حيث مضاعفة حدة المرض وعلاجه ، ومن الدافع والاستجابة ، وهى العملية التى نجد فيها أن نفس العامل الذى يبدو أنه يوجه النظام صوب مصيره ، يولد أيضاً فى دهاء الأحوال اللازمة التى تؤدى إلى تحسين صحته .

على القارىء أن يلاحظ الآن أن سميث أنشأ للمجتمع سلسلة عملاقة لا نهاية لها . فعلى غرار تلك السلسلة من الفروض الرياضية المتداخلة يجرى دفع المجتمع بانتظام وبصورة محتومة فى طريق التقدم . ومن أية نقطة ابتداء يعمل جهاز السوق الذى يسبر غور الأمور ، على أن يسوى أولا بين عائد العمل ورأس المال فى كل استعمالاته المختلفة ، ثم يحرص ثانياً على أن يجرى إنتاج السلع المطلوبة بالمقادير الصحيحة ، كما يضمن بعد ذلك أن تهبط أثمان السلع بفعل المنافسة إلى مستوى تكاليف إنتاجها . ولكن أكثر من هذا ، فإن المجتمع حركى (ديناميكى) . فعند النقطة التى يبدأ منها يحدث تجميع الثروة الذى يترتب عليه ازدياد تسهيلات الإنتاج وازدياد تقسيم العمل. كل هذا حتى الآن يؤدى إلى ما فيه الصالح . ولكن التجميع يرفع الأجور أيضاً كلما طلب الرأسماليون عمالاً لإدارة المصانع الجديدة ، الأمر الذى يبدأ معه التجميع يبدو عملا لا جزاء فيه ، ويهدد النظام بالانتكاس . إلا أنه فى هذه الأثناء يكون العمال قد استخدموا أجورهم المرتفعة فى إنتاج مزيد من الأطفال مع تناقص فى عدد الوفيات ، ومن هنا يزيد عرض العمل . وإذ يتضخم عدد السكان تعمد المنافسة بين العمال إلى الضغط من جديد على الأجور فتهبط بها . وهكذا يستمر التجميع ، ويبدأ من جديد اتجاه حلزونى فى سير المجتمع إلى أعلى .

هذا الذى يصفه آدم سميث ليس دورة إقتصادية ، وإنما هو عملية طويلة الأمد ، أى تطور زمنى ، وعملية محققة بصورة تدعو إلى الإعجاب ، والصلة

السابقة تحدد كل شيء على نحو لا حِوَل عنه بشرط عدم التدخل فى جهاز السوق . إن جهازاً ضخماً متداخل الأجزاء يجرى إنشاؤه ويضم فى داخله المجتمع كله ، ولا يبقى خارج سلسلة العلة والنتيجة سوى أذواق الجمهور — لإرشاد المنتجين — والمساحة الفعلية للأرض التى يقيم فيها الشعب .

وعلى القارئ أن يلاحظ فضلا عن هذا أن ما يجرى التنبوء به هو حالة تسير فى طريق التحسن المستمر . حقيقة سوف يرغم الفريق العامل من السكان الأجور دائماً على العودة نحو مستوى الكفاف ، ولكنها تتجه نحوه ولا تعود إليه وطالما تستمر عملية التجميع — وليس من سبب عند آدم سميث يدعو إلى توقفها — فإن أمام المجتمع فرصة لا نهاية لها كى يحسن حظه ومصيره . لم يقصد سميث أن هذا أفضل عالم يمكن وجوده ، فقد قرأ رواية كانديد لفولتير كما لم يكن بالدكتور بانجلوس نفسه . ولكن لم يكن ثمة سبب يحول دون تحرك العالم فى اتجاه التحسين والتقدم . والحق ، لو أننا تركنا جهاز السوق وشأنه وسمحنا له والقوانين الإجتماعية الكبرى أن تؤدى دورها فمن الحتمى أن يتحقق التقدم .

وفى الأجل البعيد جداً ، وفيما وراء الأفق كثيراً ، يستطيع المرء أن يلمح الهدف النهائى الذى يتجه إليه المجتمع . ففىَ ذلك الوقت يكون مستوى الأجور « الطبيعى » قد ارتفع ارتفاعاً بالغاً (لأن سميث يفترض أن أجور الكفاف الأساسية ظاهرة اجتماعية أكثر منها حقيقة حيوانية بهيمية) . وكذلك يصبح مصير مالك الأرض أفضل بسبب كبر الزيادة فى عدد السكان وضغطهم على ما كان بعد كل شيء مورداً ثابتاً من الأرض وهبه الله . والرأسمالى وحده هو الذى يلقى مصيراً صعباً إذ يكون الثراء قد تضاعف بحيث يكاد لا يمكن حسابه . فالرأسمالى يحقق أجور الإدارة التى يتولاها ولكنه يحصل بعد ذلك على قدر يسير من الربح الثمين . سوف يكون شخصاً مجداً ويحصل على جزاء طيب ، ولكن من المحقق أنه لن يصبح بهذا القدر من الغنى المترف . وسوف تكون هذه جنة من العمل الشاق ، والقدر الكبير من الثروة الحقيقية ، والقليل من الفراغ .

ولكن الطريق إلى المكان الذى سوف يستريح فيه المجتمع فى النهاية كان طريقاً طويلاً ، وهناك الكثير الذى يتعين عمله خلال المسافة بين العالم الذى يتحدث عنه آدم سميث وذلك المكان الأخير مما يبرر إنفاق الكثير من الوقت على تفاصيله . إن « ثروة الشعوب » برنامج للعمل وليس كتاباً أزرق عن عالم مثالى خيالى .

ومن الغريب بالدرجة الكافية أن الكتاب لم يستحوذ على الأذهان مباشرة بل لقد سخر منه أقوى رجل فى البرلمان وهو شارل جيمس فوكس، وكان لا بد من انقضاء ثمانى سنوات قبل أن يستشهد بعبارات منه المتحدثون فى مجلس العموم . ثم حين لقى الاعتراف بأهميته — كما حدث بالفعل — جاء الاعتراف من جانب حليف لم يتوقعه أحد . فالرأسماليون الصاعدون — ولنذكر أن هذه الطبقة القوية حديثة النعمة من العصاميين المحدثين لم تزعجها تلك الأفكار عن المساواة أو العدل الإقتصادى والتى عرفها القرن العشرون — نقول إن هؤلاء الرأسماليين وجدوا فى البحث الذى وضعه سميث التبرير النظرى الكامل للمعارضة التى كانوا يبدونها إزاء تشريع المصانع . أما أن سميث كتب « عما فى نفوس التجار ورجال الصناعة من جشع دنىء وروح احتكارية » أو قال عنهم إنهم « ليسوا الحاكمين على الجنس البشرى ولا ينبغى أن يكونوا كذلك » ، فإن هذا كله كان موضع التجاهل بفضل النتيجة العظيمة التى استخلصها سميث من بحثه وهى « دعوا السوق وشأنها » .

كان ما عناه سميث شيئاً أما ما رأى أولئك الذين تولوا عرض أفكاره أنه قصده فشىء آخر . فسميث ، على ما رأينا ، لم يعبر عن مصالح أية طبقة، ولم يكن عبداً لأى نظام ، إن فلسفته الإقتصادية بأسرها كانت نابعة من إيمانه الذى لا يتزعزع بمقدرة السوق على توجيه النظام إلى النقطة التى يحصل عندها على أكبر عائد . فالسوق — تلك الآلة الإجتماعية العجيبة — سوف تعنى بحاجات المجتمع لو تركت وشأنها بحيث تتدخل قوانين التطور لترفع المجتمع صوب الجزاء الموعود . ولم يكن سميث معادياً للعمل أو رأس المال ، وإذا كان

يميل إلى ناحية معينة فهذه الناحية هى المستهلك ، وفى هذا يقول: « المستهلك هو الغاية الوحيدة والغرض الوحيد من الإنتاج » . ثم يروح بعد ذلك يفند تلك النظم التى غلبت مصلحة المنتج على مصلحة المستهلك .

ولكن رجال الصناعة الصاعدين وجدوا فى ذلك الإطراء الذى أسبغه سميث على السوق الحرة غير المقيدة ، المبرر النظرى الذين كانوا بحاجة إليه ليصدوا المحاولات الأولى التى قامت بها الحكومة بقصد علاج الأحوال الشائنة السائدة فى ذلك العصر ، ذلك أن نظرية سميث تؤدى بغير شك إلى مذهب الحرية الإقتصادية أو الإقتصاد المرسل بتعبير آخر . فخير حكومة عند آدم سميث بالتأكيد هى التى تقلل من الحكم ، نظراً لأن الحكومة متلافة ، لا تشعر بالمسئولية ، وغير منتجة . ومع هذا ، لم يكن آدم سميث — كما أراد المعجبون المتأخرون أن يظهروه به — معارضاً بالضرورة فى كل عمل حكومى يستهدف تنمية الرفاهية العامة . فهو يحذر مثلاً مما يسببه الإنتاج الكبير من جهالات إذ يسلب الناس قواهم الطبيعية الخلاقة ، كما يتنبأ بنقص فى فضائل الرجوله بالعامل « إذا لم تبذل الحكومة جهداً من أجل منعه » . وبالمثل فهو من أنصار التعليم العام لرفع مستوى المواطنين حتى لا يظلوا تروساً لا تفقه فى آلة ضخمة .

إن ما يعترض عليه سميث هو تدخل الحكومة فى جهاز السوق ، فهو ضد فرض القيود على الواردات ، ومنح الإعانات عن الصادرات ، وسن القوانين لحماية الصناعة من المنافسة ، وضد الإنفاق الحكومى على غايات ليست إنتاجية . ولاحظ أن هذه الأفعال من جانب الحكومة ترعى مصلحة طبقة التجار . إن سميث لم يواجه أبداً المشكلة التى سوف تسبب الكثير من الألم الفكرى للأجيال التالية — وهى المشكلة التى تتعلق بما لتشريعات الرفاهية التى تسنها الحكومة من أثر فى إضعاف جهاز السوق أو تقويته . وبغض النظر عن إعانة الفقر لم يكن فى عهد سميث تشريع للرفاهية ، إذ كانت الحكومة حليف الطبقات الحاكمة الذى لا يخجل ، وكان الجدل الحاد فى دوائرها

يدور حول الطبقة التى ينبغى أن تحصل على أكبر قسط من الفائدة : ملاك الأرض أم رجال الصناعة . أما أنه ينبغى أن يكون للطبقة العاملة صوت فى توجيه الشئون الإقتصادية ، فشكلة لم تخطر بعقل أى شخص محترم .

إن العدو الكبير الذى يهدد نظام آدم سميث ليس مبلغ التدخل الحكومى بصفته هذه بقدر ما هو الاحتكار أياً كانت الصورة التى يتخذها ، وفى هذا يقول الرجل : « إن أهل الحرفة الواحدة نادراً ما يتلاقون سوياً ، ولكن الحديث بينهم ينتهى دائماً بمؤامرة ضد الجمهور ، أو بنوع من الانحراف بقصد رفع الأثمان » . والعيب فى أمثال هذه التصرفات ليس فى كونها مكروهة فى حد ذاتها من الناحية الأخلاقية — إذ أنها فى نهاية الأمر نتيجة حتمية تترتب على المصالح الذاتية للإنسان — ولكن العيب أنها تحول بين السوق وقيامها بعملها فى يسر وسهولة . وسميث على حق بطبيعة الحال . فإذا كنا نطمئن إلى أن السوق تنتج أكبر عدد من السلع بأقل التكاليف الممكنة ففى هذه الحالة لا بد وأن يؤدى كل تدخل فى السوق إلى التقليل من الرفاهية الاجتماعية ، فإذا حدث ، كما كان الحال فى زمن سميث ، أننا لم نسمح لصانع قبعات باستخدام أكثر من صبيين ، ولصانع أدوات قاطعة بمدينة شفيلد أن يستخدم أكثر من صبى واحد ، ففى هذه الحالة لن يستطيع نظام السوق أن يحقق المنافع الكاملة المرجوة منها . وإذا حدث كذلك ، كما كان الحال فى زمن سميث ، أن ربطنا الفقراء إلى أبرشياتهم المحلية ومنعناهم من التماس العمل حيثما وجد فلن تستطيع السوق أن تجتذب العمل حيث ثمة حاجة إليه . وإذا حدث كما كان الشأن فى أيام سميث ، أن منحت الشركات احتكار التجارة الخارجية فلن يتمكن الجمهور من أن يجنى المنافع الكاملة التى تنجم من شراء المنتجات الأجنبية الرخيصة .

ومن هنا يقول سميث بوجوب إزالة هذه العوائق . يجب أن ندع السوق حرة حتى تكتشف مستوياتها الطبيعية للأثمان والأجور والأرباح والإنتاج ، لأن كل تدخل فى سيرها إنما يتم على حساب ثروة الشعب الحقيقية . ولما كان

أى عمل من جانب الحكومة — وحتّى القوانين التى تنص على طلاء المصانع بالجير أو تحول دون استخدام الأطفال لرعاية الآلات — يمكن أن يفسر على أنه يعرقل حرية مفعول السوق ، لهذا كانوا يسرفون فى الاستشهاد بكتاب « ثروة الشعوب » من أجل معارضة أول تشريع ذى نزعة إنسانية . وهكذا أصبح ينظر إلى الرجل الذى حذر من رجال الصناعة الجشعين فى القرن الثامن عشر لأن « لهم بوجه عام مصلحة فى خداع الجمهور بل واضطهاده » ، على أنه القديس الإقتصادى الذى يرعاهم ، وهى نظرة فيها نوع غريب من الظلم له . وحتّى فى يومنا هذا — وبصورة تنطوى على إغفال جذل لفلسفته الحقيقية — يعتبر سميث بوجه عام إقتصادياً محافظ النزعة بينما كان فى الحقيقة أشد عداء بشكل واضح للدوافع التى تحرك رجال الأعمال ، من معظم الاقتصاديين الذين ناصروا السياسة الجديدة New Deal التى اتبعها روزفلت لمكافحة الأزمة الإقتصادية .

ويمكن القول إن ذلك العالم العجيب الذى تحدث عنه آدم سميث شاهد على الاعتقاد الذى ساد القرن الثامن عشر فى حتمية انتصار المعقولية والنظام على التعسف والفوضى . يقول سميث : « لا تحاول فعل الخير ولكن دعه ينشأ بوصفه منتجاً ثانوياً للأثرة والأنانية » . ومَنْ خلاف الفيلسوف يستطيع أن يكون بمثل هذا الإيمان فى أداة اجتماعية هائلة ، وأن يبرر الغرائز النفعية ويجعل منها فضائل اجتماعية . إن إيمان سميث بالنتائج التى تسفر عنها معتقداته الفلسفية إيمان ثابت ليس فيه فتور . فهو يدعو إلى أن يتقاضى القضاة أتعابهم من المتقاضين لا من الدولة إذ بتلك الوسيلة تدفعهم مصلحتهم الذاتية إلى التعجيل بنظر القضايا المعروضة عليهم . وهو لا يتوقع مستقبلا طيباً للمنظمات التى كانت بصدد الظهور والتى يطلق عليها اسم الشركات الكبيرة إذ ليس ثمة احتمال كبير فى أن تتوافر لها المصلحة الذاتية اللازمة للاضطلاع بهذه المشروعات المعقدة الشاقة . وحتّى الحركات الإنسانية الكبرى من قبيل إلغاء

الرق تراه يدافع عنها بطريقته الخاصة فيقول أن من الأفضل إلغاء الرق إذ يحتمل أن يكون هذا العمل أرخص فى نهاية الأمر .

لقد حول سميث العالم المعقد كله والذى لا يهتدى بالعقل فى تصرفاته ، إلى نوع من نظام عاقل يجرى فى داخله اجتذاب الجزئيات البشرية أى الأفراد نحو الربح وإبعادهم عن الخسارة كما لو أن هذا يتم بقوة مغناطيس . فالنظام يؤدى عمله لا لأن الإنسان يوجهه الوجهة التى يريدها بل لأن المصلحة الذاتية والمنافسة تنظمان الصفوف بالطريقة السليمة ، وأقصى ما يستطيع الإنسان عمله أن يساعد على أن تسير هذه المغناطيسية الإجتماعية الطبيعية فى طريقها ، وأن يزيل أية عوائق تعرقل حرية مفعولها ، وأن يوقف تلك الجهود الموجهة توجيهاً خاطئاً والتى يبذلها من أجل الخلاص من عبوديتها .

ومع هذا ، فبالرغم من كل شذا القرن الثامن عشر ، ومن اعتقاده فى المعقولية والقانون الطبيعى وتلك السلسلة ذات الطابع الآلى من الأفعال وردود الأفعال الإنسانية ، فإن عالم آدم سميث يخلو من قيمه الأسمى . وعليك ألا تنسى أن أعظم مستفيد من النظام كان المستهلك — وليس المنتج . فلأول مرة فى فلسفة الحياة اليومية أصبح المستهلك الملك الذى يجلس على العرش .

وماذا تبقى من الكل ؟

ليس المتبقى فلسفة التطور الكبرى إذ سوف نرى أنها تغيرت تغيراً بعيد الغور على أيدى الاقتصاديين العظام الذين جاءوا من بعده . ولكن يجب ألا ننظر إلى عالم آدم سميث على أنه مجرد محاولة بدائية لوضع صيغ شكلية تتجاوز نطاق فهمه . لقد كان سميث الإقتصادى الذى عبر عن الرأسمالية فى مرحلتها السابقة على العصر الصناعى ، ولم يعش كى يرى نظام السوق تهدده المشروعات الهائلة ، أو يرى قوانينه بشأن التجميع والسكان تقلبها رأساً على عقب التطورات الاجتماعية التى وقعت بعد ذلك بخمسين عاماً . حين عاش سميث وكتب لم تكن هناك ظاهرة واضحة يمكن أن ندعوها « الدورة

الإقتصادية » لأن العالم الذى كتب عنه كان قائماً بالفعل . والمحاولة التى قام بها سميث من أجل صوغ نظام له ، وان كانت محاولة آلية ، تهىء لنا أفضل تفسير يمكن الوصول إليه .

ولكن لا بد أن شيئاً ما كان ينقص نظرية سميث . فبالرغم من أنه كان يرى المجتمع يسير فى طريق التطور فإنه لم ير ثورة توشك أن تحدث — تلك هى الثورة الصناعية . ففى نظام المصانع ذى الوجه القبيح ، أو فى نظام الشركات الذى حاولت قبل ذلك بفترة وجيزة أن تبدو به منظمات الأعمال ، أو فى المحاولات الضعيفة التى قام بها المياومون من أجل تكوين منظمات تحميهم ، فى كل هذه الظاهرات لم ير سميث قوى اجتماعية جديدة وقوية وذات قدرة هدامة ، تظهر لأول مرة ، إذ يمكن القول إن فلسفته كانت تفترض أن إنجلترا بحالتها التى كانت عليها فى القرن الثامن عشر سوف تبقى دون أن يطرأ عليها تغيير . سوف تنمو ولكن من وجهة الكم أى تحدث فيها زيادة تتناول عدد السكان ومقادير السلع ومبلغ الثروة ، أما صفتها فلن تتغير . إن الديناميكية التى يتحدث عنها هى ديناميكية مجتمع ساكن ، مجتمع ينمو ولكن دون أن ينضج أبداً .

ولكن بالرغم من استبعاد فلسفته عن التطور ، تظل الصورة الكبيرة التى رسمها للسوق إنجازاً عظيماً . من المؤكد أن سميث لم (يكتشف ، السوق إذ سبقه غيره فأوضحوا كيف يؤدى التفاعل بين المصلحة الذاتية والمنافسة إلى تزويد المجتمع بحاجاته ، ولكنه كان أول من فهم فلسفة العمل الكاملة التى تتطلبها مثل هذه الفكرة ، وأول من صاغ الفلسفة بأسرها فى أسلوب عريض منظم . لقد كان الرجل الذى جعل إنجلترا ومن بعدها العالم الغربى بأسره ، يفهمان كيف يحافظ المجتمع على تماسكه ، وكان أول من أقام صرحاً للنظام الاجتماعى على أساس الفهم الذى وصل إليه . سوف يضيف الإقتصاديون المتأخرون إلى الوصف الذى قدمه سميث للسوق وسوف يبحثون فى قلق عن

النقائض التى ظهرت فيها فيما بعد ، ولكن أحداً منهم لن يضيف جديداً إلى الثراء والحياة اللذين أشاعهما سميث فى هذا الوجه الذى يبدو به العالم .

إن ما امتاز به سميث من سعة فى الأفق ومعرفة موسوعى الطابع لا يمكن ان يستحقا سوى الإعجاب ، وما كان فى الوسع أن يوضع مثل هذا الكتاب الضخم ، الشامل كل شيء ، والثابت اللازع والذى يمتاز بالعمق ، إلا فى القرن الثامن عشر . إن سميث قد استبق ڤبلن بمائة وخمسين عاماً حين كتب « أن التمتع الرئيسى بالنسبة إلى الشطر الأكبر من الأغنياء ينحصر فى استعراض الثراء الذى لا يبدو أبداً كاملا فى نظرهم إلا حين يظهر أنهم يملكون تلك العلامات الحاسمة الدالة على الغنى والتى لا يمكن أن يملكها سواهم » . وكان سياسياً سبق عصره حين قال « إذا لم يكن فى الإمكان أن نجعل أى إقليم من أقاليم الإمبراطورية البريطانية يسهم فى دعم الإمبراطورية كلها فقد حان الوقت بالتأكيد كى تتخلص بريطانيا العظمى من تكلفة الدفاع عن تلك الأقاليم فى وقت الحرب ودعم أى جزء من مؤسساتها المدنية أو العسكرية فى زمن السلم ، وأن تحاول التوفيق بين آرائها وخططها المستقبلة بحيث تجعلها تتمشى مع الحالة الوسط الحقيقية التى تتصف بها ظروفها » .

ربما لن يظهر من جديد إقتصادى بمثل هذا الإلمام الشامل بعصره كما فعل آدم سميث . ومن المؤكد أن أحداً سواه لم يماثله فى الرصانة والخلو من التمرد والقدرة على النقد النفاذ فى غير غل أو ضغينة ، أو فى التفاؤل فى غير خيال . ومن المحقق أنه شارك العصر معتقداته ، والحق لقد ساعد على صياغتها . لقد كان عصراً تسوده الفلسفة الإحيائية والعقل ، وبينما يمكن الإنحراف بهما لتحقيق أقسى الأغراض وأشدها عنفاً فإن سميث لم يكن متعصباً أو مدافعاً أو من دعاة الحلول الوسطى ، لقد تساءل فى كتابه نظرية المشاعر الخلقية: « ما الغرض فى كل ما نلقاه من النصب والضجيج فى هذا العالم ؟ ما غاية الجشع والطمع ، والجرى وراء الثروة ، والقوة والتفوق ؟ » ويمدنا كتاب

« ثروة الشعوب » بالجواب : « كل هذا التهافت الجشع على الثروة والمجد نلقى ما يبرره أخيراً فى رفاهية الرجل العادى » .

وفى أواخر أيام سميث انهالت عليه مظاهر التكريم والاحترام ، فسافر بيرك إلى إدنبره كى يراه ، وانتخب مديراً لجامعته القديمة فى جلاسجو ، ورأى كتابه « ثروة الشعوب » يترجم إلى الدنمركية والفرنسية والألمانية والإيطالية والأسبانية . ولم تتجاهله سوى جامعة أكسفورد التى لم تتنازل فتمنحه إحدى درجات الشرف الجامعية . وحدث ذات مرة أن كان بت الأصغر وكان رئيساً للوزراء مجتمعاً مع أدنجتون وويلبرفورس ، وجرنفيل ، ودعى آدم سميث لحضور الإجتماع . فلما دخل الفيلسوف العجوز قاعة الاجتماع وقف كل من فيها فقال : « تفضلوا بالجلوس أيها السادة » وأجاب بت « كلا . سنظل واقفين حتى تجلس أنت أولا فنحن جميعاً من تلاميذك ». الغريب أن وفاته لم تثر من الاهتمام إلا قدراً قليلا نسبياً، ولعل السبب أن الناس كانوا مشغولين بأحداث الثورة الفرنسية وما قد يكون لها من آثار على الزراعة فى إنجلترا . ودفن فى حوش كنيسة كانونجيت ، وعلى قبره شاهد متواضع نقشت عليه العبارة الآتية : « هنا يرقد آدم سميث مؤلف كتاب « ثروة الشعوب » ؛ ومن الصعب أن نتصور تمثالا يمكن أن يعيش كما تعيش هذه العبـــارة .

الفصل الرابع

العالم القاتم

الذى رسمه القس مالتس وداڤيد ريكاردو

بالإضافة إلى مشكلة الفقر الموجودة فى كل مكان ، فإن مسألة مزعجة كانت تقلق بال إنجلترا خلال معظم القرن الثامن عشر ، ويقصد بذلك عدد سكانها . وتمثل الجانب المقلق من المشكلة فى تضخم الموارد البشرية لدى أعداء إنجلترا الطبيعيين بالقارة على نحو لا بد أن بدا فى نظر الإنجليز كأنه فيض حقيقى ، بينما كانت إنجلترا بمواردها الهزيلة على اقتناع بأن سكانها يسيرون فى طريق التناقص .

ولم يكن ذلك لأن إنجلترا كانت متأكدة تماماً من عدد أهلها وإنما كانت كالشخص المصاب بداء الوهم ، تفضل أن تشعر بالقلق فى فراغ حقيقى . فأول إحصاء حقيقى للسكان لن يعمل إلا فى عام ١٨٠١ ، وحين يتم فسوف يستقبل بوصفه « هادماً تماماً لآخر بقايا الحرية الإنجليزية » . ومن هنا كانت معلومات إنجلترا فى مبدأ الأمر عن حالة مواردها البشرية تعتمد على جهود الهواة من الإحصائيين ، من أمثال الدكتور برايس وهو كاهن من شيعة المنشقين على الكنيسة الرسمية Dissenters ، وهوتون الصيدلى وتاجر البن والشاى ، وجريجورى كنج الذى احترف عمل الخرائط .

ففى عام ١٦٩٦ قدر كنج ، بالإعتماد على ضريبة البيوت وسجلات التعميد ، أن سكان الجزر البريطانية يقربون من خمسة ملايين ونصف مليون نسمة — وهو ما بدا تقديراً دقيقاً بدرجة غير عادية ، ولكن كنج لم يكن معنياً

بالحالة القائمة فى أيامه فحسب وإنما تطلع إلى المستقبل فكتب يقول: « ويوحى الاحتمال كله بأن سكان إنجلترا سوف يتضاعفون للمرة الثانية فى حوالى ستمائة عام أى بحلول عام ٢٣٠٠ من ميلاد السيد المسيح . . . ثم يتضاعف عددهم بعد ذلك فى أقل من ألف ومائتى أو ألف وثلاثمائة عام أى فى عام ٣٥٠٠ أو ٣٦٠٠ ، وفى ذلك الحين سوف يبلغ عدد سكان المملكة ٢٢ مليون نسمة » . ثم أضاف صانع الخرائط الملاحظة التالية فى حرص فقال « وذلك فى حالة ما إذا عاش العالم هذا الأمد الطويل » .

ولكنا نجد عند ما حل عهد آدم سميث أن التخطيط الذى وضعه كنج عن حدوث زيادة معتدلة فى السكان حلت محله نظرة أخرى . فبمقارنة سجلات الضرائب النقدية على البيوت فى القرن الثامن عشر بمثيلاتها فى عهد سابق أثبت الدكتور ريتشارد برايس بصفة قاطعة بأن سكان إنجلترا نقصوا بأكثر من ثلاثين فى المائة منذ العودة[1]. وكانت صحة حسابه موضع شك وراح غيره من الباحثين يفندون فى قوة النتائج التى توصل إليها، ومع ذلك فإن ما اعتقده الدكتور برايس تلقفه الناس على أنه حقيقة ، وحقيقة غير مستساغة فى ظل مقتضيات العصر السياسية . وكتب المصلح اللاهوتى وليام بالى يندب الحال بقوله: « إن انحطاط السكان أعظم شر يمكن أن يصيب الدولة ، وينبغى أن يكون تحسينه الهدف . . الذى نسعى إليه ، مفضلين إياه على أى غرض سياسى آخر مهما كان » . ولم يكن بالى وحده فى هذا الإعتقاد بل إن بت الأصغر رئيس الوزراء قدم مشروع قانون جديد بشأن إعانة الفقر بقصد زيادة عدد السكان . وكان المشروع ينص على منح إعانات سمحة للأطفال إذ كان ظاهراً تماماً لبت أن المرء « يزيد من غنى بلده » إذا كان لديه أطفال حتى ولو أصبح نسله من الفقراء الذين يعيشون عالة على المجتمع .

---

(١) العودة Restoration يقصد بها عودة الملكية إلى انجلترا فى عهد شارل الثانى بعد زوال النظام الذى أقامه كرمويل والمعروف باسم الكومنولث . (المترجم)

ولكن الذى يلفت النظر بصدد مشكلة السكان بالنسبة إلينا فى العصر الحديث ليس أن إنجلترا كانت أو لم تكن فعلا فى خطر من التدهور كشعب. فحين ننظر إلى الوراء نجد أن الطريف فى الأمر أن أياً من وجهتى النظر إزاء مشكلة السكان كانت منسجمة مع فلسفة آمنت بالقانون الطبيعى والعقل والتقدم. هل كان السكان يتناقصون ؟ إذن ينبغى تشجيعهم على الزيادة، وينبغى أن يزداد عددهم فى ظل الرعاية السامية من جانب القوانين التى أظهر سميث أنها المبادئ الهادية فى اقتصاد السوق الحرة. وهل السكان آخذون فى الزيادة ؟ هذا كله للخير لأن الجميع كانوا متفقين على أن السكان الآخذين فى النمو مصدر من مصادر الثروة. فمهما كانت الناحية التى تنظر إليها فإن النتيجة «كانت تناسب إنذاراً للمجتمع يسوده التفاؤل» أو نعبر عن الموضوع بطريقة مختلفة فنقول أن مشكلة السكان كما كانوا يفهمونها، لم تتضمن شيئاً يزعزع إيمان الناس بمستقبلهم.

وربما لم يلخص أحد النظرة المتفائلة بمثل هذه الصورة الساذجة والكاملة، مثلما فعل وليم جودوين. نظر جودوين الكاهن والكاتب إلى العالم المتبذل حوله وجفل فى هلع، ولكنه نظر إلى المستقبل فكان ما رآه طيباً. ففى عام ١٧٩٣ نشر «العدل السياسى» وهو كتاب حاول محو الحاضر ولكنه وعد بمستقبل بعيد «لن يعود فيه وجود لحفنة من الأغنياء وعدد ضخم من الفقراء.. لن تكون هناك حرب أو جريمة أو إقامة العدل كما يقال أو حكومة. وفضلا عن هذا لن يكون هناك مرض أو ألم أو حزن أو سخط». ويا لها من رؤيا مدهشة !! كان الكتاب بطبيعة الحال هداماً إلى درجة عالية لأن العالم الخيالى الذى تصوره جودوين كان يتطلب المساواة الكاملة والشيوعية الفوضوية فى أتم صورها؛ بل وسوف يلغى عقد الملكية الذى يتضمنه الزواج. ولكن نظراً لارتفاع ثمن الكتاب (إذ كان يباع بثلاثة وستين شلناً) قرر المجلس المخصوص Privy Council عدم تقديم المؤلف إلى المحاكمة، وأصبح من أدب السلوك فى الصالونات الأرستقراطية حينذاك مناقشة «أفكار المستر جودوين الجريئة».

ومن البيوت التى كان يجرى فيها هذا النقاش آلبرى هاوس القريب من جيلد فورد ، والذى كان يقيم فيه سيد حسن غريب وصفته مجلة Gentleman's Magazine عند موته بأنه : « شخصية غريبة الأطوار بأدق ما تدل عليه العبارة من معنى » . هذا الرجل الغريب الأطوار كان دانييل مالثس ، وهو صديق لداڤيد هيوم ، ومن المعجبين المتحمسين بروسو بحيث رافقه فى إحدى الرحلات المحلية لدراسة علم النبات وحصل منه على مجموعة من النبات المجفف ومجموعة من الكتب وذلك فى إحدى النزوات التى كانت تعاود الفيلسوف الفرنسى والتى يتنازل فيها عما يملك . وعلى غرار الكثيرين فى عصره من السادة المترفين الذين لا يؤدون عملا ولكنهم يميلون إلى البحث ، لم يكن دانييل مالثس يتمتع بشىء يفوق المناظرات الفكرية المثيرة ، وكان فى العادة يتخذ من ابنه الموهوب القس توماس روبرت مالثس ، مناظره فى الجدل .

كان من الطبيعى تماماً أن تكون الجنة التى بشر بها جودوين موضع البحث والنظر ، وكما قد نتوقع من تلميذ غريب الأطوار من تلاميذ روسو ، شعر مالثس الأب بميل مشوب بالعطف إلى هذه اليوطوبيا العاقلة بدرجة فائقة . ولكن مالثس الصغير لم يكن باعثاً على مثل هذا الأمل الذى ساور نفس أبيه . والحقيقة أنه كلما تقدم الجدل بدأ يرى حاجزاً لا يمكن اجتيازه يفصل بين المجتمع البشرى كما كان قائماً وبين هذه الأرض الخيالية الجميلة التى يسودها السلام والوفرة الدائمان . ولكى يقنع الإبن أباه سجل اعتراضاته بصورة مطولة وبلغ من تأثر دانييل مالثس بأفكار ابنه الحد الذى جعله يشير عليه بنشر البحث وتقديمه إلى الجمهور .

وتم ذلك ، إذ ظهر على المسرح فى عام ١٧٩٨ مقال من خمسين ألف كلمة دون ذكر اسم مؤلفه ، وعنوانه « مقال عن مبدأ السكان كما يؤثر فى تحسين المجتمع فى المستقبل » ، وبنشره تحطمت بضربة واحدة جميع الآمال العزيزة التى ساورت النفوس عن عالم يسوده التجانس . ففى صفحات قلائل سحب مالثس الشاب السجاد من تحت أقدام مفكرى العصر الجذلين ، وكان

ما قدمه إليهم مقابل التقـــدم أملاً هزيلاً ، مقفراً ، وبارداً .

ذلك أن ما قاله المقال عن السكان هو أن بالطبيعة ميلا إلى أن يتجاوز عدد السكان جميع وسائل العيش الممكنة . فبدلا من مواصلة الارتفاع إلى مستوى أعلى فإن المجتمع كان واقعاً فى شرك يدعو إلى اليأس سوف يدفع فيه الحافز البشرى على التكاثر بالإنسانية حتما إلى حافة هاوية الوجود . وبدلا من أن يسير المجتمع صوب اليوطوبيا فإن الجنس البشرى محكوم عليه إلى الأبد بصراع خاسر بين الأفواه الشرهة والمتكاثرة وبين موارد الطبيعة غير الكافية بصورة أبدية ، مهما بذلنا من النشاط فى البحث عن هذه الموارد .

لا عجب إذن أن أطلق كارليل بعد قراءة كتاب مالثس عبارة « العلم القاتم » على الإقتصاد ، وشكا جودوين المسكين من أن مالثس حول أصدقاء التقدم إلى رجعيين بالمئات .

بضربة فكرية واحدة حطم مالثس جميع الآمال الوردية التى ساورت عصراً كان اتجاهه نحو رضاء النفس وصوب صورة مريحة للتقدم . ولكن وكما لو أن هذا لم يكن كافياً ، فإن نوعاً مختلفاً تماماً من المفكرين كان يعد أيضاً الضربة القاتلة يوجهها إلى أحد الفروض المهدئة التى كانت موضع الاعتناق فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، إذ سرعان ما سوف يضع دافيد ريكاردو ، وهو سمسار ناجح بصورة تدعو إلى الدهشة معالم نظرية فى علم الإقتصاد ، وهى نظرية إن كانت أقل لفتاً للنظر مما عمد إليه مالثس من إغراق البشرية ، فسوف يكون لها بطريقتها الهادئة أثر لا يقل تدميراً بالنسبة إلى الفروض البهيجة فى عصر آدم سميث .

إن ما تنبأ به ريكاردو وضع حداً لنظرية عن المجتمع يتحرك الناس سوياً طبقاً لها فى سلم التقدم الذى رسم معالمه آدم سميث . فعلى النقيض من هذا رأى ريكاردو أن لذلك السلم آثاراً مختلفة بالنسبة إلى الطبقات المختلفة ، وأن بعضها تسلقه فى نجاح حتى بلغ القمة ، بينما صعد غيرها بضع درجات ثم ألقى

به إلى أسفل . وأسوأ من هذا أن الذين كانوا يبقون السلم فى حالة الحركة لم يكونوا أولئك الذين يرتفعون مع حركته ، وأن الذين جنوا أعظم المنفعة من الصعود لم يفعلوا شيئاً يستحقون عليه هذا الجزاء . وحتى نسير بالاستعارة خطوة أبعد نقول إنه لو نظرنا بدقة إلى الذين كانوا يتسلقون السلم متجهين نحو القمة ، لأمكن أن نرى الأمور لا تسير سيراً حسناً هنا أيضاً ، إذ هناك صراع عنيف على السلالم من أجل الحصول على مكان مأمون .

كان المجتمع فى نظر آدم سميث أسرة كبيرة ، أما عند ريكاردو فهو صراع مر من أجل التفوق والغلبة ولا عجب أن يراه كذلك . ففى السنوات الأربعين التى انقضت على نشر كتاب « ثروة الشعوب » انقسمت إنجلترا إلى معسكرين متعادين يقف فى أحدهما الصناعيون الصاعدون ، المشغولون بمصانعهم والمقاتلون من أجل تمثيلهم فى البرلمان والمركز الاجتماعى ، بينما يضم المعسكر الثانى كبار ملاك الأراضى وهؤلاء يمثلون أرستقراطية غنية قوية وثابتة الدعائم ، وينظرون فى سخط إلى أعمال العدوان من جانب الأغنياء المحدثين ذوى اللون النحاسى .

لم يكن سبب الهياج الذى استشعره ملاك الأرض أن الرأسماليين كانوا يكسبون الأموال ، وإنما كان ذلك راجعاً إلى الحقيقة اللعينة وهى مواصلتهم الإصرار على أن أثمان الغذاء أعلى مما ينبغى ، ذلك أن الذى حدث خلال الفترة القصيرة منذ آدم سميث أن إنجلترا التى ظلت طويلا بلداً يصدر الحبوب أصبحت مضطرة الآن إلى إستيراد المواد الغذائية من الخارج . فبالرغم من عبارات الحنق الصادرة عن الدكتور برايس الذى رأى سكان إنجلترا يتناقص عددهم بسرعة ، فإن الزيادة الفعلية فى السكان جعلت الطلب على الحبوب يفوق العرض وارتفع ثمن البوشل من القمح أربع مرات . وكما ارتفعت الأسعار ارتفعت الأرباح ، ففى مزرعة فى إيست لوثيان بأسكتلنده كان متوسط الأرباح والريع سوياً يعادل ستة وخمسين فى المائة من رأس المال المستثمر ، وفى مزرعة أخرى مساحتها ثلاثمائة فدان ويملكها المستر بيركهيد —

وهى مزرعة متوسطة نموذجية — كانت الأرباح ٨٨ جنيهاً فى سنة ١٧٩٠ ، ١٢١ فى سنة ١٨٠٧ ، ١٦٠ بعد ذلك بعشر سنوات . وفى الضياع التى تبلغ مساحة الواحدة منها آلاف الأفدنة ارتفعت الأرباح تبعاً لذلك .

وإذ حلقت أسعار الحبوب بدأ التجار النشيطون يشترون القمح والذرة من الخارج ويأتون بهما إلى البلاد، وكان من الطبيعى تماماً أن ينظر مالك الأرض إلى هذا الأسلوب بعين الغضب . فالزراعة لم تكن مجرد أسلوب حياة بالنسبة إلى الطبقة الأرستقراطية ولكنها كانت أيضاً من مشروعات الأعمال — ومشروعات الأعمال الكبيرة . ففى ضيعة ريفزباى فى لينكولن شاير مثلا فى سنة ١٧٩٩ ، كان السير جوشوا بانكس يحتاج إلى حجرتين لمكاتبه ويفصل بينهما حائط لا تنفذ منه النار وباب حديدى ، وكان يفخر بأن تبويب جميع الأوراق الخاصة بالمزرعة يتطلب مائة وستة وخمسين درجاً . وبالرغم من أن مثل هذا المالك كان يعيش فى الأرض ويحبها ، وبالرغم من أنه كان يرى المستأجرين يومياً وكان يشترك فى الجمعيات التى تؤسس لغرض مناقشة دورة المحاصيل وفضائل المخصبات المتنافسة ، فإنه لم يغفل عن الحقيقة وهى أن دخله يعتمد على الثمن الذى يبيع به محصوله .

ومن هنالم يكد يكون فى الإمكان أن يحتمل مالك الأرض تدفق الحبوب الرخيصة من وراء البحار ، ولكن من حسن حظه أن وسائل مقاومة هذا التطور المزعج كانت فى متناول اليد ، إذ بفضل سيطرته على البرلمان اقتصر على سن التشريع الذى أقام حاجزاً حديدياً من الحماية الجمركية ، فأصدر قوانين الغلال التى فرضت رسوماً متدرجة على استيراد الغلال ، بحيث كلما هبط ثمن الإنتاج المحلى ارتفعت الرسوم على الوارد . والحقيقة أنه وضع مستوى يستبعد القمح الرخيص من السوق الإنجليزية بصفة دائمة .

ولكن بحلول عام ١٨١٣ فلت زمام الأمور ، إذ تآمرت المحاصيل السيئة والحرب مع نابليون فجعلت الأسعار تشبه بالفعل الأسعار التى تسود فى أوقات المجاعات ، فبيع الربع من القمح بثمن قدره ١١٨ شلناً أى ما يقرب من ١٤

شلناً للبوشل ، وبهذا أصبح البوشل يباع بثمن يساوى تقريباً ضعف الأجر الأسبوعى كله الذى يحصل عليه العامل – وعلى سبيل الموازنة نذكر أن أعلى ثمن وصل إليه القمح الأمريكى كان ٣,٥ دولار للبوشل فى سنة ١٩٢٠ بينما الأجر الأسبوعى ٢٦ دولاراً .

واضح أن ثمن الغلال كان خيالياً ، والتصرف إزاء هذا الموقف أصبح مسألة ذات أهمية هائلة فى تطور البلاد . ودرس البرلمان الموقف بعناية وكان الحل الذى وصل إليه أنه ينبغى زيادة الرسوم المفروضة على الحبوب الأجنبية ! ! وكان المبرر أن الأسعار المرتفعة فى الأجل القصير سوف تشجع على التوسع فى إنتاج القمح الإنجليزى فى الأجل الطويل .

كان هذا كثيراً جداً بالنسبة إلى رجال الصناعة . فعلى خلاف ملاك الأراضى كان الرأسماليون يريدون الغلال الرخيصة لأن ثمن الغذاء كان يحدد إلى حد كبير المقدار الذى يتعين عليهم أن يدفعوه مقابل العمل . إن الحرب التى شنها رجل الصناعة من أجل توفير الغذاء الرخيص لم تكن منبعثة عن دوافع إنسانية . ولقد أعلن أحد كبار رجال المصارف بلندن وهو اسكندر بيرنج فى البرلمان « . . . ليس للعامل مصلحة فى هذه المسألة ، فسواء كان الثمن ٨٤ شلناً أو ١٠٥ شلن للربع فسوف يحصل على الخبز الجاف فى الحالة الأولى والخبز الجاف فى الثانية » . وكان بيرنج يقصد أنه بغض النظر من ثمن الخبز فالعامل سيحصل من الأجور على ما يكفيه لشراء كسرة الخبز ولا أكثر من هذا . ولكن من وجهة نظر الذين يدفعون الأجور ويسعون وراء الأرباح كان هناك فارق هائل بين انخفاض ثمن الحبوب – والأجور – وارتفاعها . ونظمت مصالح رجال الأعمال صفوفها ، وألفى البرلمان نفسه وقد تدفق عليه سيل من الالتماسات أكثر مما تلقى من قبل أبداً . وإزاء الشعور السائد فى البلاد أصبح من الواضح أن الضرورة تقضى بعدم تنفيذ قوانين الغلال العالية الجديدة ، بغير بحث . وعينت لجان فى مجلس العموم واللوردات ، ووضعت المسألة على الرف مؤقتاً . ولحسن الحظ شهد العام التالى هزيمة نابليون .

وهبطت أثمان الغلال ثانية نحو المستويات العادية . ولكن مما يدل على ما كان لطبقة ملاك الأراضى من قوة سياسية أنه كان لا بد من انقضاء ثلاثين عاماً أخرى قبل أن تمحى قوانين الغلال نهائياً من سجلات التشريع ويسمح للقمح الرخيص بأن يدخل بريطانية بحرية .

وإذ راح ريكاردو يكتب فى وسط فترة الأزمة هذه فليس من الصعب أن نفهم لماذا رأى علم الإقتصاد وفى ضوء مختلف وأكثر نشاطاً مما رآه به آدم سميث . لقد نظر سميث إلى العالم ورأى فيه فرقة متجانسة كبيرة أما ريكاردو فرأى فيه صراعاً خبيثاً . فعند مؤلف « ثروة الشعوب » كان هناك كل سبب يدعو إلى الاعتقاد بأن فى إمكان كل شخص أن يشارك فى المنافع التى تهبنا إياها عناية إلهية كريمة ، أما السمسار الفاحص الذى كتب بعده بنصف قرن فلم يبد المجتمع فى نظره إلا منقسماً إلى جماعات متحاربة . ولكن بدت حقيقة لا مفر منها وهى أن الرابح الحقيقى فى الصراع — وهو رجل الصناعة المجد — مصيره أن يخسر ! ذلك أن ريكاردو كان يعتقد أن الطبقة الوحيدة التى سوف تستفيد من تقدم المجتمع هى مالك الأرض إلا إذا تحطمت قبضته على ثمن الغلال .

وقد كتب فى عام ١٨١٥ « إن مصلحة أصحاب الأراضى تتعارض دائماً مع مصلحة كل طبقة أخرى فى المجتمع » ، وبهذه الجملة التى لا لبس فيها أصبحت حرب غير معلنة صراعاً داخلياً معترفاً به ، وبإعلان الحرب الصريح زال آخر أمل بائس فى أن يتحول عالمنا هذا فى النهاية بحيث يصبح أفضل العوالم التى يمكن وجودها .

لقد بدا الآن أنه إذا لم يغرق المجتمع فى مستنقع البشرية الذى تحدث عنه مالثس فسوف يتمزق إرباً فى الصراع من أجل الحصول على مواضع آمنة على السلم المتحرك الخائن الذى وصفه دافيد ريكاردو .

يجب علينا أن نمعن النظر فى هذه الأفكار المزعجة التى طلع بها القس ذي النظرة القاتمة والسمسار المتشكك ، ولكن فلنلق نظرة أولاً على الرجلين ؟

من الصعب أن نتصور شخصين يختلفان هذا الاختلاف الواسع من حيث البيئة التى نشأ فيها الرجلان والحياة التى اختطاها ، مثل اختلاف توماس روبرت مالثس وداڤيد ريكاردو . كان مالثس على ما نعلم إبناً لعضو غريب الأطوار من الطبقة الوسطى العليا الإنجليزية ، بينما كان ريكاردو إبناً لأحد رجال المصارف التجار من اليهود ، سبق أن هاجر من هولندة . وتربى مالثس فى رفق استعداداً للدراسة بالجامعة وذلك تحت إرشاد والد اتجاه عقله فلسفى (وكان أحد معلميه الخصوصيين ممن زج به فى السجن لأنه عبر عن الرغبة فى أن ينتصر ثوار فرنسا ويغزوا إنجلترا) ، أما ريكاردو فالتحق بعمل أبيه فى سن الرابعة عشرة . وقضى مالثس حياته فى البحث الأكاديمى ، فكان فى مبدأ الأمر إقتصادياً محترفاً ، وقام بالتدريس فى المعهد الجامعى الذى أنشأته شركة الهند الشرقية فى هيليبيرى لتدريب الشبان من القائمين بالإدارة فيها ، أما ريكاردو فزاول العمل لنفسه فى سن الثانية والعشرين . ولم يكن مالثس فى حالة رخاء أبداً ، بينما ريكاردو الذى بدأ برأس مال قدره ثمانمائة جنيه أصبح مستقلا من الناحية المالية وهو فى السادسة والعشرين من عمره ، وفى سنة ١٨١٤ حين بلغ الثانية والأربعين إعتزل العمل بعد أن جمع ثروة قدرت بما يتراوح بين ٥٠٠,٠٠٠ — ١,٦٠٠,٠٠٠ جنيه .

إلا أنه مما يثير الدرجة الكافية من الغرابة أن مالثس الأكاديمى هو الذى كان مهتماً بحقائق العالم الحقيقى ، وأن ريكاردو رجل الأعمال ، كان النظرى . كان رجل الأعمال لا يهتم إلا « بالقوانين » غير المنظورة ، أما الأستاذ فكان يقلقه أن يعرف ما إذا كانت هذه القوانين تلائم العالم الذى يتراءى أمام عينيه . وثمة ناحية أخيرة من التناقض بين الرجلين . كان مالثس بدخله المتواضع هو الذى دافع عن مالك الأرض الثرى ، بينما ريكاردو الغنى والذى أصبح من ملاك الأرض فيما بعد هو الذى كافح ضد مصالح هذه الطبقة . وكما اختلفت نشأتهما وتعليمهما وحياتهما العملية فقد اختلف تماماً الأسلوب الذى استقبلت به آراء كل منهما . ففيما يتعلق بالمسكين مالثس على حد قول جيمس بونار

الذى كتب قصة حياته: « كان أفضل رجل أسيئت معاملته فى عصره . إن بونابرت نفسه لم يكن عدواً للجنس البشرى أعظم منه . كان هنا رجل دافع عن الجدرى والرق وقتل الأطفال — رجل استنكر المطاعم الشعبية والزيجات المبكرة والإعانات التى تقدمها الأبرشيات — رجلا كان من الوقاحة بحيث يتزوج بعد أن راح يعظ الناس ضد شرور الأسرة » . ويقول بونار « إن مالثس لم يكن موضع التجاهل منذ البداية . ولكن ظلت آراؤه موضع التفنيد مدى ثلاثين عاماً » .

مثل هذه المعاملة السيئة كان من المحتوم أن تصيب رجلاً كان يحث العالم على التزام « ضبط النفس الأخلاقى » . ولكن مالثس (حسب المستويات السائدة فى عصره) لم يكن ممن يتظاهرون بالحشمة أو غولاً . حقيقة حث على إلغاء إعانة الفقر ، بل وعارض مشروعات الإسكان للطبقة العاملة ، ولكنه فعل هذا كله وهو حريص كل الحرص على أصدق مصلحة للطبقات الفقيرة . والحق ، يمكن أن نوازن هذا بالرأى الذى أبداه بعض أصحاب النظريات الاجتماعية المعاصرين ممن اقترحوا فى لطف بأن يترك الفقراء كى يموتوا بسلام فى الشوارع .

ومن هنا لم يكن موقف مالثس منطوياً على قسوة القلب بقدر ما كان موقفاً منطقياً بدرجة فائقة . إذ لما كانت المشكلة الأساسية التى تواجه العالم ، طبقاً لنظريته أن السكان أكثر مما ينبغى ، لهذا فأى شىء يميل إلى تشجيع « العلاقات (الجنسية) المبكرة » لن يؤدى إلا إلى مضاعفة مبلغ تعاسة الجنس البشرى . فالرجل الذى لا يتوافر له « غذاء فى الوليمة القوية التى تقيمها الطبيعة » يمكن الإبقاء على حياته عن طريق الإحسان ، ولكن لما كان سوف يتناسل فإن مثل هذا الإحسان ليس إلا قسوة مستترة .

ولكن المنطق لا يكسب الشعبية دائماً ، والشخص الذى يشير إلى النهاية المظلمة التى تنتظر المجتمع يكاد لا يتوقع أن ينال احترام الناس وتقديرهم . فما من مذهب لقى أبداً مثل هذا اللعن ، ولقد وصف جودوين نظرية مالثس

بأنها « ذلك الشيطان الأسود المرعب الذى هو على استعداد دائماً لخنق آمال الإنسانية » . وفى نظر من هم دون ذلك ثقافة لم يكن الشيطان نظرية مالثس بقدر ما كان شخص القس نفسه .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كان ريكاردو رجلا ابتسم له الحظ منذ البداية . فبالرغم من أنه ولد يهودياً فقد انفصل عن أسرته واعتنق مذهب المتطهرين Quakerism ليتزوج فتاة جميلة من أهل هذه الشيعة كان قد وقع فى غرامها . ولكن فى يوم لم يكد التسامح الدينى أن يكون فيه القاعدة — وقد سبق لوالده أن تاجر فى جزء من البورصة أطلق عليه اسم ممشى اليهود — حقق ريكاردو مركزاً اجتماعياً ونال احتراماً خاصاً واسع النطاق . وفى أواخر حياته حين دخل مجلس العموم كان يطلب إليه الكلام من الحزبين الممثلين بالمجلس . وقد قال « لست آمل التغلب على الانزعاج الذى ينتابنى فى اللحظة التى أسمع فيها صوتى » وهو الصوت الذى وصفه شاهد بأنه « خشن ويميل إلى الصياح » ، بينما وصفه آخر بأنه « حلو وبهيج » بالرغم من أنه « كان مرتفعاً للغاية » ولكن حين يتكلم كان المجلس يصغى إليه . فبالآراء الجادة النابهة التى تتجاهل تقلب الأحداث وتتركز على التركيب الأساسى للمجتمع « كما لو كان قد هبط من كوكب آخر » أصبح ريكاردو يعرف بأنه الرجل الذى يعلم مجلس العموم . وحتى راديكاليته — إذ كان نصيراً قوياً لحرية الرأى والاجتماع ومعارضاً للفساد البرلمانى واضطهاد الكاثوليك — لم تقلل من الاحترام الذى أحيط به .

من المشكوك فيه أن يكون المعجبون به قد فهموا الكثير مما قرأوه ، إذ ما من إقتصادى يصعب فهمه كما هو الحال بالنسبة إلى ريكاردو . ولكن بالرغم من تعقيد النص وتداخله فقد كان مغزاه واضحاً ، وهو أن مصالح الرأسماليين وملاك الأراضى فى تعارض لا سبيل إلى فضه ، وأن مصالح ملاك الأراضى معادية للجماعة . ومن هنا ، سواء فهمه رجال الصناعة أو لم يفهموه ، فانهم جعلوه المدافع عنهم ، بل وأصبح الإقتصاد السياسى مألوفاً

عندهم إلى حد أن السيدات اللائى يستأجرن المربيات كن يسألن عما إذا كان فى وسعهن تدريس مبادىء هذا العلم لأطفالهن .

ولكن بينما كان ريكاردو الإقتصادى يمشى كأنه إله وان كان أشد الناس (تواضعاً واعتزالا) ، فإن مالثس أنزل إلى مرتبة أدنى . لقد قرأ الناس مقاله عن السكان وأعجبوا به ، ثم استنكروه مرة بعد أخرى ونفس القوة التى كانت تبدو بها التفنيدات شاهد مقلق على قوة نظريته . وبينما كانت أفكار ريكاردو تناقش فى نهم فإن ما أسهم به مالثس فى علم الإقتصاد ، بغض النظر من مقاله فى السكان — كان ينظر إليه إلى حد كبير بقدر من التسامح الكريم أو كان موضع التجاهل ، لأن مالثس كان يشعر أن الأمور لا تسير كلها سيراً حسناً مع العالم ولكنه كان عاجزاً تماماً عن عرض حججه بأسلوب منطقى واضح ، بل ولقد بلغ به المروق الحد الذى جعله يوحى بأن حالات الكساد أو « حالات الامتلاء العام » كما دعاها ، قد تقلب المجتمع ، وهى فكرة لم يجد ريكاردو مشقة فى إثبات سخافتها . وكم يبدو هذا داعياً إلى السخط بالنسبة إلى القارئ الحديث ، وإذ كان مالثس شخصاً يسترشد ببديهته وذا عقل يبحث عن الحقائق لهذا كان يشتم المتاعب ، ولكن تفسيراته الخشنة لم يكن لها فرصة الثبات أمام نباهة السمسار القاطعة الذى لم ير فى العالم إلا جهازاً مجرداً كبيراً .

ومن هنا كان يتجادلان فى كل شيء . فلما نشر مالثس كتابه « مبادئ الإقتصاد السياسى » فى عام ١٨٢٠ تحمل ريكاردو مشقة إعداد ملاحظات شغلت ٢٢٠ صفحة لبيان الثغرات فى حجج القس ، وخرج مالثس عن طريقه بصورة إيجابية كى يوضح فى كتابه المغالطات التى كان متأكداً أنها كامنة فى وجهة نظر ريكاردو .

وأغرب من هذا كله أن الرجلين كانا من أخلص الأصدقاء . فتقابلا فى عام ١٨٠٩ بعد أن نشر ريكاردو سلسلة من المحاضرات الرائعة فى مجلة المورننج كرونيكل عن مسألة ثمن المعادن النفيسة ومن ثم هدم كاتباً يدعى

المستر بوسانكويه كان من التهور بحيث يبدى رأياً معارضاً . وبحث جيمس مل أولا ومن بعده مالثس عن مؤلف الخطابات ونشأت بين الثلاثة صداقة دامت حتى نهاية حياتهم . وتدفقت المراسلات بينهم وكانوا يتزاورون باستمرار . وكتبت ماريا إدجورث وهى كاتبة معاصرة فى يومياتها الساخرة « إنهم كانوا يصطادون سوياً بحثاً عن الحقيقة ويصرخون من الفرح إذا وجدوها دون أن يهتموا بمن وجدها أولا » .

ولم تكن المناقشات التى تدور بينهم جادة كلها فهؤلاء كانوا بشراً تماماً . فمالثس سواء من باب الاحترام لنظرياته أو لأسباب أخرى ، تزوج فى فترة متأخرة من حياته ولكنه كان مغرماً بالحفلات الاجتماعية . وبعد موته تحدث أحد من عرفوه عن حياته فى كلية إيست إنديا فقال « فالضحكات المكتومة والإحترام الخارجى وثورات الشبان التى تحدث من وقت لآخر ، وسهام السيدات الشابات والأدب الغريب الذى يمتاز به الأستاذ الفارسى . . والمجاملات العتيقة نوعاً فى الحفلات التى كانت تعقد فى أمسيات الصيف ، كل هذا قد انتهى الآن » .

وكان الكتاب يقارنون مالثس بالشيطان ، ولكن مالثس كان رجلا طويل القامة ورشيقاً ، وذا روح لطيفة . وكان طلابه يطلقون عليه من وراء ظهره كلمة « بوب » Pop . وكان فيه عيب غريب إذ ورث عن أبيه حنكاً مشقوقاً وكان من الصعب فهم كلامه ، وكان حرف (ل) أسوأ ما ينطق به ، وهناك رواية لطيفة « عن عبارة قالها فى طبلة أذن سيدة صماء وشهيرة » « ألا تودين النظر إلى بحيرات كيلارنى ؟[1] » والعبارة الإنجليزية تتضمن ثلاث كلمات كل منها تبدأ بحرف (ل) . هذا العيب بالإضافة إلى فكرة ازدحام السكان التى ترتبط به ارتباطاً لا انفصال له ، جعل أحد معارفه يكتب عنه قائلا :

---

(١) Would you not Like to have a Look at the Lakes of Killarueg ?

كان الفيلسوف مالثس هنا فى الأسبوع الماضى ، فأقمت له حفلة مناسبة تضم نفراً من غير المتزوجين . . وهو رجل طيب القلب وإذا لم تكن هناك علامات تدل على أن أحداً على وشك الوضع فإنه يكون مؤدباً مع كل سيدة . . إن مالثس فيلسوف أخلاقى حقيقى ، وأكاد أقبل أن أتحدث بمثل هذه الصورة الصامتة لو استطعت أن أفكر وأعمل بمثل هذه الطريقة الحكيمة .

وكان ريكاردو يحب أن يدعو الناس إلى بيته ، وكانت موائد الإفطار عنده مشهورة ويبدو أنه كان مغرماً بالألغاز . وتحدثنا عن إحداها الآنسة إدجورث فى كتابها « حياة ورسائل » فتقول :

المتحذلق — المستر سميث ، المستر ريكاردو ، فانى ، هاربيت وماريا يصيحون متفاخرين . شرحه ، شرحه بمشطون الشعر . المستر ريكاردو متخايلا بمفرده ، متحذلق ، مضحك جداً .

وكان رجل أعمال موهوباً بشكل خارق للعادة . ولقد كتب أخوه يقول « إن موهبته فى الحصول على الثروة ليست موضع التقدير الكثير ، ولكن لعلنا لا نجد شيئاً فيما فعله المستر ر . يبرز قواه الخارقة للمألوف أكثر مما فعل فى ميدان الأعمال . . فمعرفته الكاملة بجميع دقائقه — وسرعته المدهشة فى الأرقام والحساب — وقدرته على أداء العمل بدون أى مجهود ظاهر والعمليات الضخمة التى كان يعنى بها — وبروده وصدق أحكامه — كل هذا مكنه من أن يخلف جميع معاصريه فى بورصة الأوراق المالية وراءه بمسافة بعيدة » . وصرح ابنه فيما بعد أن نجاح والده كان يقوم على ما لاحظه من أن الناس بوجه عام يبالغون فى أهمية الأحداث . وعلى ذلك إذا كان هناك سبب يبرر توقع حدوث ارتفاع بسيط ، فإنه كان يشترى الأسهم لأنه كان متأكداً من أن الارتفاع غير المعقول سوف يمكنه من تحقيق الربح ، ولهذا حين كانت أسعار الأسهم تهبط كان يبيع وهو على اقتناع من أن الانزعاج والذعر سوف يسببان هبوطاً لا تبرره الظروف » .

كان ذلك ترتيباً مقلوباً بشكل غريب : السمسار النظرى ضد رجل الدين العملى . . وكان هذا غريباً بوجه خاص لأن النظرى كان يشعر أنه فى مكانه الصحيح وهو فى عالم المال بينما رجل الحقائق والأرقام كان يشعر أنه ضائع تماماً .

وأثناء حروب نابليون كان ريكاردو عضواً فى نقابة تعهدت بشراء السندات الحكومية من وزارة الخزانة ثم تعرضها بعد ذلك على الجمهور للاكتتاب فيها . وغالباً ما كان ريكاردو يؤدى معروفاً لمالثس ويحمله على شراء كمية بسيطة من السندات كان القس يحقق منها ربحاً متواضعاً . وفى عشية معركة ووترلو وجد مالثس نفسه مضارباً صغيراً على الصعود فى البورصة ولكن الجهد كان أكبر من أن تحتمله أعصابه . فكتب إلى ريكاردو يحثه « إذا لم يكن من الخطأ أو من غير المناسب . . أن أنتهز أول فرصة لتحقيق ربح بسيط على ذلك النصيب الذى كنت من الطيبة بحيث تعدنى به » . وفعل ريكاردو هذا ، ولكنه اشترى الحد الأقصى الذى يسمح به مركزه كمضارب على الصعود ، وفى كل هذا كان مدفوعاً بقوة المضارب المحترف . وكسب ولنجتون وحقق ريكاردو كسباً هائلا ولم يسع مالثس المسكين إلا أن يصاب بالحسارة . ومن جهة أخرى كتب ريكاردو عرضاً إلى القس يقول : « هذه ميزة كبيرة لم أتوقعها أو أريد أن أحصل عليها عن طريق الارتفاع . لقد كسبت كسباً بالغاً من القرض . والآن لنتحدث قليلا عن موضوعنا القديم » ثم راح يغرق فى نقاش عن المعنى النظرى الذى يدل عليه الارتفاع فى ثمن السلع .

واستمر نقاشهما الذى لا ينتهى سواء بالخطابات أو أثناء الزيارات ، حتى عام ١٨٢٣ . وفى آخر خطاب بعث به ريكاردو إلى مالثس كتب يقول : « والآن يا عزيزى مالثس ، لقد انتهيت . إننا نحذو حذو غيرنا من المتجادلين إذ يحتفظ كل منا برأيه ، بعد الكثير من النقاش . غير أن المناقشات لا تؤثر أبداً فى صداقتنا ، ولست أود لك شيئاً أكثر من أن تتفق معى فى الرأى » . ومات فجأة فى تلك السنة فى سن الحادية والخمسين ، أما مالثس

فقدر له أن يعيش حتى عام ١٨٣٤ . أما عن رأيه فى دافيد ريكاردو فتعبر عنه العبارة التالية : « لم أحب أبداً شخصاً خارج أسرتى مثلما أحببته » .

وبالرغم من اختلاف مالثس وريكاردو حول كل شيء تقريباً إلا أنهما لم يختلفا على ما قاله مالثس بصدد السكان . ذلك أن مالثس فى كتابه الشهير « مقال . . » الصادر فى سنة ١٧٩٨ لم يبد أنه أوضح المسألة نهائياً فحسب وإنما ألقى قدراً كبيراً من الضوء على الفقر الشنيع المتصل الذى كان يطارد المجتمع الإنجليزى . كان غيره يشعرون شعوراً غامضاً بأن ثمة علاقة نوعاً بين السكان والفقر ، وكانت إحدى القصص الشعبية السائدة فى ذلك العصر وان كانت رمزية تتحدث عن جزيرة على مسافة من ساحل شيلى ، أنزل فيها شخص يدعى جوان فرنانديز عنزتين فى حالة ما إذا رغب فيما بعد أن يجد فيهما لحماً . وعند ما عاد إلى زيارة الجزيرة وجد أن العنزتين تضاعف عددهما وهنا أنزل كلبين ما لبثا أن تكاثرا وأنقصت الكلاب من عدد الماعز . « وهكذا » كما كتب المؤلف وهو قس يدعى جيمس تونشند « أعيد نوع من التوازن . إن أضعف الجنسين كان أول من دفع دين الطبيعة ، أما أنشطهما وأقواهما فقد حافظ على حياته » ثم أضاف قائلا « إن كمية الغذاء هى التى تنظم عدد أفراد النوع البشرى » .

ولكن بينما أدرك هذا المثال التوازن الذى يجب تحقيقه فى الطبيعة ، إلا أنه ظل عاجزاً عن استخلاص النتائج المدمرة النهائية التى تنطوى عليها المشكلة ، وهذا ما كان على مالثس أن يفعله .

لقد بدأ بأن أبدى إعجاباً شديداً بالإمكانيات العددية المجردة التى تحتوى عليها فكرة التضاعف « ... إذا تجشم أى شخص مشقة إجراء الحساب فسوف يرى أنه إذا أمكن الحصول على ضروريات الحياة بغير حد ، وأمكن مضاعفة عدد الناس كل خمسة وعشرين عاماً ، فإن عدد السكان الذى كان يتولد عن ذكر وأنثى منذ العصر المسيحى ، كان يكفى لا لملأ الأرض تماماً بالناس بحيث يقف أربعة منهم فى كل ياردة مربعة ، وإنما لملأ الكواكب الأخرى

فى مجموعتنا الشمسية بنفس الطريقة ، بل ولا يقتصر ذلك عليها وإنما يملأ جميع الكواكب التى تدور حول النجوم التى تظهر للعين المجردة ، بفرض أن كل نجم منها له عدد من الكواكب يعادل ما يتبع منها الشمس » .

وفى هذا التقدير لقوى التضعيف المريعة المترتبة على التكاثر ، كان مالثس على حق تماماً . فيحدثنا هنرى برات فيرفيلد الذى كتب فى عام ١٩٣٩ أن زوجاً من الحيوانات يلد كل سنة عشرة أزواج ، سوف يصبح نسله بعد عشرين عاماً ٧٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ ، ويذكر لنا هافلوك أليس خلية دقيقة تنتج من كائن دقيق واحد ، إذا لم يقف فى وجهها عائق ، تصبح كتلة أكبر مليون مرة من الشمس — وذلك خلال ثلاثين يوماً .

ولكن هذه الأمثلة عن قوة التكاثر الغزير فى الطبيعة غير ذات معنى فى حد ذاتها . إن السؤال الحيوى هو : ما مدى قوة الكائن البشرى العادية على التكاثر ؟ لقد افترض مالثس أن الحيوان البشرى يميل إلى مضاعفة عدد أفراده كل خمسة وعشرين عاماً . . وعلى ضوء عصره كان ذلك فرضاً متواضعاً نسبياً ، إذ كان يتطلب أسرة متوسط عدد أفرادها ستة ، منهم اثنان يفترض أنهما يموتان قبل بلوغ سن النضوج . وإذ تحول إلى أمريكا فقد أوضح مالثس أن السكان هناك تضاعفوا كل ٢٥ سنة خلال القرن ونصف القرن السابقين ، وكان السكان فى بعض مناطق الغابات الخلفية حيث الحياة أكثر حرية وأوفر صحة ، يتضاعفون كل خمسة عشر عاماً !

ولكن مقابل هذه الاتجاهات فى الجنس البشرى نحو التضاعف ، وليس بذى أهمية من ناحية الحجة أن يتضاعف السكان فى خمسة وعشرين أو خمسين عاماً ، فإن مالثس وضع الحقيقة الصلدة وهى أن الأرض ، بخلاف الناس ، لا يمكن مضاعفتها . يمكن زيادة المساحة بعد بذل المجهود الشاق ، ولكن معدل التقدم بطىء ومتردد ، لأن الأرض ، بخلاف الناس ، لا تتوالد .

ومن هنا بينما يزيد عدد الأفواه وفق متوالية هندسية فإن مساحة الأرض القابلة للزراعة لا تزيد إلا بمتوالية حسابية .

والنتيجة محتومة بطبيعة الحال كأى فرض فى المنطق ، وهى أن عدد الناس لابد أن يفوق مقدار الغذاء عاجلا أو آجلا . وكتب مالثس فى « مقال .. » يقول : « لو أخذنا الكرة الأرضية كلها . . وفرضنا أن عدد السكان الحالى يساوى ألف مليون ، فإن الجنس البشرى سوف يزيد طبقاً للأرقام ١ ، ٢ ، ٤ ، ٨ ، ١٦ ، ٣٢ ، ٦٤ ، ١٢٨ ، ٢٥٦ بينما تزيد موارد العيش حسب الأرقام ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩ أى أنه خلال قرنين تصبح نسبة السكان إلى .غذاء ٢٥٦ إلى ٩ ، وفى ثلاثة قرون ٤٠٩٦ : ١٣،وفى ألفى عام يصبح الفرق مما لا نستطيع أن نحسبه » .

مثل هذه النظرة المخيفة عن المستقبل تكفى لتثبيط همة أى إنسان أو كما قال مالثس « لهذه الفكرة صدى محزن » . . واضطر القس الذى أحس بالقلق إلى أن يستنتج أن التفاوت الذى لا يمكن تصحيحه أو فضه ، بين الناس والغذاء ، لا يمكن إلا أن تكون له نتيجة واحدة وهى أن الجانب الأكبر من الجنس البشرى سوف يحكم عليه إلى الأبد بشكل أو آخر من الشقاء . وهذه الفجوة الآخذة فى الاتساع بطبيعتها وبصورة مستمرة يجب سدها على نحو ما إذ فى النهاية لا يمكن أن يعيش الناس بدون الغذاء ، وهذا يفسر تلك العادات التى نلقاها عند الشعوب البدائية مثل وأد الأطفال ، والحرب والمرض وفوق كل هذا ، الفقر .

وإذا لم تكن هذه الوسائل كافية « فيبدو أن المجاعة آخر وأخطر مورد لدى الطبيعة . إن قوة السكان أكبر من قدرة الأرض على تزويدهم بأسباب العيش . . ولهذا فإن الموت المبكر يجب بشكل أو آخر أن يصيب الجنس البشرى . إن رذائل الجنس البشرى عوامل نشيطة وقادرة على إنقاص عدد السكان . . ولكن إذا أخفقوا فى حرب الإبادة هذه فإن الفصول المليئة بالمرض والأوبئة ، والطاعون والكوارث تتقدم فى عرض مخيف وتمحو الآلاف وعشرات الآلاف . وإذا كان النجاح قاصراً فسوف تعقب ذلك المجاعة التى لا مفر منها ، وبضربة واحدة تهبط بالسكان إلى مستوى الغذاء » .

لا عجب أن شكا جودوين من أن مالثس حول أصدقاء التقدم إلى رجعيين لأن هذا حقاً هو مذهب اليأس . لا شيء يمكن أن ينقذ الجنس البشرى من التهديد الدائم بأن يغرق تحت وطأة ثقله سوى تلك القشة الطبيعية عن «الكبح الأخلاقى» وما مدى إمكانية الاعتماد على الكبح الأخلاقى إزاء عاطفة الحب القوية ؟

إن الحقائق التى أوردها مالثس صحيحة . فهناك ضغط من جانب السكان على الموارد ، ونستطيع اليوم أن نرى فى أجزاء كثيرة من العالم نتائج ازدياد السكان بحيث تعدو الحواجز الشديدة الممثلة فى موارد الأرض ، إلى حد أنهم يسحقون أنفسهم حتى الموت . فقد كان متوسط العمر فى الهند إلى عهد قريب جداً سبعة وعشرين عاماً وفى موجة واحدة من موجات الأنفلونزا عام ١٩١٨ هلك ١٥,٠٠٠,٠٠٠ نسمة ، وفى مجاعة البنغال عام ١٩٤٣ هلك ١,٥٠٠,٠٠٠ من البشر جوعاً . وبالرغم من هذا الموت الجماعى فإن تكاثر السكان فى الهند مما لا يمكن وقفه . واليوم يزداد عدد سكانها بحيث سوف يتضاعف بابتداء القرن القادم . فما مصيرهم ؟ وماذا يحدث حين يهبط الطب الحديث بمعدل الوفيات إلى النصف بينما يسير معدل المواليد فى طريقه حراً طليقاً ؟ هذه هى الورطة المالثسية فى أشد صورها حقيقة ورعباً ، ذلك أن الهندى — أو أى أسيوى تقريباً من هذه الناحية — محكوم عليه اليوم وفى المستقبل الذى يمكن التنبؤ به بأن يعيش على هامش الحياة الرفيع لمجرد أن أفراد جنسه يتزايدون بأسرع من الوسائل التى يمكن إيجادها لتزويده بالغذاء . وليس من أمل للجانب الأكبر من البشرية فى البلاد المتخلفة إلا إذا تحكمت فى هذا الانفجار السكانى الذى تتعرض له .

ذلك هو المصير الذى رأى مالثس أن المستقبل يدخره للعالم الغربى . ولكن بمعجزة كان مخطئاً إذ حدث شىء فى إنجلترا وفرنسا والقارة والولايات المتحدة حد من زيادة السكان . ففى عام ١٨٦٠ كان ٦٣ فى المائة من الأسرات المتزوجة فى بريطانيا يتراوح عدد أطفال الواحدة منها بين أربعة وخمسة ،

وفى عام١٩٢٥ نجد نسبة الأسرات التى عدد أطفال الواحدة منها أربعة لاتتجاوز عشرين فى المائة . وخلال هذه الفترة زادت نسبة الأسرات التى تضم كل منها طفلاً واحداً أو طفلين من ١٠ فى المائة من مجموع الأسرات الكلى إلى أكثر من النصف .

لماذا ؟ وما الذى أنقذ الغرب من التضاعف وإعادة التضاعف مما تحدث عنه مالتس ؟ لسنا نفهم الأسباب تماماً ، فقوانين السكان لا تزال غير واضحة تماماً . بطبيعة الحال لعب تحديد النسل دوراً ، وكان يطلق عليه فى الأصل اسم المالتسية الجديدة ، وهو اسم كان قميناً أن يجعل مالتس يتلوى من الوجع لأنه كان يستنكر هذا الأسلوب . ولكن يبدو أن شيئاً آخر كان أكثر أهمية ، ويظهر أن عملية التصنيع كان لها تأثير من ناحية الحد من كبر حجم الأسرة . وفى البلاد المتقدمة يميل سن الزواج إلى التأخر (وهذا هو « الكبح الأخلاقى » الذى كان مالتس يعلق عليه أمله الطفيف) . فمركز النساء يرتفع من مجرد أدوات لوضع الأطفال إلى أعضاء نشيطين وعاملين فى المجتمع . وثمة مباهج ورغبات متنافسة تجعل الأسرة الكبيرة العدد غير مستحبة بخلاف الحال فى ظل أسلوب من الحياة أكثر بساطة .

من المؤكد أن عدد السكان آخذ فى الزيادة حتى فى الولايات المتحدة ، وكان ينمو بسرعة جداً فى السنوات الحديثة ، ولكنه لا يزيد بالمعدل الذى يهدد قدرتنا على مواجهته بالعمل على زيادة موارد الغذاء ، لأن التقدم فى تكنولوجية الزراعة فاق الزيادة فى عدد سكاننا . إن مالتس لم يتصور أبداً أن الأرض القابلة للزراعة والتى لا تزيد فى الواقع من حيث مساحتها إلا ببطء يمكن بالرغم من هذا أن تسمح بزيادة أوسع مدى بكثير من حيث غلتها . والواقع أنه لو كانت عندنا مشكلة واحدة تتعلق بالغذاء فى الولايات المتحدة اليوم ، فهذه المشكلة تتمثل فى أن تكنولوجيتنا الزراعية ذات إنتاجية أكثر مما ينبغى حتى بالنسبة إلى ازدياد طاقتنا على الاستهلاك .

ولكن هذا لم يكد أن يكون الموقف فى أيام مالتس . ففى عام ١٨٠١

وبالرغم من الهواجس القاسية والإشاعات التى راجت بأن هذا كان مجرد توطئة لقيام دكتاتورية عسكرية أجرى أول إحصاء علمى فى بريطانيا العظمى وقدر جون ريكمان ، وهو موظف عام ومن رجال الإحصاء ، أن سكان إنجلترا زادوا بنسبة خمسة وعشرين فى المائة خلال عقود ثلاثة . وبالرغم من أن الزيادة أبعد ما تكون عن تضاعف العدد إلا أن أحداً لم يساوره الشك فى أنه لولا إنتشار المرض والفقر فى صفوف الجماهير لبلغت الزيادة درجة تجعلها تشبه الهيار الثلجى . ولم يخطر لأحد أن معدل المواليد سوف يبطىء فى المستقبل بل الأحرى أنه بدا كما لو أن بريطانيا سوف تواجه إلى الأبد الفقر المدقع الناشىء من وجود جماعة بشرية تتناسل بصورة لا حد لإشباعها وتتطاحن على مورد غذاء لا يكفيها . لم يعد الفقر شيئاً عارضاً أو عملا من أعمال الله أو حتى نتيجة لعدم اكتراث من جانب الناس ، وإنما بدا كأن قدراً شريراً حكم على الجنس البشرى بالهم الأبدى كأنما أصبحت جميع جهوده فى تحسين أحواله مهزلة بسبب شح الطبيعة .

كل ذلك بدا مثبطاً للهمم .. فبالى الذى سبق أن حث قومه على التكاثر مفضلا إياه على أى غرض سياسى آخر . تحول وسار تحت لواء مالثس وبت الذى كان يريد إثراء البلاد بمزيد من الأطفال عاد الآن فسحب مشروع القانون الخاص بزيادة إعانة الفقر ، إحتراماً لآراء القس . و لخص كوليردج هذه النظرة الكئيبة بقوله : « وأخيراً ، انظروا إلى هذا الشعب القوى ، حكامه وحكمائه ، وهم يصيخون السمع إلى — بالى ومالثس — ! إنه لأمر محزن ومحزن » .

أما الشخص الذى لم يكن يشعر بالقدر الكافى من الانقباض بسبب مالثس فما كان عليه إلا أن يتحول إلى دافيد ريكاردو .

لم يبد هذا العالم لدى النظرة الأولى عالماً يثير الرعب بنوع خاص ، على الأقل حسب الصورة التى رسمها مالثس . فالعالم الذى يتحدث عنه دافيد ريكاردو كما أوضحه فى كتابه « مبادىء الإقتصاد السياسى » المنشور فى عام

١٨١٧ ، عالم جاف ، هزيل وآخذ فى الانكماش ولسنا نجد هنا ما نلقاه عند آدم سميث من حياة وتفصيل . ليس هنا سوى مبدأ ، ومبدأ فى صورته المجردة ، يفصح عنه فكر يركز اهتمامه على شىء أكثر دواماً وثباتاً من تلك الحركة المتغيرة التى تتصف بها الحياة اليومية . هذه فلسفة أساسية وعارية ، ذات فن هندسى مثل فلسفة إقليدس ، ولكنها على خلاف طائفة من الفروض الهندسية البحتة ، فلسفة ذات نغم إنسانى متجانس . إنها فلسفة مفجعة .

وحتى يتسنى لنا أن نفهم المأساة يجب أن نقضى لحظة فى تقديم الشخصيات الرئيسية فى المسرحية . هذه الشخصيات كما سبق لنا القول ليست أشخاصاً ولكنها نماذج . وهذه النماذج أيضاً كما تدل عليه الكلمة من معنى اليوم ، ليست نماذج حية تعيش ولكنها تتحرك وفقاً « لقوانين سلوك » . ولسنا نجد هنا شيئاً من الضجيج الذى نسمعه فى عالم آدم سميث ، وإنما نشاهد نوعاً من معرض عرائس تحولت فيه مظاهر العالم الحقيقى المتغيرة إلى نوع من الصورة الكاريكاتورية ذات البعد الواحد . هذا هو العالم الذى جرد من كل شىء عدا ما يتضمنه من الدوافع الإقتصادية .

ومن الذين نقابلهم ؟ هناك أولاً العمال ، تلك الوحدات المتشابهة التى تقوم بنشاط إقتصادى ، والذين يتمثل مظهرهم الإنسانى الوحيد فى الإدمان اليائس على ما يقال له تهذيباً « مباهج المجتمع المنزلى » (أى الحياة الزوجية) . وهذا الميل الذى لا شفاء منه إلى هذه المباهج يترتب عليه أن كل زيادة فى الأجور تقابلها فوراً زيادة فى عدد السكان . فالعمال يحصلون على كسرة الخبز الجاف كما عبر عنها إسكندر برنج إذ بدونها لا يستطيعون الإبقاء على ذواتهم والتكاثر . ولكنا نرى فى الأجل الطويل أن ضعفهم يحكم عليهم بأن يعيشوا على حافة الكفاف . ورأى ريكاردو ، مثل مالتس من قبل ، فى « الكبح الأخلاقى » الحل أمام الجماهير العاملة . وبالرغم من أنه كان يريد للعمال خيراً إلا أنه لم يؤمن كثيراً بقدرتهم على كبح جماح شهواتهم .

بعد ذلك نلتقى بالرأسماليين ، وهؤلاء ليسوا بالتجار المتغافلين الذين

تحدث عنهم آدم سميث ، ولكنهم جماعة مبهمة ومتجانسة كل غرضها الذى تسعى إلى تحقيقه فوق سطح الأرض هو التجميع — أى ادخار أرباحهم وإعادة استثمارها باستئجار مزيد من الناس من أجل العمل لحسابهم ، وهذا شيء يعملونه باطمئنان لا يتغير . ولعل ما تعلمه ريكاردو فى عالم المالية الدولية الرصين أعماه عن رؤية تنوع الدوافع الأخرى خلاف كسب المال وهى الدوافع التى كانت تحرك الناس وحتى رجال الصناعة فى القرن التاسع عشر ، ولكن أياً كان السبب فإن الرأسماليين الذين يتحدث عنهم ليسوا سوى آلات إقتصادية هدفها التوسع الذاتى . ولكن حظ الرأسماليين ليس ميسوراً ، إذ بسبب التنافس الذى ينشب بينهم فإنهم سرعان ما يقضون على الأرباح التى تتجاوز الحد المناسب والتى يحققها محظوظ منهم وفق إلى إختراع عملية جديدة أو وجد تجارة تدر عليه ربحاً غير عادى . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تتوقف أرباحهم إلى حد كبير على الآجور التى يتعين عليهم أن يدفعوها مما يعرضهم إلى صعاب بالغة كما سنتبين بعد .

ولكن حتى الآن ، وبسبب الافتقار إلى التفاصيل الواقعية ، فإن هذا العالم لا يبتعد كثيراً عن عالم آدم سميث . غير أن الأمور سارت فى إتجاه مختلف حين بدأ ريكاردو يتحدث عن ملاك الأرض ذلك أن ريكاردو رأى فى مالك الأرض منتفعاً فريداً فى تنظيم المجتمع . فالعامل يعمل ولهذا يدفع له الأجر ، والرأسمالى يدير المشروع ولهذا يجنى ربحاً . ولكن مالك الأرض يستفيد من قدرات التربة . ودخله — أى الريع — لا تنظمه المنافسة أو قوة السكان . الحق ، أنه كان يحقق الكسب على حساب كل شخص آخر .

يجب أن نتوقف لحظة كى نفهم كيف وصل ريكاردو إلى هذه النتيجة لأن نظرته المريضة إلى المجتمع تستند إلى التعريف الذى يطالعنا به عن الريع الذى يحصل عليه المالك . فالريع عند ريكاردو ليس مجرد ثمن يؤدى لقاء استخدام الأرض كما كانت الفائدة ثمناً لإستخدام رأس المال والأجور ثمناً للعمل . إن الريع نوع خاص من الجزاء يرجع فى الأصل إلى حقيقة

واضحة وهى أن الأرض كلها ليست متساوية فى إنتاجيتها .

ويقول ريكاردو : لنفرض وجود مالكين متجاورين ، التربة فى حقول أحدهما خصبة ، ويستطيع باستخدام مائة عامل ومقدار معلوم من المعدات أن يحصل على ١٥٠٠ بوشل من الحبوب . والتربة فى حقول المالك الآخر أقل خصوبة ولا تنتج سوى ألف بوشل باستخدام نفس العدد من العمال ومعداتهم هذه مجرد حقيقة فنية من حقائق الطبيعة ولكن لها نتيجة إقتصادية وهى أن البوشل من الحب أرخص فى مزرعة المالك المحظوظ . وواضح أنه لما كان على المالكين أن يدفعا نفس الأجور والتكاليف الرأسمالية ، فسوف تتوافر ميزة للشخص الذى يجنى خمسمائة بوشل أكثر مما يحصل عليه منافسة .

والآن ، فمن هذا الفرق فى التكاليف ينشأ الريع حسب نظرية ريكاردو لأنه إذا اشتد الطلب بالقدر الذى يبرر زراعة التربة فى الأرض الأقل إنتاجية فمن المؤكد فى هذه الحالة أن تصبح زراعة الحبوب فى الأرض الأكثر إنتاجية عملية مجزية جداً . والحقيقة أنه كلما عظم الفرق بين المزرعتين زاد الريع التفاضلى . فمثلا إذا كانت زراعة الغلال فى الأرض الرديئة جداً وبتكلفة قدرها دولاران للبوشل عملية تكاد تدر ربحاً فمن المؤكد أن المالك المحظوظ الذى يتكلف البوشل عنده خمسين سنتاً يحصل على ريع كبير حقيقة ، لأن كلتا المزرعتين تبيعان الحبوب التى تنتجانها فى نفس السوق ، ومالك الأرض الأفضل من حيث الخصوبة يحصل على الفرق فى نفقاتهما والبالغ ١,٥٠ دولار .

كل هذا قد يبدو غير ضار بالدرجة الكافية . ولكن ، لنطبقه الآن على العالم الذى تصوره ريكاردو وهنا تتضح لنا تماماً النتائج القاتمة التى تترتب عليه .

إن العالم الإقتصادى عند ريكاردو يميل دائماً إلى التوسع ، فكلما جمع الرأسماليون المال بنوا حوانيت ومصانع جديدة وبذلك يزداد الطلب على العمال مما يرفع الأجور ولو بصفة مؤقتة على الأقل لأن هذا الارتفاع فى الأجور يغرى الطبقات العاملة التى لا أمل فى إصلاحها على الاستفادة من مباهج

المجتمع المنزلى الخائفة وبذا يقضون على الميزة التى هيأها لهم ارتفاع الأجور إذ يغرقون السوق بمزيد من الأيدى العاملة . وهنا يتحول ريكاردو فجأة عن ذلك المستقبل المليء بالآمال الذى أشار إليه آدم سميث ، إذ نظراً لإزدياد عدد السكان يصبح من الضرورى توسيع الرقعة المنزرعة لأن الزيادة فى السكان تتطلب مزيداً من الغلال وزيادة مقادير الغلال تتطلب بدورها حقولا أكثر . ومن الطبيعى تماماً أن الحقول الجديدة التى تزرع لن تكون فى إنتاجية الحقول المستغلة بالفعل — فالفلاح الذى لم يستغل أوفر الأرض المتوافرة له فلاح أحمـــق .

وهكذا إذ تسبب الزيادة فى السكان زيادة فى مساحة الأرض التى تستخدم فى الزراعة ترتفع تكلفة الحبوب فيرتفع ثمنها بطبيعة الحال ، كما ترتفع أيضاً الريوع التى يحصل عليها الملاك الذين يقتنون الأرض الأوفر خصوبة . وهذا الإرتفاع لا يقتصر على الريوع وإنما يشمل الأجور أيضاً إذ كلما زادت تكلفة إنتاج الحبوب تعين أن يزاد أجر العامل لمجرد تمكينه من شراء كسرة الخبز الجاف ومن البقاء على قيد الحياة .

والآن نستطيع أن نرى المأساة . فالرأسمالى — أى الرجل المسئول بالدرجة الأولى عن تقدم المجتمع — قد أصبح فى مأزق مزدوج. فأولاً — صارت الأجور التى يجب عليه أن يدفعها أعلى طالما الخبز أغلى ثمناً . وثانياً فملاك الأراضى أفضل حالاً ما دامت الريوع ترتفع فى الأرض الجيدة كلما اطرد استغلال الأرض الأردأ نوعاً . وإذ يزيد نصيب المالك من الثمرة التى يجنيها المجتمع فلن تكون هناك سوى طبقة واحدة يمكن تنحيتها جانباً حتى تخلى مكانها له — وهذه الطبقة هى الرأسمالى .

كم تغاير هذه النتيجة الصورة العظيمة التى رسمها آدم سميث للتقدم . ففى عالم آدم سميث يتحسن حال كل فرد بالتدريج كلما زاد تقسيم العمل وجعل الجماعة أكثر ثراء . وفى عالم ريكاردو لا يكسب سوى مالك الأرض . فالعامل محكوم عليه دائماً أن يعيش على حد الكفاف لأن المسكين يميل إلى

الجرى وراء كل ارتفاع فى الأجر بقطيع من الأطفال وبذلك ترغم المنافسة الأجور على أن تهبط إلى مستوى الكفاف والرأسمالى الذى عمل وادخر واستثمر وجد أن كل المشقة التى تجشمها أسفرت عن لا شىء إذ أصبحت تكاليف الأجر أعلى وأرباحه أقل وخصمه مالك الأرض أغنى منه بكثير . والمالك الذى لم يفعل شيئاً سوى جمع الريوع يجلس فى مكانه ويراقبها وهى تأخذ فى الزيادة .

لا عجب إذن أن حارب ريكاردو قوانين الغلال وأظهر مزايا حرية التجارة التى تجلب الغلال الرخيصة إلى بريطانيا . ولا عجب أن ظل الملاك طيلة ثلاثين عاماً يحاربون بكل ما ملكوا من قوة من أجل إبعاد الغلال الرخيصة عن البلاد . وكان من الطبيعى أن تجد الطبقة الصناعية الصاعدة فى العرض الذى قدمه ريكاردو النظرية التى تناسب حاجاتهم . هل كانوا مسئولين عن الأجور المنخفضة ؟ الجواب بالنفى طالما عمى العامل هو الذى دفعه إلى مضاعفة عدد أفراد طبقته . وهل كانوا مسئولين عن تقدم المجتمع ؟ نعم . وماذا أفادوا من بذل الجهود وادخار الأرباح من أجل القيام بمغامرات جديدة فى الإنتاج ؟ إن كل ما كسبوه لقاء الآلام التى تحملوها كان الرضاء المشكوك فيه والناجم من مشاهدة الريوع والأجور النقدية ترتفع وأرباحهم تنكمش ؟ إنهم هم الذين أداروا الآلة الإقتصادية ، أما المالك الجالس فى المقعد الخلفى فقد حقق كل المتعة وحصل على كل الجزاء . والواقع راح الرأسمالى العاقل يسأل نفسه عما إذا كانت اللعبة تستأهل حقاً أن يمارسها .

والآن ، من غير القس مالثس يتقدم ليعلن أن ريكاردو لم ينصف ملاك الأراضى ؟

لنتذكر أن مالثس لم يكن مجرد خبير فى موضوع السكان ، إذ كان أولا وقبل كل شىء إقتصادياً ، وسبق فى الواقع أن طلع بالنظرية «الريكاردوية» فى الريع قبل أن يتناولها صاحبها ويهذبها . ولكن مالثس لم يستخلص من نظريته نفس النتائج التى وصل إليها صديقه . لقد كتب فى كتابه « مبادئ الإقتصاد

السياسى » الذى ظهر بعد كتاب ريكاردو بثلاث سنوات أن « الريوع هى الجزاء عن الشجاعة والحكمة الحاليتين فضلا عن القوة والدهاء الماضيين . فنحن نشترى فى كل يوم أراضى بثمار الجد والموهبة » . وأضاف فى حاشية « والحقيقة أن المستر ريكاردو نفسه من ملاك الأراضى ومثال طيب لما أعنيه » .

لم تكن هذه حجة مقنعة جداً ، فريكاردو لم يصور المالك على أنه صورة خداعة للشر ، وإنما اقتصر على أن بين كيف أن قوى التطور الإقتصادى وضعته على غير وعى منه فى مركز يستفيد فيه من تقدم المجتمع .

ولكنا لا نستطيع أن نقف هنا لنتابع جميع تقلبات هذا الجدل . المهم أن المعانى الشريرة التى تصور ريكاردو وجودها فى الريع لم تتحقق أبداً لأن رجال الصناعة حطموا فى النهاية قوة ملاك الأراضى ونجحوا أخيراً فى إستيراد الغذاء الرخيص ، وجوانب التلال الجرداء التى كانت تزحف فوقها حقول القمح فى أيام ريكاردو بصورة تنذر بالخطر عادت بعد عقود قلائل فأصبحت مراعى . ومما له أهمية بالمثل أن السكان لم يزيدوا بالسرعة التى تجعلها تطغى على موارد البلاد . إذ لما كانت نظرية ريكاردو تقوم على أن الريع ينشأ عن الفوارق بين أفضل الأراضى وأردئها لهذا يتضح أنه إذا أمكن التحكم فى مشكلة السكان فإن هذا الفرق لن يتطور إلى الحد الذى يجعل العائدات من الريع تصل إلى هذه النسب الخطيرة من وجهة نظر المجتمع . ولكن ، فلنتأمل لحظة الموقف لو أن بريطانيا أرغمت اليوم على إطعام سكانها الحاليين الذين يبلغ عددهم خمسين مليوناً ، من إنتاجها المحلى كلية ، بفرض أن قوانين الغلال لم تلغ أبداً . فهل من شك أن الصورة التى رسمها ريكاردو لمجتمع يسيطر عليه مالك الأرض صورة مخيفة ؟ إن مشكلة الريع كادت أن تصبح مشكلة أكاديمية جانبية فى العالم الغربى الحديث . والسبب فى هذا لا يرجع إلى خطأ التحليل الذى طلع به ريكاردو . إننا لم ننج من الورطة الريكاردوية إلا لأن السرعة التى تحركت بها الحياة الصناعية أنقذتنا من المحنة التى توقعها مالتس . فالنظام

الصناعى لم يقيد المواليد فحسب بل وزاد بدرجة هائلة من قدرتنا على إنتاج الغذاء من الأرض التى تحت تصرفنا .

ولكن بينما كان مالثس يعد مالك الأرض شخصاً باسلاً يسهم فى تحقيق ثروة الشعوب (قال ريكاردو أنه كان يفعل ذلك بوصفه رأسمالياً يدخل التحسينات الزراعية وليس بمجرد كونه منتفعاً من حقوق الملكية فى الأرض)، فإنه وجد أى القس ، سبباً آخر يدعو إلى القلق والهم . كان يشعر بالقلق بسبب إمكانية وقوع ما دعاه « الوفرة العامة » — أى وجود فيض من السلع لا تجد من يشتريها .

مثل هذه الفكرة ليست غريبة علينا بكل تأكيد ، نحن الذين شعرنا بالقلق طيلة حياتنا بشأن حالات الركود الإقتصادى ، ولكنها بدت فى نظر ريكاردو سخيفة بدرجة تتجاوز حدود التصديق . لقد تعرضت إنجلترا لإنقلابات فى التجارة ولكنها بدت راجعة إلى سبب معين — كإفلاس بنك ، أو فورة من مضاربة لا تستند إلى مبرر معقول ، أو حرب . وأهم من هذا بالنسبة إلى عقل ريكاردو الرياضى كان فى الإمكان إظهار الفكرة على أنها مستحيلة من وجهة النظر المنطقية ، وبذلك لا يمكن أن تتحقق .

والدليل الذى استند إليه ريكاردو لبيان صحة رأيه سبق أن اكتشفه شاب فرنسى يدعى ج . ب ساى . طلع ساى بفرضين بسيطين جداً ، فاعتقد أولاً أن الرغبة فى اقتناء السلع لا حد لها . إن الرغبة فى الغذاء يمكن أن تحد منها طاقة المعدة كما سبق لآدم سميث القول ، ولكن الرغبة فى اقتناء الملابس والأثاث والكماليات وأدوات الزينة تبدو كبيرة لا يمكن حسابها . وقال ريكاردو وساى إن الطلب ليس كبيراً بدرجة غير محدودة فحسب بل إن القدرة على الشراء مضمونة أيضاً لأن كل سلعة يجرى إنتاجها تتكلف شيئاً — وكل تكلفة كانت دخلا حصل عليه شخص ما . وسواء كانت التكلفة أجوراً أو ريعاً أو أرباحاً فإن الثمن الذى تباع به السلعة نتج كدخل

حصل عليه شخص ما . إذن ، كيف يمكن أن تحدث وفرة عامة ؟ إن السلع موجودة ، والطلب موجود ، والدخول اللازمة لشرائها موجودة أيضاً ، وليس غير الشذوذ البحت من شيء يستطيع أن يمنع السوق من أن تجد المشترين الذين تحتاج إليهم ليخلصوها مما فيها من السلع .

وبالرغم من تسليم ريكاردو بصحة هذه الفكرة فى ظاهرها فإن مالثس لم يسلم بها . لم تكن حجة من السهل هدمها إذ بدت بالفعل قوية من الناحية المنطقية ، ولكن مالثس كان ينظر إلى ما وراء عملية مبادلة السلع بالدخول ، وخرج بفكرة غريبة فقال : ألم يكن فى الإمكان أن يجعل الإدخار الطلب على السلع أقل من المعروض منها ؟

ومرة ثانية ، يبدو هذا فى نظر العالم الحديث إتجاهاً فى البحث مثمراً بشكل يدعو إلى القلق . ولكن ريكاردو أعلن أنه هراء واضح وبسيط ، وقال مؤنباً : « لا يظهر أبداً أن المستر مالثس يتذكر أن الإدخار هو إنفاق شبيه على وجه التأكيد بما يدعوه إنفاقاً خالصاً » . والمعنى الذى قصده أنه لا يمكن أن نتصور شخصاً يعنى بادخار أرباحه لأى سبب إلا إذا كان يهدف إلى إعادة استثمارها فى الصناعة واجتناء مزيد من الأرباح .

وهذا وضع مالثس فى ورطة . كان يعتقد مثل ريكاردو أن الإدخار معناه الإنفاق للأغراض الصناعية طبعاً . ومع ذلك بدا أن هناك شيئاً فى حجته لو أنه استطاع أن يضع أصبعه عليه ولكنه لم يتمكن من هذا أبداً . فلكى يثبت أن التجميع ليس جوهرياً تماماً كما ظن ريكاردو ، كتب يقول :

« لقد جمع الكثيرون من التجار ثروة كبيرة بالرغم من أنه فى أثناء إقتناء هذه الثروة ربما لم تمر عليهم سنة لم يزيدوا خلالها من نفقاتهم بدلا من إنقاصها على أدوات الرفاهية والمتعة وعلى الجود » .

وعلق ريكاردو على هذا بالعبارة الهدامة الآتية :

هذا صحيح ولكن أخاً آخر من التجار تجنب زيادة ما ينفقه على الكماليات

وأدوات المتعة والجود ، بالأرباح نفسها ، سوف يحقق الثراء بأسرع منه . مسكين مالثس لقد خسر فى هذه المعركة . فقد كانت حجته مضطربة ولم يكن من خطأ أهل جيله أنهم لم يفهموه ولا من خطأه أنه عجز عن أن يفهم ريكاردو . والسبب أنه كان يتعثر فى ظاهرة لن تستأثر باهتمام الإقتصاديين ، لمدة خمسين عاماً بعد ذلك — وهى مشكلة حالات الرواج والكساد ، بينما انصرف ريكاردو كلية إلى مشكلة مختلفة عنها تماماً . كانت المشكلة عند مالثس هى المشكلة البالغة الأهمية والتى يمثلها السؤال : كم هناك ؟ أما عند ريكاردو فالمشكلة يعبر عنها السؤال الأشد خطورة بكثير : من يحصل على ماذا ؟ لا عجب إذن أن اختلف الرجلان إلى غير نهاية إذ كانا يتحدثان عن أشياء مختلفة .

وإذ إنتهى الجدل ، فإن لنا أن نسأل : ما الذى أسهما به ؟

إن الهبة التى قدمها ريكاردو للعالم واضحة . هنا عالم جرد من كل عناصره الجوهرية وأصبح مكشوفاً أمام كل من يريد أن يفحصه : لقد كانت آلات الساعة ظاهرة للعيان . وفى زيفه نفسه كمنت قوته ذلك أن البنيان المجرد لعالم مبسط إلى درجة كبيرة لم يظهر قوانين الريع فحسب ولكنه أوضح أيضاً مسائل حيوية تتعلق بالتجارة الخارجية والنقود والضرائب والسياسة الإقتصادية فبناء عالم نموذجى زود ريكاردو وعلم الإقتصاد بأداة تجريد قوية وهى أداة جوهرية إذا كان علينا أن ننفذ من خلال اضطراب الحياة اليومية لنفهم الجهاز الذى يكمن تحته .

ولم يحقق مالثس مثل هذا النجاح فى بناء عالم مجرد ، ولهذا فإن مساهمته الأكاديمية فى الأجل الطويل أقل ؛ ولكنه أوضح مشكلة السكان المخيفة ولهذا السبب وحده لا يزال اسمه حياً . وأحس — حتى ولولم يوضح — بمشكلة الركود العام التى سوف تشغل بال الاقتصاديين بعد قرن من نشر كتابه .

إن المشكلات الرئيسية التى اصطرع بشأنها الرجلان تعتبر بمعنى ما ميتة .

فبالنسبة إلى العالم الغربى على الأقل لم تعد مشكلة السكان مصدراً للقلق العاجل . وإن كانت مشكلة حادة فى الشرق والجنوب . وسيطرة مالك الأرض على الإقتصاد أصبحت من الطرائف التى ترد فى الكتب الدراسية . ولكن الرجلين فيما بينهما حققا شيئاً مدهشاً . لقد حولا نظرة عصرهما من التفاؤل إلى التشاؤم بحيث لم يعد فى الإمكان النظر إلى الكون الذى يعيش فيه الجنس البشرى على أنه ميدان لا بد وأن يسبب تفاعل قوى المجتمع الطبيعية فيه حياة أفضل لكل فرد ، بل على العكس من هذا فإن تلك القوى الطبيعية التى بدت كأنما أعدت لتحقيق التجانس والسلام فى العالم ظهرت الآن شريرة تنذر بالخطر . وإذا كانت البشرية لم تئن تحت وطأة هذا السيل الدافق من الأفواه الجائعة فقد بدا أنها قد تعانى من وجود سيل من السلع لا تجد من يشتريها . وفى أى الحالين سوف يسفر النضال الطويل من أجل التقدم عن حالة يكاد أن يعيش فى ظلها العامل على حد الكفاف ، ويخدع فيها الرأسمالى فتسلب منه ثمرة جهوده ، ويسبح مالك الأرض فوق تيار الكسب الذى ينهبه ويزيده باستمرار ، ذلك الكسب الذى لم يربحه .

لم يكن من الإنجازات البسيطة أن يتمكن الرجلان من إقناع العالم بأنه لا يعيش فى جنة تصورها رجل أحمق . ولكنهما نجحا فى هذا ، وكان الدليل الذى قدماه من قوة الإقناع بحيث راح الناس يبحثون عن مخرج للمجتمع لا فى داخل إطار القوانين الطبيعية المفترضة وإنما بتحويلها . لقد أظهر مالثس وريكاردو أن المجتمع لو ترك وشأنه لسار فى طريقه إلى نوع من الجحيم ولهذا لا عجب أن قال المصلحون إنه إذا كان الأمر كذلك فسوف نضم جهودنا فى صراع ضد الميول الطبيعية بالمجتمع . فإذا كان تيار المجتمع يدفعنا نحو الصخور فسوف نسبح ضد التيار ، وبذلك خرج الإشتراكيون الخياليون على ذلك الإطمئنان الآمن إلى سلامة العالم الجوهرية كما كان .

وبمعنى ما ، نقول إن مالثس وريكاردو كانا آخر جيل علق إيمانه على العقل والنظام والتقدم . إنهما لم يبررا نظاماً لم يوافقا عليه كما لم يدافعا عنه .

والأحرى أنهما كانا غير متحيزين إذ وقفا بعيداً عن الحركة الإجتماعية وفوق مستواها وراحا بعين محايدة يحددان اتجاه التيار . وإذا كان ما رأيا لا يدعو إلى الإنشراح فليس لنا أن نلومهما عليه،لأن هذين أكثر الناس أمانة ونزاهة ، ورعاية لضميرهما ، وكانا يتمشيان مع أفكارهما بغض النظر عما تنتهى بهما إليه . وربما ينبغى أن نقتبس الحاشية التى أبان فيها مالثس أن ريكاردو عدو ملاك الأراضى كان نفسه من هؤلاء الملاك :

« من الغريب إلى حد ما أن المستر ريكاردو الذى يحصل على ريوع بالغة القدر يقلل بهذه الدرجة الكبيرة من أهميتها القومية ، بينما أنا الذى لم أحصل على ريع أبداً ولا أتوقع الحصول عليه ؛ يحتمل أن أتهم بالمغالاة فى تقدير أهميتها . إن مواقفنا وآراءنا المختلفة قد تصلح لبيان إخلاصنا المتبادل ، وقد يهيء فرضاً قوياً بأنه مهما كان الإتجاه الذى سارت فيه عقولنا فى المذاهب التى وضعناها فإن هذا الإتجاه والذى ربما من الصعب الإحتياط منه ، لم يكن بالإتجاه الأخرق الذى يستهدف المركز والمصلحة » .

وبعد أن قضى كلاهما أزجى إليهما الفيلسوف الإسكتلندى سير جيمس ماكنتوش هذه التحية العجيبة فقال : « كانت معرفتى بآدم سميث طفيفة وبريكاردو قوية ، وبمالثس وثيقة . أليس مما يستحق الذكر عن علم أن أعظم أساتذة ثلاثة فيه كانوا أفضل رجال عرفتهم فى حياتى » .

الفصل الخامس

العالم الجميل

الذى تصوره الاشتراكيون الخياليون

ليس من الصعب أن نفهم السبب الذى من أجله تصور مالثس وريكاردو العالم فى هذه المعانى القاتمة ، إذ كانت إنجلترا فى العقد الثالث من القرن التاسع عشر مكاناً كئيباً . لقد خرجت منتصرة من صراع طويل فى القارة ولكنها بدت الآن كأنما تنغمر فى نضال أسوأ فى الداخل إذ وضح لكل ذى عينين أن نظام المصانع الآخذ فى النمو يخلق مجموعة من الشرور الاجتماعية الرهيبة وأن يوم الحساب عنها لا يمكن أن يؤجل إلى الأبد .

والحق ، أن ذكر الأحوال السائدة فى تلك الأيام الباكرة من العمل بالمصانع لمفزع إلى الحد الذى يقف معه شعر رأس القارئ الحديث . ففى عام ١٨٢٨ نشرت « الأسد » وهى مجلة راديكالية فى ذلك العصر ، تلك القصة التى لا تقبل التصديق ، عن روبرت بلينكو ، وهو أحد ثمانين طفلا من أبناء الفقراء أرسلوا إلى مصنع فى لودام . فكان الأولاد والبنات — وجميعهم فى حوالى العاشرة من العمر — يضربون بالسياط ليلا ونهاراً لا لأقل خطأ يرتكبونه وإنما لتنشيطهم على بذل مجهودهم الذى كان يتناقص نتيجة الإعياء . وإذا عقدنا الموازنة مع مصنع ليتون الذى أرسل إليه بلينكو فيما بعد لبدت الأحوال فى لودام أكثر إنسانية . ففى ليتون كان الأطفال يزحفون على أربع مع الخنازير من أجل النفايات فى الحوض ، وكانوا يتعرضون للركل واللكم ، ويساء استعمالهم من النواحى الجنسية ، وكان من عادة مخدومهم أليس نيدهام

أن يقرصهم فى آذانهم حتى تلتقى أظافره فى داخل اللحم . وكان مقدم العمال بالمصنع يعاملهم أسوأ معاملة ، فكان يعلق بلينكو من رسغيه على آلة حتى تنحنى ركبتاه ثم يضع الأشياء الثقيلة الوزن على كتفيه . وكان الطفل وزملاؤه يكادون يمشون عراة فى برد الشتاء وكانت أسنانهم تتساقط (ويبدو أن ذلك كان وليد نزعة صادية بحتة فى نفس مقدم العمال) .

لا شك أن مثل هذه الوحشية المفزعة كانت استثناء أكثر منها قاعدة ، والحق أننا لنشك قليلا فى أن حماس المصلح أضفى رواء على القصة . ولكن إذا استبعدنا المبالغة تماماً فإن القصة بالرغم من هذا تدل على جو إجتماعى كانت فيه أمثال هذه الأساليب التى تتصف بأحط مظاهر الوحشية موضع القبول على أنها نظام الأحداث الطبيعى بل أهم من هذا على أنها ليست مما يهتم به أحد . إن يوم عمل من ستة عشر ساعة لم يكن شيئاً غير عادى ، حيث تتوجه القوة العاملة إلى المصانع فى السادسة صباحاً ثم تكد سيراً فى طريق العودة إلى بيوتها فى العاشرة مساء . وكتتويج للإهانة كان الكثيرون من مديرى المصانع لا يسمحون لعمالهم بحمل ساعاتهم وكانت ساعة الحائط الوحيدة التى تبين الوقت ذات ميل غريب إلى الإسراع خلال الدقائق القليلة التى يسمح بها لتناول الطعام . ربما كان أغنى رجال الصناعة وأبعدهم نظراً يأسفون لمثل هذه المساوئ ، ولكن يبدو أن مديرى مصانعهم أو منافسيهم الذين يشعرون بوطأة المنافسة كانوا ينظرون إلى هذه المساوئ نظرة مختلفة .

ولم تكن أهوال أحوال العمل بالسبب الوحيد فى الاضطراب . كانت الآلات الآن مصدر الهياج لأن معناها إحلال الصلب الذى لا يشكو محل الأيدى العاملة . ففى عام ١٧٧٩ هاجم جمهور من ثمانية آلاف عامل مصنعاً وأحرقوه حتى دمروه تماماً وذلك فى تحد لا يعقل لكفايته الميكانيكية التى لا تلين ، وبحلول عام ١٨١١ كانت أمثال هذه الاحتجاجات على التكنولوجيا تجتاح إنجلترا . فكانت المصانع المحطمة تتناثر فى أنحاء الريف ، وعلى أثرها ينتشر القول « لقد مر نيدلد » Ned Ludd كان الإشاعة السارية أن شخصاً

يقال له الملك لد أو الجنرال لد يوجه أعمال جماهير الغوغاء . وهذا غير صحيح بطبيعة الحال ، إذ كان أتباع لد كما أطلق عليهم مدفوعين بكراهية تلقائية تماماً للمصانع التي كانوا يرونها سجوناً ، وللأجر الذي كانوا يحتقرونه .

ولكن الاضطرابات أثارت خوفاً حقيقياً في البلاد . ويكاد ريكاردو أن يكون الوحيد بين الأشخاص المحترمين الذي سلم بأن الآلات ربما لم تسبب دائماً المنفعة العاجلة للعامل ، وبسبب هذا الرأي الذي أبداه اعتبر كأنما زل مرة إذ خرج على فطنته المعتادة . ولكن شعور معظم المراقبين كان أقل تعقلا ، فالطبقات الدنيا قد أخذ زمامها يفلت وينبغي معالجة أمرها بشدة . وفي نظر الطبقات الأرقى بدا أن الموقف يدل على مقدم ثورة عنيفة ورهيبة . فكتب الشاعر ساوثي يقول « في هذه اللحظة ليس من شيء سوى الجيش يحمينا من أفظع النكبات ، أي ثورة يقوم بها الفقراء ضد الأغنياء ، أما إلى متى يمكن أن نعتمد على الجيش فسؤال أكاد لا أجرؤ على أن أوجهه إلى نفسي » ، وراح والترسكوت ينتحب قائلا « . . . إن الأرض تميد تحت أقدامنا » .

لا عجب أن كان مالثس وريكاردو نبيين يبشران بالظلام والصراع !

ولكن في هذه الفترة المظلمة المليئة بالمتاعب ، لمعت بقعة واحدة في بريطانيا فكانت أشبه بمنارة بحرية في عاصفة . ففي جبال أسكتلنده الكالحة ، وعلى مسيرة يوم من جلاسجو ، وفي إقليم بلغ من بدائيته أن الحراس الذين يجبون رسوم المرور بالبوابات كانوا يرفضون أولا قبول العملات الذهبية (إذ لم يسمعوا عنها أبداً) . قامت في البلدة الصغيرة نيو لانارك تلك المصانع النحيلة التي صنعت من الطوب وكانت تتكون من سبعة طوابق . وعلى طول الطرق الجبلية من جلاسجو كان يتدفق سيل دائم من الزوار — بلغ عدد الذين سجلت أسماؤهم أيضاً في دفتر الزيارات بلانارك عشرين ألفاً فيما بين عامي ١٨١٥ ، ١٨٢٥ ، ومن الجماهير التي زارت المكان شخصيات كبيرة مثل الدوق العظيم نيقولا الذي أصبح فيما بعد قيصر روسيا نيقولا الأول ، والأميران

النمساويان جون ومكسميليان ، وسرب بأسره من وفود الأبرشيات والكتاب ودعاة الإصلاح والسيدات العاطفيات ورجال الأعمال المتشككين .

إن ما جاءوا لرؤيته كان البرهان الحى على أن ما تتسم به الحياة الصناعية من قذارة وانحطاط ليس بالتنظيم الإجتماعى الوحيد الذى لا مفر منه . فهنا فى نيو لانارك صفوف أنيقة من بيوت العمال التى يتكون كل منها من غرفتين ، وهنا شوارع كومت فيها القمامة بشكل نظيف إنتظاراً لنقلها والتخلص منها بدلا من تناثرها بشكل مضطرب قذر . وفى المصانع كان فى انتظار الزوار مشهد أكثر إختلافاً عن المألوف ، ففوق مكان كل عامل كان يعلق مكعب خشبى صغير من لون مختلف على كل جانب .

وكانت الألوان هى الأسود والأزرق والأبيض وتدل تدرجها من القاتم إلى الفاتح على تفاوت درجات السلوك ، فالأبيض يشير إلى أن صاحبه ممتاز ، والأصفر جيد ، والأزرق غير مكترث . وبهذه الطريقة يستطيع مدير المصنع من نظرة سريعة واحدة أن يعرف ماذا تعمل القوة العاملة عنده . وكانت الألوان الغالبة هى الأصفر والأبيض .

وثمة سبب آخر كان يثير الدهشة ذلك هو عدم وجود أطفال بالمصانع — على الأقل من تقل أعمارهم عن العاشرة أو الحادية عشرة — والذين كانوا يشتغلون منهم لم يزد يوم عملهم عن عشر ساعات وثلاثة أرباع الساعة . وأكثر من هذا ، لم يكونوا يعاقبون أبداً ، والحقيقة أن أحداً لم يكن يعاقب ، وباستثناء عدد قليل من البالغين الذين لا أمل فى إصلاحهم والذين كانوا يطردون بسبب الإدمان على تعاطى المسكرات أو ما يشبه ذلك من الرذائل ، فقد بدا أن النظام كان يستند إلى الرأفة أكثر منه إلى الخوف ، وكان باب مدير المصنع مفتوحاً وفى مستطاع أى فرد أن يبدى اعتراضاته على أية قاعدة أو أى تنظيم (وكان يحدث هذا بالفعل) . وكان فى إمكان كل شخص أن يراجع الدفتر الذى يسجل سلوكه كما تدل عليه الإشارات اللونية ، وله أن يطلب إعادة النظر فى التقدير إذا شعر أنه قائم على أساس غير عادل .

وأروع من هذا كله الأطفال الصغار . فبدلا من انطلاقهم يهيمون على وجوههم فى الشوارع ألفاهم الزوار فى مدرسة كبيرة يسرعون بالعمل واللعب . وكان أصغرهم سناً يتعلمون أسماء الصخور والأشجار التى يجدونها حولهم أما الأكبر منهم قليلا فكانوا يتعلمون قواعد النحو من رسوم مجسّمة يبدو فيها الجنرال اسم "noun" يصارع الكولونيل نعت adjective والشاويش ظرف adverb ولم يكن العمل كل شيء وإن بدا بهيجاً ، إذ كان الأطفال يجتمعون بانتظام للغناء والرقص تحت رعاية سيدات من الشباب تعلمن أنه لا ينبغى عدم الإجابة على أى سؤال يوجهه الطفل ، وأن الطفل لا يمكن أن يكون سيئاً بغير سبب ، وأنه لا ينبغى أبداً توقيع العقاب ، وأن الأطفال يتعلمون من المثل الذى نضربه لهم بأسرع مما يتعلمون من الزجر .

لا بد أن هذا كان مشهداً عجيباً ، بل ويوحى بالكثير فى الحقيقة . وفيما يتعلق بالسادة الذين لا يفكرون إلا فى العمل ، والذين كان الإحتمال فى أن يؤثر فيهم منظر الأطفال السعداء أقل منه بالنسبة إلى النساء ذوات القلوب الرقيقة ، فإن الحقيقة التى لم يكن فى الوسع تفنيدها أن مصانع نيو لانارك كانت تحقق ربحاً وبشكل يدعو إلى الدهشة والإعجاب . هذه المنشأة لم يكن يديرها قديس فحسب بل ورجل عملى النزعة إلى حد بعيد .

إن الذى كان مسئولا عن نيو لانارك لم يكن قديساً ، بل رجلا أبعد ما يكون عن ذلك . فعلى غرار الكثيرين من المصلحين فى أوائل القرن التاسع عشر ممن نعدهم الاشتراكيين الخياليين ، كان روبرت أوين أو « الكريم مستر أوين صاحب نيولانارك » مزيجاً غريباً من الواقعية والسذاجة ، ومن النجاح والمهزلة ، وسلامة الإدراك والجنون . هنا رجل دعا إلى نبذ المحراث واستخدام المجرفة ، رجل بدأ من العدم حتى أصبح رأسمالياً كبيراً ، ثم تحول من رأسمالى كبير إلى خصم عنيف للملكية الخاصة ، ورجل دعا إلى الطيبة لأنها تحقق الخير ثم عاد بعد ذلك فدعا إلى إلغاء النقود ؟

من الصعب أن نعتقد أن حياة رجل واحد يمكن أن تتعرض لمثل هـــذه

التحولات الكثيرة . لقد بدأت كفصل مباشرة من هوراشيو ألجر .

ولد روبرت أوين لوالدين فقيرين فى ويلز عام ١٧٧١ ، ثم غادر المدرسة فى سن التاسعة ليعمل صبياً لدى أحد أصحاب تجار قماش الكتان، لهاسم غريب هو ماك كوفوج . ربما كان فى الإمكان أن يستمر فى هذه الحرفة دائماً ويلاحظ اسم المتجر يتحول من ماك كوفوج إلى أوين ، ولكنه بأسلوب بطل الأعمال الحقيقى آثر التوجه إلى مانشستر ، وهناك فى سن الثامنة عشرة وبمبلغ قدره مائة جنيه اقترضه من أخ له ، أنشأ مصنعاً صغيراً لعمل المنسوجات . ولكن ما يزال المستقبل الأفضل فى انتظاره . فقد حدث أن المستر درينكوتر وهو صاحب منشأة كبيرة للغزل وجد نفسه ذات صباح وقد فقد مدير مصنعه فنشر إعلاناً فى صحيفة محلية يطلب شخصاً ليشغل المنصب . لم تكن لأوين دراية بمصانع الغزل ولكنه فاز بالمنصب بطريقة تصلح اختباراً لعدد لا حصر له من الكتاب عن فضائل الشجاعة والحظ . وقد كتب أوين بعد ذلك بنصف قرن « ارتديت قبعتى وتقدمت مباشرة إلى مكتب المستر درينكوتر الذى سألنى : كم عمرك ؟ فأجبت : عشرون سنة . وقال : كم مرة فى الأسبوع تشرب الخمر ؟ فقلت : لم أسكر فى حياتى أبداً ، وقد احمر وجهه خجلا من السؤال ما المرتب الذى تطلبه ؟ فكان جوابى : ثلاثمائة جنيه فى العام . ماذا ؟ قالها المستر درينكوتر مبدياً بعض الدهشة وكرر الكلمات ثلاثمائة جنيه فى العام ! لقد استقبلت هذا الصباح كثيرين لا أعرف عددهم يسعون إلى المنصب ، ولا أظن أن كل ما طلبوه يصل إلى المبلغ الذى تريده . فقلت : لا يمكن أن يحكم على بما يسعى إليه الآخرون ، ولا أستطيع أن أقبل أقل من هذا المبلغ » .

كانت تلك من الحركات التى تميز بها أوين ، ونجحت . وفى سن العشرين أصبح أعجوبة عالم النسيج . شاب جذاب بأنف مستقيم نوعاً فى وجه طويل جداً ، وبأعين كبيرة صريحة تعلن عن صفاء نفسه . وفى ظرف ستة أشهر عرض عليه المستر درينكوتر مصلحة قدرها الربع فى المنشأة ، ولكن هذا لم يكن سوى مقدمة لحياة عملية خيالية . فلم تمض سنوات قلائل حتى سمع

أوين أن مجموعة من المعامل معروضة للبيع فى قرية نيولانارك القذرة — ومن المصادفات أن صاحبها كان والد فتاة أحبها أوين . بدا الحصول على المعامل أو يد الإبنة عملا مستحيلا ، لأن المستر ديل ، صاحب المصانع ، كان بريزبيتيرياً متحمساً لن يوافق أبداً على أفكار أوين الحرة الراديكالية . ثم هناك مشكلة تدبير رأس المال اللازم لشراء المعامل . ولم يشعر أوين بالخوف وإنما توجه إلى المستر ديل كما فعل مرة مع المستر درينكوتر وتحقق المستحيل . لقد اقترض المال واشترى المعامل وكسب يد الفتاة فى الصفقة .

كان يمكن أن تقف الأمور عند هذا الحد . ففى ظرف عام جعل أوين من نيولانارك مكاناً تغير شكله ، وخلال خمس سنوات لم يعد فى الإمكان التعرف عليه ، وبعد عشر سنوات أصبح ذا شهرة عالمية . إن هذا إنجاز كان يعتبر كافياً بالنسبة إلى معظم الناس ، إذ فضلا عن اكتساب سمعة فى أوربا يبعد النظر والجود ، جمع روبرت أوين لنفسه ثروة قدرها ٦٠,٠٠٠ جنيه على الأقل .

ولكن الأمور لم تقف عند هذا الحد . فبالرغم من ارتفاعه السريع جداً ، كان أوين ينظر إلى نفسه كرجل أفكار أكثر منه مجرد رجل أعمال ، فنيولانارك لم تكن أبداً بالنسبة إليه تجربة فارغة فى حب الإنسانية ، وإنما الأحرى أنها كانت فرصة لاختبار نظريات صاغها من أجل تقدم الإنسانية بصفتها الكلية ، لأن أوين كان على اقتناع بأن الجنس البشرى ليس أفضل من بيئته وأنه إذا تغيرت البيئة أمكن خلق جنة على الأرض . ففى نيولانارك كان فى إمكانه كما فعل ، أن يختبر أفكاره فى معمل ، وإذ نجحت نجاحاً تجاوز كل حد ، لهذا لم يبد أنه ثمة سبب يمنع تقديمها إلى العالم .

وسرعان ما أتيحت له الفرصة فقد انتهت حروب نابليون ، وجاءت المتاعب فى أعقابها إذ حطمت البلاد سلسلة متعاقبة مما دعاه مالثس « الوفرات العامة » ، وخلال الفترة الممتدة بين عامى ١٨١٦ ، ١٨٢٠ باستثناء سنة واحدة كانت الأعمال فى حالة سيئة جداً . وأصبح البؤس يهدد بالانفجار ، ووقعت

حوادث الشغب المعروفة باسم « الخبز والدم » وتملك البلاد نوع من الهستيريا . وكوّن دوقا يورك وكنت ومجموعة من الأعيان لجنة لبحث أسباب الضيق وكإجراء عادى بحت طلبوا من المستر أوين المعروف بحبه للإنسانية أن يقدم آراءه .

ولم تكد اللجنة أن تكون على استعداد لتقبل ما جاء به . لا شك أنها كانت تتوقع طلباً بإصلاح المصانع إذ كان المستر أوين معروفاً فى كل مكان بأنه يناصر خفض يوم العمل وإلغاء عمل الأطفال . وبدلا من هذا وجد أولئك أنفسهم أمام وثيقة تدعو إلى إعادة التنظيم الاجتماعى على نطاق شامل .

كان الحل الذى اقترحه أوين لمشكلة الفقر يتمثل فى جعل الفقراء منتجين ومن أجل هذه الغاية دعا إلى تكوين قرى التعاون التى تضم كل منها ما بين ثمانمائة وألف ومائتى فرد يعملون سوياً فى المزرعة والمصنع لتكوين وحدة تكفى نفسها بنفسها . ويقضى النظام بأن تعيش الأسرات فى بيوت مجمعة على هيئة متوازيات أضلاع — وهو لفظ سرعان ما استرعى اهتمام الجمهور — على أن تقيم كل أسرة فى شقة خاصة بينما تستخدم حجرات الجلوس والقراءة والمطابخ بصورة مشتركة . ويقيم الأطفال الذين يتجاوزون الثالثة من العمر على انفصال حتى يمكن تعريضهم لذلك الضرب من التعليم الذى يحسن تشكيل أخلاقهم لحياتهم فيما بعد . وتحاط المدرسة بحدائق يعنى بها الأطفال الأكبر سناً قليلا ، وحول الحدائق بدورها تمتد الحقول التى تزرع فيها المحاصيل ولسنا بحاجة إلى القول : إن هذه الحقول كانت تزرع بمساعدة المحارف وبدون استخدام المحاريث . وعلى مسافة من مناطق السكنى تقام وحدة تضم مصنعاً . والحقيقة أن هذا يصبح مدينة حدائق قد شيدت وفق خطة مرسومة .

بهتت لجنة الأعيان بصورة بالغة ، إذ لم تكد أن تكون على استعداد للتوصية بإنشاء وحدات إجتماعية مرسومة فى عصر تسوده الحرية الإقتصادية غير المقيدة . وشكرت اللجنة المستر أوين وتجاهلت أفكاره بعناية . ولكن أوين لم يكن شيئاً إذا لم يكن رجلا جعل لنفسه غرضاً يسعى إلى تحقيقه ،

فأصر على أن يعاد النظر فى إمكانية تطبيق خططه وأغرق البرلمان بالنشرات التى أوضح فيها آراءه . ومرة أخرى نجح تصميمه ، فشكلت فى عام ١٨١٩ لجنة خاصة (تضم داڤيد ريكاردو) بغرض محاولة جمع ستة وتسعين ألف جنيه لإنشاء قرية تعاونية تجريبية كاملة .

كان ريكاردو يشك فى الأمر وإن رغب فى تجربة الخطة ، ولكن البلاد لم تكن تشك فى الفكرة على الإطلاق وإنما وجدتها مقيتة . فكتب أحد رؤساء التحرير يقول « إن السيد روبرت أوين ، وهو من غزالى القطن وعرف بروح الإحسان . . . يتصور أن البشر جميعاً نباتات كثيرة اقتلعت من الأرض لبضع آلاف من السنين وتتطلب أن يعاد غرسها . وتبعاً لهذا نراه يصمم على غرسها فى مربعات وفق أسلوب جديد . . . إنى أعتقد أن كل شخص مقتنع بكرم المستر أوين وأنه يريد تحقيق الخير الكثير وإنى لأطلب منه أن يدعنا وشأننا خشية أن يسبب الكثير من الأذى » . . . وثمة ناقد آخر وهو وليام كوبيت وكان فى ذلك الحين منفياً فى أمريكا بسبب أفكاره الراديكالية ، أبدى احتقاره لآراء أوين فكتب يقول « هذا السيد يسعى إلى إقامة مجتمعات للفقراء . . . وسوف تكون النتيجة السلام العجيب والسعادة والمنفعة القومية . أما كيف تحل تلك المسائل البسيطة من أمثال العيون السود والأنوف الدموية ونزع أغطية الرأس ، فهذا ما لا أفهمه تماماً . إن مشروع المستر أوين على أى حال له ميزة كونه بدعة تماماً ، لأنى أعتقد أنه ما من إنسان سمع أبداً من قبل عن مثل هذا الشىء الذى يقال له مجتمع الفقراء . . . وداعاً ، مستر أوين أوف لانارك » .

بطبيعة الحال لم يتصور أوين إقامة مجتمع من الفقراء ، ولكنه على العكس كان يعتقد أن فى إمكان الفقراء أن يصبحوا منتجين لثروة عظيمة إذا أتيحت لهم فرصة العمل ، وأن عاداتهم الاجتماعية الداعية إلى الأسى يمكن أن تتحول بسهولة إلى عادات فاضلة تحت تأثير بيئة لائقة . . ولم يكن الفقراء وحدهم الذين يمكن رفع مستواهم على هذا النحو ، إذ أن القرى التعاونية سوف تكون

أرقى بصورة واضحة من الاضطراب الذى يشيع فى الحياة الصناعية ، بحيث تحذو حذوها مجتمعات أخرى .

ولكن كان من الواضح أن هذه الآراء لم يكن يعتنقها سوى أوين وحده . فأصحاب التفكير الجاد رأوا فى مشروعه تهديداً مزعجاً للنظام المستقر الثابت . كما لم ير فيه ذوو الأفكار الراديكالية سوى مهزلة تدعو إلى السخرية . إن المال اللازم لإنشاء القرية التجريبية لم يجمع أبداً ، ولكن لم يكن هناك الآن ما يوقف ذلك الرجل المحب للإنسانية والذى لا يقهر . كان من المؤمنين بالإنسان فأصبح الآن رجلا يحترف الخير للإنسان . وجمع ثروة كرسها الآن لتحقيق أفكاره . فباع حصته فى نيولانارك وراح فى سنة ١٨٢٤ يبنى مجتمع المستقبل الذى يدعو إليه . ومن الطبيعى أن يقع اختياره على أمريكا كالبيئة التى يطبق فيها فكرته فهل هناك ما هو أفضل لإنشاء اليوتوبيا من مكان فى وسط شعب عرف الحرية السياسية طيلة خمسين عاماً ؟

واختار موضعاً اشتراه من شيعة دينية من الألمان تعرف باسم الرابين Rappines ومساحته ثلاثون ألف فدان على شواطىء نهر واباش فى مقاطعة بوزى بولاية إنديانا . وفى الرابع من يوليه سنة ١٨٢٦ دشن المكان « بإعلان الاستقلال العقلى » أى التحرر من الملكية الخاصة ، والدين المنافى للعقل ، والزواج ، ثم ترك المكان يسير فى طريقه باسمه الجميل الذى ينم عن الأمانى الطيبة وهو « الإنسجام الجديد » .

لم يكن فى الإمكان أن ينجح المشروع ولم ينجح بالفعل . لقد تصور أوين قيام يوتوبيا كاملة الأركان فى العالم ولم يكن مستعداً لأن ينتزع واحدة من البيئة الناقصة القائمة فى المجتمع القديم . ولم يكن هناك تخطيط ، وتدفق ثمانمائة من المستوطنين كيفما اتفق خلال أسابيع قلائل ولم تتخذ حتى الاحتياطات البدائية ضد التدليس ، وخيب أحد شركاء أوين رجاءه إذ غمره بالإهانة حين أنشأ معملا لتقطير الويسكى فى أرض استولى عليها بغير حق . ونظراً لعدم إقامة

أوين هناك نشأت مجتمعات منافسة ، مثل ماكلوريا يرأسه شخص يدعى وليم ماكلور ، وغيره تحت إشراف نفر من الخارجين على أوين . وكانت قوة عادة الاقتناء أقوى من رابطة الأفكار . وإذ نعود بأبصارنا إلى الوراء فإننا نعجب كيف عاشت هذه الجماعة مثل هذا الوقت الطويل .

وبحلول عام ١٨٢٨ أصبح ظاهراً أن المشروع إنتهى بالإخفاق ، فباع أوين الأرض (وكان قد خسر أربعة أخماس ثروته كلها فى المغامرة) وراح يتحدث عن مشروعه إلى الرئيس جاكسون ثم من بعده إلى سانتا آنا بالمكسيك ولم يبد أى من هذين الرجلين أكثر من إصغاء مهذب .

عاد أوين الآن إلى إنجلترا . وكان ما يزال المستر أوين الرجل الخير (وإن تحطم قليلا) وأوشكت حياته العملية أن تتخذ اتجاهها النهائى الذى لم يكن متوقعاً . إذ بينما هزأت معظم الآراء من قراه التعاونية تغلغلت تعاليمه فى فريق من أهل البلاد وهو الطبقات العاملة . كان هذا هو الوقت الذى تكونت فيه أولى النقابات العمالية الحديثة وأصبح قادة الغزالين والفخارين والبنائين ينظرون إلى أوين على أنه الرجل الذى يستطيع أن يعبر عن مصالحهم — بل وعلى أنه زعيمهم فى الحقيقة ، إذ على خلاف من فى مرتبته ، أخذوا تعاليمه مأخذ الجد — وبينما كانت القرى التعاونية موضع النقاش فى لجان الأعيان كانت جمعيات تعاونية حقيقية من الطبقة العاملة تنشأ فى جميع أرجاء البلاد على أساس الكتابات التى أصدرها وعلى نطاق أكثر تواضعاً ، وهى الجمعيات التعاونية الإنتاجية والاستهلاكية ، بل وبذلت محاولات قليلة سيئة الطالع من أجل تطبيق أفكار المستر أوين حرفياً بالاستغناء عن النقود .

وأخفقت الجمعيات التعاونية الإنتاجية بلا استثناء وانتهت عمليات التبادل التى لا تستخدم فيها النقود بالإفلاس فى نهاية الأمر . ولكن مظهراً من الحركة التعاونية نبتت جذوره ، ذلك أن ثمانية وعشرين من المخلصين للفكرة من أطلقوا على أنفسهم اسم رواد روشديل بدأوا الحركة التعاونية الاستهلاكية .

لم تثر هذه الحركة فى أوين سوى اهتمام عابر ، ولكنها بمرور الوقت نمت حتى

أصبحت من مصادر القوة الكبيرة التى استندت إليها قوة حزب العمال فى بريطانيا العظمى . ومن الغريب أن الحركة التى حظيت بأقل قدر من الاهتمام من جانبه هى التى قدر لها البقاء بعد أن أخفقت جميع المشاريع التى صب فيها قلبه وقوته .

لم يتسع وقت أوين للجمعيات التعاونية وذلك لسبب طيب ، إذ على أثر عودته من أمريكا فكر فى شن حملة صليبية أخلاقية هائلة وانغمر فيها بكل ما أوتى من قوة . فالرجل الذى كان فيما مضى صبياً فقيراً ، ورأسمالياً ، ومهندساً اجتماعياً ، جمع الآن حول نفسه زعماء حركة الطبقة العاملة ، وأضفى على مشروعه اسما أشد وقعاً فى النفس وهو النقابة الأخلاقية الكبرى للطبقات المنتجة والنافعة . وسرعان ما جرى اختصار الاسم إلى النقابة المتحدة القومية الكبرى ، وإذ ظل من الصعب النطق بالاسم عادوا إلى اختصاره من جديد إلى النقابة القومية الكبرى . وهرع الزعماء النقابيون يستظلون برايته ، وفى سنة ١٨٣٣ بدأت الحركة العمالية الرسمية فى إنجلترا .

كانت نقابة على الصعيد القومى — وتعتبر مقدمة للنقابات العمالية الصناعية اليوم . وبلغ عدد أعضائها خمسمائة ألف — وهو رقم هائل بالنسبة إلى ذلك العصر — وكانت تشمل فعلا كل نقابة مهمة فى جميع أنحاء انجلترا ، ولكن على خلاف النقابة الحديثة ، لم تكن أهدافها مقصورة على ساعات العمل والأجور أو حتى الإمتيازات التى تتمتع بها الإدارة . كان الغرض من النقابة القومية العظمى أن تكون أداة لا للتحسين الاجتماعى فحسب بل ولإجراء التغيير الاجتماعى . ومن هنا بينما كان برنامجها يدعو إلى تحسين الأجور وأحوال العمل فقد واصلت الدعوة إلى خليط مهوش من قرى التعاون وإلغاء النقود وعدد من الأفكار الأخرى التى اقتبستها من ذلك المزيج المختلط الذى تمثله كتابات أوين .

وعمل أوين على أن يشغل بال البلاد بالقضية الأخيرة التى يدافع عنها ، ولكنها كانت مهزلة . لم تعد إنجلترا بيئة صالحة للنقابة القومية أكثر مما كانت

أمريكا مستعدة لإنشاء جنة فى إحدى بقاعها . فالنقابات المحلية لم تستطع التحكم فى أعضائها ، وأضعفت الإضرابات المحلية النقابة القومية واختلف أوين ومعاونوه ، فاتهموه بالإلحاد واتهمهم بإثارة الكراهية الطبقية . وتدخلت الحكومة وبالعنف والانتقام عملت أقصى ما فى وسعها لتحطيم الحركة النامية . لقد سمعت طبقات أصحاب الأعمال فى النقابة العامة الناقوس الذى يدق مؤذناً بموت الملكية الخاصة ، وطالبت بمقاضاتها وفقاً للقوانين المعادية للتكوين النقابى . وما كان فى وسع حركة غضة أن تقاوم مثل هذا الهجوم . فلم يمض عامان حتى قضت النقابة العظيمة وكان أوين وهو فى الرابعة والستين من عمره قد لعب آخر أدواره التاريخية .

وعاش عشرين عاماً أخرى بعد ذلك رجل الحركة العمالية العجوز العظيم يحث على الأخذ بأفكاره التعاونية وتفضيله الحرفة ، وشكه الساذج فى النقود . وفى عام ١٨٣٩ استقبلته الملكة فكتوريا بالرغم من احتجاجات جماعة من أفضل الناس كانت تعرف باسم « جمعية القضاء على الكفر بالوسائل السلمية » ولكنه كان قد انتهى ، وفى سنواته الأخيرة وجد ملاذاً فى الروحانيات ، وفى إصدار الكراسات التى لا نهاية لها والتى تعالج نفس الموضوع بصورة لا نهاية لها ، وفى كتابة قصة حياته العجيبة . ومات فى عام ١٨٥٨ وقد بلغ السابعة والثمانين وكانت الآمال ما تزال تجيش فى نفسه .

يا لها من قصة رومانسية وخيالية ، وإذ نرجع بأبصارنا إلى الوراء فإن قصته وليست أفكاره هى التى تثير اهتمامنا . إن أوين لم يكن أبداً مفكراً مبتكراً حقيقة . ومن المؤكد أنه لم يكن أبداً مفكراً مرناً . وقد وصفه أحد الكتاب من معاصريه بهذه الطريقة الشاملة فقال : « إن روبرت أوين ليس بالرجل الذى يختلف رأيه فى كتاب بعد أن يطالعه » ، أما ماكولاى الذى كان يهرب عند سماع صوته فقال عنه إنه « دائماً رجل بغيض لطيف » .

ومهما أسرفنا فى الخيال فإنه لم يكن إقتصادياً . ولكنه كان أكثر من ذلك : إنه أعاد تشكيل البيانات الخام التى كان على الاقتصاديين أن يعالجوها .

إذ هنا فرد واحد أظهر لانجلترا أن النظام الصناعى لا يستلزم أن يقوم على أساس العمل الرخيص الذى يساء استخدامه بشكل وحشى . وهنا رجل مهد الطريق لتشريع المصانع بأن طبق مبادئه وأثبت إمكان نجاحها . وهنا رجل أوتى الجرأة على الإيحاء بأن فى الإمكان التخفيف من فقر الفقراء على أفضل وجه بأن يجعلهم منتجين ، ثم سار قدماً فى طريقه ووضع الفكرة موضع التجربة . وهنا رجل أنشأ تلاميذه الحركة التعاونية وأقاموا أول تنظيم عمالى يلفت النظر عرفه العالم من قبل . وعلى غرار الاشتراكيين الخياليين كان أوين يريد تغيير العالم ، ولكن بينما كتب غيره ، بقوة أو بخلاف ذلك ، فقد سار فى طريقه وحاول تغيير العالم .

وحين نفكر من جديد فيما فعل فربما خلف وراءه فكرة عظيمة واحدة ، تعبر عنها بصورة فاتنة هذه القصة التى تضمنتها قصة حياة ابنه روبرت ديل أوين .

« قال والده (روبرت أوين) حين يصرخ الطفل من الغضب يا عزيزتى كارولين ضعيه فى وسط غرفة الأطفال وتأكدى أنك لن تحمليه حتى يتوقف عن الصراخ » .

« ولكنه يا عزيزى سوف يواصل الصراخ بالساعات » . « إذن دعيه يصرخ » . « قد يؤذى هذا رئتيه الصغيرتين وربما يسبب له تشنجات » . « لا أظن ذلك . وعلى كل حال فسوف يؤذيه أكثر من هذا لو شب ولداً جموحاً . إن الإنسان وليد الظروف » .

« الإنسان وليد الظروف » . ومن يخلق الظروف غير الإنسان نفسه ؟ إن العالم ليس خيراً أو شريراً بصورة لا مناص منها ، ولكننا نحن الذين نجعله كذلك . فى هذه الفكرة خلف أوين وراءه فلسفة من الأمل أقوى من جميع الأفكار الخيالية عن المجارف والمحاريث أو النقود أو القرى التعاونية .

من المؤكد أن من أفراد جماعة المعترضين فى القرن التاسع عشر على

الرأسمالية فى مرحلتها الأولية يعتبر روبرت أوين أكثرهم رومانسية ولكنه بكل تأكيد ليس أشدهم غرابة . فمن ناحية مجرد انحراف الخلق يجب أن يحتل الكونت كلود هنرى دى روفروى دى سان سيمون مركز الشرف ، كما أننا لا نجد صنواً لشارل فورييه من ناحية ما اتصفت به أفكاره من شذوذ لا ريب فيه .

كان سان سيمون كما يوحى اسمه المتسلسل أرستقراطياً ، إذ تدعى أسرته أنها تنتسب إلى شارلمان، وولد فى عام ١٧٦٠ ونشأ على وعى بنبل أصله وبأهمية الإبقاء على لمعان اسمه إذ كان وهو شاب يستيقظ كل صباح على صوت خادمه الخاص يصرخ « إنهض سيدى الكونت فأمامك أعمال عظيمة تؤديها اليوم » .

إن معرفة الإنسان بأنه الأداة التى وقع عليها اختيار التاريخ يمكن أن تسبب أشياء غريبة له . ففى حالة سان سيمون زودته بالسبب الذى يبرر الإسراف فى إشباع النزوات . وحتى وهو صبى نراه يخلط بين الإخلاص لمبدأ وبين مجرد العناد ، فيروى أن عربة كانت تمر فى الطريق أرادت أن تمنع أطفالا من مواصلة لعبهم ، وهنا ألقى بنفسه فى عرض الطريق وأبى أن يتزحزح من موضعه . ومن ذا الذى يستطيع أن يلقى بكونت شاب فى حفرة ؟ وهذا العناد جعله فيما بعد يرفض حضور العشاء الربانى لما طلب منه والده ذلك، ولكن الأخير وكان أكثر تعوداً على عناد ابنه ومن المؤكد أنه كان أقل خوفاً منه ، ألقى بالإبن فى السجن .

هذه النزعة إلى إشباع الشهوات والرغبات كان فى إمكانها أن تتجه بسان سيمون إلى الإنخراط فى سلك أعظم الجماعات السياسية بأوربا إنغماساً فى الملذات وهى بلاط لويس السادس عشر ، ولكنه تخلص منها بفضل حب ملك عليه نفسه نحو فكرة أبعد ما تكون عن اللياقة ، تلك هى الديموقراطية . ففى عام ١٧٧٨ توجه الكونت الشاب إلى أمريكا حيث برز فى حرب الثورة، إذ اشترك فى خمس حملات ، ونال وسام سنسناتى ، وأهم من هذا كله

أصبح من التلاميذ المتحمسين للأفكار الجديدة عن الحرية والمساواة .

ولكن هذا لم يشكل بعد الأشياء العظيمة التى كان يتصورها . فحين انتهت حرب الثورة (الأمريكية) كان فى لويزيانا ومنها توجه إلى المكسيك ليقنع نائب الملك بحفر قناة كان يمكن أن تسبق قناة بنما . ربما كان ذلك يؤدى إلى ذيوع اسمه ولكن الفكرة انتهت إلى غير نتيجة — وقد كان تسعة أعشارها بالطبع فكرة والباقى مشروعاً ، فعاد النبيل الثائر إلى فرنسا .

ووصل فى الوقت الذى بدأت فيه الثورة هناك فانغمر فيها بحماس . وطلب منه مواطنوه فى بلدة فالفى فى بيرون أن يكون عمدتها فأبى لأن انتخاب رجال طبقة النبلاء القديمة يضع سابقة سيئة ، ثم لما اختاروه نائباً عنهم فى الجمعية الوطنية اقترح إلغاء الألقاب ونبذ لقبه وأصبح يعرف باسم « المواطن الطيب » فقط . ولم تكن ميوله الديموقراطية تصنعاً إذ كانت نفسه مليئة بشعور صادق من ناحية أخيه الإنسان . فقد حدث قبل الثورة أن ركب عربة فى طريقه إلى فرساى وقد بدا فى أعلى أناقته ، فإذا به يلقى عربة أحد الفلاحين وقد غاصت عجلاتها فى الوحل ، فما كان منه إلا أن نزل من عربته ورفع العجلة بكتفه المغطى بالملابس الأنيقة ثم وجد الحديث مع الفلاح مشوقاً إلى الحد الذى جعله يصرف عربته ويركب إلى أورليانز مع صديقه الفلاح الذى تعرف عليه منذ لحظـــة .

وكان حظه مع الثورة غريباً . فمن طريق المضاربة البارعة فى أراضى الكنيسة جمع لنفسه ثروة متواضعة . هذا من جهة . ومن جهة أخرى شغل نفسه بمشروع تعليمى ضخم جلب عليه الاستياء إذ جعله على اتصال بالأجانب وانتهى الأمر بالتحفظ عليه كإجراء وقائى . وهرب سان سيمون ثم عاد بحركة رومانسية ونبيلة حقاً فسلم نفسه حين وجد أن صاحب الفندق الذى نزل فيه قد أتهم ظلماً بالتعاون فى تدبير فراره .

وفى هذه المرة أودع السجن ، وهناك فى زنزانته هبط عليه الوحى الذى

كان ينتظره طيلة حياته ، إن صح المعنى . جاءه الوحى ، كما يحدث فى أمثال هذه الرؤى ، فى صورة حلم . ويصف لنا سان سيمون الأمر فيقول :

« خلال أقسى فترة من فترات الثورة ، وفى ليلة وأنا نزيل فى سجن لوكسمبورج ، ظهر لى شارلمان وقال : منذ أن بدأ العالم لم تحظ أسرة بشرف إنجاب بطل وفيلسوف من الصف الأول . وهذا الشرف كان محتفظاً به لبيتى ، يا بنى ، إن النجاحات التى تحققها كفيلسوف سوف تعادل تلك التى أحرزتها أنا كمحارب وسياسى » .

ولم يطلب سان سيمون أكثر من هذا . فتمكن من أن يجعل السلطات تطلق سراحه وراح يبدد المال الذى جمعه من قبل على سعى خيالى وراء المعرفة . أخذ هذا الرجل بالفعل يعمل على الإلمام بكل شىء — فأخذ يدعو إلى داره كل علامة فى فرنسا من العلماء والاقتصاديين والفلاسفة والسياسيين ، ويمول العمل الذى يقومون به ، وكان يتساءل بصورة لا نهاية لها عما إذا كان فى إمكانه أن يحيط بكل ما فى العالم من معرفة . كان ذلك محاولة غريبة وشاذة منه . فترة ، وبعد أن توصل إلى أنه ما زال يفتقر إلى معرفة مباشرة بحياة الأسرة كشىء لا بد منه لمتابعة دراساته الاجتماعية ، عمد إلى الزواج — بعقد لمدة ثلاث سنوات . ولكن سنة واحدة كانت فيها الكفاية ، فزوجته ثرثارة ، وضيوفه يسرفون فى الشراب . وهنا قرر أن الزواج كنظام له قيمته من الناحية التعليمية ، يتضمن قيوداً تحد من هذه القيمة . وبدلاً من ذلك راح يسعى إلى طلب يد مدام دى ستيل ، أنبه امرأة فى أوربا ، معلناً أنها المرأة الوحيدة التى فى وسعها أن تفهم خططه . وتقابلا فكانت المقابلة ذروة الأثر المضاد ، إذ وجدت فيه رجلا ذكياً ولكن لا يكاد يمكن اعتباره أعظم فيلسوف فى العالم . وفى ظل هذه الظروف خبا حماسه .

ولكن البحث عن المعرفة الموسوعية التى تضم كل شىء . وإن كان منشطاً للذهن كان ينطوى على خسارة فادحة من الناحية المالية . كان ينفق فى إسراف وصل إلى حد التهور ، وكان زواجه على غير ما توقع كثير

التكاليف وألفى نفسه فى مبدأ الأمر وقد هبطت أحواله المالية ، ثم تحولت بعد ذلك إلى فاقة حقيقية واضطر إلى البحث عن عمل كتابى ثم الاعتماد على العطف من جانب أحد خدمه القدامى للحصول على الغذاء والمأوى . وفى هذه الأثناء كان يكتب فى غيظ شديد سيلا لا نهاية له من المقالات والملاحظات والتحذيرات والدراسات التى تتناول شئون المجتمع . وبعث بمؤلفاته إلى أبرز رعاة الفكر ، وأرفق بها الرسالة التالية :

سيدى :

أقسم لك بالله المخلص أنى أموت من الجوع . لقد مضى على خمسة عشر يوماً وأنا أعيش على الخبز والماء . . وبعت كل شىء فيما عدا ملابسى . حتى أتمكن من دفع تكاليف نسخ مؤلفاتى . إن الحماس للمعرفة والرفاهية العامة ، والرغبة فى إيجاد وسيلة سلمية لإنهاء الأزمة المخيفة التى تمسك بخناق المجتمع الأوربى كله — هذا هو الذى أوصلنى إلى هذه الضائقة .

ولم يتقدم أحد إلى عونه . وفى عام ١٨٢٣ ، وبالرغم من أن أسرته منحته معاشاً صغيراً أطلق الرصاص على نفسه . ولكنه لم يستطع أبداً أن يفعل شيئاً كما أراده تماماً ، ولهذا لم ينجح إلا فى إصابة إحدى عينيه ، وامتد به العمر سنتان عاشهما فى مرض وفقر ، مؤمناً بفكرته ونفسه مليئة بالكبرياء . وحين جاءت النهاية جمع حوله حواريه وقال لهم « تذكروا أن على المرء أن يكون متحمساً إذا أراد عمل الأشياء العظيمة » .

ولكن ما الذى فعله لتبرير مثل هذه النهاية المسرحية ؟

لقد عمل شيئاً غريباً ، ذلك أنه أسس ديناً صناعياً . وهو لم يفعل ذلك فى كتبه الضخمة التى لم تقرأ أو فى محاضراته أو عن طريق « أشياء عظيمة » قام بها . إن الرجل نفسه قد أوحى على نحو ما بقيام شيعة ، وجمع حوله

عصبة صغيرة من الأتباع . ورسم للمجتمع صورة جديدة لما يمكن أن يصبح عليـه .

كان ذلك ديناً غريباً ، يشبه الصوفية ويشيع فيه الاضطراب ، وهو ما لا نعجب له كثيراً لأنه دين أقيم على صرح ناقص وغير متوازن الجوانب من الأفكار ، بل ولم يكن المقصود منه أن يكون ديناً بصفته هذه ، ومع هذا وجدت بالفعل بعد موته كنيسة سان سيمونية ذات أقسام ستة فى فرنسا وفروع فى ألمانيا وانجلترا . وربما يحسن أن نشبهها باحدى طوائف الإخوان ، وكان تلاميذه يرتدون ملابس من اللون الأزرق ويعدون بعضهم بعضاً « آباء وأبناء » . وكرمز لطيف عما كان يرمز إليه المؤسس نفسه كانوا يرتدون نوعاً خاصاً من الصديريات التى لا يمكن ارتداؤها أو خلعها بغير مساعدة شخص آخر ، كى تؤكد اعتماد كل إنسان على إخوانه . ولكن الكنيسة سرعان ما انحطت فلم تزد عن كونها طقساً دينياً ، ذلك أن أتباعه المتأخرين ابتدعوا قانوناً خاصاً بهم للأخلاق لم يزد كثيراً فى بعض الحالات عن أن يكون فجوراً منظماً له مظهر الاحترام .

والإنجيل الذى بشر به سان سيمون لا يكاد يصدم العين الحديثة ، كان يعلن أن « على الإنسان أن يعمل » إذا أراد أن يشارك فى التمتع بثمار المجتمع ، ولكن إذا وازنا بين النتائج التى استمدت من هذا الغرض وبين مجتمع متوازيات الأضلاع الذى دعا إليه روبرت أوين ، لكان الأخير هو الوضوح نفســه .

يقول سان سيمون « نفرض أن فرنسا تفقد فجأة علماءها الخمسين المبرزين فى الطبيعة ، وكيمائييها الخمسين البارزين ، وعلماءها الخمسين البارزين فى الفسيولوجيا . . والرياضيين . . والميكانيكيين » وهكذا حتى يصل العدد إلى ثلاثة آلاف من العلماء والفنانين وأرباب الصنائع (ويلاحظ أن سان سيمون ليس مشهوراً بالقصد فى استخدام العبارات) . فماذا تكون النتيجة ؟ سوف تكون كارثة تسلب فرنسا روحها ذاتها .

ثم يقول : ولنفرض الآن أنها بدلا من أن تفقد هذا العدد القليل من الأفراد ، حرمت بضربة واحدة من أعلى طبقة اجتماعية فيها ، بمعنى أنها فقدت الدوق بيرى شقيق الملك ، وبعض الدوقات السيدات ، وضباط التاج ، والوزراء ، والقضاة ، وعشرة آلاف من أغنى ملاك الأرض — بحيث يبلغ عدد هؤلاء جميعاً عشرة آلاف . فماذا تكون النتيجة ؟ إن الأمر يدعو إلى أشد الأسف لأن هؤلاء جميعاً قوم طيبون ، ولكن الخسارة لا تعدو كونها خسارة عاطفية بحتة ، ولا تكاد الدولة تتأثر بها ذلك أن أى عدد من الناس يمكن أن يضطلع بوظائف هذه الحلى الجميلة .

والمعنى واضح . إن العاملين Les industriels من بين جميع الطبقات والدرجات هم الذين يستحقون أعلى ضروب الجزاء من قبل المجتمع بينما لا يستأهل الخاملون إلا أقلها . ولكن ما الذى نلقاه ؟ إننا نلقى العكس فأقل الناس عملا أكثرهم جزاء ، وذلك بسبب فشل غريب فى تطبيق العدل .

ويقترح سان سيمون أن يصحح الوضع الذى يقوم عليه الهرم . إن المجتمع منظم بالفعل على صورة مصنع ضخم وينبغى أن يطبق مبدأ إدارة المصانع إلى نهايته المنطقية . فينبغى أن تكون الحكومة من رجال الاقتصاد لا السياسة أى ينبغى لها ترتيب الأشياء وليس لها أن توجه الناس . ويجب أن يتفق الجزاء مع مساهمة المرء الاجتماعية ، بحيث يؤول إلى أعضاء المصنع النشيطين وليس للمتفرجين الكسالى . إن سان سيمون لا يبشر بالثورة بل ولا بالاشتراكية حسب المعنى الذى نفهمه من اللفظ ، إن ما يبشر به هو نوع من نشيد للعملية الصناعية ، واحتجاج على حصول الخاملين على نصيب الأسد من الثروة فى مجتمع قوامه الكدح .

لم يشر سام سيمون بكلمة إلى الطريقة التى يتم بها هذا ، ولكن أتباعه المتأخرين ساروا خطوة بعيداً عن المؤسس ودعوا إلى وضع حد للملكية الخاصة ، وحتى هذا لم يدع لهم سوى برنامج غامض للإصلاح الاجتماعى . كان هذا ديناً للعمل ولكن تعوزه التعاليم الصحيحة ، وكان يشير إلى المظاهر

الجسيمة من انتفاء العدالة فى توزيع ثروة المجتمع ولكنه خيب أمل الراغبين فى صلاح الأمور إذ لم يزودهم إلا بالقليل ليهتدوا به .

ولعل هذا الإفتقار إلى برنامج هو الذى ساعد على نجاح رجل كان على نقيض سان سيمون تماماً ، إذ بينما كان النبيل السابق مدفوعاً بحماس لفكرة عظيمة كان شارل فورييه مدفوعاً بحب شديد للتفاهات . كان كسان سيمون يعتقد أن العالم مختل بصورة تبعث على اليأس ، ولكن العلاج الذى اقترحه كان واضحاً يتناول أدق التفاصيل .

كان سان سيمون مغامراً فى الحياة أما فورييه فمغامر فى الخيال . إن قصة حياته صفحة بيضاء إلى حد كبير ، فقد ولد فى عام ١٧٧٢ لتاجر من أهل بزانسون وقضى أيامه تاجراً جوالا غير ناجح . وبمعنى ما نقول إنه لم يفعل شيئاً ، بل إنه لم يتزوج . وكانت له هوايتان : الزهور والقطط ، وهو لا يسترعى الاهتمام إلا فى أواخر حياته إذ قضى سنواته الأخيرة مواظباً على الجلوس فى غرفته الصغيرة فى مواعيد أعلن عنها ، فى انتظار زيارة من رأسمالى كبير يعرض عليه أن يمول مشروعاته لإصلاح العالم . ومهما يكن من أمر فقد كتب هذا البائع الصغير يقول : «أنا وحدى الذى أزعجت عشرين قرناً من الحماقة السياسية ، وأنا وحدى الذى سوف تتطلع إليه الأجيال الحالية والمستقبلة بحثاً عن أصل تعاستهم الهائلة» . وبمثل هذه المسئولية الملقاة على عاتقه لم يكد يسعه إلا أن يكون فى متناول الرأسمالى المخلص المختار الذى يصل حاملا فى القطار الذى يقله الحقائب الملأى بالمال . ولكن لم يأت أحد أبداً .

ومن قبيل الأدب فى التعبير نقول أن فورييه كان غريب الأطوار ، ومن المرجح أنه على قدر معتدل من الجنون إن شئنا الدقة فى القول . فالعالم الذى تصوره كان خيالياً ، والأرض حسب اعتقاده سبق أن قدرت حياتها بثمانين ألف عام نصفها فى حركات صاعدة والنصف الثانى فى ذبذبات هابطة . وفيما بين الفترتين (ولا داعى لأن نشغل بالنا بأصول علم الحساب) تمتد فترة

أخرى قدرها ثمانية آلاف عام هي ذروة السعادة Apogée du Bonheur وقد عشنا فى المرحلة الخامسة من مراحل التقدم الثمانية ، بعد أن اجتزنا مداخل الاضطراب والوحشية والنظام الأبوى والبربرية . وأمامنا مرحلة الضمان أو الاطمئنان (وليس هذا بادراك شيء) ثم بعد ذلك نتسلق فى رفق منحدر الانسجام ، إلا أننا بعد أن نصل إلى السعادة الكاملة تبدأ الزحلوفة فنشق طريقنا إلى أسفل مارين بجميع المراحل حتى نبلغ البداية .

ولكن كلما توغلنا فى مجال الانسجام تبدأ الأشياء فى الانطلاق حقيقة فيحيط التاج الشمالى بالقطب ويسقط ندى رقيق ، ويتحول البحر إلى عصير ليمون ، وتحل ستة أقمار جديدة محل الكوكب القديم المنفرد وتظهر أنواع جديدة من المخلوقات أكثر اتفاقاً مع حالة الانسجام ، ومن ذلك حيوان مضاد للأسد ، أليف وصالح للاستخدام ، ونوع مضاد للحوت يمكن ربطه إلى السفن ، وأنواع مضادة للدببة والبق والفئران . وسوف يعيش المرء حتى يبلغ مائة وأربعين عاماً يقضى منها مائة وعشرين يتمتع بالحب الجنسى فى غير قيد .

كل هذا بالإضافة إلى وصف مباشر لسكان الكواكب الأخرى يضفى على كتابات فورييه طابع رجل مجنون ، وربما كان كذلك . ولكنه حين تحول عن التحليق فى عالم النجوم وهبط على الأرض رأى فيها فوضى وشقاء ، كما رأى طريقة لإعادة تنظيم المجتمع .

وكان العلاج الذى وصفه دقيقاً جداً . فيجب أن ينظم المجتمع فنادق ليست مختلفة كثيراً عن قرى التعاون التى أشار إليها أوين . وراح يصف الفندق بعناية فقال أنه عبارة عن بناء مركزى كبير (وضع تنظيم حجراته وأبعاده) تقوم حوله حقول ومنشئات صناعية . وتستطيع أن تقيم بالفندق فى المستوى الذى يتفق مع مواردك المالية ، فهناك درجات أولى وثانية وثالثة ، وفيها تستطيع أن تحتفظ بالخلوة فى حياتك إذا شئت (بما فى ذلك تناول الطعام فى مسكنك) ، وأن تختلط بغيرك بالقدر الذى يؤدى إلى انتشار الثقافة .

وتتحقق الكفاية عن طريق المركزية ، وهنا نلاحظ أن فوربيه الأعزب العجوز يرسم لنا صورة وردية للانتصارات التى يحققها وجود مكان مركزى لتناول الطعام .

وعلى كل فرد أن يعمل بطبيعة الحال بضع ساعات كل يوم . ولكن لن يحاول أحد التهرب من العمل لأنه يقوم بالعمل الذى يفضله ، وبهذا حلت مشكلة العمل القذر بالبحث عمن يود أن يؤديه . وللأطفال مكانهم فى التنظيم بطبيعة الحال ، فتتوجه هذه الجموع الصغيرة إلى السلخانات أو تصلح الطرق وتتمتع بحياتها . أما بالنسبة لتلك الأقلية من الأطفال الذين يحجمون عن أداء الأعمال القذرة فسوف تكون هناك مجموعات صغيرة تعنى بالأزهار وتصحح الأخطاء التى يقع فيها والدوهم فى النطق بالألفاظ . وسوف يكون بين جميع العمال ألعاب منافسة لمعرفة أيهم يتفوق على غيره ، كما تقام المسابقات بين زراع المشمش والسبانخ ، وأخيراً (بعد أن ينتشر مبدأ الفنادق هذا فى العالم كله ويتم إنشاء العدد اللازم منها وهو ٢,٩٨٥,٩٨٤) تنشب معارك كبيرة بين مهرة الطهاة فى عمل العجة وبين المشتغلين بتعبئة زجاجات الشمبانيا .

وسوف تكون المسألة كلها مربحة إلى الحد الأقصى إذ تصل الأرباح إلى ثلاثين فى المائة ، ولكن الربح للجماعة بصورتها الكلية : فيقسم الفائض بحيث يخصص ٥/١٢ منه للعمل ، ٤/١٢ لرأس المال ، ٣/١٢ «للمقدرة» ، ويجرى تشجيع كل فرد على أن يكون مالكاً وعاملا فى الوقت نفسه .

وبالرغم مما تبدو به فكرة فوربيه من غرابة وشذوذ فإنها تمكنت من بعض الناس حتى فى الولايات المتحدة التى تعتبر قلعة النظرة العملية والتفكير السليم . فحدث أن أنشىء فيها أربعون من تلك الفنادق ، ولو أننا جمعنا المجتمعات الأوينية والحركات الدينية من مختلف الشيع ، لوجدنا على الأقل مائة وسبعاً وثمانين من الجماعات الفعلية ، كل منها تضم عدداً يتراوح بين خمسة عشر عضواً وتسعمائة عضو .

وكان الإختلاف بينها شاسعاً ، فمنها التقى الورع والفاجر ، ومنها الطاهر والفاسق ، وبعضها ذو اتجاهات رأسمالية والبعض الآخر يدعو إلى الفوضوية . فكان هناك فندق ترمبول فى أوهيو والعصور الحديثة فى لونج أيلاند ، وأونيدا وبروك فارم ونيو رايكاريا ، إلى جانب يلفت النظر نوعاً — وهو فندق أمريكا الشمالية فى نيوجرسى — والذى عاش فيما بين عامى ١٨٤٣ ، ١٨٥٥ ثم ظل قائماً فى وضع جديد بحيث كان نصفه فندقاً والنصف الآخر لممارسة الحياة الجماعية ، وذلك حتى أواخر الثلاثينات من القرن الحالى ، وفيه ولد اسكندر وولكوت .

هذه المجتمعات التى ولدتها الأحلام لم تثبت جذورها أبداً . فعوالم الأحلام تعانى الكثير حين تصطدم بما تنطوى عليه الحقيقة من احتكاكات . ومن جميع تلك المشروعات الخيالية التى جرى اقتراحها من أجل إعادة تنظيم المجتمع ، كانت فنادق فورييه أبعدها عن الطابع العملى ، ومع ذلك لم يدانيها غيرها فى مظهرها الخداع إذ مَنْ منا لا يود أن يعيش فى فندق إذا استطاع هذا الأمر ؟ لقد أشار فورييه ذلك الحالم الرقيق ، فى صدق طاغ إلى التعاسة البالغة فى العالم ، ولكن العلاج الذى وصفه كان مركباً من عناصر سماوية أكبر من أن تصلح للأمراض البشرية التى رغب فى شفائها .

هل يبدو هؤلاء الخياليون بالمظهر الذى يدعو إلى السخرية ؟ حقيقة كانوا جميعاً من الحالمين ، ولكن لولا الحالمين لظل الإنسان يعيش فى الكهوف على حد قول أناتول فرانس . ولم يخل أحد منهم من لوثة جنون حتى أن سان سيمون نفسه كان يراهن بصورة جادة على أن فى الإمكان أن يحل القندس وهو أذكى الحيوانات ، محل الجنس البشرى فى يوم من الأيام . ولكنهم لا يستحقون الذكر بسبب غرابة أطوارهم أو ما تتصف به خيالاتهم من ثراء وجاذبية ، بل إنهم يستأهلون أن نوليهم اهتمامنا بسبب شجاعتهم ، وحتى يتسنى لنا أن نقدر تلك الشجاعة حق قدرها يجب أن نقدر ونفهم الجو الفكرى الذى كانوا يعيشون فيه .

لقد عاشوا فى عالم لم يكن فظاً وقاسياً فحسب ، بل وحاول تبرير قسوته تحت ستار قانون اقتصادى . لقد قال نيكر المالى والسياسى الفرنسى عند ابتداء القرن : « لو أمكن اكتشاف نوع من الغذاء أقل مذاقاً من الخبز ولكنه يتضمن من المادة المغذية ضعف ما فى الخبز لاقتصر الناس على الأكل مرة واحدة كل يومين » . مثل هذا الشعور وإن بدا قاسياً فيه نوع من النظرة الحاسمة . فالعالم هو الذى كان قاسياً وليس الناس ، ذلك أنه كانت تسيره قوانين إقتصادية ،وهذه لم تكن مما فى وسع الإنسان أو ينبغى له أن يعبث بها . إنها موجودة ، والثورة على أية مظالم يمكن أن تتولد عن مفعولها ، تعتبر عملا أحمق مثل إبداء الأسى لحدوث المد والجزر .

كانت القوانين قليلة ولكنها نهائية . لقد رأينا كيف أحكم آدم سميث ومالثس وريكاردو صياغة قوانين التوزيع الاقتصادى ، وبدا أن هذه القوانين لا تفسر الإتجاه الذى يميل إليه توزيع ما ينتجه المجتمع فحسب ، وإنما تفسر أيضاً كيف ينبغى أن يتم التوزيع . أظهرت القوانين أن المنافسة تسوى بين الأرباح وتتحكم فيها ، وأن الأجور تتعرض دائماً للضغط من ناحية السكان ، وأن مالك الأرض يحصل على الريع كلما زاد عدد السكان ، وهذا كل ما فى الأمر . قد لا يود المرء بالضرورة هذه النتيجة ، ولكن كان ظاهراً أنها نتيجة طبيعية متولدة عن ديناميكية المجتمع ، وليس فى الأمر شىء من سوء النية الشخصية أو أى تحايل شخصى . كانت القوانين الاقتصادية مثل قوانين الجاذبية وبدا أن من الجنون تحدى النوعين ، ومن هنا قال أحد الكتب التى تبحث مبادىء علم الاقتصاد والتى ظهرت فى ذلك الحين « منذ مائة عام كان العلماء وحدهم هم الذين يستطيعون سبر عمق هذا العلم ، أما اليوم فقد أصبح من الأشياء المألوفة فى حجرات الأطفال ، والصعوبة الوحيدة تتمثل فى كونه أبسط مما ينبغى » .

لا عجب أن تطرف الخياليون إلى هذا الحد . كانت القوانين تبدو ثابتة لا سبيل إلى الخروج عليها ، ولكن حالة المجتمع التى اعتبرت هذه القوانين

مسئولة عنها ، بدت شيئاً لا يطاق . ولهذا تذرع الخياليون بالشجاعة وقالوا فعلا إن النظام بكليته يجب أن يتغير . فإذا كان هذا رأسمالية — مع إعادة بالرأس إلى روبرت بلينكو المقيد إلى الآلة — فلنقم شيئاً آخر مكانها ؛ مثل قرى التعاون ، والقوانين الأخلاقية ، والجو البهيج الذى نهرع إليه فى فنادق فورييه . كان الخياليون — وهناك الكثيرون على شاكلة من ذكرناهم فى هذا الفصل — من الداعين إلى إصلاح القلب أكثر من إصلاح العقل ، وإنا لنجد التراث الذى خلفوه فى مثل الرفاهية التى تنطوى عليها السياسة الجديدة فى بريطانيا أو اسكنديناوه أكثر مما نلقاها فى العقيدة « العلمية » التى تعتنقها مجالس السوفييت الروسية .

ولاحظ أنهم كانوا اشتراكيين خياليين . فالعالم الخيالى الذى تصوروه لم يكن مجرد مسألة غايات مثالية ولكنه كان أيضاً مفتاحاً للوسائل التى يتعين اتباعها . فعلى نقيض الشيوعيين ، كان هؤلاء مصلحين ساورهم الأمل فى إقناع الطبقات العليا بأن التغيير الاجتماعى سوف يكون فى صالحهم فى نهاية الأمر . كان الشيوعيون يخاطبون الجماهير ويدعون إلى استخدام العنف إذا دعت الضرورة ، من أجل الوصول إلى غاياتهم ، أما الإشتراكيون فوجهوا دعوتهم إلى بنى جنسهم — من المثقفين والبورجوازية الصغيرة والمواطن حر الفكر من أبناء الطبقة الوسطى ، أو الأرستقراطى المتحرر من الناحية الفكرية — حتى يناصروا المشروعات التى نادوا بها ، وحتى روبرت أوين كان يأمل أن يحمل شركاؤه فى المصنع على أن يروا النور . ولكن لاحظ من جهة ثانية أن هؤلاء كانوا إشتراكيين خياليين ، الأمر الذى معناه أنهم كانوا مصلحين اقتصاديين لقد وُجِدَ بناة اليوتوبيا منذ أيام أفلاطون ، ولكنهم لم يثوروا على الظلم الاقتصادى أسوة بالسياسى إلا عند ما نشبت الثورة الفرنسية . ولما كانت الرأسمالية فى عهدها المبكر هى التى زودتهم بغرفة الأهوال التى ثاروا عليها لهذا لم يكن من غير الطبيعى أن يديروا ظهورهم للملكية الخاصة والصراع على اقتناء الثروة الخاصة ، وقلة منهم هى التى فكرت فى تحقيق الإصلاح فى

داخل النظام القائم ، وهنا تذكر أن هذا هو العصر الذى شهد أول تشريع سمح للمصانع ، وأن أمثال تلك الإصلاحات المنطوية على الغل والتى أمكن الوصول إليها بعد آلام كانت موضع الاحترام إلى حد كبير . كان الخياليون يريدون شيئاً أفضل من الإصلاح . كانوا يريدون مجتمعاً جديداً يمكن فيه أن تكون لقاعدة «أحب جارك» الأولوية نوعاً ما على ذلك السعى الدنىء من أجل المنفعة الذاتية . ففى الملكية المشتركة والحماس الذى تبعثه فى النفوس كان محك التقدم الإنسانى .

وكانوا قوماً حسنى النية جداً . ومع هذا ، فبالرغم من كل نواياهم الطيبة وكتبهم الرديئة كانوا يفتقرون إلى طابع الوقار . كانوا بحاجة إلى تدعيم من جانب رجل يشاركهم طيب نواياهم ولكنه يحتفظ فى الوقت باتزان تفكيره ، ووجدوا مثل هذا الشخص فى أبعد الأماكن عن الاحتمال — ذلك هو التحول النهائى إلى الاشتراكية من جانب جون ستيوارت مل الذى انعقد الإجماع على أنه أعظم اقتصادى فى عصره .

إن كل من ذكرنا اسمه فى هذا الفصل شخصية لا يمكن تصديقها إلى حد ما ، ولكن لعل ج . س . مل أروعهم جميعاً ، كان أبوه جيمس مل المؤرخ ، الفيلسوف ، الكاتب ، والصديق الحميم لريكاردو وجيريمى بنتام ، من أعلام أهل الفكر فى أوائل القرن التاسع عشر . وكانت له أفكار محددة بصدد كل شىء تقريباً وبخاصة التعليم ، وكان ابنه جون ستيوارت مل النتيجة التى لم يصدقها أحد .

ولد جون ستيوارت مل فى عام ١٨٠٦ . وفى عام ١٨٠٩ (وليس ١٨١٩) بدأ يتعلم اللغة اليونانية ، وإذ بلغ السابعة من العمر كان قد قرأ معظم محاورات أفلاطون . وفى السنة التالية بدأ دراسة اللاتينية ، وكان فى تلك الأثناء قد استوعب مؤلفات هيرودوت واكسينيفون وديوجينيس لايرتيوس وجزءاً من كتابات لوسيان . وفيما بين الثامنة والثانية عشرة من عمره أتم

قراء فرجيل وهوراس وليفى وسالوست وأوفيد وتيرنس وأرسطو وسقراط وأريستوفانيس وأتقن علوم الهندسة والجبر ونظرية التكامل والتفاضل ، وكتب كتاباً عن تاريخ الدولة الرومانية ، وأصدر موجزاً لتاريخ العالم القديم ، ووضع كتاباً فى تاريخ هولنده ، وقرض بعض الشعر . ولقد كتب فى قصة حياته يقول: « لم أؤلف شيئاً باليونانية أبداً ، وكتبت القليل باللاتينية ، لا لأن أبى كان لا يكترث بقيمة هذا العمل . . ولكن لعدم توافر الوقت اللازم له فى الحقيقة » .

وإذ نضج فى سن الثانية عشرة بدأ يدرس المنطق ومؤلف هوبز ، وحين بلغ الثالثة عشرة كان قد قرأ كل ما يمكن معرفته فى ميدان الاقتصاد السياسى .

كانت نشأة غريبة ، وبمقاييسنا فى الحكم مريعة ، فلم تكن هناك إجازات « خشية أن تتحطم عادة العمل ،ويكتسب ميلاً إلى الخمول » ، ولم يكن هناك أصدقاء طفولة ، بل ولا وعى حقيقى بأن تعليمه وتربيته كانا يختلفان بشكل له مغزاه،عن النمط العادى . ليست المعجزة أن « مل » أخرج فيما بعد مؤلفات عظيمة ، ولكن المعجزة أنه نجح فى ألا تتحطم شخصيته تماماً . لقد أصيب فعلاً بنوع من الانهيار العصبى . ففى العقد الثالث من عمره ، إذا بالعالم الذهنى الجاف المرهف الذى كان يعيش عليه فى عمل ومجهود ، يغدو على حين غرة عقيماً لا يشفى غلته ، فبينما اكتشف غيره من الشباب أن فى الإمكان وجود جمال فى النشاط الفكرى ، اضطر مل المسكين أن يرى أن فى الإمكان وجود جمال فى الجمال . وحاصره داء السوداء ، فقرأ جيته ومن بعده وردزورت ثم سان سيمون — أى جميع أولئك الذين تحدثوا عن القلب بنفس الروح الجادة التى كان والده يتحدث بها عن العقل . وبعد ذلك التقى بهارييت تايلور .

وقضى سوء الحظ بوجود تايلور الزوج ، ولكن هارييت ومل تجاهلاه ووقع كل منهما فى غرام الآخر ، وظلا عشرين عاماً يتكاتبان ويسافران سوياً بل ويقيمان سوياً — وكل هذا فى براءة تامة (لو صدقنا الرسائل التى خلفاها) . ثم زال الحاجز بينما يموت المستر تايلور وتزوجته فى النهاية .

وكان زواجاً رائعاً . فهارييت تايلور كانت تكمل بالنسبة إلى مل اليقظة العاطفية التى بدأت عنده فى مثل هذا الوقت المتأخر ، وفتحت عينيه على المرأة بل وأهم من هذا ، على حقوق البشر . وبعد موتها ، وحين كان يتأمل قصة حياته ، استعرض التباين الغريب بينها وبين أبيه وتأثيراتهما التى تعرض لها ، وكتب يقول « على كل من قد يذكرنى ويفكر فى عملى ، أن لا ينسى أبداً أنه ليس نتاج فكر شخص واحد وضميره ولكنه ثمرة فكر ثلاثة أشخاص وضميرهم » .

لقد تعلم مل على ما رأينا ، كل ما كان هناك من اقتصاد سياسى يتعين الإلمام به ، وذلك عند ما كان فى السابعة عشرة من عمره . ثم انقضى ثلاثون عاماً قبل أن يخرج مؤلفه الكبير « مبادىء الاقتصاد السياسى » فى مجلدين طويلين كتبا بأسلوب رائع محكم ، فكأنما كان يواصل جمع المعرفة خلال ثلاثين عاماً لمجرد تحقيق هذا الغرض .

والكتاب إستعراض جامع للميدان ، تناول فيه الريع والأجور والأثمان والضرائب ، وعاد يطأ من جديد الطرق التى خطها لأول مرة سميث ومالثس وريكاردو . ولكنه أكثر بكثير من أن يكون مجرد تجميع لمذاهب أصبحت فى ذلك الوقت تحمل طابع عقيدة فعلية . إنه يقوم بعملية كشف خاصة به . وهو كشف ذو أهمية بالغة ، ذلك أن مل يعرض للنور مبدأ سوف ينقذ إلى الأبد علم الاقتصاد من أن يعتبر علماً مقبضاً .

وكان الكشف بسيطاً جداً ، شأنه فى هذا شأن الكثير من الأفكار النفاذة العظيمة ، وينحصر فى أنه بين أن المجال الحقيقى للقانون الاقتصادى هو الإنتاج لا التوزيع .

وما قصده كان واضحاً جداً ، وهو أن قوانين الإنتاج تخص الطبيعة . فليس من شىء تعسفى بصدد ما إذا كان العمل أكثر إنتاجية إذا استخدم على نحو أو آخر ، وليست ظاهرات إقتصادية من قبيل تناقص طاقة التربة على

الإنتاج بالتى تخضع للهوى أو الاختيار . إن ندرة الطبيعة وقسوتها أشياء حقيقية ، وقوانين السلوك الاقتصادية التى تحدثنا كيف نزيد من ثمار عملنا إلى الحد الأقصى قوانين ملهمة ومطلقة كما هو شأن قوانين تمدد الغازات أو تفاعل المواد الكيماوية .

ولكن — ولعل هذه أكبر لكن فى علم الاقتصاد — لا علاقة لقوانين هذا العلم بالتوزيع . فبمجرد أن ننتج الثروة بأفضل أسلوب نقدر عليه ، فإن فى إمكاننا أن نتصرف فيها كما نود . وفى هذا يقول مل « إن الأشياء موجودة يستطيع البشر أن يتصرفوا فيها كما يشاءون ، بصفتهم الفردية أو الجماعية ، وفى وسعهم أن يضعوها تحت تصرف أى شخص كما يطيب لهم ، ووفقاً لأية شروط . . وحتى ما ينتجه شخص بكده الفردى ، وبغير مساعدة من أحد ، فإنه لا يستطيع الإحتفاظ به إلا إذا أذن له المجتمع ، فليس فى وسع المجتمع أن يأخذه منه فحسب ، بل ويستطيع الأفراد أن يأخذوه منه ، بل ويأخذونه ، إذا كان المجتمع . . لا يستخدم ويستأجر أناساً للحيلولة دون أن يتعرض ما يملكه إلى الإزعاج . وعلى ذلك يتوقف توزيع الثروة على قوانين المجتمع وعاداته ، والقواعد التى تحدده هى ما تضعه آراء الفريق الحاكم من الجماعة ومشاعره ، وهذه القواعد مختلفة جداً فى العصور والبلاد المختلفة ، بل وقد تزداد اختلافاً إذا رأى الجنس البشرى هذا . . » .

كان ذلك ضربة موجهة إلى أتباع ريكاردو الذين جمدوا كشوفه الموضوعية وحولوها إلى إطار صلب يعيش فيه المجتمع ، يشبه قميص المجانين ، ذلك أن ما قاله مل كان واضحاً وضوح الجسم الشفاف — وذلك بمجرد أن قاله . ليس لنا أن نهتم إذا كان التصرف « الطبيعى » من قبل المجتمع يهبط بالأجور أو يسوى بين الأرباح أو يرفع الريوع أو أى شىء مهما كان . فإذا كان المجتمع لا يحب النتائج « الطبيعية » المترتبة على تصرفاته فما عليه إلا أن يغيرها . فيستطيع المجتمع أن يفرض الضرائب ، وأن يقدم الإعانات ، بل ويستطيع أن ينزع الملكية ويعيد توزيعها . ويستطيع أن يمنح

الثروة كلها لملك ، أو يدير بها مشروعاً خيرياً ضخماً ، ويستطيع أن يولى الاهتمام الواجب للحوافز أو يتجاهلها إذا شاء احتمال الخطر الذى ينجم من هذا التجاهل . ولكن مهما فعل ، فليس هناك توزيع « صحيح » — على الأقل التوزيع الذى يحق لعلم الإقتصاد أن يسبر غوره . وليست هناك « قوانين » — يرجع إليها المجتمع لتبرير الطريقة التى يوزع بها ثماره . وإنما هناك فقط قوم يقتسمون الثروة على النحو الذى يبدو مناسباً فى نظرهم .

كان هذا كشفاً يسفر عن نتائج بعيدة الغور ، لأنه رفع الجدل الاقتصادى بأسره من ذلك العالم الخالق الذى يحكمه قانون مبهم لا محيص عنه ، وأعاده إلى ساحة علم الأخلاق ومبادىء الأخلاق . قد يجادل الإقتصاديون من بعد مل فى أن الناس يستحقون ضرباً معيناً من الجزاء لسبب أو آخر ، ولكنهم لن يستطيعوا أبداً أن يزعموا من جديد أن ثمة قوة حسابية مجردة قضت بأن هذه هى الطريقة التى ينبغى أن يجرى بها توزيع الجزاء .

إن الكشف لم يجعل من مل إشتراكياً مثل إخوانه الخياليين وبنفس المعنى تماماً . فكون المجتمع قادراً على أن يعيد تنظيم التوزيع فيه بالأسلوب الذى يراه مناسباً ، ليس معناه أنه ينبغى قلب عربة التفاح أى قلب النظام القائم . كان مل يؤمن أن العالم قادر على التقدم فى داخل الصرح المعلوم الذى أقامه ، وكان قليل الإيمان بعملية شاملة لإعادة تنظيم الدولة .

وكتب يقول : « ليس يسحرنى مثل أعلى عن الحياة يعتنقه أولئك الذين يظنون أن الصراع هو سنة البشر العادية ، وأن تلك الأفعال ، التى نشهدها حيث الناس يسحقون بعضهم بعضاً ويتدافعون بالمناكب ويدوس كل منهم على قدم غيره ، وهى الأفعال التى يتكون منها النمط القائم من الحياة الاجتماعية هى أفضل نصيب يلقاه الجنس البشرى وليس سوى أعراض مستهجنة لمظهر من مظاهر التقدم الصناعى » .

ولكن الإستياء من العالم لم يعمه حقيقة أخرى ، عبر عنها بقوله : « أما أنه

ينبغي إستخدام طاقات البشر عن طريق الصراع من أجل الغنى كما سبق أن جرى استخدامها بحكم الصراع من أجل الحرب ، إلى أن تنجح العقول الأفضل فى تعليم الآخرين أن يتحولوا إلى مخلوقات أفضل — نقول إن هذا أفضل بغير شك من أن تترك هذه الطاقات تصدأ وتصاب بالركود » .

كانت هذه فلسفة استسلام — وأمل . كان مل يؤمن إيماناً كبيراً بقدرة الناس على التحكم فى مصيرهم إذا اهتدوا بالعقل . وكان يعتقد أن سوف يأتى اليوم الذى ترى فيه الطبقات العاملة الشبح الذى تحدث عنه مالثس وفى هذه الحالة سوف يعمد أفرادها فرحين وعن طواعية إلى تنظيم تناسلهم . فإذا زالت هذه العقبة أصبح الباقى سهلا ، لأن إدراك مل أن التوزيع لا يخضع لغير القوانين التى يضعها البشر أتاح له أن يرى العالم قادراً على التقدم . وفى النهاية سوف يصل العالم إلى مستوى ثابت راكد إذ تكون الأرباح قد زالت ولن يعود هناك نمو جديد ، ولن يزال فى الإمكان إجراء التحسينات فى داخل إطار المجتمع . سوف تمنع الدولة مالك الأرض من اجتناء منفعة غير مكتسبة ، وتفرض الضرائب التى تمحو التركات ، وسوف يتحول الناس عن الصراع من أجل الكسب ، ويستمتعون بالفنون والآداب والحياة نفسها .

ليست هذه اشتراكية كاملة . فبينما أدرك مل أن للملكية مساوئها فإنه رأى فى الوقت نفسه أن نظام الملكية ما زال فى طفولته ويمكن تهذيبه ، إذ ليس من الضرورى أن تكون المساوىء جزءاً لا يتجزأ من النظام . ثم رأى فى النظام المعروف باسم الشيوعية خطراً إذ بالرغم مما تدعيه من تفوق يستند إلى أسباب اقتصادية فقد أحس فيها مل بتهديد غير اقتصادى ولكنه مهم للغاية وراح يعرب عن شكوكه فى هذه الألفاظ الدالة على بعد النظر :

لا يمكن تقدير دعاوى الشيوعية بالموازنة بينها وبين الحالة السيئة التى يعيش فيها المجتمع فى الوقت الحاضر . . إن المسألة هى ماذا كان يبقى ملجأ لفردية الخلق . وما إذا كان الرأى العام

يصبح نيراً استبدادياً وما إذا كان الاعتماد المطلق من جانب الفرد على الجميع ، ومراقبة الكل للفرد ، لن يهوى بالأفكار والمشاعر والأفعال إلى مستوى التجانس المتصف بالخنوع والاستسلام . . إن المجتمع الذى تعتبر فيه غرابة الأطوار شيئاً يستحق اللوم مجتمع لا يمكن أن يكون فى حالة سليمة .

وعاش مل حتى عام ١٨٧٣ رجلا هو موضع الإحترام والتقدير بل ونكاد نقول العبادة ، وغفرت له ميوله الإشتراكية مقابل تلك الصورة التى تبعث على الأمل ولأنه أزال شبح اليأس . وأخيراً ، فإن ما دعا إليه لم يكن بهذا القدر من الإزعاج وإنما فى وسع كل امرىء أن يؤمن به ، ومن ذلك فرض الضرائب على الريوع ، وضرائب الميراث ، وتكوين الجمعيات التعاونية من العمال . ولم يكن شديد الحماس من ناحية إمكانيات النقابات وكان ذلك خيراً من وجهة نظر الأفكار الوقورة المهذبة . كان مذهب مل إنجليزياً حتى الجوهر : يؤمن بالتدرج والتفاؤل والواقعية ، ويخلو من الصرخات التى كان الراديكاليون يطلقونها .

وحقق كتاب « مبادئ الاقتصاد السياسى » نجاحاً هائلا ، فصدرت منه أثناء حياة مل سبع طبعات كل منها نسخة غالية الثمن من مجلدين . ومما يعكس لنا خلق مل أنه طبع الكتاب على نفقته الخاصة فى مجلد واحد رخيص حتى يكون فى متناول الطبقة العاملة . وكذلك نفدت خمس طبعات رخيصة قبل أن يموت . وأصبح مل الإقتصادى الكبير فى عصره ، وتحدث الناس عنه بأنه خليفة ريكاردو ووريثه ، ووازنوا بينه وبين آدم سميث على نحو كان فى صالحه .

وإذا طرحنا الاقتصاد جانباً فقد كان الرجل نفسه موضع الاحترام ، فهو مؤلف « المنطق » ، « الحرية » « نظرات فى الحكومة التمثيلية » . ولم يقف الأمر به عند حد ذكائه ونباهته وإنما كاد أن يكون قديساً . فحين وجد هربرت سبنسر منافسه الكبير فى مجال الفلسفة ، عاجزاً بسبب الضيق المادى

الذى كان يعانيه عن إتمام السلسلة التى اعتزم إخراجها عن التطور الاجتماعى ، كان مل هو الذى عرض أن يمول المشروع ، وكتب إلى منافسه يقول : « أرجو ألا تنظر إلى هذا الإقتراح على أنه معروف شخصى ، وحتى لو كان كذلك فما زلت آمل أن يسمح لى بتقديمه . ولكنه لا ينطوى على شىء من هذا القبيل — إنه اقتراح بسيط بالتعاون من أجل تحقيق غرض عام هام منحته جهدك ووهبته صحتك » .

إننا لا نعرف أبداً عن عمل يفوق هذا فى الدلالة على الشخص ، وكان مل لا يهتم إلا بشيئين ،زوجته التى كان يكن لها إخلاصاً رآه أصدقاؤه قريباً من العمى ، ثم السعى وراء المعرفة وهو ما لم يكن فى وسع أحد أن يحوله عنه . وحين انتخب عضواً فى البرلمان تجاوز دفاعه عن حقوق الإنسان شعور أهل عصره ، ولذلك هزم ولكنه لم يكن يعبأ بالفوز أو الهزيمة ، وكما كان يرى العالم كان يكتب ويتحدث ، وكانت هارييت المحبوبة الشخص الوحيد الذى كانت لرضائه أهمية .

وحين مات كتب فى قصة حياته « من المؤكد أن أحداً قبل هذا كان من حسن الحظ بعد مثل هذه الخسارة التى لحقت بى ، بحيث يحصل على جائزة أخرى فى يانصيب الحياة » . وانسحب من الحياة العامة ليقضى أيامه الأخيرة فى أفينيون قريباً من قبرها ، رجلا حكيما على نحو يثير العجب ، وعظيما بصورة كاملة .

وثمة أمر أخير يعتبر من قبيل الصدفة . فى عام ١٨٤٨ نشر كتابه العظيم بما تضمنه من رسالة التقدم وما أتاحه من فرصة التغيير والتحسين بالوسائل السلمية . ربما لم يكن كتاباً يصنع عصراً ، ولكن من المؤكد أنه كتاب يدل على عصر ، ذلك أن من انحرافات القدر أن يشهد العام نفسه نشر كتاب آخر أصغر منه ، أو كتيب . وكان اسمه « البيان الشيوعى » ، وفى صفحاته القلائل حطم بكلمات تقطر بالمرارة كل النظرات العاقلة البهيجة التى وهبها ج . س . مل للعالم .

الفصل السادس

العالم الصلب
الذي بشر به كارل ماركس

يستهل « البيان » بالكلمات ذات النذير الخطير : « إن شبحاً يطارد أوربا — ذلك هو شبح الشيوعية . وقد عقدت جميع الدول الكبرى فى أوربا القديمة حلفاً مقدساً لإبعاد هذا الشبح : وهو حلف يشترك فيه البابا والقيصر ، مترنيخ وجيزو ، والراديكاليون الفرنسيون وجواسيس البوليس الألمان » .

وكان الشبح موجوداً بالتأكيد ، إذ كان عام ١٨٤٨ عام الرعب بالنسبة إلى النظام القديم فى القارة . كان الجو يموج بالحماس الثورى ، وكانت الأرض تهتز تحت أقدام هذا النظام . وبدا للحظة — ولحظة قصيرة — كما لو أن النظام القديم أوشك أن يتداعى . ففى فرنسا راح النظام المتعثر الخطى الذى أقامه لويس فيليب ، ملك الطبقة الوسطى الممتلىء الجسم ، يصارع الأزمة ثم انهار ، فتنازل الملك عن عرشه وفر يبغى الأمن فى فيلا بمقاطعة صرى ، وهب العمال فى باريس فى ثورة ينقصها التنسيق ورفعوا العلم الأحمر فوق دار البلدية . وفى بلجيكا عرض ملك تملكه الذعر أن يتخلى عن العرش . وفى برلين أقيمت المتاريس ودوى صفير الرصاص ، وفى إيطاليا قامت جماهير الدهماء بأعمال الشغب ، وفى براغ وفينا حذت الثورات الشعبية حذو باريس وقبضت على أعنة الأمور فى المدن .

وأطلق « البيان » هذه الصرخة : « إن الشيوعيين يحتقرون إخفاء آرائهم وأغراضهم . إنهم يعلنون فى صراحة أنه لا يمكن تحقيق غاياتهم إلا بقلب جميع العلاقات الإجتماعية القائمة وبالقوة . فلترتعش الطبقات الحاكمة من الثورة

الشيوعية ، إذ ليس لجماهير البروليتاريا ما تفقده سوى أغلالها . إن أمامها عالماً تفوز به » .

وسرت الرعشة بالفعل فى أوصال الطبقات الحاكمة ورأت خطر الشيوعية يتهددها فى كل مكان ، ولم تكن مخاوفها غير قائمة على أساس . ففى المسابك الفرنسية راح العمال ينشدون الأغانى الراديكالية فى صحبة ضربات مطارقهم الكبيرة ، وذكر هنريخ هاين ، الشاعر الرومانسى الألمانى الذى كان يطوف بالمصانع « إن الناس حقيقة فى أسلوبنا هذا الرقيق لا يمكن أن تكون لديهم فكرة عن النغمة الشيطانية التى تسرى فى هذه الأغانى » .

ولكن بالرغم من كلمات النذير التى أطلقها « البيان » فإن النغمة الشيطانية لم تكن دعوة إلى ثورة شيوعية وإنما كانت صيحة تولدت فقط من خيبة الأمل واليأس ، ذلك أن أوربا كلها كانت فى قبضة الرجعية وكانت الأحوال فى انجلترا تعد بالقياس إليها مثالية على نحو إيجابى ، فقد وصف جون ستيوارت مل الحكومة الفرنسية بأنها « تفتقر افتقاراً كلياً إلى روح التحسين . . وتتصرف بصورة تكاد تكون كاملة بدافع من أحط نوازع الجنس البشرى وأشدها أنانية » ، ولم تكن فرنسا وحدها بالتى تحتكر هذه السمعة المريبة . وفى ألمانيا وقد حل العقد الرابع من القرن التاسع عشر ، لم يكن فى بروسيا برلمان أو حرية التعبير عن الرأى أو حق الاجتماع ، أو حرية الصحافة ، أو نظام المحاكمة أمام هيئة من المحلفين ، أو أى تسامح مع أية فكرة تحيد قيد أنملة عن تلك الفكرة العتيقة عن حق الملوك المقدس . وكانت إيطاليا خليطاً من إمارات يعتبر وجودها خطأً من اخطاء التاريخ . أما الروسيا فى عهد نيقولا الأول (وبالرغم من الزيارة التى قام بها القيصر إلى مصانع روبرت أوين فى نيولانارك) فقد وصفها المؤرخ توكفيل بأنها « حجر الزاوية فى الاستبداد بأوربا » .

فلو أن اليأس دُفع فى مسالكه ووجه فلربما تحولت النغمة الشيطانية إلى نغمة ثورية حقاً ولكن الذى حدث أن الثورات كانت تلقائية ، تفتقر إلى

التنظيم ، وغير ذات هدف . لقد أحرزت إنتصارات مبدئية ، وبينما كانت تقف مشدوهة لا تدرى ما تفعل بعد ذلك ، عاد النظام القديم بقوة لا تقهر إلى احتلال مكانه القديم . وهبطت حدة الحماس الثورى ، أما حيث ظل فى قوته فقد سحق فى غير ما رحمة . ففى باريس أخضع الحرس الوطنى جماهير الغوغاء بعد أن بلغت خسائرها عشرة آلاف شخص ، وتولى لويس نابليون مقاليد أمور الشعب وسرعان ما أقام الإمبراطورية الثانية مكان الجمهورية الثانية . وقررت بلجيكا أخيراً أن من الخير أن تطلب إلى الملك البقاء على العرش ، وأعرب عن امتنانه لهذه التحية بأن ألغى حق الاجتماع . وفى فينا وهنغاريا ضربت الجماهير بالمدافع من معاقلها ، وفى ألمانيا نجد جمعية دستورية تناقش فى شجاعة موضوع نظام جمهورى ، تهوى إلى حضيض الخلافات ثم تسلم بصورة مزرية البلاد إلى فردريك وليم الرابع ملك بروسيا . ومما كان أشد إمعاناً فى امتهان الكرامة أن يعلن ذلك العاهل أنه لا يقبل عرشاً تقدمه إليه أيدى الشعب المهينة .

لقد انتهت الثورة . كانت عنيفة ودامية ولكنها لم تكن حاسمة . وشهدت أوربا وجوهاً جديدة ولكن ظلت السياسات على ما كانت عليه .

ولكن جماعة صغيرة من قادة الطبقة العاملة ، وهى الجماعة التى أنشأت العصبة الشيوعية قبل ذلك بوقت وجيز ، لم تجد سبباً يدعو إلى اليأس العميق . حقيقة أخفقت الثورة التى كانوا يعلقون عليها الآمال العالية ، كما طوردت بقسوة أشد مما عرف من قبل ، الحركات الراديكالية التى حدثت فى مواضع صغيرة من أوربا ، ولكن هذا كله يمكن النظر إليه بنوع من رباطة الجأش ، إذ طبقا لأسلوبهم فى فهم التاريخ لم تكن ثورات عام ١٨٤٨ سوى تدريبات تمهيدية ضيقة النطاق على الحادث الضخم الذى سوف يتحقق فى المستقبل ، كما أنه ليس ثمة ذرة من الشك فى النجاح الذى سوف يحققه ذلك الحادث الخطير .

كانت العصبة قد أصدرت منذ وقت وجيز بياناً بأهدافها أطلقت عليه

سم « البيان الشيوعى » . وبالرغم من جميع الشعارات التى تضمنها وما اشتمل عليه من عبارات صارمة فإن الغرض من كتابته لم يكن مجرد إلهاب العاطفة الثورية أو رفع صوت بالاحتجاج يضاف إلى الأصوات التى كانت تملأ الجو . كان البيان يضع فى تفكيره شيئاً آخر ، ذلك هو وضع فلسفة للتاريخ لا تبدو فيها الثورة الشيوعية شيئاً مستحباً فحسب بل وشيئاً محتوماً بشكل ظاهر . وعلى خلاف الخياليين الذين كانوا أيضاً يريدون إعادة تنظيم المجتمع على نحو أقرب إلى الرغبات التى تجيش فى صدورهم ، لم يوجه الشيوعيون دعوتهم إلى ما تنطوى عليه نفوس الناس من مشاعر العطف أو الانصراف إلى بناء قصور فى الهواء ، إذ بدلا من هذا عرضوا على الناس فرصة كى يربطوا مصائرهم بنجم ثم يرقبوا ذلك النجم وهو يتحرك فى خط لا حول عنه عبر بروج التاريخ . لم يعد هناك نزاع ينبغى لهذا الطرف أو ذاك أن يفوز به لأسباب أخلاقية أو عاطفية أو لأنه يرى النظام القائم ظالماً ، وإنما هناك تحليل لا دخل للعواطف فيه ، تحليل يبين أى الجانبين يجب أن يحرز النصر ، ولما كان هذا الجانب هو البروليتاريا فليس على قادتها إلا الصبر والإنتظار . وكما أن اثنين واثنين تساوى أربعة لهذا لا يمكن أن يخسر هؤلاء القادة المعركة فى النهاية .

كان « البيان » برنامجاً للمستقبل . ولكن شيئاً كان يثير دهشة أصحابه . لقد كانوا على استعداد للانتظار ، ولكنهم لم يكونوا على استعداد لأن ينتظروا سبعين عاماً . وكانوا قد بدأوا يمعنون النظر فى أوربا بحثاً عن المكان الذى هو أكثر أجزائها احتمالا فى توليد الثورة ، بل ولم يلقوا نظرة أبداً فى اتجاه الروسيـا .

والبيان على ما يعرف الجميع من نتاج تلك العبقرية الغاضبة أى كارل ماركس . وبعبارة أدنى إلى الدقة كان نتيجة التعاون بينه وبين رفيقه الرائع ، ومواطنه ونصيره وزميله فردريك إنجلز .

كانا رجلين يثيران الاهتمام ، ولهما أهمية هائلة بطبيعة الحال . ولكن

المشكلة بالنسبة إليهما أنهما لم يعودا مجرد رجلين من البشر ، فماركس الذى هو فرد من البشر أصبح مختفياً وراء ماركس الصورة ، واختفى إنجلز وراء ظل ماركس . ولو شئنا أن نحكم عليهما بعدد الذين يعبدونهما لوجب أن نعتبر ماركس شخصية دينية فى مصاف المسيح أو محمد، وبذلك يصبح إنجلز حوارياً مثل سانت بول أو جون . وفى معهد ماركس وإنجلز بموسكو يتمعن طلاب العلم مؤلفاتهما بكل ذلك الشغف الوثنى الذى يسخرون به فى المتاحف المعادية للأديان والقائمة على مقربة فى الشارع نفسه ، ولكن إذا كان ماركس وإنجلز موضع التقديس فى الروسيا فإنهما ما يزالان يصلبان فى قسم كبير من العالم .

وهما لا يستحقان أياً من ضربى المعاملة إذ لم يكونا قديسين أو شيطانين ، كما أن كتاباتهما ليست إنجيلا أو كتاباً محرماً ملعوناً . إن ما كتباه يندرج فى تلك السلسلة الكبيرة من الآراء الاقتصادية التى راحت واحداً بعد الآخر تحاول توضيح العالم لنا وإلقاء الضوء عليه وتفسيره كما أنه مثل المؤلفات العظيمة الأخرى الموضوعة فوق رفوف المكتبات لا يخلو من الثغرات أو المزايا لقد ظل العالم مشغول البال بماركس الثورة ، ولكن لو لم يظهر ماركس لقام غيره من الإشتراكيين والأنبياء الذين يبشرون بمجتمع جديد . إن تأثير ماركس وإنجلز الحقيقى الدائم ليس فى نشاطهما الثورى الذى لم تثمر أى ناحية منه كثيراً خلال حياتهما ، ولكن ماركس الإقتصادى هو الذى يجب على الرأسمالية أن تمسك بخناقه فى النهاية لأن الطابع النهائى الذى دمغ به التاريخ كان تنبؤه بأن الرأسمالية يجب حتماً وبالضرورة أن تنهار . وعلى أساس ذلك التنبؤ أى ذلك الرجم « العلمى » بالغيب أقامت الشيوعية صرحها .

ولكن فلنلق نظرة على الرجلين .

لقد كانا نقيضين إلى حد كبير جداً من ناحية المظهر . كان ماركس يبدو بمظهر الثائر ، وأطلق عليه أطفاله اسم « العربى » Saracen[1] بسبب

(١) تعبيراً أطلقه الأوربيون فى العصور الوسطى على عرب الأندلس بوجه خاص (المترجم)

بشرته الداكنة اللون وعينيه الغائرتين اللامعتين . وكان ممتلىء الجسم ، قوى البنية ، ويبدو عليه مظهر الذى يحدق فى غيره وذلك بسبب لحية كثة للغاية . ولم يكن رجلا منظماً ، فبيته كتلة متربة من أوراق تراكمت فوق بعضها البعض فى اضطراب يدل على الإهمال ، ويخوض ماركس بينها بملابسه المفتقرة إلى سلامة الهندام ووسط ضباب يؤذى العين من الدخان المتصاعد من غليونه . ومن جهة أخرى فإن مظهر إنجلز يدل على أنه من أفراد البورجوازية المحتقرة ، فقد كان طويل القامة ، أبيض اللون ورشيقاً نوعاً ، وكان يبدو كرجل يميل إلى المبارزة بالسيف والصيد وكان يسبح فى نهر ويزر أربع مرات بدون توقف .

ولم يقتصر الإختلاف بينهما على المظهر إذ كانت شخصيتاهما أيضاً فى طرفين متقابلين . كان إنجلز مرحاً ودقيق الملاحظة ، أوتى موهبة العقل الذى يفكر بسرعة وفى يسر ، ويقال أنه كان قادراً على أن يتحدث فى تعثر بعشرين لغة . وكان يتذوق المباهج البورجوازية فى الحياة ، وكان ذواقة للنبيذ ، ومن الطريف أن نلاحظ أنه بالرغم من أنه اختار غرامياته من صفوف البروليتاريا فقد قضى الكثير من وقته فى مغامرات رومانسية ومحاولا (بغير نجاح) أن يثبت أن خليلته مارى بيرنز التى تنتمى إلى الطبقة العاملة (ثم بعد موتها أختها إيزى) كانت فعلاً من سلالة الشاعر الأسكتلندى .

أما ماركس فكان أكثر رزانة . إنه طالب العلم الألمانى فى أكمل صوره ، يدرس ببطء ، وفى دقة بالغة ويبذل غاية الجهد ، بل ويسعى بصورة تكاد تشبه السوداوية إلى بلوغ درجة الإتقان . كان فى استطاعة إنجلز أن يكتب مقالا بسرعة فائقة ، بينما كان ماركس يكاد يعصر الموضوع الذى يعالجه . ولم يكن إنجلز ليعجزه سوى اللغة العربية بأصول أفعالها التى تبلغ الأربعة آلاف ، بينما قضى ماركس عشرين عاماً يتدرب ومع ذلك ظل ينطق الإنجليزية التيوتونية بلهجة شنيعة . فحين يكتب إلى إنجلز عن « الصدمة »

"chock"(١) التى سببتها الأحداث ، فإننا لا نكاد نستطيع أن نستمع إليه وهو يتكلم . ولكن بالرغم من كل ما يتصف به ماركس من صعوبة فى كتاباته فقد كان عقله أعظم العقلين ، فحيث يوسع إنجلز الفكرة ويزود العبارات بالفواصل ، كان ماركس هو الذى يتصف بالعمق .

وتقابلا للمرة الثانية عام ١٨٤٤ فى باريس ومن هذا التاريخ يبدأ تعاونهما كان إنجلز قد حضر لمجرد زيارة ماركس ولكن كان لديهما الكثير ، يتحدثان فيه بحيث استمر حديثهما عشرة أيام . وبعد ذلك لا نكاد نجد شيئاً كتبه أحدهما دون أن يشرف على تحريره الثانى أو يعيد كتابته أو على الأقل يناقشه ، وأن المراسلات المتبادلة بينهما تملأ عدة مجلدات .

وكانت الطرق التى سارا فيها حتى تلاقت فى باريس متباينة بدرجة كبيرة . فكان إنجلز إبناً لرجل من شيعة كلفن ، يتظاهر بالتقوى ويتصف بضيق الأفق العقلى ، ومن رجال الصناعة فى بلاد الراين . وحين كان فردريك شاباً أظهر ميلاً لا يمكن فهمه للشعر وهنا بعث به أبوه على عجل إلى بريمن ليتعلم عملية التصدير وليقيم مع أحد رجال الدين ، وكان الدين وكسب المال فى نظر كاسبار إنجلز علاجاً طبياً يشفى الميول الرومانسية . وأكب إنجلز بإخلاص على العمل ، ولكن كل ما رآه كان يبدو فى صورة شخصية ثائرة شخصية مرحة ولكنها لا تتفق مع مستويات والده القاسية . وكان يذهب أثناء العمل إلى أحواض السفن ، ولكن عينه التى تلاحظ كل شىء لم تنظر إلى منشئات الدرجة الأولى « من خشب الموجنى والمحلاة بالذهب » وإنما نظرت أيضاً إلى مقدم السفينة حيث « يشحن » الناس « كالحجارة التى تستخدم فى رصف الشوارع » . وبدأ يقرأ الكتابات الراديكالية فى عصره وحين بلغ الثانية والعشرين من العمر كان قد تحول إلى مُثل « الشيوعية » — وهى كلمة لم يكن لها فى ذلك الحين تعريف محدد إلا من حيث أنها كانت ترفض فكرة الملكية الخاصة بوصفها وسيلة لتنظيم نشاط المجتمع الاقتصادى .

(١) يلاحظ الخطأ فى هجاء الكلمة الانجليزية إذ صحتها "shock" .

بعد ذلك توجه إلى منشستر ليشتغل بمصنع نسيج أبيه . وبدت منشستر كما كانت السفن فى بريمن ، واجهة . فهناك شوارع جميلة تقوم على جوانبها الحوانيت كما كانت الضواحي تحيط بالمدينة بالفيلات اللطيفة . ولكن كانت هناك صورة أخرى لمنشستر . تختفى وراء الصورة الأولى بحيث لم يتح لأصحاب المصانع أبداً أن يروها أثناء توجههم إلى مكاتبهم . كانت تضم شعباً عاجزاً يعيش فى حالة تسودها القذارة واليأس ، يدمن شراب الجن وارتياد الكنيسة ، وقد تخدر هو وأطفاله حتى لا يحسوا بحياة سلبية من الأمل ، طابعها الوحشية والقسوة . لقد سبق لإنجلز أن رأى أحوالا مماثلة فى المـــدن الصناعية فى موطنه بإقليم الراين ، ولكنه الآن اكتشف منشستر حتى عرف آخر زريبة أو جحر فيها . وقدر له أن ينشر الأشياء التى اكتشفها فى كتابه « حالة الطبقة العاملة فى انجلترا فى عام ١٨٤٤ » والذى يعتبر أفظع حكم صدر على ذلك العالم الذى يضم الأحياء الفقيرة بالمناطق الصناعية . لقد تحدث مرة عن تعاسة المكان إلى صديق له من طبقة السادة ولاحظ أنه لم يسبق أن رأى أبداً « مدينة شيدت بمثل هذه الدرجة من السوء » . وأنصت إليه رفيقه فى هدوء ثم قال : « ومع ذلك فهناك يجرى كسب الكثير من المال . عم صباحاً سيـــدى » .

وكان يقوم الآن بكتابة مقالات يبين فيها أن الاقتصاديين الإنجليز الكبار لم يكونوا سوى مدافعين عن النظام القائم ويحاولون تبريره ، وكان لأحدها تأثير خاص على شاب كان يشرف على تحرير مجلة فلسفية فى باريس .

ذلك الشاب كان كارل ماركس الذى نشأ على خلاف إنجلز فى أسرة ليبرالية وراديكالية بدرجة معتدلة . ولد ماركس عام ١٨١٨ فى مدينة تريف بألمانيا ، وكان الإبن الثانى لأسرة يهودية غنية لم تلبث بعد قليل أن اعتنقت المسيحية حتى لا يضيق المجال أمام هنريخ ماركس المحامى كى يمارس مهنته : وكان هنريخ ماركس رجلا موضع الاحترام بل عين فى الحقيقة juszidrat وهو لقب شرف كانوا يضفونه على المحامين الممتازين ، ولكنه فى أيامه كان

قد انضم إلى النوادى غير المشروعة حيث تقام الحفلات التى تشرب فيها الأنخاب باسم ألمانيا الجمهورية ، وجعل ابنه يطالع مؤلفات فولتير ولوك وديدرو .

كان أمل هنريخ ماركس أن يدرس ابنه القانون ، ولكن ماركس الشاب وجد نفسه وهو طالب فى جامعتى بون وبرلين وقد اكتسحه الجدل الفلسفى الكبير الذى كان يدور فى ذلك الوقت . كان الفيلسوف هيجل قد طلع بنظام فلسفى ثورى ووجدت الجامعات الألمانية المحافظة نفسها وقد انقسمت فيما بينها حول المذهب الجديد . فطبقاً لرأى هيجل كان التغيير هو القاعدة التى تسير الحياة وفقاً لها ، فكل فكرة تولد حتما نقيضها ثم تتحدان فى تآلف يولد بدوره نقيضه . وقال هيجل أن التاريخ ليس إلا تعبيراً عن هذه الحركة الدائبة من الأفكار المتعارضة والتى يفض هذا التعارض بينها كلما أثارت شعباً ثم آخر بعد ذلك . إن التغير — أى التغير الديالكتى — كامن فى الشئون الإنسانية . ولكن هناك استثناءً واحداً ، فحين يتعلق الأمر بالدولة البروسية فإن القواعد لا تنطبق لأن الحكومة البروسية كما قال هيجل أشبه « بإله يمشى على الأرض » .

كان هذا حافزاً قوياً للطالب الشاب وانضم ماركس إلى مجموعة من المثقفين عرفت باسم شباب هيجل وكانت تناقش مسائل جريئة مثل الإلحاد والشيوعية النظرية البحتة باستخدام أسلوب هيجل الديالكتى ، وقرر أن يصبح هو نفسه فيلسوفاً . وكان يمكن أن يصبح كذلك لولا تصرف تلك الدولة ذات الصفة الإلهية . وكان أستاذ ماركس المحبوب برونو باور شديد الرغبة فى أن يعين ماركس فى وظيفة بجامعة بون ، ولكنه فصل بسبب أفكاره المؤيدة للدستور والمعادية للدين (وواضح أن الأمرين سيئان على حد سواء) ، وهكذا أصبح من المستحيل على الدكتور ماركس الشاب أن يختط لنفسه حياة أكاديمية .

وبدلا من ذلك تحول إلى الصحافة إذ طلب منه أن يتولى رئاسة تحرير

راينيش زيتونج Rheinische Zeitung وهى صحيفة حرة تعبر عن الطبقة الوسطى الصغيرة وكان ممن يكتبون فيها كثيراً . وقَبِلَ العرض ولكن حياته فيها لم تستمر سوى خمسة أشهر تماماً . كان ماركس حينذاك راديكالياً ولكن راديكاليته كانت فلسفية أكثر منها سياسية وحين وفد فردريك إنجلز باحترام لزيارته فإن ماركس لم يقر ذلك الشاب الغض الذى يتلاعب بالأفكار الشيوعية ، وحين أتهم ماركس نفسه بالشيوعية كان جوابه ملتوياً إذ قال « لست أعرف الشيوعية ، ولكن لا يمكن الحكم بمثل هذه الخفة على فلسفة اجتماعية هدفها الدفاع عن المظلومين » . ولكن بغض النظر عن إنكاراته فقد كانت مقالاته الافتتاحية أكثر من أن تحتملها السلطات . فقد كتب يستنكر بشدة قانوناً يؤدى صدوره إلى منع الفلاحين من ممارسة حقوقهم الموغلة فى القدم بشأن جمع الأخشاب الميتة فى الغابات ، ووجه إليه اللوم بسبب المقال . وكتب افتتاحيات ينعى فيها موقف الإسكان ، وأنذر من أجلها . وحين تطرف إلى حد ذكر أشياء غير لائقة عن قيصر روسيا أغلقت صحيفة راينيش زيتونج .

وتوجه ماركس إلى باريس ليتولى تحرير مجلة راديكالية أخرى كادت حياتها أن تكون قصيرة كما حدث بالنسبة إلى الصحيفة . ولكن اهتماماته تحولت الآن إلى السياسة والاقتصاد . فالمصلحة الذاتية الظاهرة التى أبدتها الحكومة البروسية ، والمقاومة التى لا تلين من جانب البورجوازية الألمانية لأى شىء يمكن أن يخفف من حالة الطبقات العاملة الألمانية ، والاتجاهات الرجعية التى كادت تتخذ مظهراً يدعو إلى السخرية والتى ميزت الطبقات الخاصة الثرية والحاكمة فى أوربا — كل هذا قد تحالف فى ذهنه بحيث أصبح يشكل جزءاً من فلسفة جديدة للتاريخ . وحين جاء إنجلز لزيارته ونشأت بينهما تلك الصلة القوية بدأت الفلسفة تتخذ شكلها الرسمى .

وكان من المقدر أن تتخذ الفلسفة اسم المادية الديالكتية — فهى ديالكتية لأنها اشتملت على فكرة هيجل عن التغير الكامن ، ومادية لأنها لم تقم على عالم الأفكار وإنما نشأت فى أرض البيئة الاجتماعية والطبيعية .

وفى كتاب اصدره إنجلز بعد ذلك بسنوات كثيرة وكان موجهاً إلى أستاذ ألمانى يدعى يوجين دورنج ، قال « إن الفكرة المادية عن التاريخ تبدأ من المبدأ الذى يرى أن الإنتاج ومعه تبادل منتجاته ، هو الأساس الذى يقوم عليه كل نظام اجتماعى ، وأن فى كل مجتمع ظهر فى التاريخ نجد أن توزيع المنتجات وما يصحبه من تقسيم المجتمع إلى طبقات أو طوائف إنما يحدده ما يجرى إنتاجه وطريقة الإنتاج والكيفية التى يتم بها تبادل المنتج. وطبقاً لهذه الفكرة يجب ألا نبحث عن الأسباب النهائية لجميع التغييرات الاجتماعية والثورات السياسية فى عقول الناس أو فى إدراكهم المتزايد للحق والعدل الخالدين وإنما فى التغيرات التى تطرأ على أسلوب الإنتاج والتبادل .

يجب ألاً نبحث عن هذه الأسباب فى فلسفة العصر الذى نعنيه وإنما فى اقتصاده .

ليس من الصعب تتبع هذا التفكير . فكل مجتمع على ما يقول ماركس يبنى على قاعدة إقتصادية ، ويرسخ فى النهاية فى حقيقة البشر الصلدة الذين نظموا نواحى نشاطهم بقصد توفير الملبس والمأكل والمسكن لأنفسهم . ذلك التنظيم يمكن أن يختلف إختلافاً شاسعاً من مجتمع إلى آخر ومن عصر لآخر . فيمكن أن يكون رعوياً أو يقوم على صيد الحيوان أو يتجمع حول وحدات من الحرف اليدوية أو يتخذ صرحاً صناعياً معقداً . ولكن مهما كان الشكل الذى ينظم به الناس أمورهم بقصد حل مشكلتهم الاقتصادية فسوف يتطلب المجتمع صرحاً علوياً من النشاط والفكر غير الاقتصاديين — أى سوف يشعر بالحاجة إلى أن ترتبط أجزاؤه بواسطة القوانين ، وأن تشرف عليه حكومة وأن يستمد الإلهام من الدين والفلسفة .

ولكن ذلك الصرح العلوى من الفكر لا يمكن اختياره عفواً ، بل يجب أن يعكس الأساس الذى يقوم عليه . فليس فى وسع أية جماعة تشتغل بالصيد أن تطور أو تستخدم الإطار القانونى الذى يتحرك فيه مجتمع صناعى ،

وبالمثل فالمجتمع الصناعى يتطلب بصورة واضحة نظرية عن القانون والنظام والحكومة تختلف اختلافاً كلياً عن نظرية القرية البدائية . ولاحظ أن مذهب المادية لا يستبعد ما للأفكار من وظيفة ثورية وقدرة على الخلق والإبداع ، وإنما يعتقد فقط أن الآراء والأفكار هى نتاج البيئة حتى ولو كانت تستهدف تغيير تلك البيئة .

والمادية بمفردها كفيلة أن تهبط بالأفكار إلى مجرد قوى سلبية تصاحب النشاط الاقتصادى ، ولكن ذلك لم يكن رأى ماركس . إن النظرية الجديدة كانت ديالكتية كما هى مادية : أى أنها تتصور التغيير ، والتغيير الدائم الكامن ، وفى تلك الحركة الدائبة التى لا تنتهى فإن الأفكار النابعة من فترة زمنية معينة تساعد على تشكيل فترة أخرى . ولقد علق ماركس على الانقلاب الذى قام به لويس نابليون فى عام ١٨٥٢ فقال : « إن الناس يصنعون تاريخهم ولكنهم لا يصنعونه كما يحلو لهم أو فى ظل ظروف يختارونها بأنفسهم وإنما يصنعونه فى ظل ظروف وجدها الماضى وأعطاها لهم ونقلها إليهم » .

ولكن المظهر الديالكتى — أى المتغير — من هذه النظرية عن التاريخ لم يقتصر فقط على تفاعل الأفكار والصروح الاجتماعية ، إذ هناك عامل آخر أقوى بكثير ، ذلك أن العالم الاقتصادى نفسه كان يتغير والحقيقة النهائية التى أقيم عليها صرح الأفكار كانت نفسها فى حركة دائمة .

مثال ذلك أن الأسواق المنعزلة فى العصور الوسطى بدأت تنكمش تحت تأثير الكشوف الجغرافية وعمليات التوحيد السياسى ، وبذلك ولد عالم تجارى جديد . وتحت تأثير الاختراع حل المعمل الذى يستخدم قوة البخار محل المعمل اليدوى القديم وظهر شكل جديد من التنظيم الاجتماعى يقال له المصنع . وفى كلتا الحالتين نجد أن حقيقة الحياة الاقتصادية ذاتها غيرت شكلها وإذ فعلت هذا أرغمت الجماعة على أن تلائم بين النظام الاجتماعى الذى تعيش فيه وبين التنظيم الجديد .

وبمجرد أن يحدث مثل هذا التغيير فإنه يجر فى أذياله سلسلة بأسرها من النتائج . فالسوق والمصنع لم يكونا ليتفقا مع الأسلوب الإقطاعى للحياة — حتى وإن نشآ فى ظله . كانا يتطلبان محتوى ثقافياً ، واجتماعياً جديداً ليتمشى معهما ، وساعدا فى هذه العملية الصعبة من الولادة بأن خلقا الطبقات الاجتماعية الجديدة التى تلائمهما ، فخلقت السوق طبقة تجارية محترفة وخلق المصنع البروليتاريا .

ولكن عملية التغيير الاجتماعى لم تكن مجرد اختراعات جديدة تضغط على أنظمة قديمة ، وإنما كانت مسألة طبقات جديدة تخرج القديمة وتحل محلها . لأن كل مجتمع ينظم على صورة صرح طبقى أى مجموعات من الناس بينها وبين الشكل القائم من الإنتاج علاقة ملائمة أو غير ملائمة ، وكل ذلك يهدده التغيير الاجتماعى . فإذ تتغير أحوال الإنتاج الفنية — كأن تحطم المصانع الصناعة الحرفية اليدوية مثلا — تجد الطبقات القديمة أن موقفها الذى درجت عليه يتغير أيضاً ، فقد يجد الذين يجلسون على القمة الأرض تنشق تحتهم بينما قد يرتفع إلى أعلى الذين كانوا فى المواضع الدنيا . ولقد رأينا مثل هذا القلب الذى طرأ على مركز الطبقات الاجتماعية النسبى فى أيام ريكاردو بانجلترا حين راح الرأسماليون الذين حملتهم أمواج الثورة الصناعية يهددون بانتزاع المزايا التى نعم بها السادة ملاك الأراضى منذ القدم .

ومن هنا ينشأ الصراع . فالطبقات التى يتعرض مركزها للخطر تحارب الطبقات التى يقوى مركزها : السيد الإقطاعى يحارب التاجر الصاعد ، وعضو النقابة الحرفية يحتقر الرأسمالى الناشىء .

ولكن عملية التاريخ لا تلق بالاً للميول والكراهيات . فالأحوال تتغير بالتدريج ولكن بصفة مؤكدة ، ويعاد تنظيم طبقات المجتمع . وفى وسط الاضطراب والألم يتغير توزيع الثروة . وهكذا يبدو التاريخ استعراضاً من صراع لا ينقطع بين الطبقات من أجل تقسيم الثروة الاجتماعية ، إذ طالما تتغير التكنيكات التى يستخدمها المجتمع فلا ينجو أى تقسيم قائم للثروة من الهجوم .

وما النذير الذى تضمنته هذه النظرية بالنسبة إلى الوقت الحاضر ؟ كانت تشير باصبعها إلى الثورة — الثورة المحتومة ، إذ طبقاً لهذا التحليل يجب أن تتكون الرأسمالية أيضاً من قاعدة فنية قوامها الحقيقة الاقتصادية ومن صرح علوى من نظام طبقى اجتماعى . وإذا كانت قاعدتها الفنية آخذة فى التغير فلا بد بالضرورة أن يشتد الضغط الواقع على صرحها العلوى .

وذلك بالضبط ما رآه ماركس وإنجلز فى عام ١٨٤٨ . كان الإنتاج الصناعى القاعدة الفنية التى قامت عليها الرأسمالية ، أما الصرح العلوى فنظام الملكية الخاصة الذى يذهب فيه جزء من إنتاج المجتمع إلى الذين يملكون جهازه الفنى العظيم . فالصراع يتمثل فى انتفاء التطابق بين القاعدة والصرح العلوى .

ولماذا ؟ لأن قاعدة الإنتاج الصناعى — أى صنع السلع فعلاً — كانت عملية على درجة عالية من التنظيم والترابط واعتماد كل جزء منها على غيره ، بينما كان الصرح الممثل فى الملكية الخاصة أشد النظم الاجتماعية فردية فى طابعه . ومن هنا وقع التصادم بين الصرح العلوى والقاعدة : فالمصانع تطلبت التخطيط بينما كرهته الملكية الخاصة . لقد أصبحت الرأسمالية من التعقيد بحيث تحتاج إلى التوجيه ولكن أصر الرأسماليون على حرية مدمرة . وكانت النتيجة مزدوجة . فأولاً لا بد أن تدمر الرأسمالية نفسها لأن طبيعة الإنتاج التى لا تخضع للتخطيط تؤدى حتماً إلى اضطراب دائم يصيب النشاط الاقتصادى — أى تؤدى إلى وقوع الأزمات وحالات الكساد وما يحدثه الكساد من فوضى اجتماعية . كان النظام ببساطة على درجة كبيرة من التعقيد ، ويفتقد انتظام الخطى ويفلت زمامه فيسرف فى إنتاج سلعة ما بينما ينتج من غيرها كمية أقل مما ينبغى .

وثانياً ، سوف تولد الرأسمالية ، وعلى غير علم منها ، النظام الذى يخلفها . ففى داخل مصانعها لا تخلق فقط القاعدة الفنية التى تقوم عليها الإشتراكية — ويقصد بذلك الإنتاج الكبير — وإنما تخلق أيضاً طبقة مدربة ومنظمة تصبح الأدوات التى تعمل على تحقيق الاشتراكية وهذه الطبقة هى

البروليتاريا التى تمتلىء نفسها بالمرارة .. وهكذا عن طريق ديناميكيتها الباطنية تولد الرأسمالية القوى التى تؤدى إلى سقوطها ، وفى خلال هذه العملية تغذى عـــدوها .

كانت هذه نظرة إلى التاريخ ، ثورية وبعيدة الغور ، لا لأنها كانت تشير إلى ما سوف يحدث فى المستقبل ، وإنما بسبب الصورة الجديدة كلها التى تبين الماضى . لقد أصبحت عبارة « التفسير الاقتصادى » للتاريخ مألوفة لدينا ونستطيع أن نتقبل فى استسلام إعادة تقييم الماضى فيما يتعلق مثلا بالصراع بين الطبقات التجارية الوليدة فى القرن السابع عشر والعالم الأرستقراطى الذى يضم ملاك الأرض وأصحاب الألقاب النبيلة . ولكن هذا فى نظر ماركس وإنجلز لم يعد كونه تدريباً على إعادة النظر فى تفسير التاريخ . إن الديالكتيك يؤدى إلى المستقبل ، وذلك المستقبل على ما أظهر « البيان الشيوعى » يشير إلى ثورة شيوعية لا مفر منها يولدها هذا الديالكتيك نفسه.. وفى هذا يعلن البيان فى هذه الكلمات التى تقبض النفس « إن نمو الصناعة الحديثة . . يزيد من تحت قدميها نفس الأساس الذى عليه تنتج البورجوازية وتقسم المنتجات . وعلى ذلك فإن ما تنتجه البورجوازية هو فوق كل شيء الأدوات التى تحفر بها قبرها . إن سقوطها وانتصار البروليتاريا محتومان سواء بسواء » .

إن البيان بالتفسير الصاخب الجامد للتاريخ ، لم يكتب فى باريس إذ لم تطل إقامة ماركس فى تلك المدينة . لقد كان يتولى فيها تحرير مجلة راديكالية ، ومرة ثانية أساء إلى مشاعر الحكومة البروسية فطرد بناء على إيعازها ، من العاصمة الفرنسية .

وكان فى ذلك الوقت متزوجاً — إذ سبق أن تزوج فى عام ١٨٤٣ من جينى فون وستفالن جارته فى عهد الطفولة . وكانت جينى ابنة أرستقراطى بروسى وعضو بالمجلس المخصوص ، ولكن البارون فون وستفالن كان بالرغم من هذا رجلا يؤمن بالإنسانية ومفكراً من ذوى الآراء الحرة . وكان قد تحدث إلى ماركس الشاب عن هوميروس وشكسبير بل وحدثه عن أفكار

سان سيمون بالرغم من إعلان الأسقف المحلى أنها زندقة . أما جينى فكانت أجمل بنات المدينة . فبفضل جمالها وكثرة عدد الراغبين فى طلب يدها كان فى وسعها أن تجد شريكاً لها « أنسب » من جارها ، ذلك الشاب ذى البشرة القاتمة : ولكنها أحبته وأبدت الأسرتان ابتسامة الرضاء والموافقة . وكان هذا بالنسبة إلى آل ماركس انتصاراً اجتماعياً ، وربما كان بالنسبة إلى البارون تأكيداً موفقاً لأفكاره الإنسانية ، وإن المرء ليعجب ما إذا كان يوافق على الزواج لو عرف ما سوف يحدث لابنته التى سوف تضطر فيما بعد أن تقاسم مومساً فى السجن فراشها وأن تستجدى المال من جار لها كى تشترى نعشاً توارى فيه أحد أطفالها . وبدلا مما كانت تنعم به فى ترف من مباهج الحياة والمركز الإجتماعى سوف تضطر إلى أن تقضى سنوات حياتها فى غرفتين كئيبتين فى أحد الأحياء الفقيرة بمدينة لندن تشارك زوجها فى احتمال الوشاية والحقد من جانب عالم يناصبهما العداء . إلا أنها كانت امرأة ينطوى قلبها على أعمق مشاعر الإخلاص . وكان ماركس فى علاقاته مع الأغراب يتصف بالقسوة والغيرة والشك والغضب . . ولكنه كان زوجاً وأباً مخلصاً . وبعد ذلك وفى فترة متأخرة كثيراً من حياتهما وحين كانت جينى على وشك الموت . وكان ماركس مريضاً ، شهدت ابنتها هذا المنظر الجميل .

« كانت أمى ترقد فى الغرفة الأمامية الكبيرة ، وكان العربى يرقد فى الغرفة الصغيرة المجاورة . . لن أنسى أبداً ذلك الصباح حين وجد فى نفسه القوة على النهوض والتوجه إلى غرفة أمى . لقد بدا كأنهما استعادا شبابهما من جديد : هى الفتاة المغرمة وهو الشاب المدله بحبها ، وراحا يشقان طريقهما سوياً فى الحياة ، ولم يبدوا كرجل عجوز حطمه سوء صحته وسيدة تموت يودع كل منهما الآخر إلى الأبد » .

كان ماركس وزوجه قد انتقلا إلى لندن فى عام ١٨٤٩ . وحين طردا من باريس قبل ذلك بأربع سنوات حطا رحالهما فى بروكسل حيث أقاما بها (وكتب البيان الشيوعى) إلى أن وقعت انفجارات الثورة فى عام ١٨٤٨ . ثم

لما أمسك الملك البلجيكى بزمام عرشه المهتز قبض على الزعماء الراديكاليين فى عاصمة بلاده وتوجه ماركس لفترة قصيرة إلى ألمانيا .

وعادت الحياة سيرتها الأولى ، وتولى ماركس تحرير صحيفة لم تلبث الحكومة أن أغلقتها . فطبع آخر عدد باللون الأحمر ثم التمس لنفسه ملجأ فى لندن .

وكان آنذاك فى وضع مالى يبعث على اليأس . وكان إنجلز فى منشستر يحيا حياته المزدوجة الغريبة (إذ كان من الشخصيات المحترمة فى بورصة الأوراق المالية بمنشستر) ، وأخذ يبعث إلى ماركس وزوجه بسيل لا ينقطع من الشيكات والقروض ، وبالرغم من هذا كانت الأسرة تواجه أقسى ألوان الفاقة . وكانت تتكون من خمسة أفراد بالإضافة إلى لنشن خادمة الأسرة بوستفالن والتى عاشت معهم طيلة حياتهم دون أن تتقاضى أجراً . ولم يزاول ماركس أى عمل سوى جلسته التى لا تنتهى فى المتحف البريطانى من العاشرة صباحاً حتى السابعة مساء . وحاول أن يكسب القليل من المال عن طريق كتابة مقالات فى الموقف السياسى لجريدة تريبيون بنيويورك وكان رئيس تحريرها شارل أ. دانا من أتباع فورييه ولا يرى مانعاً من توجيه بضع لطمات إلى السياسة الأوربية . وساعده هذا قليلاً وإن كان إنجلز هو الذى عاونه بأن ألف الكثير من المقالات التى نشرت ، وموجهاً إليه النصح فى رسالة بعث بها إليه فقال «يجب أن تضفى قدراً أكبر قليلاً من اللون على مقالاتك» . ولما توقفت المقالات حاول الحصول على وظيفة كتابية فى إحدى شركات السكك الحديدية ولكن رفض طلبه بسبب شناعة خطه . وبعد ذلك رهن كل ما تبقى لديه من مقتنيات إذ سبق قبل ذلك بوقت طويل جداً أن باعت الأسرة ما كانت تملك من أدوات فضية وأدوات ثمينة . وأحياناً كانت تشتد به الحاجة إلى حد أن يضطر إلى التزام البيت وعدم الخروج لأن معطفه بل وحذاءه كانا مرهونين وأحياناً كان لا يجد النقود اللازمة ليشترى بها طوابع البريد من أجل إرسال مؤلفاته إلى الناشر . ومما ضاعف الصعاب التى أحاطت به أنه كان يعانى من

مرض أليم . فحين وصل إلى بيته ذات مساء بعد أن ظل يكتب فى تعاسة طيلة يومه بالمتحف البريطانى أبدى الملاحظة الآتية « أرجو أن تتذكر البورجوازية طالما هى على قيد الحياة ، مرض الجمرة الذى أعانيه » . وكان قد أكمل ذلك الفصل الرهيب من « رأس المال » والذى يصف فيه يوم العمل .

ولم يكن هناك من ملجأ سوى إنجلز ، فكان ماركس يكتب إليه باستمرار عن الاقتصاد والسياسة والرياضة والتكتيك الحربى ، وعن كل شيء تحت الشمس ولكن عن موقفه هو بصفة خاصة . ونطالع نموذجاً لهذا فى القطعة التى نقتبسها هنا :

« إن زوجتى مريضة ، وجينى الصغيرة مريضة . وتعانى لنشن من نوع من الحمى العصبية ولا أستطيع استدعاء الطبيب إذ لا أملك مالاً لأدفع له أجره . ومضى علينا ثمانية أو عشرة أيام ونحن جميعاً نعيش على الخبز والبطاطس ومن المشكوك فيه الآن أن نتمكن حتى من ذلك . . لم أكتب شيئاً إلى دانا إذ لم أتمكن من شراء الصحف . . كيف أتخلص من هذه الورطة الشيطانية ؟ خلال الأسبوع الماضى أو نحو ذلك اقترضت بضع شلنات بل وبنسات من العمال . كان هذا فظيعاً ولكنه كان ضرورياً تماماً وإلا هلكنا من الجوع » .

ولم تتحسن الأحوال قليلا إلا فى السنوات الأخيرة من حياته إذ أوصى له صديق قديم بميراث صغير ، ولهذا لم يهبط ماركس بعد ذلك أبداً إلى هاوية الفقر السحيقة التى سبق أن تردى فيها . وكذلك ورث إنجلز أخيراً وترك العمل ، وفى عام ١٨٦٩ توجه إلى مكتبه لآخر مرة ثم عاد يخترق الحقول ليقابل ابنة ماركس « مداعباً عصاه ، ضاحكاً ، وقد شاع الرضا فى وجهه » .

وماتت جينى فى عام ١٨٨١ وقد تقدمت بها السن وحل بها التعب وبعد أن وارت التراب اثنين من أطفالها الخمسة ومن بينهما ابنها الوحيد . وبلغ من وطأة المرض على ماركس الحد الذى أعجزه عن السير فى جنازتها. وحين

نظر إليه إنجلز قال « لقد مات العربى أيضاً » . لم يتحقق ذلك تماماً إذ امتد به العمر عامين آخرين ، ولم يرض عن الزوجين اللذين وقع عليهما اختيار بناته ، وانتابه الإعياء من تعثر الحركة العمالية وأدلى بعبارة لم تنفك أبداً عن إقلاق بال المؤمنين (إذ قال يوماً « لست ماركسياً ») ، ثم غادر الدنيا فى هدوء بعد ظهر أحد أيام الاثنين .

ماذا فعل خلال هذه السنوات الطوال من الحرمان ؟

لقد خلق أولاً حركة عمالية دولية . لقد سبق أن كتب ماركس فى شبابه يقول « ظل الفلاسفة حتى الآن يقتصرون على تفسير العالم بطرق متنوعة ، غير أن الشىء الذى يتعين عمله هو تغيير العالم » . فماركس وإنجلز سلما البروليتاريا المفتاح الذى تفسر به التاريخ ، ثم أخذا الآن يقودان ويوجهان البروليتاريا حتى تلقى بالقدر الأقصى من ثقلها على التاريخ .

لم تكن هذه محاولة كللت بالنجاح الكثير . ففى الوقت الذى نشر فيه البيان تكونت العصبة الشيوعية ولكنها لم تزد أبداً عن تنظيم على الورق ، بل إن برنامجها وهو البيان لم يعرض للبيع على الجمهور ، وحين ماتت ثورة ١٨٤٨ ماتت العصبة أيضاً .

ثم أعقبها فى عام ١٨٦٤ تنظيم أشد طموحاً بكثير هو الرابطة الدولية للعمال التى كانت تفخر بأنها تضم سبعة ملايين عضو وبلغت من القوة القدر الذى جعلها تشترك فى تلك الموجة بعد الإضرابات التى اجتاحت القارة وأن تكتسب لنفسها سمعة مخيفة نوعاً . ولكنها هى الأخرى كان محكوماً عليها بالفناء بعد فترة قصيرة . لم تتكون الرابطة من جيش قوى ومنظم من الشيوعيين ولكنها كانت خليطاً من أتباع أوين وبرودون وفورييه ، ومن عدد من الاشتراكيين ذوى الحماس الفاتر ، ومن القوميين المتحمسين ، ورجال النقابات ممن كانوا يشعرون بالارتياب من أى نوع من النظريات الثورية مهما كانت . واستطاع ماركس بمهارة بالغة أن يحافظ على تماسك هذه المجموعة

من الأتباع طيلة خمس سنوات ثم تفككت عرى الرابطة . فالبعض من أفرادها ساروا وراء باكونين وهو عملاق يتمثل فيه الثورى الحقيقى الأمر الذى تدل عليه حياته السابقة التى قضاها فى سيبيريا والمنفى (ويقال أن مقدرته الخطابية كانت ذات تأثير على مستمعيه بحيث لم يكونوا ليترددوا فى قطع حلوقهم لو طلب منهم ذلك) ، بينما وجه فريق آخر من رجال الرابطة اهتمامه إلى الشئون القومية . وعقدت الرابطة آخر اجتماع لها فى نيويورك عام ١٨٧٤ فكان فشلا .

ولكن ما هو أكثر أهمية بكثير من إنشاء الرابطة كان تلك النغمة الغريبة التى بعثها ماركس فى شئون الطبقة العاملة . كان ماركس أشد الناس ميلا إلى العراك وبعداً عن التسامح ، فمنذ بداية أمره لم يستطع أن يؤمن أن من لم يتبع أسلوبه فى التفكير يمكن أن يكون على صواب . كانت لغته كاقتصادى دقيقة وكفيلسوف مؤرخ تمتاز بالبلاغة ، وبصفته ثورياً كانت بذيئة . كان يدعو خصومه ومعارضيه « أجلافاً » ، « أوغاداً » بل و « حشرات كالبق » . وفى مستهل حياته وحين كان فى بروكسل زاره خياط ألمانى يدعى ويتلنج وكان ويتلنج من أبناء الحركة العمالية المجربين . وكانت ساقاه تحمل آثار السلاسل التى قيد بها فى سجون بروسيا وكان له تاريخ طويل من الجهود الباسلة والخالصة دفاعاً عن العامل الألمانى . وجاء الرجل ليتحدث إلى ماركس فى مسائل من قبيل العدالة والأخوة والتضامن ، فإذا به يلقى نفسه أمام استجواب لا يرحم عن « المبادىء العلمية » للاشتراكية . واضطرب ويتلنج المسكين وكانت إجاباته غير مرضية . وبدأ ماركس الذى كان جالساً كالممتحن الرئيسى . يذرع الحجرة فى غضب . ثم صرخ قائلا « لم يساعد الجهل أحد أبداً حتى الآن » . وانتهى اللقاء بين الرجلين .

وشخص آخر حرمه ماركس من جنته ، ذلك هو ويليتش ، وهو ضابط سابق فى الجيش البروسى حارب فى المتاريس التى أقيمت فى برلين ، ثم حملته الصدف العجيبة إلى أن يشترك فى الحرب الأهلية الأمريكية فى صف جيش

الإتحاد . ولكنه ظل متعلقاً بالفكرة « غير الماركسية » التى تذهب إلى أن « الإرادة البحتة » يمكن أن تكون القوة الدافعة للثورة وذلك بدلا من « الظروف الفعلية » . وبسبب تلك الفكرة التى سوف يثبت لينين فيما بعد أنها لم تكن خيالية بهذه الدرجة ، أبعد هو الآخر من الحركة .

فى الوسع أن نطيل القائمة بحيث لا تنتهى ، ولكن ربما لم تكن هناك حادثة واحدة أشد استفزازاً وأكثر تنبوءاً بوقوع تلك الحركة التى سوف تنحط فتصبح سعياً داخلياً يشبه اصطياد السحرة فى القديم ، وراء « المنحرفين » و « أعداء الثورة » ، من ذلك الصراع الذى نشب بين ماركس وبيير برودون . كان برودون إبناً لأحد المشتغلين بصناعة البراميل ، وكان اشتراكياً تابهاً علم نفسه بنفسه ، وهز الطبقة المثقفة فى فرنسا هزاً عنيفاً بكتابه « ما الملكية ؟ » ، وأجاب برودون : « الملكية سرقة ، ودعا إلى وضع حد للثروات الخاصة الضخمة وإن لم يطالب بالغاء الملكية الخاصة كلها . وسبق أن تقابل ماركس مع برودون ، وتحدثا فيما بينهما ، وتبادلا المراسلات ، ثم طلب منه ماركس أن ينضم إليه وإلى إنجلز . والرد الذى بعث به برودون يحرك النفس كما يدل بشكل يثير الخوف إلى ما سوف يحدث فى المستقبل بحيث يستأهل أن تقتبس فقرة طويلة نوعاً منه .

لقد كتب يقول « فلنتعاون بكل تأكيد فى محاولة كشف قوانين المجتمع والطريقة التى تطبق بها هذه القوانين ، وخير سبيل لفحصها ، ولكنى أستحلفك بالله ، بعد أن نحطم جميع المذاهب اليقينية بداهة ، ألا نحاول بدورنا أبداً أن نغرس فى عقول الناس نوعاً آخر من المذاهب . . إنى أمتدح من كل قلبى فكرتك عن إلقاء الضوء على مختلف أنواع الأفكار ، ولتكن هناك مجادلات طيبة ومخلصة ولنضرب للعالم مثلا عن التسامح المبنى على العلم والبعيد النظر ، ولكن لمجرد كوننا على رأس حركة جديدة فعلينا ألا نجعل من أنفسنا قادة تعصب جديد أو أن نبدو كأننا رسل دين جديد — حتى ولو كان هذا الدين هو دين المنطق ، ودين العقل نفسه : لنرحب ونشجع جميع الاعتراضات

ولنستنكر جميع الاستثناءات والغيبيات . وعلينا ألا ننظر أبداً إلى أية مسألة على أنها منتهية أغلقت أبوابها ، وحتى بعد أن نستنفد آخر حجة فى جعبتنا فعلينا أن نبدأ من جديد إذا لزم الأمر ببلاغة وسخرية . على أساس هذا الشرط فإنه يسرنى أن أشترك فى رابطتك التى أنشأتها — أما بخلاف هذا فلا » .

وهذا هو رد ماركس . لقد سبق لبرودون أن وضع كتاباً باسم « فلسفة الفقر » فإذا بماركس يحطمه الآن بكتاب يرد فيه وجعل عنوانه « فقر الفلسفة »

ولم يكن نمط عدم التسامح ليزول أبداً . فالدولية الأولى سوف تعقبها الدولية الثانية المعتدلة وذات النوايا الطيبة — والتى ضمت اشتراكيين من طراز رجال مثل برنارد شو ورمزى مكدونلد وبلسودسكى (فضلا عن لينين وموسولينى ولافال) ، وبعد ذلك تأتى الدولية الثالثة الشائنة التى نظمت تحت رعاية موسكو وفى كنفها . ومع هذا فإن تأثير هذه الحركات العظيمة ربما أقل من استمرار تلك النظرة الضيقة ، وذلك العجز المطلق الذى يثير النفس ، عن احتمال الرأى المخالف وذلك المظهر الاستبدادى وتلك الكراهية للديموقراطية مما ورثته الشيوعية عن مؤسسها الأكبر الوحيد .

لو أن ماركس لم ينتج خلال السنوات الطويلة التى قضاها فى المنفى ، شيئاً أكثر من حركة عمالية ثورية لما كان تلك الشخصية المهمة الجاثمة فى العالم . لم يكن ماركس سوى واحد من عشرات الثوريين وأكثرهم نجاحاً بالتأكيد ، ولم يزد عن كونه واحداً على الأقل من أولئك الكثيرين من أنبياء الاشتراكية ، والواقع أنه لم يكتب شيئاً عما يمكن أن يكون عليه ذلك المجتمع الجديد . إن مساهمته النهائية تقع فى مجال آخر : فى نظريته المادية الديالكتية عن التاريخ ، بل وأهم من هذا فى تحليله مستقبل الاقتصاد الرأسمالى ، ذلك التحليل الذى يشيع فيه التشاؤم .

لقد كتب ستالين يقول : « إن تاريخ الرأسمالية قد أكد تماماً نظريات ماركس وإنجلز بصدد قوانين النمو فى المجتمع الرأسمالى . . والتى تؤدى حتما إلى

سقوط النظام الرأسمالى بأسره » . ماذا كانت تلك القوانين ؟ . . وأى نذير بمصير النظام عرفه ماركس ؟ . .

إن الجواب يتضمنه ذلك المؤلف الضخم « رأس المال » Das Kapital وحين نأخذ فى الاعتبار ما اتصف به ماركس من دقة تبلغ حد الإيلام فإننا نعجب كيف تم ذلك العمل — أو يقال أنه لم يتم أبداً . لقد استغرقت العملية ثمانية عشر عاماً ، فقيل فى عام ١٨٥١ أنه سوف ينتهى « فى ظرف خمسة أسابيع » تحولت إلى « ستة أسابيع » فى عام ١٨٥٩ ، وأخيراً « تم » فى عام ١٨٦٥ ، وكان مجموعة هائلة من مسودات لا يمكن قراءتها بالفعل ، وتطلب تحريرها عامين قبل أن تصدر على صورة المجلد الأول ، ولما مات ماركس فى عام ١٨٨٣ ظل هناك مجلدان لم ينشرا ، فأخرج إنجلز المجلد الثانى فى عام ١٨٨٥ والثالث فى عام ١٨٩٤ ، أما الأخير (الرابع) فلم يظهر إلا فى عام ١٩١٠ .

هذا السفر يضم ٢٥٠٠ صفحة لمن أوتى الشجاعة على أن يبذل الجهد فى مطالعتها . وأية صفحات ! إن بعضها يعالج أتفه المسائل الفنية ثم يبذل الجهد حتى يستنفدها بذلك الأسلوب الرياضى الذى يستقصى كل شىء ، والبعض الآخر يموج بالعاطفة والغضب ها نحن أولاء أمام اقتصادى قرأ ما كتب كل اقتصادى آخر ، وأمام ألمانى متحذلق شغوف بالحواشى والهوامش ، وناقد عاطفى يستطيع أن يكتب أن « رأس المال عمل ميت ، وهذا الشىء الشبيه بمصاص الدماء لا يعيش إلا بامتصاص دم العمل الحى » ، وأن يحدثنا أن رأس المال جاء إلى العالم « يقطر دماً وقذارة من قمة رأسه إلى إخمص قدميه ومن جميع مسام جسمه » .

إلا أنه يجب ألا نسارع إلى الاستنتاج بأن هذا مجرد نص متحيز يطغى عليه الغضب ، يشن الحملات على آثام ملوك المال الأشرار . إنه ملىء بالملاحظات التى تكشف عن تورط الرجل تماماً فى صراع مع خصمه النظرى ،

فى هذا العالم يقف بطلا الدراما الرأسمالية العظيمان وجهاً لوجه ، وهما العامل والرأسمالى — أما مالك الأرض فقد هبط إلى مركز أقل شأناً فى المجتمع . وليس هذان تماماً بالبطلين اللذين سبق أن تقابلا فى لوحات مسرحية اقتصادية مشابهة . فالعامل لم يعد عبداً للحافز الذى يدفعه إلى الإكثار من نسله ، وإنما هو شخص حر فى إجراء المساومة ، يدخل السوق ليبيع السلعة الوحيدة التى يملكها — أى قوة العمل — وإذا حصل على زيادة فى الأجر فلن يكون من الحماقة بحيث يبددها على هذا التكاثر العددى الذى يهزم الفائدة التى تنجم من الزيادة .

ويواجهه الرأسمالى فى ساحة الصدام ، إنه ليس شخصاً يمتلىء قلبه بالشر ، وإن كان جشعه وطمعه فى الثروة موضع الوصف اللاذع فى تلك الفصول التى تبتعد موقتاً عن العالم المجرد لتلقى نظرة على الأحوال القائمة بانجلترا فى عام ١٨٦٠ . ولكن الشىء الذى يستأهل الملاحظة أن تعطشه إلى كسب المال ليس منبعثاً من نزعة إلى النهب والسلب : وإنما الرأسمالى مالك — منظم owner-entreprenear يجرى فى سباق لا نهاية له ضد زملائه من الملاك المنظمين . فيجب عليه أن يجاهد من أجل التجميع إذ فى البيئة القائمة على التنافس والتى يعمل فيها يجب أن يجمع المرء المال وإلا قضى عليه .

إن المسرح يعد وتتخذ الشخصيات أماكنها ، ولكن تبدو الآن الصعوبة الأولى إذ يتساءل ماركس : كيف يمكن وجود الأرباح فى مثل هذا الموقف ؟ إذا كان كل شىء يباع حسب قيمته تماماً فمن ذا الذى يحصل إذن على زيادة غير مكتسبة ؟ ؟ إن أحداً لا يجرؤ على رفع ثمن سلعته فوق مستوى الثمن التنافسى ، وحتى لو نجح بائع فى أن يخدع مشترياً فإن ما يحدث هو أن يقل ما ينفقه هذا المشترى فى موضع آخر من الاقتصاد — وبهذا فالربح الذى يحققه شخص إن هو إلا خسارة تحيق بآخر . كيف يمكن إذن وجود ربح فى النظام كله إذا جرى تبادل كل شىء حسب ما يساويه بأمانة ؟

يبدو هذا تناقضاً . من السهل أن نفسر الأرباح لو افترضنا وجود

احتكارات فى النظام لا ترى نفسها بحاجة إلى أن تخضع لمفعول المنافسة التى تعمل على التسوية بين الأثمان ، أو إذا سلمنا بأن الرأسمالية تدفع للعمل أجراً دون ما يساويه . ولكن ماركس لا يريد شيئاً من هذا القبيل — لأن هذه يجب أن تكون رأسمالية خالصة تحفر قبرها بأيديها .

ويلقى ماركس الجواب عن الورطة فى سلعة واحدة تختلف عن جميع السلع الأخرى ، وهذه السلعة هى قوة العمل . فالعامل ، مثله مثل الرأسمالى ، يبيع منتجه بما يساويه تماماً — أى حسب قيمته وهذه القيمة ، كقيمة أى شىء آخر يباع ، هى مقدار العمل الذى يدخل فى إنتاج السلعة ، ومعناه فى حالتنا هذه مقدار العمل اللازم « لصنع » قوة العمل . وبعبارة أخرى فإن طاقات العامل القابلة للبيع تساوى مقدار العمل اللازم من وجهة نظر المجتمع للإبقاء على حياة العامل . مثل هذه الفكرة كان يوافق عليها سميث وريكاردو كلية : فالقيمة الحقيقية للعامل هى الأجر الذى يحتاج إليه حتى يظل على قيد الوجود . إنها أجر الكفاف الذى يحصل عليه .

إلى هذا الحد تسير الأمور سيراً حسناً . ولكن هنا يبرز سر الربح . فالعامل الذى يتعاقد على العمل لا يمكن أن يطلب إلا أجراً هو حق له . وذلك الأجر يتوقف ، كما رأينا ، على ذلك القدر من وقت العمل مما يلزم لإبقاء الفرد على قيد الحياة . فإذا كان الإبقاء على عامل يتطلب ست ساعات من عمل المجتمع فإذن « يساوى » العامل ستة دولارات فى اليوم ولا أكثر من هذا (بفرض تقدير ثمن العمل بدولار واحد فى الساعة) .

ولكن العامل الذى يحصل على « عمل » لا يتعاقد على أن لا يشتغل سوى ست ساعات فى اليوم وهو ما يكفيه كى يعيش ، ولكنه على العكس من ذلك يوافق على أن يشتغل يوماً من ثمانية ساعات كاملة ، أو من عشر أو إحدى عشرة ساعة كما كان الحال فى أيام ماركس . ومن هنا ينتج قيمة تعادل عشر ساعات أو إحدى عشرة ساعة كاملة ، ولكن لا يدفع له إلا ما يوازى ست ساعات فقط ، إن الأجر الذى يحصل عليه يكفى لعيشه ، ولكنه مقابل هذا

يبيع القيمة التى ينتجها فى يوم عمل بأكمله . وبهذه الطريقة يدخل الربح فى النظام (الرأسمالى) .

أطلق ماركس على هذا الجزء من العمل الذى لا يؤدى عنه أجر عبارة « القيمة الفائضة » . ولكنها تخلو من الغضب المنبعث من الاعتبارات الأخلاقية فالعامل ليس له حق إلا فى قيمة ما يملك من قوة العمل ، وهو يحصل عليها بالكامل ، ولكن فى هذه الأثناء يحصل الرأسمالى على القيمة الكاملة ليوم العمل كله الذى يشتغل خلاله العامل ، وهذا اليوم أطول من الساعات التى دفع قيمتها . وهكذا حين يبيع الرأسمالى منتجاته ففى وسعه أن يبيعها حسب قيمتها الحقيقية ومع ذلك يحقق ربحاً ، ذلك أن هذه المنتجات تتضمن قدراً من وقت العمل أكبر من وقت العمل الذى اضطر إلى أن يدفع ثمنه .

كيف يحدث هذا ؟ يحدث لأن الرأسماليين يحتكرون شيئاً واحداً هو امتلاك أدوات الإنتاج ذاتها . فإذا لم يرغب العامل فى أن يشتغل يوم عمل بأكمله فلن يحصل على عمل . وكما هو الحال بالنسبة إلى كل شيء آخر فى النظام فإن العامل لا يملك الحق أو القوة للمطالبة بما يزيد على ما يساويه بوصفه سلعة . إن النظام يتصف بالعدالة تماماً ، ومع هذا فالعمال جميعاً يخدعون لأنهم مرغمون على أن يشتغلوا وقتاً أطول مما يتطلبه الإبقاء على حياتهم .

هل يبدو هذا غريباً ؟ ؟ على القارىء أن يتذكر أن ماركس يصف عصراً كان يوم العمل فيه طويلا — وأحياناً طويلا بشكل لا يمكن احتماله — وكانت الأجور فيه لا تزيد إلا قليلا عما يكفى مجرد البقاء على قيد الحياة . قد لا يكون لفكرة القيمة الفائضة معنى كثير فى عالم أصبحت فيه أماكن العمل المرهق حدثاً من أحداث الماضى إلى حد كبير ، ولكنها لم تكن مجرد فرض نظرى عند ما وضع ماركس كتابه . وفى هذا يكفى مثال واحد . ففى أحد المصانع بمنشستر فى عام ١٨٦٢ كان متوسط أسبوع العمل لمدى شهر ٨٤ ساعة . . وكان ٧٨,٥ ساعة خلال الثمانية عشر شهراً السابقة على ذلك .

ولكن هذا كله ليس إلا إعداداً للمسرح . فأمامنا البطلان ، والدوافع التى تحركهما ، كما نلقى فى اكتشاف « القيمة » مفتاح حبكة الدراما . والآن يبدأ تمثيل المسرحية .

لدى جميع الرأسماليين أرباح ؛ ولكنهم جميعاً ينافسون بعضهم بعضاً ومن هنا يحاولون التجميع وبذلك يوسعون من نطاق إنتاجهم على حساب منافسيهم ولكن التوسع ليس سهلا ، فهو يتطلب مزيداً من العمال ، ومن أجل الحصول عليهم يجب على الرأسماليين أن يزايد بعضهم بعضاً للفوز بالقوة العاملة ، وتميل الأجور إلى الارتفاع بينما يحدث العكس فى حالة القيمة الفائضة إذ تتجه إلى الهبوط . ويبدو كأن الرأسماليين الذين يتحدث عنهم ماركس سوف يواجهون الورطة التى واجهها إخوانهم عند آدم سميث وريكاردو وهى أن الأجور الآخذة فى الارتفاع سوف تلتهم أرباحهم .

كان حل الورطة عند سميث وريكاردو يتمثل فى ميل القوة العاملة إلى زيادة عدد أفرادها كلما ارتفع الأجر . ولكن ماركس استبعد امكانية حدوث هذا الأمر ولم يناقشها وإنما اقتصر على أن يدمغ مذهب مالتس بأنه « تشهير بالجنس البشرى » لأن البروليتاريا وهى الطبقة التى سوف تتولى الحكم فى المستقبل لا يمكن أن تكون من قصر النظر بحيث تبدد مكاسبها عن طريق مجرد الإشباع الطليق للشهوة الجثمانية . ولكنه ينقذ كذلك الرأسماليين الذين يصفهم إذ يقول أنهم يواجهون التهديد الناجم من ارتفاع الأجور بأن يستخدمو فى مصانعهم الآلات التى توفر العمل ، وذلك يلقى بجزء من القوة العاملة إلى غرض الطريق حيث تؤدى هناك بوصفها جيشاً صناعياً احتياطياً نفس المهمة التى يقوم بها السكان الذين يتضخم عددهم عند مالتس ، أى أن هذا الجيش الصناعى الاحتياطى يعيد الأجور من جديد إلى « قيمتها » السابقة أى مستوى الكفـــاف .

وهنا تحل النقطة الحرجة . . يبدو كأن الرأسمالى قد كسب المعركة لأنه منع الأجور من الارتفاع بأن خلق بطالة عن طريق استخدام الآلات . ولكن

النصر لا يدوم طويلا إذ بنفس العملية التى يأمل عن طريقها الخلاص من أحد قرنى الورطة يلقى بنفسه على القرن الآخر .

والسبب فى هذا أنه حين يستبدل العمال بالآلات فإنه يستبدل فى الوقت نفسه وسائل إنتاج تدر الربح بأخرى غير مجزية . وليذكر القارىء أنه فى هذا العالم الذى لا وجود له أبداً لا يجنى أحد ربحاً عن طريق المساومة الدقيقة وحدها . ومهما كانت قيمة الآلة فى نظر الرأسمالى فلنكن على يقين من أنه دفع قيمتها الكاملة . فإذا كانت تنتج قيمة تساوى عشرة آلاف دولار طيلة مدة استخدامها ، فإن صاحبنا الرأسمالى دفع العشرة آلاف دولار . إنه لا يستطيع أن يحقق ربحاً إلا عن طريق العمل الحى أى تلك الساعات من وقت العمل الفائض التى لا يؤدى عنها مقابلا ، ومن هنا فحين يخفض من عدد العمال أو نسبتهم فإنه يقتل الأوزة التى تضع البيضة الذهبية .

إلا أن المسكين مضطر إلى هذا ، وليس ثمة نزعة شيطانية فيما يفعل وإنما هو يطيع ما فى نفسه من وازع يدفعه إلى تجميع الثروة ويحاول أن يسبق منافسيه . وإذ ترتفع الأجور التى يدفعها فيجب عليه أن يستخدم الآلات التى توفر العمل حتى يخفض من تكاليفه وينقذ حد ربحه — فإن لم يفعل هذا فسوف يفعله جاره . ولكن لما كان مضطراً إلى إحلال الآلات محل العمل فهو مضطر أيضاً إلى تضييق القاعدة التى يجمع منها أرباحه . إن هذه نوع من الدراما الإغريقية التى يسير فيها أشخاصها طوعاً أو كرهاً صوب مصيرهم ويتعاونون على غير معرفة منهم ، على ما فيه دمارهم جميعاً .

ولكن قضى الأمر الآن . فكل رأسمالى تنكمش أرباحه يعمد إلى مضاعفة جهوده من أجل استخدام آلات جديدة توفر العمل وتقلل من التكاليف فى مصنعه ، وهو لا يستطيع أن يأمل الحصول على ربح إلا إذا خطا خطوة يسبق بها زملاءه . ولكن لما كان الآخرون جميعاً يسيرون تماماً على النهج ذاته فإن نسبة العمل (وبالتالى نسبة القيمة الفائضة) إلى الإنتاج الكلى تزداد

انكماشاً ، ويزداد هبوط معدل الربح . والآن يتراءى المصير المحتوم . إن الأرباح تأخذ فى الإنخفاض حتى تبلغ الحد الذى لا يعود الإنتاج عنده مجزياً على الإطلاق . ويتضاءل الاستهلاك كلما حلت الآلات محل العمال ، ويعجز عدد العاملين عن أن يتمشى مع الإنتاج . وتعقب هذا حوادث الإفلاس ، ونلقى تهافتاً على إغراق السوق بالبضائع ، وفى هذه العملية تتهاوى الشركات الأصغر شأناً . لقد حلت أزمة رأسمالية .

ولكنها لا تدوم إلى الأبد . فإذ يطرد العمال فإنهم يضطرون إلى قبول أجور دون قيمة عملهم . وإذ تغرق السوق بالآلات فإن فى وسع الرأسماليين الأعظم قوة أن يحصلوا على الآلات بأقل من قيمتها الحقيقية . وبعد وقت تعود القيمة الفائضة إلى الظهور . ويبدأ مرة ثانية السير إلى الأمام ، ولكنه يؤدى إلى نفس النهاية الخطيرة : منافسة على العمال ، أجور أعلى ، آلات تشغل مكان العمل ، وقاعدة أصغر تنشأ عنها القيمة الفائضة ، ومنافسة أكثر جنوناً ، وانهيار . وكل انهيار أسوأ من سابقه . وفى فترات الأزمة تستحوذ الشركات الكبيرة على ما هو أصغر منها ، وحين يتحطم مردة الصناعة فى نهاية الأمر يصبح الحطام أكبر بكثير منه حين تهوى المشروعات الصغيرة .

ويوما ما تنتهى المسرحية . والصورة التى يرسمها ماركس لهذه النهاية يتمثل فيها كل ما ينطوى عليه وصف يوم الآخرة من بلاغة فيقول : « فإلى جانب اطراد النقص فى عدد أساطين رأس المال الذى يغتصبون ويحتكرون جميع مزايا عملية التحول هذه ، يزداد مبلغ الشقاء والظلم والاستعباد ، والانحطاط والاستغلال ، ولكن تنمو إلى جانب هذا أيضاً ثورة الطبقة العاملة ، وهى طبقة يزيد عددها دائماً ، وعمل على ضبطها وتوحيدها وتنظيمها نفس جهاز عملية الإنتاج الرأسمالى ذاتها . . وأخيراً يصل تركز وسائل الإنتاج والطابع الإجتماعى العام الذى يتخذه العمل إلى نقطة يستحيل عليهما عندها أن يتواءما مع غشائهما الرأسمالى . وينفجر هذا الغشاء ، ويدق الناقوس مؤذناً بنهاية الملكية الخاصة بالرأسمالية — فتسلب الملكية ممن سبق لهم اغتصابها » .

وهكذا تنتهى المسرحية بالسقوط المحتوم الذى سبق أن استشفه ماركس من الأسلوب الديالكتى فى التحليل . فالنظام — النظام الخالص البحت يتحطم وهو يفرض على نفسه التقليل من مصدر طاقته ونشاطه : أى القيمة الفائضة . وهذا الانهيار يعجل به اطراد عدم الاستقرار وهو الأمر الناشىء من اقتصاد يسير أصلا بطبيعته على غير خطة وبالرغم من وجود قوى تعمل من أجل إبعاد هذه النهاية والتعجيل بها فى الوقت نفسه ؛ فإن صراع الموت لا مفر منه . وإذا كان النظام الخالص لا يصلح فأى أمل يمكن أن يكون هناك للنظام الحقيقى بكل نقائصه واحتكاراته وأساليبه القاتلة فى المنافسة وسعيه الطائش وراء الربح ؟

عند آدم سميث يأخذ السلم الآلى الرأسمالى فى الارتفاع باستمرار على الأقل إلى النقطة التى يمكن للعين المجردة أن تراها بشكل معقول . وهذه الحركة الصاعدة فى رأى ريكاردو يوقفها فى النهاية الضغط من جانب السكان على أرض زراعية غير كافية . وهو ضغط يوقف التقدم ويجلب لمالك الأرض حظاً غير منتظر .

والصورة عند مل أبعث على الاطمئنان بسبب ما اكتشفه من أن فى وسع المجتمع أن يوزع منتجاته على النحو الذى يراه مناسباً بغض النظر عما يبدو أن « القوانين الاقتصادية » تمليه . ولكن ماركس لا يؤيد حتى مثل هذه الوسيلة التى يمكن أن يكون فيها الإنقاذ ؛ إذ علمه المنطق الديالكتى أن الدولة ليست سوى جهاز الحكم السياسى الذى يستخدمه الحكام الاقتصاديون : وأن الفكرة التى ترى أن الدولة يمكن أن تتصرف كهيئة محايدة وقوة ثالثة غير متحيزة تحفظ التوازن بين أعضائها ذوى المصالح المتعارضة — نقول أن هذه الفكرة لم تبد فى نظر الرجل أكثر من مجرد تفكير يقوم على التمنى . كلا ، ليس ثمة مهرب من المنطق الباطنى وهو التطور الجامد الصلب لنظام لن يقضى على نفسه فحسب بل ويخلق خلال عملية التحطيم هذه : النظام الذى يخلفه .

أما شكل ذلك الخلف فلم يحدثنا عنه ماركس إلا قليلا . سوف يكون

« لاطبقياً » بطبيعة الحال — ويقصد ماركس بهذا أن الأساس الذى يقوم عليه التقسيم الاقتصادى لمجتمع يستند إلى الملكية ، سوف يزول بمجرد أن يمتلك المجتمع جميع وسائل إنتاج السلع . أما كيف « يمتلك » المجتمع مصانعه ، وما المقصود بكلمة « المجتمع » وهل يكون هناك أو يمكن أن يكون عداء مرير بين المديرين والذين يدار أمرهم ، وبين الزعماء السياسيين والجماهير — كل هذه الأمور لم يعينها أو يحددها ماركس . وخلال الفترة الانتقالية من « الاشتراكية » تقوم « دكتاتورية البروليتاريا » ثم تعقبها الشيوعية الخالصة نفسهـــا . . .

يجب ألا ننسى أن ماركس لم يكن المهندس الذى أقام بناء الشيوعية إذ سوف يقع عبء النهوض بهذه المهمة على عاتق خلفه لينين . إن « رأس المال » هو كتاب النهاية بالنسبة إلى الرأسمالية ونكاد لا نجد فى كل ما كتب ماركس شيئاً يتطلع إلى ما وراء يوم الحساب ليبين لنا معالم الجنة المنتظرة .

ما الذى نستخلصه من حجته العجيبة ؟

هناك سبيل سهل للتخلص من الأمر كله . على القارىء أن يتذكر أن النظام قائم على القيمة — قيمة العمل — وأن سر موته يكمن فى تلك الظاهرة الخاصة التى يقال لها القيمة الفائضة . ولكن العالم الحقيقى لا يتكون من « قيم » وإنما يتكون من أثمان حقيقية ملموسة . فعلى ماركس أن يبين أن عالم الدولارات والسنتات يعكس ، بصور تقريبية نوعاً ، العالم المجرد الذى خلفه ولكن إذ يقوم بهذا الانتقال من عالم قيمة إلى عالم ثمن فإنه يقع فى أفظع ورطة من ورطات العلوم الرياضية . الحقيقة أنه يرتكب خطأ .

والخطأ ليس مما لا يمكن تصحيحه ، وإذ نشتبك فى ورطة أسوأ نستطيع أن نبرزه « مباشرة » بالمعادلات الماركسية — أى نستطيع أن نوضح وجود تطابق بين الأثمان التى تتحقق فعلا فى الحياة وبين ما يكمن تحتها من القيم معبراً عنها بوقت العمل . ولكن النقاد الذين بينوا الخطأ لم يكادوا يبدون اهتماماً

بتصحيح الفكرة ، واعتبر الحكم الذى أصدروه بأن ماركس كان « مخطئاً » حكماً نهائياً . وحين تم أخيراً تبرير المعادلات لم يبد أحدٌ اهتماماً كثيراً . فالهراء الماركسى ، بغض النظر عن مظهره الرياضى البحت ، هو فى أفضل حالاته إطار مربك وصعب وأسلوب شاق فى غير ما ضرورة للوصول إلى الفهم المطلوب بشأن الطريقة التى تعمل بها الرأسمالية .

ولكن بينما قد نشعر بالإغراء الذى يحملنا على أن نلقى بالتحليل كله جانباً لأنه عقيم ويفتقر إلى المرونة إلا أننا إذ نفعل هذا إنما نتغاضى عما ينطوى عليه من قيم . فماركس فى نهاية الأمر لم يجرد الرأسمالية بحيث يعرض لنا أصولها الجوهرية العادية لمجرد إشباع ميله إلى البحث المجرد ، ولكنه فعل ذلك لأنه كان يعتقد أن فى البساطة التى يتصف بها عالم نظرى يمكن أن يكشف فى وضوح الجهاز الذى يحرك العالم الحقيقى ، ولأنه كان يأمل فى أن نفس صلابة العالم النموذجى الذى صوره سوف تلقى الضوء الشديد على الميول الخافية فى الحياة الحقيقية .

وهذا ما حدث . فبالرغم من كل الاضطراب الذى يتسم به النموذج الذى خلفه ماركس للعالم الرأسمالى ، بدا أن هذا النموذج حقق الغرض منه وأظهر أن له نوعاً من حياة خاصة به . فعلى أساس الفروض التى أوردها، مثل اخراج الشخصيات ودوافعها والوسط الذى تعيش فيه — فإن الموقف الذى عرضه هذا النموذج تغير وتغير بطريقة كان يمكن التنبؤ بها ، ودقيقة وحتمية . ولقد رأينا هذه التغييرات وهى كيف هبطت الأرباح ، وكيف سعى الرأسماليون إلى استخدام آلات جديدة ، وكيف أن كل رواج انتهى بانهيار ، وكيف أسفر كل تدهور عن ابتلاع مشروعات الأعمال الصغيرة بواسطة ما هو أكبر منها . ولكن هذا كله ظل داخل إطار عالم تجريدى . وبعد ذلك إذا بماركس يتناول الكشوف التى وصل إليها على الورق ويطبقها على العالم الحقيقى الذى حوله — وقال إن عالم الرأسمالية الفعلى يجب أيضاً أن يبدى هذه الاتجاهات .

استثنائية إلا أن العلاقة صحيحة بوجه عام بين القدرة الخلاقة فى الصناعة وبين إمكانية تحقيق الأرباح .

وأظهر النموذج إتجاهين آخرين فى الرأسمالية ، حدثا كذلك . فلا نكاد نشعر بالحاجة إلى الرجوع إلى الوثائق كى نستدل على وجود الدورات الاقتصادية خلال السنوات التسعين الماضية ، ولا على ظهور مشروعات الأعمال العملاقة ، ولكن نستطيع أن نبدى ملاحظة على الجرأة التى تتسم بها نبوءة ماركس . حين ظهر كتاب « رأس المال » كان كبر حجم المشروعات هو الاستثناء أكثر منه القاعدة ، وكان المشروع الصغير ما يزال يسيطر على الموقف . فالادعاء بأن شركات ضخمة سوف تسود ميدان الأعمال كان نبوءة تدعو إلى الدهشة فى عام ١٨٦٧ كما لو قلنا اليوم إنه بعد انقضاء خمسين عاماً سوف تصبح أمريكا بلداً تحل فيه الملكيات الصغيرة محل الشركات العملاقة .

كانت هذه النبوءة ، مع أخذ جميع الأشياء فى الاعتبار ، مظهراً غير عادى لبعد النظر . وعلى القارىء أن يلاحظ أن جميع هذه التغيرات على ضخامتها وبما كانت تنطوى عليه من النذر الخطيرة ، لم يكن فى الإمكان الكشف عنها بمجرد فحص العالم كما بدا فى نظر ماركس لأنها تغيرات تاريخية بطيئة فى ظهورها وتمتد عبر الزمن ، وهى تغيرات حقيقية ولكنها ليست موضع الملاحظة ، شأنها فى هذا شأن نمو الشجرة . فلم يكن فى الإمكان إدراك اتجاه المستقبل إلا بتحويل النظام الاقتصادى إلى عالم صغير ثم ملاحظة ذلك العالم فى فترة حياته الآخذة فى الانتهاء بسرعة .

لم يكن هذا صحيحاً بطبيعة الحال . لقد ظن ماركس أن الأرباح لن تقف عند حد الانخفاض فى داخل الدورة الإقتصادية ، وهو ما يحدث بالفعل ، ولكنها سوف تتجه إلى الانخفاض فى الأجل الطويل ، وهو ما لم يحدث على ما يظهر ، ولم يتوقف ماركس ليفكر فى أن الجزئيات الاقتصادية التى يتلاعب

بها لها مشاعرها وإرادتها وضمائرها التى يمكن أيضاً أن تتغير وبذلك لن تتصرف بنفس الدقة التى لا تتغير والتى يمكن أن نتنبأ بها بصدد الجزئيات التى نراقبها من خلال مجهر الكيميائى . ولكن بالرغم من كل نقائصه وهو أبعد من أن يكون معصوماً عن الخطأ على ما سوف نرى — فإن النموذج الذى صنعه ليبين سير الرأسمالية ، كان يتضمن نبوءة بشكل خارق للعادة .

ولكن كل ما تنبأ به ماركس كان حتى الآن غير ضار . ولكن بقيت نبوءة النموذج النهائية ، إذ أن «رأسمالية» ماركس «الخالصة» تداعت فى النهاية على ما يذكر القارىء .

ولنقل منذ البداية أن هذه النبوءة أيضاً لا يمكن أن ننحيها جانباً بخفة وبساطة . ففى روسيا وشرق أوربا اختفت الرأسمالية ، ونبذت بصورة جزئية فى اسكنديناوة وبريطانيا ، وتحولت فى ألمانيا وإيطاليا إلى فاشية ثم خرجت من الأتون وصحتها دون الكمال . والحق ، نكاد نجد الرأسمالية فى كل مكان عدا الولايات المتحدة تلتزم موقف الدفاع ، وبينما أسهمت بنصيب فى هذه الحروب والقوة السياسية الغاشمة وما قضت به الأقدار والجهود المليئة بالعزم التى بذلها الثوريون ، فإن الحقيقة البشعة هى أن موت الرأسمالية كان راجعاً إلى حد كبير إلى نفس السبب الذى تنبأ به ماركس ، أى أنها تحطمت .

ولماذا تحطمت ؟ يرجع بعض السبب إلى ما أظهرته من اضطراب قال ماركس إنه سوف يقع . فتعاقب الدورات الاقتصادية ، بالإضافة إلى وباء من الحروب ، حطم إيمان الطبقات الدنيا والوسطى فى النظام . ولكن ليس هذا بالسبب كله ، فقد كانت لدينا حروبنا وأزماتنا ، ومع ذلك فالرأسمالية عندنا حية إلى درجة عالية جداً . إن شيئاً خلاف هذا يمثل الفرق بين البقاء والفناء ، فالرأسمالية الأوربية لم تخفق لأسباب اقتصادية بقدر ما أخفقت لأسباب اجتماعية .

وهذا ما تنبأ به ماركس أيضاً .

لأنه أدرك أن الصعاب الإقتصادية التي يواجهها النظام ليست مما يستحيل التغلب عليه . فبالرغم من أن التشريعات التي تمنع قيام الاحتكارات ، والسياسات التي تتبع لمكافحة الدورات الاقتصادية لم تكن معروفة في أيام ماركس ، فإن هذه الإجراءات لم تكن مما يصعب تصوره . لم يكن هناك شيء محتوم في المعنى المادي بصدد ما توقعه ماركس . إن النبوءة الماركسية عن الإنحلال كانت تستند إلى نظرية عن الرأسمالية ، وهي نظرية كان يستحيل فيها من وجهة النظر الإجتماعية ، ومن النواحي الفكرية والأيديولوجية بل والعاطفية ، أن تصحح الحكومة الأخطاء . إن علاج أمراض الرأسمالية يتطلب أن ترتفع الحكومة فوق مصالح طبقة واحدة – وهذا يفترض ، كما أظهر مذهب ماركس في المادية التاريخية ، أن في وسع الناس أن يحرروا أنفسهم من أغلال مصلحتهم الاقتصادية العاجلة .

هذا الإفتقار إلى المرونة الاجتماعية ، وهذه العبودية لمصلحة قصيرة النظر هما اللذان أضعفا الرأسمالية الأوربية . إن الذي يطالع مؤلفات ماركس ليستشعر الخوف حين يرتد ببصره إلى الوراء ليشهد ذلك التصميم البشع الذي سارت فيه شعوب كثيرة وفي ثبات في نفس الطريق الذي أصر ماركس على أنه يؤدي إلى هلاكها ، وكأن حكوماتها كانت تثبت عن غير وعي منها نبوءة ماركس ، بإقدامها في عناد على عمل ما توقعه منها ، فحين سحقت الحركة النقابية الديموقراطية بقسوة في روسيا القيصرية ، وحين كانت الاحتكارات في انجلترا وألمانيا تلقى التشجيع الرسمي بدا الديالكتيك الماركسي بعيد النظر ، بصورة تبعث على الأسى . وحتى في يومنا هذا حين يتمعن المرء كيف لا تزال الحكومات الرأسمالية في فرنسا أو إيطاليا أو اليونان غير قادرة على جباية الضرائب التي فرضتها على مشروعات الأعمال ، وحين يمعن النظر في الهوة التي تفصل بين الأغنياء والفقراء ويرى الدليل على عدم اكتراث الأولين بالأخيرين ، فإن شعوراً مقلقاً يساوره من أن النماذج السيكولوجية

التى ضمنها ماركس مسرحيته التاريخية كانت كلها مستمدة حقاً من واقع الحيـــاة .

وهذه الحقائق ذاتها هى التى تكشف سر بقاء الرأسمالية على قيد الحياة فى الولايات المتحدة . كان لنا نصيبنا من الرجعيين والثوريين ويشتمل تاريخ الولايات المتحدة الاقتصادى على الكثير من مظاهر الاستغلال والقبح . وبالرغم من هذا تطورت الرأسمالية ونمت فى أرض لم تمسها تلك اليد الميتة لسلالة أرستقراطية ، ولم تمسها تقاليد واتجاهات طبقة قديمة العهد . ومن هنا واجهنا المشكلات الاقتصادية فى الرأسمالية باتجاهات اجتماعية إنبثقت من ميراث أقل تصلباً : إتجاهات من التجربة والتكيف ، واحتقار سليم للقوة التى تتجاوز الحد السليم سواء أكانت عامة أم خاصة ، ومرونة اجتماعية حالت دون نشوء صروح طبقية سهلة الكسر . متعصبة .

فى هذه الاتجاهات يكمن الرد على التحليل الماركسى . إن ماركس لم « يخطىء » فى نبوءاته الاقتصادية بقدر ما أخطأ حين افترض أن تصوراته السيكولوجية والاجتماعية ثابتة لا تتغير . وإن قوانين الحركة التى أظهرها النموذج الذى صنعه للرأسمالية ربما لا يزال فى الإمكان أن نراها فى الرأسمالية الأمريكية — وهى موجودة حقاً — ولكن تواجهها طائفة من ضروب العلاج تنبع من اتجاهات سياسية واجتماعية لم يكن فى وسعه أن يتصورها .

وبعض أنواع العلاج هذه ناشىء عن اتجاهات وقيم جديدة من جانب عالم الأعمال نفسه . ولكن أهم الأنواع يأتى من مصدر مختلف ونقصد به الحكومة . كان ماركس ، على ما رأينا ، ينظر إلى الحكومة على أنها حتماً أداة فى يد الطبقة الرأسمالية كما كانت البروليتاريا حتماً ثمرة الحياة بالمصنع . وكن ثمة سبب يدعو إلى هذه الأفكار فى الجو القاتم الذى ساد إنجلترا فى الستينات من القرن الماضى ، وهنا ينبغى ألا ننسى أن العالم الذى عرفه ماركس كان من الناحيتين الإقتصادية والسياسية عالماً قاسياً ، خلا من العاطفة ، وعالماً نظرياً . فهو لم يطرح عنه غشاءه القاسد أبداً فى جزء كبير من أوربا — وكانت

النتيجة كارثة بالنسبة إلى الرأسمالية الأوربية . أما فى العالم الجديد فقد ظهرت إتجاهات جديدة مثل فكرة الديموقراطية ، وفكرة الحكومة المحايدة التى توفق بين المصالح المتعارضة ، وفكرة الصراع الطبقى بغير حرب طبقية . إن حكومتنا غالباً ما اصطبغت بمصلحة طبقية ولكن ذلك لم يصل إلى حد القضاء على الذات . كل هذا كان يبدو خيالا قائماً على التمنى فى نظر ماركس .

الواقع أن الرأسمالية كانت قادرة على أن تنمو فى اتجاهات كثيرة . ولكن المأساة بالنسبة إلى جزء كبير من العالم — وإلى العالم الشيوعى كله — أن النماذج البالية التى استخدمها ماركس تبعث الحركة فى مسرحيته ، كصاحب المصنع الجشع فى منشستر والنظم التى كانت تسعى بصورة عمياء وراء مصلحتها الذاتية وهى النظم القائمة فى عام ١٨٤٨ ، لا تزال تؤخذ على أنها صورة حقيقية للرأسمالية فى كل مكان .

ولكن إذا جردنا التحليل الماركسى من كل ذلك الضجيج عن المصير المحتوم ، فإننا لا نستطيع أن نغض النظر عنه ، إذ ما يزال أهم وأدق فحص تعرض له النظام الرأسمالى . وهو ليس بفحص يجرى وفق خطوط أخلاقية تهز فيه الرؤوس وتطلق الألسنة بسبب مظالم ناشئة من دافع الربح — فهذا الأسلوب هو ما يستخدمه الثورى الماركسى وليس الاقتصادى الماركسى . فبالرغم من كل ما يتصف به من حماس وانفعال فإنه تقييم لا دخل فيه للعاطفة ، ولهذا السبب يجب النظر فى رزانة إلى الكشوف القائمة التى أزاح الستار عنها .

ولنعيد عبارة سبق أن قلناها . لقد شغل العالم نفسه بكارل ماركس الثورى وبالماركسية كقوة متعصبة لاستعباد الرأى الحر . ومن المؤكد أن هذه هى المعركة العاجلة . ومع هذا فعلى الرأسمالية فى نهاية الأمر ألا تدخل فى صراع مع ماركس الثورى . حين يفخر خروشيف بأن الشيوعية سوف « تدفن » الرأسمالية فإن الذى يحمله على هذا اليقين هو النظرية الاقتصادية وليس القوة العسكرية . إن الشخص الذى يجب إثبات خطأه فى النهاية هو ماركس

الاقتصادى ، ماركس العالم المتاكف الذى أرهق نفسه ساعياً إلى أن يثبت عن طريق خضم التجربة السطحى ، أن جوهر الرأسمالية هو القضاء على النفس.. إن الرد على ماركس لا يكمن فى بيان مظالم الشيوعية ، بقدر ما يكمن فى أن يظهر أن فى وسع الرأسمالية فى ظل جو اجتماعى لم يحلم به ماركس أبداً أن تواصل التطور وأن تكيف أنظمتها لمطالب العدل الاجتماعى الذى لا يمكن إشباعها أبداً .

الفصل السابع

العالم الفكتوري
والجماعات السرية من رجال الاقتصاد

فى عام ١٨٦٧ نطق ماركس بحكم الإعدام على الرأسمالية ، وأسفر تشخيص النظام عن كونه ضحية مرض لا يمكن شفاؤه ، وبالرغم من عدم تحديد جدول زمنى فقد كان المفروض أنه أوشك على حشرجة الموت الأخيرة بحيث ليس على خلفائه — أى الشيوعيين — إلا أن ينصتوا فى شغف إلى الشهقة الأخيرة التى تعلن أنهم ورثوا السلطة والقوة . وحتى قبل ظهور كتاب « رأس المال » كانت مراقبة موت النظام قد بدأت ، ومع كل نوبة من حمى المضاربة أو كل ركود جديد فى الصناعة ، كان الذين يأملون موته يقتربون من فراش الميت ، محدثين بعضهم بعضاً أن لحظة الثورة النهائية أوشكت أن تحل .

ولكن النظام لم يمت ، بل وعلى النقيض من ذلك بدا أنه يشفى من كل نوبة ضعف وقد تجددت قوته ، ويخرج من كل أزمة وقد امتلأ حيوية تبعث الحزن فى نفوس النقاد . حقيقة أثبت سير الأحداث صحة الكثير من القوانين الماركسية عن الحركة ، إلى حد كبير ، إذ فعلا زاد حجم المشروعات الكبيرة ، وكانت حالات الكساد المتكررة والبطالة تزعج المجتمع . ولكن إلى جانب هذه المظاهر التى تثبت صحة النذير بالمصير ، لفت النظر انتفاء أحد الأعراض التى أشار إليها ماركس ، وهو عرض كان على درجة عالية من الأهمية وينطوى على نذير خطير : ذلك هو ازدياد شقاء البروليتاريا .

كان ماركس يعتقد أنه سوف يترتب على النضال الذى يزداد صعوبة والذى يشتبك فيه النظام أن تسحق الطبقات العاملة تحت الأقدام فى غير رحمة . وأنه حين تدنو سكرات الموت التى تعانيها الرأسمالية تنفجر المشاعر الثورية فى نفوس هذه الطبقات ، وهكذا يقضى نوع من العدل القاسى أن تخلق مظالم الرأسمالية الجلاد الذى يضع حداً لحياتها .

وذلك ما لم يحدث . بل على العكس جاء فى تقرير أعدته لجنة بريطانية عن الكساد ، شكلت لبحث الركود الذى وقع فى عام ١٨٨٦ ، أنه « .. ليس فى الموقف الذى دعينا لبحثه . من مظهر يدعو إلى الرضاء مثل التحسن الهائل الذى طرأ على حالة الطبقة العاملة » . ولم يكن هذا مجرد أسلوب عطف من جانب المدافعين عن الطبقات ، إذ كانت الأحوال أفضل . وأفضل بدرجة هائلة . فطبقاً لتقديرات أرنولد توينبى ، كان أجر العامل العادى فى عام ١٨٤٠ يصل إلى ثمانية شلنات فى الأسبوع بينما ما تتطلبه أسرته من ضروريات الحياة كافة يكلفه أربعة عشر شلناً ، وكان يعوض الفرق بالاستجداء . والسرقة ، وتشغيل أطفاله بالمصانع ، أو بشد الأحزمة حول البطون . ولكن فى عام ١٨٧٥ ، وبالرغم من ارتفاع تكلفة الضروريات إلى خمسة عشر شلناً وأكثر من هذا قليلا ، كاد أجره أن يتعادل معها . فلأول مرة كان يكسب من المال القدر الذى يمكنه من البقاء — وهو أمر محزن نلاحظه عن الماضى ، ولكنه بالتأكيد يبشر بالأمل بالنسبة إلى المستقبل .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد من ارتفاع الأجور ، بل تناقص مصدر القيمة الفائضة نفسه إذ كانت ساعات العمل أقصر بكثير عما كانت عليه من قبل . ففى أحواض السفن بجارو ومصانع الكيماويات بنيو كاسل نقص أسبوع العمل من إحدى وستين إلى أربع وخمسين ساعة ، وحتى فى مصانع النسيج المعروفة بظروف العمل المرهقة فيها انخفض أسبوع العمل إلى سبع وخمسين ساعة فقط . والحق ، أن أصحاب المصانع شكوا من أن تكاليف الأجور ارتفعت بنسبة تزيد على عشرين فى المائة . ولكن بينما كان التقدم غالباً إلا أن

المكاسب الناجمة منه لم تكن مما تدركه الحواس . ذلك أنه كلما تحسنت الأحوال إختفت نغمات التذمر التي كانت سائدة في عام ١٨٤٨ . وشهد أحد رجال الصناعة في ستافورد شير عن موقف عماله فقال: « لا تستطيع أن تحملهم على الحديث في السياسة طالما تحسن استخدامهم » .

وحتى ماركس وإنجلز اضطرا إلى إدراك الاتجاه : ففي خطاب بعث به إنجلز إلى ماركس كتب يقول نادباً « إن البروليتاريا الإنجليزية تزداد بورجوازية أكثر فأكثر ، بحيث يبدو ظاهراً أن هذا الشعب الذي يعتبر أكثر الشعوب بورجوازية ، يهدف في النهاية إلى أن تكون به أرستقراطية بورجوازية وبروليتاريا بورجوازية فضلا عن البورجوازية » .

الواضح أن ماركس استبق الأحداث حين أعلن اقتراب المصير . كان ذلك التحول غير المتوقع في سير الأحداث مما يستطيع المؤمنون أن يتجاوزوا عنه وهم مطمئنون إلى إدراكهم بأن كلمة « محتوم » ما زالت تحمل نفس المعنى وأن مسألة جيل أو اثنين غير ذات أهمية كبيرة في عملية الزحف العظيمة التي يقوم بها التاريخ . ولكن الرواج العظيم الذي حدث في عهد الملكة فكتوريا كان ينطوي على معنى آخر في نظر الذين يراقبون الموقف : من غير الماركسيين . بدا العالم من جديد مليئاً بالآمال والوعود . وبدت النذر التي أطلقها شخص خارج عن المجموع مثل كارل ماركس مجرد هذيان رجل راديكالي تملكه الضجر والاستياء . ومن هنا انطلقت في صمت كاد أن يكون تاماً ، القنبلة الفكرية الكبيرة التي أعدها ماركس . وبدلا من عاصفة السخط التي كان يتوقعها لقي عاراً أشد سحقاً ، ذلك هو عدم الاكتراث .

والسبب أن علم الاقتصاد لم يعد عبارة عن توليد أفكار عن العالم ، بدت في أيدي فيلسوف هو سمسار بورصة تارة وشخص ثوري تارة أخرى ، كأنها تنير الطريق كله الذي كان المجتمع يسير فيه . لقد أصبح بدلا من ذلك ميداناً خاصاً لأساتذة كانت المسائل التي يكشفون عنها إشعاعات

رفيعة أكثر منها تلك المنارات التي تنير مسافات بعيدة والتي كان الاقتصاديون الأوائل يوجهونها لتبدد الضباب المخيم على البحار التي أمامهم .

وكان ثمة سبب وراء هذا . إن إنجلترا في العصر الفكتوري على ما رأينا ، مدت نطاق نشاطها وراحت تستغل ما حدث في أواخر القرن التاسع عشر من تقدم وتفاؤل . كان التحسن ظاهراً للعيان ومن الطبيعي تماماً لم يبد ثمة ما يدعو إلى توجيه أسئلة مزعجة عن طبيعة الرحلة ، أو مناقشة التفصيلات التي تتصل بأفضل طريقة لنشر القلوع . ومن هنا أدى الرواج الفكتوري إلى قيام طائفة من المفسرين ، أي رجال يفحصون بأعظم تفصيل ، الأساليب التي يعمل بها النظام ، ولكنهم لا يوجهون أسئلة حول مزاياه الأساسية أو يلقون الشكوك المزعجة على مصيره في النهاية . في ميدان الأستاذية الجديد هذا نجد طائفة بأسرها من الاقتصاديين أمثال ألفرد مارشال وستانلي جيفونز وجون بيتس كلارك وليون ولراس وتوسيج ومنجر — يضطلعون بالجانب الرئيسي من التفكير الاقتصادي . وغالباً ما كانت مساهماتهم لها أهميتها ، ولكنها لم تكن حيوية ، ولعل السبب في هذا أنه لم يعد في عالم النظرية الإقتصادية ذئاب يخشى منها وإنما هناك نعاج مطيعة وإن كانت من خلق الخيال .

ولكن النعاج لم تصور أبداً بأوضح مما صورها به مجلد صغير عنوانه : «علم النفس الرياضي» ، وظهر في عام ١٨٨١ أي قبل موت ماركس بعامين . ولم يكن الكاتب أعظم العلماء الأكاديميين ولكن لعله أشدهم إيضاحاً ، ذلك هو الأستاذ الخجول فرنسيس ايزيدو ادجورث ، ابن أخ ماريا ادجورث التي كانت تتلهى مع ريكاردو بلعبة الألغاز .

كان ادجورث طالب علم ممتاز بالنباهة . فحين تقدم إلى الامتحان النهائي بجامعة أكسفورد وجه إليه سؤال عويص بشكل خاص فما كان منه إلا أن سأل ممتحنيه «هل أجيب بإيجاز أم بإسهاب ؟» ، ثم راح يتحدث لمدة نصف ساعة ويستشهد بالمراجع اليونانية ونظرية حساب التفاضل بينما فغر الممتحنون أفواههم من الدهشة .

ولكن ادجورث لم يفتتن بعلم الاقتصاد لأنه كان يبرر العالم أو يوضحه أو يستنكره ، أو لأنه يفتح آفاقاً نيرة أو قاتمة تشير إلى المستقبل . لقد افتتنت هذه النفس الغريبة لأن علم الإقتصاد كان يبحث فى المقادير ، ولأن كل شىء يعالج المقادير يمكن تحويله إلى الرياضيات وعملية التحويل كانت تتطلب نبذ ذلك العالم الملىء بالتوتر والذى تحدث عنه الإقتصاديون الأوائل ، ولكن خلقت مقابل هذا عالماً يتصف بالإحكام الدقيق والدقة البديعة بحيث بدا أن الخسارة قد عوضت إلى حد كبير .

ولعمل مثل هذه المرآة الرياضية التى تعكس الحقيقة كان واضحاً ألاّ بُدَّ من تبسيط العالم ، وكان التبسيط الذى ابتدعه ادجورث يتمثل فى هذا الفرض : كل إنسان آلة تصنع اللذة . لقد سبق لجيرمى بنتام أن ابتكر الفكرة فى أوائل القرن التاسع عشر وأطلق عليها ذلك الإسم الخداع وهو « حساب السعادة » . وهو نظرة فلسفية ترى البشرية مكونة من عدد كثير من آلات حية لحساب الربح والخسارة ، وكل فرد من البشر مشغول بترتيب حياته بحيث تحقق الآلة الحاسبة التى فى داخلية نفسه الحد الأقصى من اللذة . إلى هذه الفلسفة العامة أضاف إدجورث الدقة التى يتصف بها علم الرياضة كى يخلق نوعاً من الجنة الاقتصادية .

ويبدو أن إدجورث كان أبعد الناس من حيث احتمال اتخاذه مثل هذه النظرة إلى الجنس البشرى إذ كان أسوأ آلة لذة من حيث الصنعة ، يمكن تصورها . فإذ كان خجولا بصورة تنم عن معاناته من مرض عصبى ، فقد كان يميل إلى الهروب من مباهج صحبة الناس إلى الانزواء فى ناديه الذى كان المفروض فيه أنه أقل توفيراً للمتعة ، وإذ كان يشعر بالتعاسة بصدد عبء الأمور المادية فإنه لم يحظ إلا بالقليل من المباهج التى تنبع بالنسبة إلى معظم الناس من الأشياء التى يمتلكونها . كانت حجرات بيته عارية ، وكانت مكتبته هى المكتبات العامة وليست الكتب التى يملكها ، وكانت ثروته المادية لا تتضمن

الأوانى الخزفية أو أدوات الكتابة أو حتى طوابع البريد . وربما كان يلقى مصدر اللذة فى إنشاء جنته الاقتصادية الخيالية .

ولكن بغض النظر عن دوافع ادجورث فالفرض الذى طلع به عن الآلة التى تصنع اللذة كانت له ثمرة فكرية مذهشة ، لأنه إذا كنا نعرّف علم الاقتصاد بأنه دراسة أجهزة بشرية تسعى إلى اللذة تتنافس فيما بينها للحصول على أنصبة من مخزون اللذة التى يملكها المجتمع ، فإذن يمكن أن نبين – بكل دقة الحساب التفاضلى التى لا يمكن تفنيدها – أنه فى عالم تسوده المنافسة الكاملة فإن كل آلة سوف تحقق أكبر قدر من اللذة التى يمكن أن يوفرها المجتمع .

وبعبارة أخرى فإن هذا أفضل العوالم الممكنة ، أو التى يمكن أن توجد إذا شئنا الدقة فى التعبير . ولسوء الحظ لم يُنَظَّم العالم على أنه مباراة فى منافسة كاملة . إذ بالناس تلك العادة المحزنة التى تدفعهم إلى التعاون غير آبهين فى حماقة بالنتائج الطيبة التى تنجم لو جروا فى عناد وصلابة وراء مصلحتهم الذاتية . فنقابات العمال مثلا كانت تتعارض مباشرة مع المبادىء التى تحث كل امرىء على الاهتمام بنفسه . كما أن تلك الحقيقة التى لا سبيل إلى إنكارها بشأن نواحى التفاوت فى الثروة والمركز تجعل مركز الابتداء فى المباراة أقل من أن يكون محايداً بصورة مطلقة .

ولكن ادجورث يقول إن هذا كله ليس بذى بال . لأن الطبيعة تكفلت بهذا الأمر أيضاً . فبينما قد تكسب نقابات العمال فى الأجل القصير نتيجة الاتحاد والارتباط فإن فى الإمكان أن نبين أنه لا بد لها أن تخسر فى الأجل الطويل – فهى ليست سوى نقص يدعو إلى الأسف فى التنظيم المثالى للأشياء . وإذا بدا فى أول الأمر أن ارتفاع معدل المواليد وتجمع الثروات الكبيرة يهددان النتيجة التى سوف تسفر عنها المباراة الاقتصادية . فإن ذلك أيضاً يمكن التوفيق بينه وبين علم النفس الرياضى ، لأنه إذا كان الناس جميعاً عبارة عن آلات لصنع اللذة فإن بعضهم آلات أفضل . فالرجال مثلا أفضل استعداداً من النساء لإدارة حسابات مصرفهم النفسى ، والمشاعر الرقيقة التى

تميزت بها « أرستقراطية المهارة والموهبة » كانت أكثر استجابة لمباهج الحياة الطيبة من تلك الآلات الجامدة التى تصنع اللذة والتى نلقاها فى نفوس الطبقات العاملة . ومن هنا يستطيع حساب الرياضيات البشرية أن يؤدى وظيفته على النحو المفيد ؛ والحق لقد برر بشكل إيجابى تلك الانقسامات فى الجنس Sex والمركز والتى يراها الإنسان حوله فى العالم الحى .

ولكن علم النفس الرياضى فعل ما هو أكثر من إضفاء مبرر عقلى على تعاليم النزعة المحافظة . لقد كان ادجورث يؤمن فعلا أن نظرته إلى النشاط البشرى ، والتى تستند إلى قواعد علم الجبر ، يمكن أن تسفر عن نتائج تكون ذات عون لنا فى العالم الحقيقى المكون من لحم ودم . وحين كان يعد كتابه دار صراع دام بين ملاك الأراضى والفلاحين الأيرلنديين وبحث ادجورث المسألة فى فصل عنوانه « الأزمة الحالية فى أيرلندة » . وتضمن التحليل الذى قدمه أمثال هذه الصيغ الرياضية :

$$\frac{d_2y}{dx^2} = \frac{\left(\frac{d\pi}{dx}\right)^2\left(\frac{d_2\pi}{dy^2}\right) - 2\,\frac{d\pi d\pi}{\partial x\partial y}\left(\frac{\partial_2\pi}{\partial x\partial y}\right) + \left(\frac{\partial\pi}{\partial y}\right)^2\left(\frac{\partial_2\pi}{\partial x^2}\right)}{-\left(\frac{d\pi}{\partial y}\right)^3}$$

وكتب يقول « من السخرية بطبيعة الحال أن نلقى بمثل هذه الإعتبارات المجردة فى ساحة السياسة العملية . ولكن لعلها لا تكون غير ذات موضوع حين نعود من جديد إلى تسلق الربى الصغيرة من العاطفة وإلى تلك الينابيع السرية من الدوافع حيث يجب أن ينبع كل اتجاه فى العمل »

« الربى الصغيرة من العاطفة » ، حقاً ! ماذا كان يرى آدم سميث فى تحول كهذا يطرأ على أولئك الذين تحدث عنهم من تجار متنافسين ومياومين جشعين وطبقات عاملة آخذة فى التكاثر ، بحيث ينقلبون إلى مثل هذا العدد الوفير من طوائف من قوم عاجزين سعيهم متجه إلى اجتناء اللذة ؟ والحق ، لقد أعلن هنرى سدجويك فى غضب وهو من معاصرى ادجورث ومن تلاميذ جون ستيوارت مل ، أنه لا يتناول عشاءه لأنه حسب المللذات التى يحصل

علها من وراء ذلك ، وإنما يأكل لأنه يشعر بالجوع ، ولكن لم يكن ثمة فائدة فى الاعتراض . كانت فلسفة علم النفس الرياضى دقيقة ، وخادعة ، وخالية من عناصر العناد البشرى المزعجة ، ولم تلوثها لحسن الحظ تلك الاعتبارات من كد الناس والصراع الاجتماعى ، وذلك بدرجة حققت لها نجاحاً عاجلا .

ولم يكن ادجورث بالوحيد الذى قام بمثل هذه المحاولة التى تسلب الاقتصاد السياسى محتواه الإنسانى . فحتى فى أثناء حياة ماركس ظهرت مدرسة بأسرها من رجال الاقتصاد الرياضى ، فطلع فى ألمانيا من يقال له فون تونن بصيغة زعم أنها تبين الأجر العادل الدقيق للعمل .

$$\sqrt{a \cdot p}$$

وكان فون تونن مغرماً بتلك الصيغة حتى أنه أوصى بأن تنقش على قبره ، وإن كنا لا نعرف ماذا رأى العمال فيها . وفى فرنسا أثبت إقتصادى ممتاز يعرف باسم ليون ولراس ، أن فى إمكان المرء عن طريق استخدام علم الرياضة ، أن يستنتج الأثمان المضبوطة التى تنظف السوق تماماً مما فيها ، ولكن المفروض بالطبع أنه لو أردنا أن نفعل هذا لتعين أن نضع معادلة لكل سلعة اقتصادية واحدة بالسوق وأن نحل مسألة يصل فيها عدد المعادلات إلى مئات الألوف . ولكن لا أهمية للصعاب ففى الإمكان من الناحية النظرية حل المسألة . وفى جامعة أكسفورد وضع أستاذ يدعى و . ستانلى جيفونز كتاباً دراسياً عن علم الاقتصاد (ومما له مغزى أن الاقتصاد السياسى أصبح يطلق عليه الآن اسم علم الاقتصاد ، وأن نظرياته صارت الآن نصوصاً) . وفى هذا الكتاب رفض المؤلف فكرة الأزمات العامة بوصفها « سخيفة بشكل واضح وتنطوى على تناقض ذاتى » ، وهبط بتنازع البقاء إلى « حساب للذة والألم » . ولقد كتب جيفونز يقول « إن نظريتى فى علم الإقتصاد . . ذات طابع رياضى بحت . » واستبعد من دائرة اهتمامه كل وجه من وجوه الحياة الاقتصادية لا يمكن أن يطبق عليه نظريته الدقيقة القاطعة .

ولم يكن هذا كله سخفاً ، وإن كان الكثير منه كذلك بالتأكيد . فعلم الاقتصاد يخص فى النهاية التصرفات التى تقوم بها مجموعات من الناس ؛ والمجموعات البشرية ، شأنها شأن مجموعات الذرات ، تميل فعلا إلى أن تسير وفقاً لقواعد الإحصاء وقوانين الاحتمال . وأزاحت المدرسة الرياضية الستار عن نقاط ذات أهمية تغاضى عنها الاقتصاديون الأوائل ممن كانوا يركزون أنظارهم على الأفق كله ، ولكن المشكلة مع الرياضيين النفسيين أنهم غالباً ما نسوا أن قواعد السلوك الكامنة وراء معادلاتهم كانت فروضاً لتيسر البحث أكثر منها نشاطاً كان موضع الملاحظة بالفعل . لقد بنوا نوعاً من حديقة الحيوان كانوا يعلمون القردة فيها إذا أعطيت المال ، أن تحسب وتشتغل لحسابها . وبينما كان المراقبون الرسميون مشغولين بالتنبؤ بما سوف يكون عليه سعر الموز ، فإنهم نسوا أن يسألوا عما إذا كانت القردة المدربة فى حديقة الحيوان كانت تتصرف حقيقة على نهج أبناء عمومتها التى تعيش طليقة فى الغابة .

كانت هناك استثناءات بطبيعة الحال . فالإقتصادى الفرنسى ليون ولراس الذى فتنه التحليل الرياضى للأسواق ، لم يقع فى الخطأ المغرى بحيث يعتبر أن فروضه الرياضية هى العالم . فبينما وضع معادلاته — وهى من شدة التعقيد بحيث لا تمكن حلها فى الظروف الواقعية — كان حريصاً على التأكيد بأن هذا كان أداة أى أسلوباً فى البحث وليس توضيحاً للأمور كما كانت فى الواقع أو كما ينبغى أن تكون . والحقيقة أن ولراس كان اشتراكياً زراعياً من الداعين إلى أفكار أكثر راديكالية مما كان يعتنقه زملاؤه الموقرون فى الجزر البريطانية . إن علم الرياضة فى نظره — ونظر الأجيال التالية من الاقتصاديين الذين انتفعوا بعمله — كان سبيلا لفك طلاسم مثل هذه الألفاظ التى يكثر ترديدها والتى يصعب إدراك مغزاها . مثل لفظ « التوازن » ، ولم يكن مجرد مباراة يشترك فيها اللاعبون بسبب ما تعرضه من حواجز فكرية يراد تخطيها .

ولكن ولراس كان استثناء . إذ الغالب أن العالم الرسمى كان يرى البشرية كأنها عدد كثير من الحاسبين منصرفين بصفة دائمة إلى بيان ما يسفر عنه سلوكهم من أصول وخصوم تمثل الكسب والخسارة فى اللذة . أما أن أمثال هذه الدوافع الباهتة كانت كافية لوصف الماضى المضطرب وتفسيره أو حتى الحاضر الهادى فسألة يبدو أنها لم تكن ذات أهمية .

وهكذا ، كصورة تقابل هذا العالم الشاحب اللون من المعادلات ، ازدهر عالم سفلى فى علم الاقتصاد . كان هناك دائماً مثل هذا العالم السرى وهو سجن غريب ضم أفاقين وزنادقة ممن عجزت المذاهب التى طلعوا بها عن أن تحظى بالاحترام . ومن هؤلاء برنارد ماندفيل الذى صدم مشاعر القرن الثامن عشر بعبارة لبقة إذ قال إن الفضيلة رذيلة وإن الرذيلة فضيلة . لقد اقتصر ماندفيل على أن يبين أن الإنفاق الفاجر من جانب الأغنياء المذنبين يهىء العمل للفقراء بينما لا يحدث هذا فى حالة الاستقامة المصحوبة بالبخل والتى يسير عليها الشخص المتمسك بأهداب الفضيلة والذى يحرص على المليم ، ومن هنا قال ماندفيل أن ما نلحظه من افتقار الناس إلى المثل الأخلاقية قد يؤدى إلى ما فيه تحقيق الرفاهية العامة ، بينما قد تكون الاستقامة عبئاً إجتماعياً . كان الدرس الذكى الذى يستخلص من « خرافة النحل » أكثر من أن يهضمه القرن الثامن عشر ، وأصدرت هيئة كبرى من المحلفين فى ميدلسكس قراراً فى عام ١٧٢٣ بتحريم الكتاب لأنه يسىء إلى الآداب العامة وبذلك أودع ماندفيل أحد السجون العمومية .

ولكن بينما استبعد الشواذ والدجالون الأوائل عن الميدان بفضل الآراء التى طلع بها المفكرون الأقوياء من أمثال سميث أو ريكاردو ، فإن هذا العالم السرى أخذ يطالب بالمجندين ولكن لسبب آخر . لم يعد فى عالم الاقتصاد الرسمى مجال للذين أرادوا أن يتخذوا من ذلك السلم الموسيقى الصاخب الذى يصف السلوك الإنسانى منبراً لهم ، ولم يكن فى ذلك العالم الكئيب من الاستقامة الفكتورية سوى القليل من التسامح مع الذين أفسح تحليلهم للمجتمع المجال

لإلقاء الشكوك الأخلاقية أو الذى بدا أنه يشير إلى الحاجة إلى الإصلاح الراديكالى .

وهكذا دبت حياة جديدة فى العالم السرى . لقد توجه ماركس إليه لأن مذهبه كان يبعث على الكدر ، ومليئاً بذلك الضرب من السلوك الذى لا يصلح أبداً فى حديقة حيوان مهذبة . وذهب مالتس هناك لأن فكرته عن « الوفرات العامة » كانت سخافة رياضية ولأن الشكوك التى أبداها بصدد منافع الادخار كانت تتعارض كلياً مع ما أظهره عصر فكتوريا من إعجاب بالاقتصاد فى الإنفاق . وتوجه الخياليون (اليوتوبيون) أيضاً لأنهم كانوا يتحدثون عما كان يعتبر لغواً شريراً وما لم يعتبر « علم اقتصاد » بأى حال من الأحوال . وأخيراً ذهب إلى هناك كل من عجز المذهب الذى دعا إليه عن أن يتفق مع العالم الجاف الأنيق الذى أقامه أساتذة الجامعات فى فصول الدراسة والذى أغرموا بالاعتقاد أنه موجود بالفعل فى خارجها .

كان هذا العالم السرى أكثر إثارة للاهتمام بكثير من العوالم الصافية التى تعلوه . وكان يزخر بشخصيات عجيبة ، وفيه نبت خليط غريب وغزير من الأفكار . كان هناك مثلا رجل كاد أن يصبح منسياً فى غمرة سير الأفكار الاقتصادية ، ذلك هو فردريك باستيا الفرنسى الظريف الذى عاش بين عامى ١٨٠١ ، ١٨٥٠ ، واستطاع فى تلك الفترة القصيرة من الزمن بل وتلك الفترة الأقصر أمداً من حياته الأدبية — التى لم تتجاوز ست سنوات — أن يصوب إلى علم الاقتصاد ، سلاحاً من أشد الأسلحة تدميراً ، وهو سلاح السخرية . وفى هذا يقول لنا : انظروا إلى مستشفى المجانين الذى يقال له العالم . إنه يبذل جهوداً هائلة لحفر نفق تحت جبل من أجل الربط بين بلدين ، ثم ماذا يفعل بعد ذلك ؟ بعد أن يكون قد بذل أشد المشقة من أجل تسهيل تبادل السلع يقيم حرس الجمارك على جانبى الجبل ويجعل انتقال البضائع عبر النفق أصعب ما يكون .

كانت لباستيا الموهبة التى تمكنه من بيان السخافات ، وكتابه الصغير

« المغالطات الاقتصادية » يقرب من الدعابة إلى الحد الذى لم يشهده علم الاقتصاد أبداً. فحين جرى مثلاً الجدل بشأن الخط الحديدى بين باريس ومدريد فى الجمعية الوطنية الفرنسية راح أحد الأعضاء وهو السيد سيميوه يدلى بالحجة عن وجوب وجود فجوة فى الخط عند بوردو، لأن توقف الخط هناك يدعم إلى حد كبير ثروة الحمالين والقومسيونجية وأصحاب الفنادق وأصحاب السفن وأمثالهم من أهل بوردو، وحين تغتنى بوردو فإن هـــذا يؤدى إلى إثراء فرنسا. تناول باستيا الفكرة بنهم وقال إن هذا بديع ولكن علينا ألا نقف عند بوردو وحدها لأنه « إذا كان لبوردو حق فى الاستفادة من وجود فجوة . . فإن أنجوليم وبواتييه وتور وأورليان . . ينبغى أن تطالب أيضاً بالفجوات بوصفها تحقق المصلحة العامة . . وبهذه الطريقة سوف ننجح فى إنشاء خط حديدى يتكون من فجوات متعاقبة ويمكن أن ندعوه خطاً حديدياً سلبياً ».

كان باستيا دعابة مليحة فى عالم الاقتصاد ولكن حياته الخاصة كانت مؤسية. فقد ولد فى بايون وأصيب باليتم فى سن مبكرة، وأسوأ من هذا أنه أصيب بالسل الرئوى. ودرس بالجامعة ثم اشتغل بالأعمال ولكن عقله لم يحتمل التفصيلات الخاصة بالمسائل التجارية. وهنا تحول إلى الزراعة ولكن مصيره كان سيئاً بالمثل، فكان أشبه بذلك الكونت السليم الطوية الذى قال عنه تولستوى أنه كلما تدخل فى إدارة ضيعة الأسرة زادت أحوالها سوءاً. كان يحلم بالبطولة ولكن مغامراته الحربية كانت تحمل طابع دون كيشوت، فحين أخرج البوربون من فرنسا فى عام ١٨٣٠ جمع باستيا ستمائة رجل وحاول أن يستولى عنوة على قلعة ملكية دون آبه للخسارة ويا لباستيا المسكين، ذلك أن الحصن (بدلا من المقاومة) أنزل العلم فى خنوع ودعا الجميع إلى وليمة أقامها.

وكان بادياً أنه قد حكم عليه بخيبة الأمل، ولكن هذا الخمول الذى فرض عليه حول اهتماماته إلى الاقتصاد وبدأ يطالع ويناقش الموضوعات التى كانت

تشغل الأذهان فى أيامه . وحثه جار له من أعيان الريف على أن ينشر أفكاره فكتب باستيا مقالا عن حرية التجارة وبعث به إلى إحدى المحلات البارنسية . كانت أفكاره مبتكرة كما كان أسلوبه لاذعاً بصورة مدهشة . ونشر المقال وإذا بهذا الطالب الريفى الهادىء يصبح مشهوراً بين يوم وليلة . وجاء إلى باريس ، وهنا يحدثنا المسيو دى موليناری أن باستيا «لم يجد الوقت كى يتوجه إلى خياط أو حلاق فى باريس ، فإذا نظرت إليه بشعره الطويل وقبعته الصغيرة ومعطفه الفضفاض ومظلة الأسرة التى يحملها ، حسبته فلاحاً أميناً جاء إلى الحضر ليرى العاصمة لأول مرة» .

ولكن العالم الريفى كان يملك قلماً لاذعاً . فكان يقرأ كل يوم صحف باريس التى يبدى فيها نواب فرنسا ووزراؤها حججهم بشأن سياساتهم القائمة على الأنانية والمصلحة الذاتية العمياء ويدافعون عنها ، وهنا يرد عليها بمقال يهز باريس من الضحك . مثال ذلك أنه حين سن مجلس النواب فى الأربعينات من القرن الماضى تشريعاً برفع الرسوم الجمركية على جميع البضائع الأجنبية لمنفعة الصناعة الفرنسية ، كتب باستيا تلك التحفة من السخرية الاقتصادية :

التماس من صناع الشموع ، وكبريت الشمع ، والمصابيح ، والشمعدانات ومصابيح الشوارع ، والنشوق ، وأدوات الإطفاء ، ومن منتجى الزيت والشحم ، والراتينج والكحول وبوجه عام كل شىء يتصل بالإضاءة .

إلى السادة أعضاء مجلس النواب

حضرات السادة

إننا نعانى من المنافسة التى لا تطاق من جانب منافس أجنبى يبدو أنه فى مركز أفضل بكثير من مركزنا لإنتاج النور بحيث أنه يغرق به تماماً سوقنا القومية بسعر منخفض بشكل خيالى . . هذا المنافس . . ليس إلا الشمس .

إن ما نلتمسه هو أن تتفضلوا إن شئتم باصدار قانون يأمر بإغلاق النوافذ والمناور ونوافذ حجر النوم والدرف الخارجية والداخلية والستائر وشمسيات

الشبابيك والحجات ، وبكلمة واحدة جميع الفتحات والثقوب والشقوق .

فإذا سددتم بقدر الإمكان كل ما يسمح بوصول الضوء الطبيعى وخلقتم طلباً على النور الصناعى ، فَمَنْ من رجال الصناعة الفرنسيين لن يستفيد من هـــذا ؟

فإذا زاد الاستهلاك من الشحم فلا بد فى هذه الحالة من أن يزداد عدد الثيران والأغنام . . وإذا زاد الاستهلاك من الزيت فسوف نتوسع إذن فى زراعة الخشخاش والزيت . . وتغطى أشجار الراتينج مروجنا الخضراء .

اختاروا ما تشاءون ولكن عليكم أن تكونوا منطقيين ، إذ طالما تستبعدون كما تفعلون ، الحديد والذرة والمنسوجات الأجنبية بالنسبة إلى أسعارها التى تقرب من الصفر ، فأى تناقض يكون حين تسمحون بتسرب ضوء الشمس الذى لا ثمن له الآن طيلة النهار بأكمله ؟

لم يكتب أحد أبداً دفاعاً عن حرية التجارة أشد فعالية من هذا — وإن كان خيالياً . ولكن باستيا لم يعترض على التعريفات الجمركية الحامية فحسب ، بل إن هذا الرجل كان يضحك من شكل التفكير الاقتصادى المزدوج . ففى عام ١٨٤٨ حين بدأ الاشتراكيون يعرضون أفكارهم لخلاص المجتمع وهى أفكار كانت عاطفية أكثر منها عملية وجه إليهم باستيا نفس الأسلحة التى سبق أن استخدمها ضد النظام القديم ancien régime ، فكتب يقول : « إن كل إنسان يريد أن يعيش على حساب الدولة ، وهم ينسون أن الدولة تعيش على حساب المجتمع » .

ولكن الهدف الخاص الذى كان يصوب إليه سهامه ، أو « المغالطة » التى كان يكن لها أشد الكراهية ، هو التبرير العقلى للجشع الخاص تحت ذلك الستار الخادع وهو فرض تعريفة حامية من أجل « خير الشعب » . كم كان يجب أن يهدم ذلك التفكير المموه الذى يدافع عن إقامة الحواجز فى وجه التجارة محتمياً وراء الاقتصاد الحر ، فحين اقترحت الوزارة الفرنسية رفع

الرسم الجمركى على القماش المستورد « لحماية » العامل الفرنسى أجاب باستيا بهذا التناقض اللذيذ ، فكتب إلى وزير التجارة يقول « أصدروا قانوناً لهذا الغرض فلن يسمح لأحد بعد الآن أن يستخدم أية كتل خشبية أو روافد إلا ماتنتجه وتشكله البلط الباردة . . وبينما الآن نستخدم البلطة مائة مرة فى طرقها فسوف نطرقها بعد ذلك ثلاثمائة مرة . والعمل الذى نؤديه فى ساعة واحدة سوف يتطلب فى هذه الحالة ثلاث ساعات . فأى تشجيع قوى سوف نمنحه إذن للعمل . . إن كل من يرغب بعد الآن فى إقامة سقف يغطيه يجب أن يتبع القواعد التى نفرضها ، كما يجب الآن على كل من يريد قماشاً يستر به ظهره أن يخضع لما تفرضونه » .

وبالرغم مما اتسمت به انتقاداته من سخرية نفاذة ، إلا أنها لم تلق إلا القدر اليسير من النجاح العملى . وتوجه إلى انجلترا لمقابلة زعماء الحركة النقابية العمالية هناك وعاد لينظم فى باريس رابطة تدعو إلى حرية التجارة . ولكنها لم تعش سوى ثمانية عشر شهراً إذ لم يكن باستيا أبداً ممن يحسنون التنظيم .

ولكن عام ١٨٤٨ كان على الأبواب وانتخب باستيا عضواً فى الجمعية الوطنية . وفى هذا الوقت بدا الخطر فى نظره ممثلا فى الطرف الأقصى الآخر — أى أن يبالغ الناس فى الاهتمام بنقائص النظام وأن يختاروا بغير بصر الاشتراكية كنظام بديل عنه . فبدأ يعد كتاباً عن « نواحى التوافق الاقتصادى » وفيه يبين أن ما يبدو به العالم من اضطراب كان اضطراباً لا يمس سوى السطح ، أما دون السطح فإن الدافع الذى يحرك عدداً كبيراً من العوامل المختلفة التى تسعى إلى ما فيه مصلحتها ، يتحول فى السوق إلى خير اجتماعى أسمى مرتبة . ولكن صحته كانت قد ساءت الآن بصورة تنذر بالخطر ، فلم يكد يستطيع التنفس وازرق وجهه نتيجة مرضه الذى اشتدت وطأته . وهنا انتقل إلى بيزا حيث قرأ فى الصحف نبأ عن موته وما صحب الحادث من تعبير عادى عن الأسف ، الأسف لوفاة « الاقتصادى العظيم » ، و « المؤلف البارع » . فكتب إلى صديق له « أحمد الله على أنى لم أمت .

وأؤكد لك أنني سوف ألفظ النفس الأخير بدون ألم بل وأكاد أقول بفرحة لو كنت متأكداً أنى لن أخلف للأصدقاء الذين يحبوننى أسفاً أليماً وإنما لهم ذكرى رقيقة وودودة وحزينة نوعاً » . وجاهد فى أن يتم كتابه قبل أن يقضى هو ، ولكن فات الأوان إذ مات فى عام ١٨٥٠ وهو يهمس فى النهاية بألفاظ ظن الكاهن الذى كان ينصت إليه ، أنها « الحقيقة ، الحقيقة . . . » .

إن باستيا نجم صغير فى مجموعة نجوم الاقتصاد ؛ فلم يكن متعصباً ، أو مصلحاً يشن حرباً صليبية ، أو حتى واحداً من كبار أصحاب النظم الفلسفية . ويبدو أن مهمته كانت وخز التفاخر الذى اتصف به عصره ؛ ولكن تحت التهكم والحصافة يكمن السؤال الأشد بعثاً على القلق : هل للنظام معنى دائماً ؟ هل من متناقضات تتصادم فيها المصالح العامة والخاصة ؟ وهل نستطيع أن نطمئن إلى جهاز المصلحة الخاصة الآلى حين ينحرف عند كل منعطف يفعل ذلك الجهاز البعيد عن الآلية وهو جهاز القوة السياسية الذى أقامـــه ؟

هذه الأسئلة لم يواجهها أحد أبداً فى تلك الجنة التى أسلفنا الإشارة إليها . كان كتاب ج . س . مل الآن هو الإنجيل . ولم يعبأ العالم الرسمى من رجال الإقتصاد إلا قليلا بالمتناقضات التى اقترحها ذلك الساخر من علم الاقتصاد وبدلا من ذلك راح هذا العالم يشق الطريق نحو تنمية تلك الدقائق الكمية بعالم يسعى وراء اللذة ، وظلت الأسئلة التى أثارها باستيا بغير جواب . من المحقق أن علم النفس الرياضى لم يكن الأداة التى نزيح بها الغطاء عن الورطة التى يمثلها الخط الحديدى السلبى والبلطة الباردة . إن جيفونز الذى يعتبر مع ادجورث الداعية الكبير إلى تحويل الاقتصاد إلى « علم » ، قد اعترف « أما عن السياسة فإنى مقر أنى لا أتبين شيئاً منها » . ولسوء الحظ لم يكن الوحيد فى هذا الأمر .

وهكذا واصل العالم السرى الازدهار ، وفى عام ١٨٧٩ كسب مجنداً أمريكياً ، هو ذلك الرجل الملتحى ، الرقيق ، والبالغ الثقة بنفسه ، والذى

قال « إن الاقتصاد السياسى . . كما يجرى تعليمه الآن لا أمل فيه ويشعر باليأس . ولكن السبب فى هذا أننا حططنا من شأنه وقيدناه بالأغلال ، وأن حقائقه شوهت ، ونواحى التناسق فيه أصبحت موضع التجاهل ، واحتبست فى حلقه الكلمة التى أراد أن ينطق بها ، وتحول احتجاجه على الخطأ إلى تأييد للظلم . . وليس هذا بكل شىء ذلك أن هذا الزنديق لم يقف عند حد الاعتقاد بأن الاقتصاد عجز عن رؤية الجواب على لغز الفقر وإن كان ظاهراً فى وضوح أمام أعيننا ، وإنما بالعلاج الذى وصفه كان أمامه عالم بأسره على استعداد لمن يكشفه : « إن الألفاظ لتعجز عن التعبير عن الفكرة ! إنه العصر الذهبى الذى تغنى به الشعراء وتحدث عنه الممتازون من العرافين بأساريرهم المجازى ! إنه ذروة المسيحية — مدينة الرب بجدرانها من اليشب وأبوابها من اللؤلؤ ! » .

كان القادم الجديد هو هنرى جورج ، ولا عجب أن عاش فى العالم السرى إذ لا بد أن حياته الباكرة بدت بالتأكيد إعداداً خشناً للتفكير الجاد بالنسبة إلى حفظة المذهب الصحيح الذين حبسوا أنفسهم فى داخل دير الفكر . لقد اشتغل هنرى جورج خلال حياته فى كل شىء : فكان مغامراً ، منقباً عن الذهب ، عاملا ، بحاراً ، مؤلفاً موسيقياً ، صحفياً ، موظفاً حكومياً ، ومحاضراً . بل إنه لم يدرس فى جامعة أبداً ، إذ غادر المدرسة وهو فى سن الثالثة عشرة ليعمل صبياً يرعى صارى السفينة « هندو » . البالغة حمولتها ٣٨٦ طناً والمتجهة إلى أستراليا وكلكتا . وفى الوقت الذى كان فيه معاصروه يتعلمون اللغة اللاتينية اشترى نسناساً أليفاً ، وراقب رجلا يسقط من فوق حبال سفينة . وأصبح صبياً نحيفاً ، قاسياً ومستقلا وذا شغف شديد بالتجوال . وبعد أن رجع من الشرق حاول الاشتغال فى إحدى شركات الطباعة بمدينته فيلادلفيا ، ثم لما بلغ التاسعة عشرة من العمر أبحر ثانية وإلى كاليفورنيا هذه المرة ، وفى ذهنه البحث عن الذهب .

وقبل سفره راح يقيس قدرته فى إعداد خريطة فراسة يستكشف بها قوى نفسه :

الاستعداد للحب	كبير
حب التناسل	معتدل
قابلية الالتصاق	كبير
القدرة على التركيز	كبير
الاستعداد للاقامة	صغير

وبهذه الطريقة اعتبر غريزة اشتهاء الطعام « كاملة » وغريزة التملك « صغيرة » والاعتداد بالنفس « كبير » ، والميل إلى السرور « قليل » .

لم يكن هذا التقدير لنفسه سيئاً من بعض النواحى — وإن كان من الغريب أن نلقاه يعتبر « الحرص » عنده « كبيراً » ، وذلك أنه حين وصل إلى سان فرنسسكو فى عام ١٨٥٨ نزل إلى البر بالرغم من سبق تعاقده على العمل لمدة عام ، ثم توجه إلى فكتوريا للبحث عن الذهب . ووجد الذهب — ولكنه ذهب الأحمق — فقرر أن حياة البحر هى الحياة التى تصلح له . وبدلا من ذلك — ونظراً لأن القدرة على التركيز بسيطة — اشتغل بتصفيف الحروف فى إحدى مطابع سان فرنسسكو ، ثم عمل وزاناً فى أحد مصانع تبييض الأرز ، وبعد ذلك أصبح « أفاقاً يجوب البلاد » على حد تعبيره . وقام برحلة إلى مناطق الذهب فكانت عقيمة بالمثل كسابقتها ، وعاد إلى سان فرنسسكو فى حالة فقر وعوز .

والتقى بآنى فوكس التى أثارت استعداده للحب ، فهرب معها ، وكانت طفلة بريئة فى السابعة عشرة من عمرها أما هو فشاب رشيق بشارب أنيق ولحية مدببة . وحملت الآنسة فوكس المطمئنة معها فى فرارها السرى من أجل الزواج ربطة كبيرة ظن المغامر الشاب أنها تحتوى على مجوهرات فإذا بها تضم كتاب «مختارات من الشعر لربة البيت» Household Book of Poetry

وغيره من المؤلفات . أعقبت ذلك سنوات قضاها فى أشد حالات الفاقة . كان جورج طبّاعاً ولكن كان من الصعب الحصول على العمل ، كما كان الأجر فى أفضل الحالات ضئيلا . وحين وضعت آنى طفلها الثانى كتب جورج يقول : « مشيت فى الشارع وقررت أن أحصل على المال من أول رجل يدل مظهره على أن معه ما يعطيه . وأوقفت رجلا — غريباً لا أعرفه — وأخبرته أنى فى حاجة إلى خمسة دولارات . وسألنى عن السبب فأجبت بأن زوجتى قد وضعت ولا أملك شيئاً تأكله . فأعطانى النقود ، ولو لم يفعل هذا لقتلته إذ كنت فى حالة يأس » .

والآن — وقد بلغ السادسة والعشرين من عمره — بدأ يكتب . فقد وجد عملا فى حجرة صف الحروف بصحيفة التيمز فى سان فرنسسكو ثم أرسل مقالا إلى رئيس التحرير نوح بروكس . وارتاب بروكس فى أن الصبى نقلها من مصدر آخر ، ولكن لما لم يظهر ما يشبهه فى الصحف الأخرى لمدة أيام عدة نشر المقال ثم نزل من الطابق الذى يقيم فيه ليبحث عن جورج ، فلما وجده رأى أمامه شاباً دون الحجم العادى نوعاً ، يقف على لوح خشبى محاولا أن يرفع نفسه حتى يحاذى صندوق حروف الطباعة . وأصبح جورج مخبراً .

ولم تمض سنوات قلائل حتى ترك التيمز ليلتحق بسان فرنسسكو «بوست» وهى مجلة تكافح من أجل الصالح العام . وبدأ جورج يكتب عن مسائل تثير أكثر من الاهتمام المألوف ، فكتب عن العمال الصينيين الذين يؤتى بهم وفقاً لعقود خاصة ، وعن جشع شركات السكك الحديدية فى تملك الأرض ، وعن أساليب الخداع التى تلجأ إليها الشركات الموحدة المحلية . وكتب خطاباً طويلا إلى جون ستيوارت مل فى فرنسا عن مشكلة الهجرة فكرمه الأخير برد أيّد فيه وجهة نظره . وخلال هذا الاهتمام الذى أبداه حديثاً بالمسائل السياسية وجد الوقت للقيام بمغامرات تتفق مع أفضل التقاليد الصحفية ، فحين وصلت السفينة سن رايز Sunrise إلى المدينة تصحبها قصة أريد كتمانها وتتعلق بما أقدم عليه القبطان والضابط الأول من مطاردة بحارتهم إلى الحد الذى جعل

اثنين منهم يلقيان بنفسيهما إلى البحر حيث غرقا ، نبشت بوست القصة ونجحت فى تقديم الضابطين إلى العدالة .

وبيعت الصحيفة وحصل هنرى جورج لنفسه على وظيفة شرفية سياسية وهى مفتش عدادات الغاز . ولم يكن السبب فى هذا أنه أراد أن يستمتع بحياة الفراغ ، بل الأحرى أنه كان قد بدأ يقرأ ما كتب كبار الاقتصاديين لأن اهتماماته الرئيسية بدأت تتكون بوضوح ولقد أصبح فى ذلك الحين من المصادر المحلية التى يرجع إليها . كان فى حاجة إلى الوقت كى يدرس ويكتب ويلقى المحاضرات على الطبقات العاملة عن أفكار مل العظيم .

وحين أنشأت جامعة كاليفورنيا كرسياً لمادة الاقتصاد السياسى ، كان الاعتقاد السائد أنه المرشح القوى للمنصب . ولكن الحصول عليه كان يقتضى منه أن يلقى محاضرة أمام الكلية والطلاب ، وكان جورج من التهور بحيث يبدى أمثال هذه المشاعر ، فقال « لقد استخدم اسم الاقتصاد السياسى دائماً ضد كل جهد تبذله الطبقات العاملة من أجل زيادة أجورها » ، وحتى يضاعف من قوة الصدمة أضاف قوله « ولكى تدرسوا الاقتصاد السياسى فأنتم فى غير حاجة إلى معرفة خاصة ، أو مكتبة ضخمة ، أو معمل كثير التكاليف ، بل إنكم لستم بحاجة إلى الكتب الدراسية أو المعلمين ، لو أنكم فكرتم فى الأمور بأنفسكم » .

كان هذا بداية حياته الأكاديمية وخاتمتها . ووجدت الجامعة مرشحاً أصلح منه لشغل المنصب ، وعاد جورج من جديد إلى الكتابة والدرس . وفجأة « فى ضوء النهار وفى أحد شوارع المدينة ، طافت بذهنى فكرة ، أو رؤيا ، أو هاتف — سم الأمر ما شئت . . وكان ذلك هو الذى دفعنى إلى كتابة (التقدم والفقر) ، وهذا ما واصلته بينما كنت أخفق فى أى شىء آخر . وعند ما أتممت آخر صفحة فيه ، فى ظلام الليل وكنت بمفردى تماماً ، جثوت على ركبتى ورحت أبكى كالطفل » .

وكما كان متوقعاً فقد كان الكتاب من عصارة القلب. كان صرخة امتزج فيها الاحتجاج بالأمل . وكما كان متوقعاً أيضاً كان يعانى من الإسراف فى العاطفية والإقلال من حرص الأستاذ الأكاديمى. ولكن كم كان شيئاً مختلفاً عن تلك النصوص الجافة التى كانت تنشر فى ذلك الوقت — لا عجب إذن أن وجدنا سدنة علم الاقتصاد لا يأخذون مأخذ الجد حجة يعبر عنها بمثل هذا الأسلوب :

خذوا الآن . . رجلا عنيداً من رجال الأعمال لا يتعلق بأية نظريات وإنما يعرف كيف يكسب المال . ثم قل له : هنا قرية صغيرة سوف تصبح مدينة كبيرة فى ظرف عشر سنوات — إذ فى عشر سنوات سوف تكون السكك الحديدية قد حلت محل عربات السفر وحل النور الكهربائى محل الشمعة . وسوف تمتلىء بجميع الآلات ، والتحسينات التى تضاعف إلى درجة هائلة من قوة العمل الفعالة . فهل تكون المصلحة بعد عشر سنوات أعظم من هذا ؟

سوف يقول لك « كلا »

« هل ستصبح أجور العمل العادى أعلى ؟ » . .

وسوف يقول لك « كلا لن تكون أجور العمل العادى أعلى . . »

« إذن ، ما الذى سوف يرتفع ؟ »

« الريع ، أى قيمة الأرض . اذهب واحصل بنفسك على قطعة أرض وامتلكها » .

فإذا عملت بنصيحته فى ظل أمثال هذه الظروف فأنت فى غير حاجة إلى أن تعمل شيئاً آخر . يمكنك أن تجلس وتدخن غليونك وتستطيع أن ترقد كالمصابين بالبرص فى نابلى أو بالجذام

فى المكسيك ، وقد تطير فى الهواء فى منطاد أو تهبط إلى قاع منجم فى الأرض ، وبدون أن تؤدى أى عمل ، وبدون أن تضيف ذرة إلى ثروة الجماعة ، فسوف تصبح غنياً فى ظرف عشر سنوات . قد يكون لك فى المدينة الجديدة قصر فاخر ، ولكن سوف يكون بين مبانيها العامة ملجأ للفقراء .

لسنا بحاجة إلى إيراد الحجة بأسرها المشحونة بالعاطفة ، فإن جوهرها نلقاه فى الفقرة التى اقتبسناها . إن هنرى جورج يثيره منظر قوم يستمدون دخولهم — وهى خيالية أحياناً — لا من خدمات أدوها للجماعة ، وإنما لأنهم فقط كانوا من حسن الحظ بحيث امتلكوا أرضاً فى مواقع لها مزايا معينة .

بطبيعة الحال رأى ريكاردو كل هذا قبل جورج بزمن طويل ، ولكن ريكاردو فى أفضل الحالات لم يدع إلا أن ميل المجتمع الآخذ فى النمو إلى إثراء ملاك أرضه سوف يعود بالضر على الرأسمالى . ولكن هذا لم يكن فى نظر هنرى جورج إلا إسفيناً . فالظلم الذى تنطوى عليه الريوع لا يسلب الرأسمالى ربحه الشريف فحسب ، بل إنه يثقل كاهل العامل أيضاً . وأخطر من هذا فقد وجد فى الريع السبب فى تلك « النوبات » paroxysms الصناعية كما دعا الأزمات التى تهز دعائم المجتمع من وقت لآخر .

إن الحجة لم تصور بالقدر الواجب من الوضوح . إنها تقوم أساساً على الحقيقة التالية وهى أنه لما كان المفروض فى البداية إن الريع نوع من الابتزاز الاجتماعى فمن الطبيعى إذن أنه يمثل توزيعاً غير عادل للمنتج لصالح ملاك الأراضى على حساب العمال ورجال الصناعة . أما عن النوبات (الأزمات) فإن جورج كان على اقتناع بأن الريع يؤدى حتما إلى المضاربة العنيفة فى قيم الأرض (كما حدث حقيقة فى إقليم الساحل الغربى) ويؤدى حتما بالتالى إلى انهيار فى النهاية يترتب عليه أن يتدهور بقية صرح الأثمان إلى جانبه .

وإذ اكتشف جورج أسباب الفقر الحقيقية والعقبة الأساسية فى وجه

التقدم فقد كان من السهل عليه أن يقترح العلاج ويتكون من ضريبة ضخمة واحدة على الأرض تمتص جميع الريوع . وإذن ، بعد أن يستأصل السرطان من جسم المجتمع يمكن أن يفسح الطريق أمام العصر الذهبي . فالضريبة الواحدة لن تؤدى إلى الاستغناء عن جميع الأنواع الأخرى من الضرائب فحسب ، ولكنها إذ تلغى الريع فسوف « ترفع الأجور وتزيد من أرباح رأس المال ، وتجتث الفقر من جذوره وتوفر العمل المجزى لمن يرغب فيه ، وتفسح مجالا حراً للقوى البشرية وتطهر الحكم وتسير بالحضارة إلى مستويات أعلى » . سوف تكون هذه الضريبة الدواء الشافى لكل علاج panacea — إذ ليس ثمة لفظ آخر .

حين نحاول تقييم هذه النظرية نلقاها مراوغة . إنها نظرية ساذجة بالطبع ، وجعل الريع معادلا للخطيئة فكرة لا يمكن أن تخطر إلا ببال شخص له هذه النزعة التبشيرية كهنرى جورج نفسه . فإن إلقاء اللوم عن الأزمات الصناعية على كاهل المضاربة فى الأرض معناه أن ننسف جانباً صغيراً من اقتصاد متوسع لا يتناسب تماماً مع الحقيقة . يمكن أن تكون المضاربة فى الأرض مزعجة ولكن حدثت أزمات عنيفة فى بلاد لم تتضخم فيها قيم الأرض

لسنا بحاجة إلى التريث عند هذه النقطة ، ولكن حين ننتقل إلى جوهر النظرية فمن الواجب أن نتوقف عنده ، إذ بينما التشخيص الآلى الذى يقدمه سطحى وخاطىء فإن النقد الأساسى الذى يوجهه إلى المجتمع نقد يقوم على أسس أخلاقية وليس منبعثاً من نظرة مادية . إنه يسأل : لماذا ينبغى وجود الريع ؟ ولماذا ينبغى أن يستفيد إنسان من مجرد التملك بينما لا يؤدى مقابل هذا أية خدمات للجماعة ؟ يجوز أن نبرر الجزاء الذى يحصل عليه رجل الصناعة بأن نصف الأرباح التى يحققها بأنها مكافأة عما يتصف به من بعد نظر ومهارة، ولكن أين بعد النظر فى حالة شخص كان جده يملك مرعى رأى المجتمع بعد ذلك بجيلين أن يقيم فوقه ناطحة سحاب ؟

إن السؤال يثير التفكير ، ولكن ليس من السهل أن نستنكر نظام الريع

على هذا النحو المباشر ودفعة واحدة ، لأن ملاك الأراضى ليسوا بالعناصر السلبية التى تستفيد من تقدم المجتمع . فحامل الأوراق المالية فى اقتصاد يسير فى طريق التوسع ، والعامل الذى يزيد التقدم الفنى من إنتاجيته ، والمستهلك الذى يرتفع دخله الحقيقى كلما ازداد الشعب رخاء — هؤلاء جميعاً ينتفعون أيضاً من تقدم الجماعة . إن الأرباح غير المكتسبة التى يحققها مالك يشغل مركزاً طيباً إنما يتمتع بها جميعاً فى صور مختلفة . فالمشكلة لا تتعلق بالريوع ولكنها تنصب على كل دخل غير مكتسب ، وبينما قد تكون هذه مشكلة خطيرة فإننا لا نستطيع محاولة علاجها بالدرجة عن طريق ملكية الأرض وحدها .

وإذن فالمشكلة ليست عنيفة كما بدت فى نظر هنرى جورج . إن جزءاً ضخماً من الريوع يدخل جيوب صغار ملاك الأرض ، والفلاحين ، وأصحاب البيوت ، والمواطنين ذوى الموارد المتواضعة . وحتى فى المجال الاحتكارى من الدخول المستمدة من الريوع — فى عمليات العقار بعاصمة كبيرة — نجد أمامنا سوقاً متقلبة طابعها السيولة . فالريوع ليست مجمدة على صورة أنماط إقطاعية بالية ، ولكنها تنتقل باستمرار من يد إلى أخرى كلما جرى تداول الأرض بالشراء والبيع ، كما يتكرر تقدير قيمتها ، ومصداقاً لهذا يكفى أن نبين أن نسبة الدخل الناجم من الريع فى الولايات المتحدة إلى الدخل القومى هبطت من ستة فى المائة فى عام ١٩٢٩ إلى ثلاثة فى المائة فقط فى عام ١٩٦٠ .

ولكن لا أهمية لما إذا كانت النظرية صحيحة من وجهة نظر المنطق أو إذا كان ما تبديه من استنكار أخلاقى له ما يبرره تماماً ، فقد لقى الكتاب استجابة هائلة وأصبح « التقدم والفقر » أوسع الكتب انتشاراً ، ولم يلبث هنرى جورج بين يوم وليلة أن برز إلى مركز الصدارة فى نظر الشعب ، فقال المعقب فى مجلة Argonaut بسان فرنسسكو « إنى أعتبر التقدم والفقر الكتاب الوحيد فى هذا النصف من القرن » ، وزعمت النيويورك تريبيون أن الكتاب ليس « له ما يساويه منذ أن نشر آدم سميث كتابه ثروة الشعوب » . وحتى

تلك المجلات من أمثال Examiner ، Chronicle, التى اعتبرته « أشد كتاب أذى فى الاقتصاد السياسى نشر منذ وقت طويل » إنما ساعدت على زيادة شهرتــه .

وسافر جورج إلى إنجلترا ، ثم عاد بعد رحلة ألقى فيها المحاضرات وقد أصبح شخصية ذات سمعة دولية . ورشح لمنصب عمدة نيويورك وبعد صراع عنيف مع منافسين آخرين هزم تيودور روزفلت ولم يفقد المعركة أمام مرشح تامانى إلا بأغلبية بسيطة .

كانت الضريبة الواحدة بالنسبة إليه الآن ديناً . فنظم نوادى الأرض والعمل ، وراح يلقى المحاضرات على الجماهير المتحمسة له فى الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وسأله صديق له : « هل يعنى هذا الحرب ؟ إذا لم تكن تعالج أحوالا سيئة بين الناس ، فهل تأمل أن تنتزع الأرض من مالكيها بغير حرب ؟ » فأجاب جورج « لست أرى من الضرورى إطلاق البندقية . ولكن إذا دعت الضرورة فيجب أن تكون الحرب . لم تكن هناك أبداً حرب أكثر قداسة . كلا ، لم تكن هناك حرب أكثر قداسة من هذه » .

وعلق صديقه جيمس رسل تايلور بقوله : « هنا رجل من أرق الناس وأشدهم عطفاً ينكص عن إطلاق النار فى سورة غضب ، ولكنه على استعداد لشن حرب شاملة إذا لم يؤمن الناس ، بالإنجيل الذى بشر به . إنها الشجاعة . . . التى تجعل من الفرد أغلبية . . . » .

لسنا بحاجة إلى القول أن المذهب بأسره كان كريهاً فى نظر أصحاب الآراء الوقورة . فأصدرت الكنيسة الكاثوليكية قراراً بحرمان قس كان يساعد جورج فى معركة انتخاب عمدة نيويورك ، ووجه البابا نفسه منشوراً عاماً بشأن موضوع الأرض ، وحين بعث إليه جورج برد متقن الطباعة والتجليد ، كان الرد موضع التجاهل . وكتب جنرال فرنسيس أ . ووكر ، وهو من الاقتصاديين المحترفين البارزين فى الولايات المتحدة « لن أهين قرائى

بمناقشة مشروع هوى إلى هذا الدرك من العار » . ولكن بينما استقبل الاقتصاديون الرسميون الكتاب بالفزع أو بالاحتقار المشوب بالتسلى ، زاد تعلق الجمهور بالرجل . فعدد النسخ التى بيعت من كتاب « التقدم والفقر » فى الولايات المتحدة تجاوز ما بيع من جميع كتب الاقتصاد التى سبق نشرها ، وفى إنجلترا أصبح الرجل من الأسماء المألوفة فى كل بيت . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ؛ بل إن تصدير أفكاره — وإن جرى ذلك فى صورة مخففة — أصبح جزءاً من ميراث رجال من أمثال وودرو ويلسون وجون ديوى ولويس برانديس . والحق . أن لهنرى جورج أتباعاً مخلصين لا يزالون يواصلون نشاطهم اليوم .

وفى عام ١٨٩٧ ، وقد تقدمت به السن وتدهورت صحته وإن ظل محتفظاً بروحه التى لا تقهر ، سمح لنفسه بالدخول مرة ثانية فى معركة انتخاب عمدة نيويورك وهو يعلم تمام العلم أن عبء الحملة أقوى من أن يحتمله قلبه المتداعى . ودعاه خصومه « السلاب » ، « الشخص الذى يهاجم حقوق الناس » ، « رسول الفوضى والدمار » ؛ ومات بالفعل فى عشية الانتخاب . وسار فى جنازته الألوف . لقد كان رجلا متديناً ؛ وإنا لنرجو أن تكون روحه قد صعدت مباشرة إلى السماء . أما عن سمعته فقد انتقلت مباشرة إلى العالم السرى لعلم الاقتصاد ، وهناك تلقاه اليوم يكاد أن يعتبر مسيحاً ، وقوة شبه تدميرية ؛ ويثير القلق والاضطراب بتساؤله عن مدى التزام العالم الذى نعيش فيه ، لمبادىء الأخلاق .

ولكن شيئاً آخر كان يجرى فى العالم السرى ؛ شيئاً أهم من الرعود القاصفة التى أطلقها هنرى ضد الريع ، ومن رؤياه المدهشة التى تصور أنه يشهد فيها مدينة الرب تقام على أساس الضريبة الواحدة . كانت هناك روح جديدة وقوية تجتاح إنجلترا والقارة ، بل والولايات المتحدة ، وهى روح تجلت فى وفرة شعارات من هذا القبيل « إن الشعب الأنجلوسكسونى قد وقع عليه اختيار القدر الذى لا يخطئ لكى يكون القوة الغالبة فى تاريخ العالم وحضارته »

ولم تكن هذه الروح مقصورة على انجلترا ، فعلى الجانب الآخر من بحر المانش أعلن فكتور هوجو « أن الإنسانية فى حاجة إلى فرنسا » . وفى الروسيا صرح كونستانتين بوبيدونوشتيف ، المتحدث باسم الغفران . أن خلاص الروسيا من وصمة الانحلال الغربى قد أضفى عليها الحق فى الزعامة بالنسبة إلى الشرق . وفى ألمانيا كان القيصر يشرح كيف أن الله العلى الكريم يقف إلى جانب الشعب الألمانى ، وفى العالم الجديد راح تيودور روزفلت يجعل من نفسه المتحدث الأمريكى باسم فلسفة مماثلة .

لقد بدأ عصر الإمبريالية ، وكان صانعو الخرائط مشغولين بتغيير الألوان التى تدل على ملكية القارات التى تقيم بها الشعوب ذات البشرة السوداء . ففيما بين عامى ١٨٧٠ ، ١٨٩٨ أضافت بريطانيا إلى إمبراطوريتها أراضى مساحتها ٤ ملايين ميل مربع وتضم ٨٨ مليوناً من الأنفس ، وكسبت فرنسا نفس المساحة من الأرض تقريباً وإن لم يتجاوز عدد سكانها ٤٠ مليون نسمة ، واستولت ألمانيا على مليون ميل مربع ومعها ١٦ مليوناً من أهل المستعمرات ، وحصلت بلجيكا على ٩٠٠,٠٠٠ ميل مربع يقيم فوقها ٣٠ مليوناً ، وحتى البرتغال اشتركت فى السباق وخرجت بأراض جديدة مساحتها ٨٠٠,٠٠٠ ميل مربع وعدد أهلها ٩ ملايين .

والحقيقة ، أن أجيالا ثلاثة غيرت وجه الأرض ، ولكن ما هو أكثر من ذلك أن تلك الأجيال شهدت تغيراً مماثلا يلفت النظر ، فى نظرة الغرب إلى تلك العملية من التغيير . ففى أيام آدم سميث ، على ما نذكره ، كان ذلك الفيلسوف الأسكتلندى ينظر بعين الاحتقار إلى المحاولات التى أراد بها التجار أن يلعبوا دور الملوك ، ودعا إلى منح الاستقلال إلى المستعمرات الأمريكية . وكان هناك الكثيرون ممن شاركوا آدم سميث احتقاره للمستعمرات ، فدعاها جيمس مل ، والد جون ستيوارت مل ، « نظاماً من المعونة الخارجية للطبقات العليا » ، وحتى دزرائيلى قد سجل هذه العبارة فى عام ١٨٥٢ ، وهى أن « هذه المستعمرات التعسة أغلال حول أعناقنا » .

ولكن تغير هذا كله الآن . لقد سبق لبريطانيا أن كونت إمبراطوريتها ، كما لوحظ فى كثير من الأحيان ، فى نوبة من شرود الذهن ، ولكن شرود الذهن حل محله التصميم كلما أسرعت الإمبريالية الخطى . وقد لخص اللورد روزبيرى مشاعر العصر حين دعا الإمبراطورية البريطانية « أعظم أداة زمنية (أى غير روحية) للخير عرفها العالم » وعلق مارك توين على ذلك وهو يشاهد موكب يوبيل الملكة فكتوريا والذى كان يظهر فى فخر عظمة ممتلكات إنجلترا « نعم ، فقد ورد ذكر الإنجليز فى الإنجيل : طوبى للمساكين ، فإنهم سيرثون الأرض » .

كان معظم النـــاس ينظرون بعين الرضا إلى السباق عـــلى تكوين الإمبراطوريات — ففى إنجلترا كان كيبلنج أمير شعرائها ، وكان الشعور الشعبى تعبر عنه هذه الأغنية التى ترددت فى الصالات الموسيقية .

لسنا نريد الحرب ، ولكنا نخوضها وأيم الحق لو أردنا ،
فلدينا السفن ، ولدينا الرجال ، ولدينا المال أيضاً » .

وثمة سبب آخر للموافقة على هذا الاتجاه صدر عن أولئك الذين كانوا يتفقون مع سير تشارل كروثويت على أن المشكلة الحقيقية بين بريطانيا وسيام كانت تتعلق « بمن يتجر معهم وكيف نحقق أقصى الفائدة من وراء التعامل معهم ، حتى نجد أسواقاً جديدة لبضائعنا ، وكذلك عملا لتلك السلع الفائضة عن الحاجة اليوم ، أى أولادنا » .

كذلك أيضاً كان بناء الإمبراطوريات يجلب الرخاء لمن يتولون عملية البناء فقدر غير يسير من التحسين الذى طرأ على أحوال الطبقة العاملة وهو التحسين الذى أدخل السرور على قلب اللجنة التى شكلت لبحث الكساد ، كان نتيجة العمل المرهق فيما وراء البحار . لقد أصبحت المستعمرات هى البروليتاريا التى تكد وتشقى من أجل البروليتاريا فى الدولة الأم . لا عجب إذن أن كانت الإمبريالية سياسة شعبية .

خلال هذا كله نجد المتحدثين الرسميين باسم علم الاقتصاد ينتحون جانباً ليشهدوا فى رصانة واتزان عملية التوسع الاستعمارى ، ويقصرون ملاحظاتهم على ما قد يكون للممتلكات الجديدة من أثر فى سير التجارة . وهكذا مرة ثانية نلقى العالم السرى هو الذى يمسك بهذه الظاهرة الجديدة من ظواهر التاريخ وقد فتنته ، ذلك أن رجاله إذ نظروا إلى هذا السباق العالمى النطاق من أجل التسلط والسيطرة رأوا فيه شيئاً يختلف عن مجرد كونه صداماً مثيراً بين السياسات أو أهواء لا يمكن تفسيرها تحرك الشخصيات التى بيدها الحكم والسلطان .

لقد رأوا اتجاهاً جديداً فى الطريق الذى تسير فيه الرأسمالية ، بل الواقع أنهم رأوا فى الإمبريالية إشارة إلى تغيير فى الطابع الأساسى للرأسمالية نفسها . ومما كان أشد نذيراً أنهم استشفوا فى هذه العملية الجديدة من التوسع والتى لا تهدأ ، أخطر تحول طرأ على الرأسمالية وهو تحول يؤدى إلى الحرب .

والزنديق الذى وجه هذه التهمة ، كان رجلا لطيف المعشر ، أو كما وصف نفسه ثمرة « الفئة المتوسطة من الطبقة المتوسطة بمدينة متوسطة الحجم فى الميدلاندز » . كان جون أ . هوبسن رجلا ضئيل الحجم ، ضعيف البنية ، يشعر بالقلق الكثير من ناحية صحته ، ومصاب بعقبة فى طريقة كلامه جعلته يشعر بالاضطراب إذا طلب منه إلقاء المحاضرات . وولد فى عام ١٨٥٨ واستعد لحياة أكاديمية فى جامعة أكسفورد . وعلى ضوء كل ما نعرفه عن البيئة التى نشأ فيها وعن شخصيته (ومعرفتنا هذه ليست كثيرة فذلك الرجل الخجول ، المحب للعزلة استطاع أن يتجنب إدراج اسمه فى دليل الشخصيات المعروفة Who's Who) — نقول إن القدر كان يعده كى يكون معلماً مغموراً فى إحدى المدارس العامة الإنجليزية .

ولكن تدخل عاملان فى الأمر . فقد قرأ مؤلفات رسكين ، الناقد البريطانى وكاتب المقالات والذى كان يهزأ من القوانين البورجوازية فى العصر الفيكتورى ، عن القيمة النقدية ، معلناً فى ضجة عالية « الثروة هى الحياة » .

وعن طريق رسكن اكتسب هوبسن فكرة عن الاقتصاد بوصفه من العلوم الإنسانية أكثر منه علماً مدرسياً ؛ وبعد ذلك تحول من المذهب الصحيح المهذب إلى تلك العملية المثيرة ، وهى بناء عالم تضفى فيه نقابات العمل التعاونية قيمة على الشخصية الإنسانية أكبر مما يضفيه ذلك العالم الفظ الذى تسوده الأجور والأرباح . وكان هوبسون ، شأنه شأن اليوتوبيين ، يصر على أن مشروعه ليس خيالياً ، بل على العكس كان يزعم أن المشروع « مؤكد مثل أى فرض فى هندسة إقليدس » .

لو أنه كان يوتوبياً لجاز أن يلقى الاحترام ، فالإنجليز يحبون ذوى الأطوار الغريبة . ولكنه أصبح من جماعة الاقتصاديين المنبوذين ؛ بوصفه زنديقاً يدوس على فضائل التقليد . وألقت به الصدفة فى صحبة شخص يقال له أ . ف . ممرى ، وكان مفكراً مستقلا ، ورجل أعمال ناجحاً ، ومن هواة تسلق الجبال ، ويمتاز بالجرأة والبسالة (وقدر له أن يلقى حتفه فى عام ١٨٩٥ على مرتفعات نانجا باربات) . ويقول هوبسن « لست بحاجة إلى القول بأن اتصالى به لم يكن فى هذا المستوى المادى . . ولكنه كان رجلا يتسلق مرتفعات الفكر أيضاً . . » . كان ممرى قد أخذ يفكر فى سبب تلك الأزمات فى التجارة والتى أقلقت بال مجتمع الأعمال منذ أوائل القرن الثامن عشر ، وكانت لديه فكرة عن منشئها ، وهى فكرة اعتبرها علم الاقتصاد الرسمى ، على حد قول هوبسن « معادلة فى معقوليتها لمحاولة إثبات استواء سطح الأرض » ، ذلك أن ممرى ، وقد أصاغ السمع إلى آراء مالثس ، كان يرى أن سبب الركود يكمن فى الإفراط فى الادخار ، وفى العجز المزمن من جانب نظام الأعمال عن توزيع القوة الشرائية بالقدر الذى يكفى كى تشترى منتجاتها من جديد .

ناقش هوبسن الفكرة أولا ثم اقتنع بأن ممرى على صواب . وكتب الإثنان « فسيولوجية الصناعة » وفيه قدما فكرتهما الخارجة عن المذهب السائد ، وهى أن المدخرات قد تقوض دعائم الرخاء ، فكان هذا أكثر مما يستطيع الاقتصاد الرسمى أن يهضمه . ألم يؤكد جميع الاقتصاديون العظام

منذ آدم سميث ، أن الإدخار ليس إلا وجهاً واحداً من عملة التجميع الذهبية ؟ ألم يترتب على كل ادخار إضافة بصورة آلية إلى رصيد رأس المال الذى يستخدم فى تشغيل مزيد من الناس ؟ فالقول بأن الادخار قد يسبب بطالة ، لم يكن لغواً من أسوأ نوع فحسب بل وكان معادياً أيضاً وبشكل إيجابى لإحدى الدعامتين اللتين يستند إليهما — الاستقرار الاجتماعى — أى حسن التدبير . شعر عالم الاقتصاد بصدمة . فرأى قسم المحاضرات الإضافية فى جامعة لندن أن فى وسعه الاستغناء عن المستر هوبسن وسحبت جمعية تنظيم الإحسان دعوة سبق أن وجهتها إليه لإلقاء محاضرة . أصبح الرجل العالم زنديقاً . وأصبح الزنديق الآن طريداً منبوذاً بالرغم منه .

كل هذا يبدو مبتعداً بصورة بالغة عن مشكلة الإمبريالية . ولكن الأفكار تنبت بطرق ملتوية . فاستبعاد هوبسن من عالم الاحترام والوقار دفع به إلى طريق النقد الاجتماعى ، وحول الناقد الاجتماعى اهتمامه الآن إلى المشكلة السياسية الكبيرة فى عصره — أى أفريقية .

كانت الظروف التى نشأت فيها المشكلة الأفريقية معقدة وعاطفية . ففى عام ١٨٣٦ أقام المستوطنون الهولنديون دولتهم المستقلة فى بلاد الترنسفال ، وهى مجتمعات صلبة من فلاحين « يجلدون الكفار ويقرأون الإنجيل » . ولكن الأرض التى وقع عليها اختيارهم ، وهى أرض واسعة ، تعلوها شمس مشرقة وتبعث البهجة فى النفس ، كانت تخفى فى باطنها ثروة أكبر من الثروة الظاهرة ففى عام ١٨٦٩ اكتشف الماس ثم أعقبه الذهب فى عام ١٨٨٥ ، ولم تمض سنوات قلائل حتى تحولت خطى الاستيطان باستخدام العربات التى تجرها الثيران ، إلى مجتمع محموم من المضاربين . وظهر سيسل رودس على المسرح حاملا معه مشروعات المتعلقة بالخطوط الحديدية والصناعة ، وفى لحظة جنون أقر شن غارة على الترنسفال فانفجرت مشاعر التوتر طويل الأمد الذى كان يملأ نفوس الإنجليز والهولنديين . وبدأت حرب البوير .

وكان هوبسن قد توجه الآن إلى أفريقية . سافر « أجبن مخلوقات الله »

كما دعا نفسه ، إلى مدينة الرأس وجوهانسبرج ، وتحدث إلى كروجر وسمطس ، وأخيراً تعشى مع رودس نفسه فى عشية غارة ترنسفال وكان رودس شخصية معقدة ومحيرة . ويذكر أحد الصحفيين أن رودس قال قبل مغامرته الأفريقية بعامين :

كنت فى حى إيست إند بلندن أمس وحضرت اجتماعاً للعمال المتعطلين وأصغيت إلى الخطب العنيفة والتى لم تزد عن صرخة تطلب (الخبز ، الخبز) وفى عودتى إلى دارى أخذت أفكر فى ذلك المشهد . . إن فكرتى التى أتعلق بها فيها الحل للمشكلة الاجتماعية ، أى إذا أردنا أن ننقذ الأربعين مليوناً من أهل المملكة المتحدة من حرب أهلية دموية فيجب على ساستنا الاستعماريين أن يستحوذوا على أراض جديدة يستوطنها السكان الذين يفيضون عن الحاجة . ولتهيء أسواقاً جديدة للبضائع التى ينتجونها فى المصانع والمناجم . إن الإمبراطورية . . كما سبق أن قلت دائماً ، مسألة حياة أو موت » .

لسنا نعرف كيف أوضح المشاعر ذاتها لهوبسن ، والأرجح أنه أعرب له عنها ، ولكن لم يكن لذلك من أثر يذكر لأن ما رآه هوبسن فى أفريقية كان متداخلا على نحو أبعد ما يكون عن المتوقع ، مع الهرطقة السياسية التى اتهم بها هو وممرى ، أى نظرية الإفراط فى الادخار .

وعاد إلى بريطانيا ليكتب عن القومية المتعصبة والحرب فى أفريقية ، وفى عام ١٩٠٢ أهدى العالم كتاباً هو مزيج من الأشياء التى لاحظها فى أفريقية والآراء الخارجة التى اعتنقها .

وأطلق على الكتاب اسم « الإمبريالية » ، وكان مجلداً مدمراً ، إذ نحن هنا أمام أهم وأعنف حملة نقد شنت على نظام الربح . إن أسوأ ما زعمه ماركس كان أن النظام سوف يقضى على نفسه ، أما هوبسن فأوحى بأن النظام سوف يقضى على العالم . لقد رأى فى عملية التوسع الاستعمارى اتجاهاً لا يلين ولا يهدأ ، من جانب الرأسمالية للنجاة من ورطة فرضتها على نفسها ،

وهو اتجاه يتضمن بالضرورة غزواً تجارياً من قبل الدول الأجنبية ، وبذلك ينطوى بصورة لا مفر منها على خطر دائم بنشوب حرب . لم يسبق أن وجه اتهام أخلاقى أعمق من ذلك الذى يقول إن ثمن بقاء نظام هو موت الذين يعيشون فى داخله .

وماذا كان جوهر التهمة التى ألقى بها هوبسن ؟

تكاد الحجة أن تكون ماركسية من حيث انتفاء عنصر الشخصية فيها وفى التطور الذى تراه واقعاً حتما (بالرغم من أن هوبسن لم يشعر بالعطف على الماركسيين وأغراضهم) . وتزعم الحجة أن الرأسمالية تواجه صعوبة داخلية لا تقبل الحل ، وأنها مرغمة على التحول إلى التوسع الاستعمارى لا بسبب شهوة خالصة للغزو وإنما كوسيلة تضمن بها بقاءها الاقتصادى .

تلك الصعوبة الرأسمالية الداخلية كانت وجهاً من وجوه النظام ، لم يلق فى الماضى إلا اهتماماً قليلا بشكل يدعو إلى الدهشة — ونقصد بذلك ما تتسم به الرأسمالية من عدم المساواة فى توزيع الثروة . أما أن نظام الربح غالباً ما أدى إلى ازدياد ثراء الأغنياء وازدياد نسل الفقراء ، فقد كان موضوعاً يثير القلق من الناحية الأخلاقية ، ولكن كان على هوبسن أن يبين نتائجه الاقتصادية

وكانت النتيجة التى رآها أشد مدعاة للدهشة ، فعدم المساواة فى الدخول أدى إلى أعجب الورطات — أى إلى موقف متناقض لا يستطيع فيه الأغنياء والفقراء — على سواء — أن يستهلكوا القدر الكافى من السلع . فالفقراء لم يستطيعوا استهلاك السلع بالدرجة الكافية لأن دخولهم أقل مما ينبغى ، بينما ترجع الظاهرة ذاتها فى حالة الأغنياء إلى أن دخولهم تزيد عن القدر الواجب ، وبعبارة أخرى ، كما يقول هوبسن ، فلكى يتخلص الاقتصاد من السلع المعروضة فى السوق يتعين عليه أن يستهلك كل ما ينتجه أى يجب وجود مشتر لكل سلعة . والآن إذا كان الفقراء لا يستطيعون شراء أكثر من مجرد الضروريات ، فمن ذا الذى يستهلك بقية السلع ؟ واضح أن الذين يستطيعون

شراءها هم الأغنياء . ولكن بينما يملك الأغنياء المال فإنهم يفتقرون إلى القدرة الطبيعية على ذلك الاستهلاك الذى يزيد عن طاقتها . فالرجل الذى يبلغ دخله مليون دولار يجب عليه أن يستهلك سلعاً تعادل ألف مرة ما يشتريه شخص لا يملك سوى ألف دولار ينفقها .

وهكذا . فنتيجة لانعدام العدالة فى توزيع الثروة فإن الأغنياء سواء كانوا أفراداً أو شركات — يضطرون إلى الادخار . فهم لا يدخرون لأن معظمهم يرغب فى هذا على أى حال ، وإنما لأنهم لا يستطيعون أن يساعدوا أنفسهم — أى أن دخولهم كانت أكبر من أن يتمكنوا من إنفاقها .

وهذا الادخار هو الذى يؤدى إلى المتاعب . كان لا بد من استخدام مدخرات الطبقات العالية من المجتمع وإلا قاسى الإقتصاد من النتائج الخطيرة التى تترتب على اطراد سحب القوة الشرائية . ولكن المشكلة تتعلق بالكيفية التى يمكن بها استخدام المدخرات . أجاب الإقتصاديون الكلاسيكيون على السؤال بأنه يمكن استخدام المدخرات فى مزيد من المصانع والإنتاج وبذلك يرتفع مستوى الإنتاج والإنتاجية ، وهذا الحل للمشكلة وافق عليه سميث وريكاردو ومل وجميع الاقتصاديين الكبار ، ولكن هوبسن وجد صعوبة فى الأخذ به لأنه إذا كانت أغلبية الناس تعانى الآن مشقة شراء جميع السلع التى يلقى بها فى السوق بسبب ضآلة دخولها فكيف يمكن لأى رأسمالى معقول أن يستثمر ماله فى معدات تلقى بالمزيد من البضائع فى سوق متخمة ؟ ما الكسب الذى يتحقق من وراء استثمار المدخرات فى مصنع جديد للأحذية ، مثلا ، إذا كانت السوق متخمة بمقادير من الأحذية تزيد عما يجرى استهلاكه ؟ وما الذى يتعين عمله فى هذه الحالة ؟

وكان الجواب دقيقاً بصورة شيطانية . إن المدخرات التى يكونها الأغنياء بطريقة آلية يمكن استثمارها بحيث لا يصحبه ازدياد الإنتاج فى الداخل ومعنى هذا أنه يمكن استثمارها فيما وراء البحار .

وهذا هو أصل الإمبريالية . إنها فى نظر هوبسن « المحاولة التى يقوم بها كبار الذين يتحكمون فى الصناعة ، لتوسيع المجرى الذى ينساب فيه فائض ثروتهم عن طريق البحث عن أسواق أجنبية واستثمارات أجنبية تستوعب ما لا يستطيعون استخدامه فى بلدهم : من البضائع ورأس المال » .

والنتيجة تنطوى على نكبة خطيرة ، ذلك أن الذى يبعث بالثروة الفائضة إلى الخارج ليس شعباً واحداً ، وإنما تسير الشعوب جميعها على النهج ذاته مما يترتب عليه سباق من أجل تقسيم العالم حيث يحاول كل شعب أن يحمى لصالح المستثمرين من أبنائه أغنى الأسواق التى يستطيع الاستيلاء عليها وأكثرها إدراراً للربح . وهكذا تصبح أفريقية سوقاً هائلة ومصدراً للخامات الرئيسية تقسم بين الرأسماليين فى إنجلترا وألمانيا ، وإيطاليا وبلجيكا ، وتصبح آسيا كعكة غنية يقتطع أجزاء منها اليابانيون والروس والهولنديون والروس وتصبح الهند أرضاً يغرقها الإنجليز ببضائعهم . وتتحول الصين إلى هند أخرى بالنسبة إلى اليابان .

وبهذا تصبح الإمبريالية طريقاً يؤدى إلى الحرب — إنها لا تصبح طريقاً ملكياً أو طريقاً للمغامرة أو النكبات ، ولكنها عملية دنيئة تتنافس فيها الشعوب الرأسمالية من أجل الحصول على منابت تنمو فيها ثرواتها المعطلة . إننا لا نكاد نجد قضية تعادلها فى الإيحاء باراقة الدماء .

ليست بنا حاجة إلى القول أن مثل هذه النظرية التى تدعو إلى العنف والصراع ، لم تلق إلا القدر اليسير من التشجيع من جانب العالم الرسمى لعلم الاقتصاد . فقيل إن هوبسن « خلط الاقتصاد بأشياء أخرى » ، ولما كانت تلك الأشياء الأخرى « لا تكاد تشير إلى أن العالم منظم على أساس إشباع اللذة ، لهذا اعتبر العالم الرسمى نظرية الإمبريالية استعراضاً لذلك الضرب من سوء السلوك ، مما نتوقعه من رجل آراؤه الاقتصادية إهانة لتلك المذاهب المطابقة للعقل ، من قبيل المنفعة الاجتماعية التى تعود من وراء القصد فى الإنفاق .

ولكن بينما تجنب المذهب فى ارتياب أولئك الذين كان فى إمكانهم أن يمحصوه بنظرة ذكية نقادة فإن فريقاً آخر من أهل العالم السرى احتضنه بكل إخلاص ، وهذا الفريق هو الماركسيون . لم تكن الفكرة على أية حال من ابتكار هوبسن تماماً إذ سبق أن صاغها الاقتصادى الألمانى رودبرتس ، وكذلك روزا لوكسمبرج وهى ثورية ألمانية شديدة الحماس . ولكن هوبسن عالج الفكرة بشكل أوسع وأعمق ، ثم لم يلق عليها الرداء الماركسى الملكى سوى أبرز النظريين الماركسيين — وهو رجل كان يعيش فى المنفى واسمه فلاديمير اليتش اليانوف — المشهور بلينين .

وإذ احتضنت الماركسية الفكرة وباركتها فقد خرجت وقد تغيرت إلى حد ما . كان هوبسن يشعر بالحيرة إزاء السبب الذى من أجله راحت الشعوب الرأسمالية تسعى بمثل هذه الروح الشرهة إلى اقتناء المستعمرات بعد أن ظلت طويلا تبدى نحوها عدم اكتراث متفاوت القدر . إن نظريته عن الإمبريالية لم تكن عقيدة ، ولم تكن نبوءة جامدة عن حرب لا مفر إطلاقاً من نشوبها ، بل الحقيقة أنه أعرب عن الأمل فى أن تتمكن الإمبرياليات المتنافسة من إجراء نوع من تسوية نهائية للعالم . ومن أن تعيش جنباً إلى جنب فى سلام وعلى أساس القاعدة المعروفة « عش ودع غيرك يعيش » .

وإذ ألقى الماركسيون رداءهم على النظرية فقد أصبحت ذات أنغام أكثر تهديداً بالخطر وصارت أشد جموداً وصلابة . لم تعد الإمبريالية حجر الزاوية فى الاقتصاد الماركسى ولم يضف الماركسيون عليها القداسة المنبعثة من العصمة عن الخطأ ، فحسب ، بل راحوا يوسعون من حدودها حتى تجاوز الإطار الذى رسمه لها هوبسن إلى أن أصبحت تفسر أيضاً المظهر الاجتماعى بأسره الذى تبدو به الرأسمالية فى مراحلها المتأخرة . ويا لها من صورة مخيفة تلك التى برزت :

وإذ أصبحت الإمبريالية أعلى مراحل التطور الرأسمالى . فإنها تجتذب جميع المستعمرات وجميع الأجناس وجميع الشعوب

فى مدار الاستغلال الذى تمارسه الرأسمالية المالية . وهى إذ تعتصر المبالغ الهائلة من الربح الفائض من ملايين العمال والفلاحين من أهل المستعمرات وتجمع دخولا هائلة من هذا الاستغلال ، فإنها تخلق طرازاً من طبقة تعيش على ما تحصل عليه من ريع ، وهى طبقة متعفنة ومنحلة تعيش بصورة طفيلية ، كما تخلق طبقة بأسرها من الطفيليين الذين يعيشون على أرباح الأوراق المالية التى يقتنونها . وهى إذ تتم عملية خلق المقدمات المادية الضرورية للاشتراكية (أى تركز وسائل الإنتاج ، وإضفاء الطابع الاجتماعى الشامل على العمل ، ونمو التنظيم العمالى) فإن عصر الإمبريالية يزيد من حدة العداوات بين الدول العظمى ويولد الحروب التى تسبب تحطيم إقتصادها العالمى الوحيد . وعلى ذلك فالإمبريالية هى رأسمالية تسير فى طريق الاحتضار والانحلال . إنها المرحلة النهائية فى تطور النظام الرأسمالى والباب الذى تدخل منه الثورة الاجتماعية .

هذه الفقرات كتبها ستالين لمناسبة انعقاد مؤتمر الدولية الشيوعية فى عام ١٩٢٨ ولكن بينما القلم قلم ستالين فالصوت صوت لينين . ومما يبعث على المزيد من القلق أن فكرة لينين عن عالم يدمر بعضه بعضاً وهو قد تعرض للدمار فاسد فى داخله وسلاب فى تصرفاته فى الخارج — نقول إن هذه الفكرة ما تزال التفسير السوفيتى الرسمى للعالم الذى نعيش فيه .

وعاد ستالين فى عام ١٩٥٢ فأكد صحتها حين كتب يقول بشكل قاطع :

. . إن القانون الاقتصادى الأساسى للرأسمالية المعاصرة يمكن صياغته بصورة تقريبية على النحو الآتى : ضمان الحد الأقصى من الأرباح الرأسمالية . . عن طريق استعباد شعوب البلاد الأخرى وبخاصة البلاد المتأخرة ، ونهبها بصورة منتظمة .

أما عن حقيقة الإمبريالية فأمر لا ريب فيه ، إذ ليس فى وسع أى امرىء

على دراية بالتاريخ فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ، إلا أن يلاحظ تلك السلسلة من أعمال النهب والتوسع الإقليمى التى تشهد بها تلك الحوادث التى لا نهاية لها من الغيرة والاحتكاك والحروب بين الدول . وإذ لم يعد من المألوف اعتبار الحرب العالمية الأولى صراعاً إمبريالياً « صرفاً » إلا أنه ما من شك أن السباق بين الدول الإمبريالية من أجل المركز والتفوق قد ساعد كثيراً على نشوبها .

ولكن الفتوح والمستعمرات قديمة مثل مصر القديمة وكما أظهر التاريخ الحديث للاتحاد السوفيتى ، سوف تظل موجودة سواء هناك رأسمالية توفر السبب فى نشوبها أم لم تكن . إن المشكلة التى تطالبنا النظرية الاقتصادية عن الإمبريالية بمواجهتها هى ما إذا كانت الفتوح التى حدثت خلال الخمسين عاماً الأخيرة منبعثة عن دوافع تختلف عن الدوافع الكامنة وراء الفتوح التى سبقتها أو التى قد تعقبها . من السهل أن نفهم تعطش دولة تحكمها أسرة مالكة إلى القوة ولكن الإمبريالية تطلب منا أن نفكر فيما إذا كانت القوى التى تحرك اقتصاد السوق ، وهى قوى أكثر ابتعاداً عن العنصر الشخصى ، يمكن أن تؤدى إلى نفس النتيجة فى النهاية .

يدعى المدافعون عن النظام الاستعمارى أن هذه النتيجة لا يمكن أن تتحقق . ففى عام ١٨٧٦ كتب بسمرك نفسه يقول : « إن جميع المزايا التى يزعمون أن البلد الأم يحصل عليها ، هى أوهام فى الغالب ، فانجلترا آخذة فى نبذ سياستها الاستعمارية إذ تجدها كثيرة الكلفة » . وردد ملاحظاته غيره من المدافعين عن النظام ، مشيرين إلى أن المستعمرات « لا تساوى تكلفتها » وأن الدول الكبرى لم تمارس الاستعمار فى سرور وإنما فرضته عليها رسالتها التمدينية فى العالم ، وأن المستعمرات تكسب أكثر مما يكسبه البلد الأم ، وهكذا .

ولكنهم أغفلوا النقطة المهمة . حقيقة كانت بعض المستعمرات عبئاً — ففى عام ١٨٨٥ أوصت فعلا لجنة من أعضاء مجلس العموم بالتخلى عن جميع

الممتلكات البريطانية باستثناء منطقة على الساحل الغربى من أفريقية ، وذلك على أساس أنها مغامرات غير مجزية إلى حد كبير . ولكن بينما لم تدر جميع المستعمرات ربحاً ، إلا أن بعضها كان مصدر أرباح خرافية، فمزارع الشاى بسيلان مثلا كانت تدر عائداً يعادل خمسين فى المائة من رأس المال فى سنوات الرواج . وبينما لم تحقق كل الصناعة فائدة من الأسواق فيما وراء البحار فإن بعض صناعات هامة لم يكد يكون فى الإمكان وجودها بدون هذه الأسواق ، والمثل الكلاسيكى على هذا نلقاه فى اعتماد الصناعة القطنية البريطانية على السوق الهندية . وحين عمد اليابانيون فى النهاية إلى أن يبيعوا المنتجات القطنية فى الهند بأسعار تقل عما يبيع به البريطانيون تلقت مصانع القطن فى لانكستر ضربة لم تفق من أثرها أبداً وتماماً حتى اليوم .

الشىء المؤكد أن ثمة دوافع إمبريالية أخرى كانت مختلطة إلى حد وافر بالدوافع الاقتصادية البحتة . كما أن الآثار الاقتصادية التى كان فيها التعويض عن شرور الامبريالية لم تكن تماماً بالبساطة التى وصفها بها ج . أ . هوبسن . إننا نكاد لا نستطيع بوجه عام أن نجد تفسيراً لتوغل الدول الأوروبية فى أفريقية وآسيا لا يشتمل على لون من ألوان الضرورة الاقتصادية . ففى حالة هولنده مثلا كان اقتصاد جاوه وسومطرة القائم على المزارع الضخمة ميداناً لمدخرات تفيض كثيراً عن حاجة إقتصاد الدولة الأم الصغير ؛ وفى حالة الملايو نجد أن الخامات الثمينة والرخيصة قد أتاحت لجون بول John Bull (إنجلترا) إحتكاراً دولياً مجزياً ، وفى حالة الشرق الأوسط كان هناك البترول إلى جانب السيطرة الاستراتيجية على الملاحة عبر قناة السويس . قد تختلف الدوافع من بلد إلى بلد ، ولكن القاسم المشترك بين المكاسب الاقتصادية موجود فى هذه البلدان جميعاً .

« إن ما تفتقر إليه صناعاتنا . . وما تفتقر إليه أكثر فأكثر هو الأسواق » هذا ما قال به وزير فرنسى فى عام ١٨٨٥ . وفى عام ١٩٢٦ صرح الدكتور

شاخت — وكان فى ذلك الحين رئيساً للبنك المركزى الألمانى — « بأن الصراع على المواد الخام يلعب أهم دور فى السياسة العالمية ، بل ودوراً أعظم مما كان يلعبه قبل الحرب ، والحل الوحيد أمام ألمانيا هو الاستحواذ على مستعمرات » . وبينما لم تتحقق تماماً النذر الكئيبة على النحو الذى تنبأ به هوبسن إلا أنه يبدو أنها تأيدت .

فالرأسمالية تستطيع حقاً أن تجد نفسها مرغمة بحكم الضغوط الاقتصادية الباطنية : على أن تتجه ناحية الاستغلال الاقتصادى بالخارج ، وهذا الاستغلال كما أظهر التاريخ بوضوح ، يمكن أن يؤدى بسهولة إلى الحرب .

هل معنى هذا أن الإمبريالية لا يمكن أن تنفصل عن الرأسمالية ؟ يقول الماركسيون إن الأمر كذلك بالطبع ، ولهذا يفسرون كل عمل يقصد به إرسال رأس المال إلى الخارج على أنه استعمار مستتر ، فى صورة أو أخرى ومن هنا فالجهود التى نبذلها من أجل دفع عجلة النمو الاقتصادى فى الشعوب الجديدة الناهضة فى الشرق والجنوب يرى فيها الزعماء السوفييت جهوداً هدفها تخليص الأسواق المتخمة مما فيها من بضائع ورؤوس أموال لا يمكن أن نستوعبها فى داخل بلادنا ، بينما تذكر العمليات التى تقوم بها شركة بترول أمريكية فى فنزويلا على أنها دليل ظاهر لأول وهلة على أن مصاصى الدماء الإمبرياليين القدامى لا يزالون يطبقون الخناق على ضحاياهم .

ولكن كما أخطأ المدافعون عن النظام القديم حين رأوا فى الإمبريالية دوافع (تمدينية) وأغفلوا جذورها الاقتصادية ، كذلك يعمد الماركسيون إلى المبالغة الهائلة فى تبسيط الرأسمالية الأمريكية . إن المعونة الاقتصادية أداة قوية بالطبع فى الحرب الباردة . وليس من شك فى أن السعى الرأسمالى وراء الأرباح هو الذى يدفع بشركاتنا إلى إنشاء فروع لها فيما وراء البحار . ولكن الاستثمارات الأجنبية والتجارة الخارجية ، بالرغم من اتجاهها نحو تحقيق الأرباح ومن شذاها السياسى لا تؤدى فى حد ذاتها إلى الإمبريالية . فالإمبريالية عبارة عن هذه

الأشياء بالإضافة إلى التدخل السياسي والاستغلال الاقتصادي والقوة العسكرية والإغفال السافر للثقافات والأفكار التي تقف في طريقها . فانتفاء هذه العوامل هو الذي يفرق بين التجارة والإمبريالية ، ولهذا ففي هذه الحالات نفسها — وبغض النظر عن بعض استثناءات يختلف السلوك الاقتصادي الأمريكي في الخارج عن التقليد الإمبريالي القديم .

ولنضرب مثلاً عن استثمار خاص ضخم فيما وراء البحار . إن شركة ستاندارد أويل في فنزويلا تعيد النظر في سياستها حتى تتجنب أخطاء الماضي . فالسياسة التي ينتهجها الاستثمار الخاص في الخارج والمبادىء الاقتصادية التي يسير وفقاً لها تميل إلى أن تتخذ نظرة جديدة . فأمام شركة ستاندارد التجارب التي مرت بها شركات الزيت الأمريكية في المكسيك ، لتستفيد منها .

ففي العشرينات من القرن الحالي ظنت شركات البترول أنها تملك المكسيك وراحت تتصرف على أساس هذا الظن ، ولشد ما انتابتها الدهشة حين وجدت نفسها وقد انتزعت منها ممتلكاتها . ولهذا تتحدى ستاندارد المذهب الامبريالي الطيب لا بدفع أعلى الأجور المحلية في فنزويلا فحسب بل وبعقد اتفاق تعيد بمقتضاه نصف أرباحها إلى الاقتصاد الفنزويلي ، وبتدريب المديرين المحليين استعداداً لليوم الذي تتخلى فيه الهيئة الأمريكية طواعية عن رقابتها . وهذا الإجراء الأخير يعتبر أعظم زندقة بالقياس إلى غيره . من المؤكد أن ستاندارد تعمل هناك كي تجني ربحاً ولكنها لا تذهب هناك للنهب والسلب .

ليس معنى هذا أنه قد زالت آخر آثار الامبريالية . ففي الشرق الأدنى اتحادات رأسمالية ضخمة من المصالح البترولية تواصل الإبقاء على أشد الحكومات فساداً في العالم وأكثرها منافاة لروح العصر . وفي أفريقية مشروعات رأسمالية كثيرة — بريطانية وفرنسية وبلجيكية وبرتغالية أو يملكها أهل اتحاد جنوب أفريقية والأمريكيون — لا يزال لها مصالح — ومصالح هائلة — في تنمية الموارد الدفينة في أفريقية إلا أننا نجد في ظروف القلق والاضطراب

الحاليين ، حقوق الوطنيين فى الإشراف على استغلال ثروة بلادهم والتمتع بها ، موضع النسيان بسهولة .

ومع ذلك ، فحتى فى هذه المعاقل الأخيرة التى لا تزال الإمبريالية تحتفظ بها ، نشهد أمارات تدل على تغيير — وهو تغيير لا ينبعث من مجرد طيبة القلب أو اتساع أفق الفهم ، وإنما هو تغيير مفروض على العالم الرأسمالى بحكم حدوث تحول قاطع فى طابع المستعمرات السابقة .

فى ذروة العصر الإمبريالى كان سدس العالم غنياً وقوياً ، بينما كانت خمسة أسداسه الباقية ضعيفة ، وفقيرة وسهلة الانخداع . ولم يعد الحال كذلك اليوم . لا يزال السدس الغنى على غناه ولكنه يقف موقف الدفاع من الناحيتين السياسية والاقتصادية ، ولا تزال بقية العالم على فقرها ولكنها تلتزم موقف الهجوم فى غضب . فآسيا قد أدارت ظهرها لأوربا ، والشرق الأوسط ينفجر بالغضب الشديد الذى يستشعره الشحاذ حين ينظر إلى الغنى ويرى — بغض النظر عن الاعتبارات الرزينة — الظلم الفادح الذى يتجلى فى تفاوت مركزيهما فى الحياة . وبدأت أفريقية تساورها أحلامها العظيمة .

معنى هذا ببساطة أنه لم يعد هناك مجال للامبريالية ، كما أن المجال ضئيل أمام تلك الاتجاهات القديمة من الاستيلاء على الأراضى والاستغلال التجارى الفاضح ، والازدراء بالثقافات . إن الإمبريالية لم تمت بعد تماماً ، ولكنها فى دور الاحتضار ، وقضى العدل أن تكون مظالمها الماضية السبب فى موتها ، لأن المظالم التى ارتكبتها والإهانات التى وجهتها ولدت القومية الوطنية المرة التى ترى فى الإمبريالية لعنة .

فى هذه القصة الدنيئة كلها كان من حسن حظ الولايات المتحدة أنها لم تلعب إلا دوراً على الهامش . لقد تلاعبنا بالامبريالية فى الفليبين وفى « جمهوريات الموز » التى أقمناها ، وكانت لنا مغامراتنا العسكرية فى كوبا وتكساس . ولكن بالرغم مما كان فى هذا كله من إغراء لم ننغمس

فى سباق مجنون من أجل الاستيلاء على أراض أجنبية . ليس هذا لأننا كنا أقل إحساساً بالقومية المتعصبة فى تلك الأوقات ؛ أو أن اقتصادنا كان أقل حاجة إلى المنافذ الخارجية . إن الذى أنقذ الولايات المتحدة هو أننا كنا نملك إمبراطورية ضخمة بكل مزاياها من الأسواق الأوسع نطاقاً : والمواد الغنية ، والأرباح التى تبهر الأنظار وذلك فى الجانب الخلفى من بلادنا أى وراء حدود المستعمرات القديمة ، فبينما اضطرت أوربا إلى الاتجاه صوب قارات أخرى ، كان فى إمكاننا أن نتجه صوب الأقاليم الغربية من بلادنا .

وبهذا لم نصبح أبداً دولة إمبريالية هائلة ومخيفة إذ لم تكن ثمة ضرورة تلجئنا إلى هذا ، ذلك أن الغرب كان يستوعب كل ما نملك من طاقة ونشاط . والآن وقد زال هذا الحد الغربى ، فإن لدينا — إلى جانب نضوجنا — ذلك الطابع الجديد للعالم كى يكبح جماحنا . ولكن حين ننظر إلى النشاط والقوة التى جرى بهما استغلال القسم الغربى من بلادنا ، فإننا قد نكون أقدر على فهم طبيعة الديناميكية التى دفعت شعوباً أخرى ، لم تكن فى مثل ظروفنا الموفقة ، إلى أن تبعث بالرجال والأموال والمواد إلى ما وراء البحار . حين نرتد بأبصارنا إلى الوراء لنلقى نظرة على إمبريالية القرن التاسع عشر فإنها لا تبدو كالمراحل الأخيرة فى حياة رأسمالية فى دور الاحتضار بقدر ما تنم عن روح القتال فى مجتمع كان ما يزال فى مرحلة البلوغ السياسى . ومن حسن حظنا العظيم أن فترة البلوغ عندنا استنفدت قوتها وروحها المغامرة فى داخل بلادنا .

ومات جون هوبسن فى عام ١٩٤٠ ونشرت صحيفة التيمز اللندنية نعيه فى عبارة امتازت بالحرص ، ودلت تماماً على ما كان له من آراء بعيدة النظر وعما لقيه من عدم اعتراف عام به .

أما أنه لم يكن موضع الاعتراف ، فصحيح . وكان أشهر اقتصادى فى العالم الفكتورى اقتصادياً يخالف هوبسن تماماً ، ذلك هو ألفرد مارشال الذى كان ينظر إليه على أنه اقتصادى متزن التفكير ، معتدل الرأى ، ويمثل

العالم « الرسمى » لعلم الاقتصاد ، بقدر ما كان هوبسن اقتصادياً ذا بديهة نفاذة ، ومتطرفاً ، وخارجاً على المذهب السائد إن صح القول . إلا أنه من المناسب أن نختتم هذه الرحلة التى قمنا بها فى تلك الأقاليم القائمة من العالم السرى لنعود ثانية إلى شمس العصر الفكتورى . ربما لم ير الإقتصاديون الذين عملوا فى وضح النهار ، تلك المناظر المزعجة التى تبدت لمن كانوا أكثر منهم ميلاً إلى المغامرات ، ولكنهم عملوا شيئاً لم يقم به الهراطقة ، ذلك أنهم علموا عالمهم — بل وعالمنا — (اقتصاده » .

يكفى أن ننظر إلى صورة ألفرد مارشال حتى نرى طراز المعلم ، فهو بشاربه الأبيض وشعره الكث الأبيض وعينيه اللامعتين اللتين تنمان عن السماحة يبدو فى مظهر الأستاذ إلى درجة فائقة . وعند وفاته فى عام ١٩٢٤ حين حيا كبارُ الاقتصاديين فى انجلترا ذكراه ، قدم أحدهم وهو الأستاذ س . ر . فاى هذه الصورة التى لا تمحى لأستاذ العصر الفكتورى ، كما تراءت له :

حدثنى بيجو بأنه ينبغى لى أن أتوجه لأراه بشأن موضوع رسالة لامتحان الزمالة . ولهذا ذهبت بعد ظهر أحد الأيام وقبيل الغروب إلى باليول كروفت . ولدى وصولى أسرع نحوى قادماً من ممر صغير وقال « ادخل . ادخل » وصعدت معه . ثم سألنى « هل لديك فكرة عما تفعله ؟ » فقلت « لا » . فقال وهو يخرج كتاباً أسود الغلاف صغيراً « حسناً ، اذن فاستمع » . وبعد ذلك راح يقرأ قائمة من موضوعات وكان قد أمرنى أن أرفع يدى إذا ذكر موضوعاً أميل إليه . وبسبب اضطراب أعصابى حاولت أن أختار الموضوع الأول ، فلم يعبأ مارشال بذلك وواصل القراءة وحوالى منتصف الصحيفة الثانية وصل إلى موضوع « الأزمة المالية الألمانية الحديثة » . وإذ كنت قد زرت جرايفزفالد فى الصيف لهذا أومأت بالموافقة ، فقال « لن يناسبك هذا على الإطلاق » . فالتزمت الصمت خمس دقائق أخرى وإذ طرق سمعى

اسم « الأرجنتين » أحدثت صوتاً آخر جعله يتوقف وكان السبب الوحيد عندى أن اثنين من أعمامى كانا يزاولان أعمالا هناك. وهنا سألنى « هل ذهبت بنفسك إلى هناك ؟ » فأجبت « كلا » ، وواصل القراءة . ولم تمض لحظات قلائل حتى توقف وقال « هل وجدت موضوعاً يروق لك ؟ وبدأت أقول « لا أدرى » فقال « ولا أحد يدرى أبداً ولكن هذه طريقتى . والآن ماذا تود أن تعمل ؟ فأجبت بصوت متهدج « الموازنة بين العمل فى كل من ألمانيا وانجلترا » . وعند سماع ذلك (وكانت الغرفة قد أظلمت تماماً) أخرج مصباحاً صغيراً له زر كهربائى وبدأ يطوف حول الرفوف ويعطينى كتباً بالإنجليزية والألمانية مثل كتب فوت نوستتز وكولمان ، وكان عددها ثلاثين كتاباً . ثم قال « والآن أتركك كى تراجعها وحين تفرغ من هذا فعليك باطفاء الأنبوبة وسوف تحضر لك سارا بعضاً من الشاى .

كان هذا كله بعيداً جداً عن الصراع الأفريقى الذى سبق أن أقلق هوبسن ، أو عن المضاربة الأمريكية الصاخبة التى هيأت مهد البيئة التى نبتت فيها أفكار هنرى جورج . كان مارشال ، كمعاصره إدجورث ثمرة جامعة . وبالرغم من أنه سافر إلى أمريكا بل وعبرها حتى بلغ سان فرنسسكو ، فإن حياته ووجهة نظره — ومذهبه فى الاقتصاد حتما — كل ذلك كان يشيع فيه ما اتصفت به بيئة كمبردج من هدوء وتهذيب .

ولكن ما الذى علمه تماماً للناس ؟ إن كلمة واحدة يمكن أن تلخص الاهتمام الأساسى الكامن وراء تعاليم مارشال — وهذه الكلمة هى التوازن . فعلى خلاف باستيا الذى اندفع صوب السفسطة الاقتصادية بآرائها المنافية للمعقول ، وعلى نقيض هنرى جورج الذى اجتذبته مظالم الحياة التى يكسوها رداء الرضاء من جانب أساتذة الاقتصاد أو هوبسن الذى رأى وجه إله الحرب مارس وراء عمليات الاقتصاد الرأسمالى المجهلة — نقول إن مارشال على خلاف

هؤلاء جميعاً كان يعنى أصلا بطبيعة العالم الاقتصادى التى تجعله يعمل على ضبط نفسه وتصحيح أوضاعه بنفسه . وعلى حد قول أنبه تلاميذه ج . م . كينز فيما بعد : خلق مارشال « نظاماً كاملا يشبه نظام كوبر نيكس فى علم الفلك وبمقتضاه تجرى المحافظة على جميع عناصر الكون الاقتصادى فى أماكنها عن طريق التوازن والتفاعل المتبادلين » .

لقد سبق قول الكثير من هذا القبيل ، بطبيعة الحال . فآدم سميث وريكاردو ومل أوضحوا جميعاً أن نظام السوق يشبه جهازاً يغذى نفسه بنفسه ، وهو جهاز على درجة كبيرة من التعقيد والكفاءة . ولكن بين النظرة التى ترى كل شىء وبين إبراز التفاصيل الدقيقة كانت هناك مجالات كثيرة غامضة لم يسبق ارتيادها — فنظرية التوازن التى ورثها مارشال كانت أشد وقعاً فى النفس بكثير إذا نظرنا إليها عن بعد وليس عن قرب شديد . وكانت هناك نواح غير واضحة حتى بشأن مسائل أساسية مثل ما إذا كانت الأثمان انعكاساً حقيقة كتكلفة إنتاج سلعة ، أو مثل درجة الإشعاع النهائية الذى ينجم عن تلك السلعة . وبعبارة أخرى هل كانت أحجار الماس أغلى ثمناً بسبب صعوبة العثور عليها أم لأن الناس كانوا يتمتعون بلبسها ؟ ربما لم تكن أمثال هذه الأسئلة لتثير اهتمام أحد سوى رجل الاقتصاد ، ولكن طالما ظلت غامضة فقد كان من الصعب التفكير بوضوح فى مسائل كثيرة حاول الإقتصاديون حلها .

إلى أمثال هذه المسائل المشوشة التى تتضمنها النظرية الاقتصادية وجه مارشال اهتمامه . إن كتابه الشهير « المبادئ » يجمع بين دقة العقل الرياضى وبين أسلوب متمهل ، ينتقل من فكرة إلى فكرة وتتخلله الأمثلة العادية المألوفة ، ويمتاز بالوضوح إلى درجة تدعو إلى الإعجاب ، وحتى رجل الأعمال يستطيع أن يفهم هذا النوع من الاقتصاد ، إذ كان مارشال من حسن الإدراك بحيث أورد جميع البراهين المنطقية الصعبة فى الهوامش (وكانت النتيجة أن قال كينز إن أى اقتصادى يحسن صنعاً لو قرأ الهوامش وأغفل

الثمن ، بدلا من أن يفعل العكس) . وعلى أى حال فقد لقى الكتاب نجاحاً هائلا ، وبالرغم من أنه نشر فى عام ١٨٩٠ فما يزال يوصى به الطالب الذى يصبو أن يكون اقتصادياً .

وماذا كانت مساهمة مارشال الكبرى فى تلك العقد الفكرية فى علم الاقتصاد ؟ إن المساهمة الأساسية — والتى كان مارشال نفسه يعود إليها باستمرار كانت إصراره على أهمية الوقت كالعنصر الجوهرى فى سير عملية التوازن .

ذلك أن التوازن كما أوضح مارشال يغير معناه الأساسى طبقاً لما إذا كانت عملية الضبط فى الاقتصاد تحدث فى فترة قصيرة أو طويلة . ففى الأجل القصير يتقابل المشترون والبائعون للمساومة فى مكان السوق ، ولكن عملية المساومة تدور أساساً حول كمية ثابتة نوعاً من البضائع — كالماسات التى يأتى بها تجار الماس فى حقائبهم . إلا أن كلية الماسات ليست ثابتة فى الأجل الطويل . فيمكن فتح مناجم جديدة إذا كان الطلب يبرر ذلك ويمكن هجر المناجم القديمة إذا كان العرض يفيض على الطلب . ومن هنا فإن المنفعة النفسية للماسات أو المتعة التى نحس بها فى الأجل القصير — أى الطلب عليها — هى التى تؤثر تأثيراً عاجلا على سعرها بالسوق . ولكن فى الأجل الطويل وإذ يتعادل العرض مع حاجات المستهلكين فإن التأثير الغالب يصبح لتكلفة الإنتاج ولا يمكن بطبيعة الحال فصل التكلفة أو المنفعة تماماً عن تقرير الثمن فالطلب والعرض على حد تعبير مارشال أشبه « بنصلى المقص » وغير مجد أن نسأل إذا كان العرض أو الطلب وحده ينظم الثمن كما لا يجدى السؤال عما إذا كان النصل الأعلى أو الأدنى من المقص هو الذى يقوم بعملية القطع كلها . ولكن بينما يقطع النصلان سوياً إلا أن أحدهما إذا صح القول إيجابى والآخر أكثر سلبية ؛ نصل المنفعة — الطلب حين يحدث القطع فى فترة سريعة فى سوق معلومة ، ونصل التكلفة — العرض حين تمتد عملية القطع على مدة أطول تتغير خلالها مقادير الإنتاج وأنماطه .

كانت هذه الفكرة شأنها شأن أى شىء عالجه مارشال بعقله التحليلى تدل على عمق النظرة الكاشفة . ولكن كتاب « المبادئ » كان يشع ما هو أكثر من الضياء النظرى . فإذا كان مارشال أبدع عقل فى العالم «الرسمى» للاقتصاد فقد كان أيضاً عقله الذكى العطوف . فالاهتمام الصادق بالفقراء العاملين ، بالبؤساء الأذلاء « ممن لاحظهم خلال جولاته بالأحياء الفقيرة بلندن » ، وبالاقتصاد كأداة للتحسين الاجتماعى — كل هذا كان داخلا فى نسيج الكتاب بحيث لا يمكن فصله ، فعلم الاقتصاد فى تصوره كان « آلة لاكتشاف الحقيقة » ولكن الحقيقة الخاصة التى وجه إليها آلته كانت سبب الفقر وعلاجه.

لماذا إذن لم يحرز فى تاريخ الفكر الاقتصادى تلك الأهمية التى يبدو أن ذكاءه واتزانه يؤهلانه لها ؟ مما يدعو إلى السخرية أننا نلقى الجواب فى نفس طبيعة تحليل مارشال والذى كان أهم هبة قدمها للتحليل الاقتصادى أى عنصر الزمن . فالزمن عند مارشال هو الزمن المجرد ، أى الزمن الذى تنفرج فيه المنحنيات الرياضية وتجرى فيه التجارب النظرية ويعاد إجراؤها ، وليس الزمن الذى يحدث فيه شىء حقيقة . معنى هذا أنه لم يكن ذلك السيل الذى لا يصد من الزمن التاريخى ، وأهم من هذا لم يكن ذلك الزمن التاريخى الذى عاش فيه مارشال نفسه . على القارىء أن يفكر فيما رآه خلال حياته ، من ثورة عنيفة ضد الرأسمالية فى الروسيا ، وحرب عالمية ، وأول قعقعة للسلاح والصادرة من الحركات المعادية للاستعمار . وليفكر فى الأحداث القريبة منه كانهيار الرأسمالية فى جزء كبير من أوربا ، وتغيير على النطاق العالمى فى فكرة الحكم ، وكساد فى الولايات المتحدة هز العالم . أما من ناحية علاقة الاقتصاد بجميع هذه التغييرات الساحقة فإن ألفرد مارشال بل وزملاءه الرسميين الأقل منه شأناً ، لم يفهموها كثيراً أو لم يفهموها إطلاقاً . كانت عبارة « الطبيعة لا تقفز قفزات مفاجئة » Natura non facit saltum هى شعار كتاب « المبادىء » فى طبعته الأخيرة عام ١٩٢٠ كما كانت فى الطبعة الأولى عام ١٨٩٠ . أما أن التاريخ قد يقوم بقفزات مفاجئة ، وأن عالم الاقتصاد قد

يرتبط ارتباطاً لا انفصام فيه بعالم التاريخ ، وأن فكرة الكتاب عن أثر عامل «الزمن» فى الأجلين الطويل والقصير كانت مختلفة اختلافاً كلياً عن فكرة الزمن كما تدل عليه الدقات الثابتة من ساعة التطور الاجتماعى — نقول إن هذا كله كان بعيداً عن نظريات التوازن التى جعلها مارشال جوهر بحثه الاقتصادى ليس فى الإمكان لومه على شىء قاله إذ كان رجلا ذا إيمان رقيق ومعتقدات ثابتة فى قرارة نفسه . إن المشكلة تتلخص فى أنه لم يتعمق بالدرجة الكافية فى أى شىء قاله . وحتى هذا يمكن أن نتجاوز عنه حين نرتد بأبصارنا إلى الوراء لولا شىء واحد . ففى الأثناء التى انصرف خلالها مارشال وزملاؤه إلى تحسين نظرياتهم الدقيقة عن التوازن أصر عدد قليل من الخارجين على المذهب الصحيح على أن التغير والتغير العنيف وليس التوازن ، هو الذى يميز العالم الحقيقى ، وأنه هو الذى يمثل الموضوع الذى يجب أن ينصب عليه البحث الاقتصادى . كانت الحرب والثورة والكساد والتوتر الاجتماعى فى نظرهم هى المشكلات الأساسية التى يتعين على علم الاقتصاد أن يفحصها ، وليست التوازن وتلك العمليات الرقيقة التى تسبب التوازن والضبط فى مجتمع لا وجود له إلا فى كتاب مدرسى . وحين بين الزنادقة والهواة هذا الأمر للأساتذة الأكاديميين فى العصر الفكتورى ، كانت ملاحظاتهم موضع الاستياء ، وتحذيراتهم تنحى جانباً بهزة استخفاف . وضروب العلاج التى وصفوها محل الاحتقار .

إن الرضا الذى شاع فى العالم الرسمى لم يكن مجرد تعقيب أسيف على العصر ، ولكنه كان مأساة فكرية من الدرجة الأولى إذ لو وجه هؤلاء الأكاديميون الاهتمام إلى العالم السرى أو كانت لألفرد مارشال تلك الرؤية المقلقة التى توافرت لهوبسن ، أو أحس إدجورث بذلك الشعور بالظلم الاجتماعى الذى نلقاه عند هنرى جورج ، فربما لم تنفجر كارثة القرن العشرين الكبرى ، فوق عالم كان على غير استعداد كلية للتغيير الاجتماعى الجذرى . هذا الرضا إذ نرتد بأبصارنا إليه ، يعلمنا أن الأفكار ، مهما كانت خارجة على المذهب الصحيح — لا يمكن تجاهلها فى أمان — على الأقل من جانب ذوى الاهتمامات المحافظة — بأفضل ما تدل عليه كلمة محافظة التى يساء استعمالها .

الفصل الثامن

العالم المتوحش
الذى عاش فيه ثورشتاين فبلن

إنقضى الآن مائة وخمسة وعشرون عاماً منذ أن ظهر كتاب « ثروة الشعوب » فى عام ١٧٧٦ ، وفى هذه الفترة بدا كما لو أن الاقتصاديين الكبار لم يتركوا ناحية من العالم لم يفحصوها : روعتها أو حقارتها ، سذاجتها أو أنغامها الصاخبة المنذرة بالخطر أحياناً - إنجازاتها الرائعة فى التكنولوجية أو ما اتصفت به غالباً من نقائص دنيئة فى القيم الإنسانية . ولكن هذا العالم الكثير الجوانب وبعشرات التفسيرات المختلفة لها كان ينطوى بالرغم من هذا على عامل مشترك ذلك أنه كان أوربياً . فبالرغم من مظهره الاجتماعى المتغير ظل هو العالم القديم ، وبحكم صفته هذه كان يصر على القدر اليسير من التدقيق .

لهذا فليس مما له مغزى أنه حين كون ديك آركريت ، صبى الحلاق ، ثروته من آلة الغزل التى اخترعها ؛ تحول فأصبح السير ريتشارد ، وهكذا تم ببراعة حل التهديد الموجه إلى حكم السادة التقليدى بانجلترا عن طريق إدماج هؤلاء المحدثين من أهل الثراء فى مجتمع ذوى الدم الأزرق والسلوك المهذب . حقيقة جاء هؤلاء المحدثون معهم بسلسلة من اتجاهات الطبقة الوسطى بل ونوعاً من الشعور المعادى للأرستقراطية ؛ ولكنهم جلبوا معهم أيضاً المعرفة الخبيثة بأن هناك طبقة إجتماعية أعلى من تلك لا يمكن الوصول إليها إلا بطريق الثروة وحدها . وكما يشهد بذلك العدد الذى لا حصر له من الكوميديات التى تعالج موضوع الآداب والسلوك . كان هناك فارق بين البارون الذى يشرب الجعة بالرغم من كل الملايين التى يملكها والألقاب التى

يشتريها وبين جاره البارون الذى حل به الفقر ولكنه يحمل لقباً موروثاً . قد يكون رجل الأعمال الأوربى الناجح فى مثل ثراء كروسوس ولكن شذا ثرائه كان يقلل منه الإدراك بأن هذا إنما هو خطوة واحدة — والخطوة الأخيرة بكل تأكيد — فى ارتقاء السلم الاجتماعى .

كل هذا كان يختلف اختلافاً شاسعاً فى أمريكا . فلم يقتصر أمر هذا البلد على أن الذين أسسوه كانوا يشعرون بعداء عميق من ناحية الانقسامات الاجتماعية القائمة على أساس اللقب والمولد ، بل لقد تغلغلت روح الاستقلال الفردى والعمل الفردى فى أعماق الأدب الشعبى القومى . فالرجل فى أمريكا كان يقاس بعمله وقيمته ، ولم يكن النجاح الذى يحققه بحاجة إلى أن يؤكده عالم الأنساب . ومن هنا بينما لم يكن ثمة اختلاف كثير بين المصانع المظلمة المرهقة فى نيو إنجلند وبين المصانع الكئيبة القائمة فى انجلترا القديمة ، فإن التشابه يتضاءل حين نتحول من المصانع إلى أخلاق أصحابها وسلوكهم . فبينما ظل الرأسمالى الأوربى يلاحقه ظل الماضى الإقطاعى كان الأمريكى الذى يجمع الثروة يعيش فى جو صاف من الغيوم والظلال — إذ ليست هناك تقاليد أو قواعد تحول بينه وبين السعى إلى القوة أو التمتع المفرط بثروته ، كان المال فى ذلك النصف الأخير المضطرب من القرن التاسع عشر نقطة الابتداء فى الطريق إلى المركز الاجتماعى فى أمريكا ، وإذ حصل المليونير الأمريكى على جواز سفر يتمثل فى ثروة مناسبة ، فإنه لم يكن بحاجة إلى تأشيرة أخرى كى يدخل إلى صفوف الطبقات العليا .

وبهذا كانت لعبة كسب المال فى العالم الجديد أكثر خشونة وأقل تهذباً من الصراع التنافسى فى الخارج . كانت المخاطر أكبر وفرص النجاح أعظم ومن هنا كانت الروح الرياضية أقل .

ففى الستينات من القرن التاسع عشر مثلاً وجد كورنيليوس فاندربلت ، وهو عبقرية أسطورية فى عالم الملاحة والتجارة ، أن شركاءه فى العمل يهددون

مصالحه . وهو أمر لم يكن غير مألوف ، فما كان منه إلا أن كتب إليهم الخطاب الآتى :

حضرات السادة :

باشرتم العمل على إنزال الخراب بى . لن أقاضيكم لأن القضاء يستغرق وقتاً طويلا . سوف أخرب بيوتكم .

المخلص

كورنيليوس فان دربلت

ونفذ وعيده . وقال الكومودور « لماذا أهتم بالقانون ؟ ألست أملك القوة ؟ » وبعد ذلك بوقت عبر ج . بيربونت مورجان عن الشعور نفسه وان يكن بصورة أكثر تهذيباً . فحين تجاسر شريكه القاضى جارى فى مناسبة نادرة على على إثارة اعتراض قانونى ، انفجر مورجان قائلا « حسناً ، لا أدرى إذا كنت فى حاجة إلى محام يخبرنى عما لا أستطيع أن أعمله . إنى أستأجره كى يخبرنى كيف أعمل ما أريد عمله » .

إن الأمريكيين لم يبزوا معاصريهم الأوربيين من ناحية إغفالهم عمليات القانون الدقيقة فحسب بل كانوا أيضاً إذا اشتبكوا فى حرب ينبذون سيف الجنتلمان ويقصفون رقبة الخصم . ومن الأمثلة على هذا الأمر الصراع الذى دار حول السيطرة على سكة حديد ألبانى — سسكويهانا ، وهى حلقة حيوية فى شبكة كان يتقاسمها جيم فيسك ومورجان . كان أحد طرفى الخط فى أيدى مورجان بينما كان الطرف الآخر من معاقل فيسك . وكانت النتيجة أن حل النزاع بأن ركب كل منهما قاطرة واندفع بها من ناحيته لتصطدم القاطرتان كأنهما لعبتان هائلتان من لعب الأطفال . وحتى فى هذه الحالة لم يسلم الخاسران وإنما انسحبا من الميدان بأفضل ما كان فى وسعهما ، وهما يشقان الطريق ويحطمان المساند الخشبية .

فى هذا الصراع من أجل التفوق الصناعى لم تكن الرحمة موضع الطلب

أو المنح . وحتى الديناميت كانت له استعمالاته إذ استخدم مرة للقضاء على خصم عنيد بوجه خاص ينافس مجموعة ستاندارد أويل ، بينما استخدمت وسائل أخرى أقل عنفاً مثل الاختطاف ، إذ كانت أكثر دهاء منها مجافاة للأخلاق .

ففى عام ١٨٨١ حين أطارت عاصفة ثلجية قوية أسلاك البرق فى نيويورك اضطر جاى جولد . سيد أسواق المال الذى لا يرحم . إلى أن يبعث بأوامره إلى سمساره على يد رسول . وهنا رأى أعداؤه فرصتهم وانتهزوها ، فاختطفوا الصبى وأبدلوه بآخر له نفس المظاهر الجثمانية العامة ، وظل جولد أسابيع عدة فى أسى ويأس إذ وجد أن حركاته كانت معروفة بطريقة ما لأعدائه مقدماً .

لسنا بحاجة إلى القول أن القراصنة الذين كانوا يرغمون بعضهم بعضاً على الإلقاء بأنفسهم إلى البحر ، لم يكد ينتظر منهم أن يعاملوا الجمهور باحترام . كانوا ينظرون إلى خديعة المستثمر وابتزاز ماله على أنهما أمر عادى ، وكانت سوق الأوراق المالية تعتبر نوعاً من كازينو خاص للأغنياء ، يلقى فيه الجمهور بأمواله على المائدة بينما يثبت عمالقة عالم المال عجلة الروليت . أما ماذا يحدث لهذا السيل من المراهنات فى ظل تنظيم كهذا فأمر يتعلق بالجمهور ، وهو اتجاه كان يمكن أن يكون محموداً لولا أن هؤلاء العمالقة أنفسهم كانوا ينفقون الملايين كى يخدعوا الجمهور فيقع فى شباكهم .

وهنا نلاحظ أن الجمهور كان يستجيب بإرادته فحين « تسرى » الأنباء بأن جولد أو روكفلر يشتريان أسهم السكك الحديدية أو مناجم النحاس أو مصانع الصلب ، فإن الجمهور يندفع كى يشترك فى السباق . أما أن كل مشروع يقتل كان يسلب منه كل شىء ، فأمر لم يؤثر أبداً فى إيمان الجمهور ، الذى لا حد له ، وعلى أساس هذا الإيمان صار فى الإمكان وجود تلك الشعوذة المالية . ومن الأمثلة التى تجعل الرأس تدور من فرط الدهشة أن هنرى روجرز

ووليم روكفلر اشتريا شركة نحاس آنا كوندا دون أن يدفعا دولاراً واحداً من جيبهما الخاص . وهذه هى الطريقة التى أتما بها العملية :

١ — أعطى روجرز وروكفلر شيكاً بمبلغ ٣٩ مليون دولار إلى ماركوس دالى ثمناً لممتلكات آنا كوندا ، بشرط أن يودع المبلغ فى ناشينال سيتى بنك ويتركه هناك دون المساس به لمدة نص عليها الاتفاق .

٢ — تم إنشاء مؤسسة على الورق باسم شركة النحاس المندمجة ، وعينا فيها الكتبة الذين يعملون عندهما ، كمديرين صوريين ، ثم جعلا هذه الشركة تشترى آنا كوندا بمبلغ ٧٥ مليون دولار — لا يدفع نقداً وإنما على صورة أسهم فى الشركة المندمجة ؛ ولتيسير الأمر طبعت أسهم لهذا الغرض .

٣ — واقترض روجرز وروكفلر الآن من ناشينال سيتى بنك ٣٩ مليون دولار لتغطية الشيك الذى سبق إعطاؤه إلى ماركوس دالى ؛ وكضمان لهذا القرض استخدما أسهم الشركة المندمجة البالغ قيمتها ٧٥ مليون دولار .

٤ — بعد ذلك باعا أسهم الشركة الجديدة فى البورصة بمبلغ ٧٥ مليون دولار (بعد أن عملا أولا على الإيعاز بأهميتها عن طريق السماسرة الذين يشتغلون لحسابهما) .

٥ — وعن طريق ثمن بيع الأسهم أعادا القرض البالغ ٣٩ مليون دولار إلى البنك وكسبا لأنفسهما ٣٦ مليون دولار .

من الطبيعى أن هذه الحرية للجميع كانت تضمن غشاً عنيفاً . فقد ذكر أ . ب . ستيكنى رئيس سكك حديد شيكاغو وسانت بول وكنساس أنه يستطيع أن يعامل إخوانه من رؤساء شركات السكك الحديدية بوصفهم من السادة الأفاضل ويطمئن إليهم لو كانوا فى مكان آخر ، أما بوصفهم رؤساء شركات سكك حديدية فإنه لا يستطيع أن يتغيب لحظة تاركاً ساعته أمامهم . وكان لهذه النزعة الساخرة سببها . ففى اجتماع من رؤساء شركات السكك الحديدية للاتفاق على جدول لأجور مشتركة للنقل بما ينقذ الشركات من

المنافسة الانتحارية بينها ، تسلل أحدهم أثناء فترة توقفت فيها الإجراءات وأبرق إلى مكتبه بالجدول المتفق عليه حتى تكون شركته أول من ينقل بأجور أقل من الشركات الأخرى . وبطريق الصدفة عرف خبر البرقية وعند ما أستؤنف الاجتماع واجهه دليل إيجابي على استحالة وجود الشرف حتى بين اللصوص .

إنه عصر اعتدنا ونحن نسترجع صورته فى أذهاننا ، أن نحمر منه خجلا . ومن المؤكد أنه كان عصراً قبيحاً فى زخارفه (ففى بعض الحفلات كانت السجاير تلف فى أوراق نقد من فئة المائة دولار لما يثيره المنظر الدال على الثروة الفادحة) ويكاد أن يشبه العصور الوسطى فى روحه المحاربة . ولكن علينا ألا نخطىء فهم ذلك العصر ، فبينما كان ملوك الثروة يطأون الجمهور تحت أقدامهم فقد كانوا بالمثل يطأون بعضهم بعضاً فى غير رحمة ، وكان سلوكهم الجرىء الدنىء فى مبادئه مظهر طاقة طليقة لا تعرف حواجز من ضمير أو عادات رقيقة أكثر مما كان مظهراً لدناءة مقدّرة أو ازدراء واع بالمثل المسيحية . لقد سبق لمورجان القول « لست مديناً للجمهور بشىء » ، وكان يقصد أن هذه الملاحظة تمثل حرفياً دستوراً فى فلسفته أكثر من كونها تحدياً قاسياً للعالم . فى هذا العصر الذى ساده بارونات المال ، كانت الأعمال وحشية ، وكان ثمن التعلق بالأخلاق يميل إلى أن يكون الهزيمة .

وما الذى استخلصه الإقتصاديون من هذا كله ؟

لم يستخلصوا الكثير جداً . فالمحترفون منهم فى أمريكا ساروا فى أعقاب معلميهم الأوربيين وفرضوا على العالم الأمريكى قالباً لم يُعد له أبداً . فوصفت تلك اللعبة الغريبة من المنافسة القاتلة على جمع المال بأنها عملية « قصد فى الإنفاق وتجميع » ، ووصف الغش السافر المباشر بأنه « جد ونشاط » ، واعتبر البذخ المفرط الذى عرفه العصر « استهلاكاً » عادياً . الحقيقة ، كان العالم من الانحطاط والدناءة بحيث لم يكن فى الإمكان التعرف عليه . قد نقرأ كتباً رئيسية

من أمثال « توزيع الثروة » لجون بينس كلارك ولا نعرف أبداً أن أمريكا كانت بلد أصحاب الملايين ، أو « علم الاقتصاد » لتاوسيج فلا نعثر أبداً على سوق للأوراق المالية يسودها التلاعب . ولو طالعنا المقالات التى نشرها الأستاذ لافلن فى مجلة Atlantic Monthly لعلمنا أن صفات « التضحية والكد والمهارة » هى « السبب فى نمو الثروات العظيمة » ولقيل لنا إن لكل امرىء حقاً « فى التمتع بثمار كده دون أن يشاركه فيها أى شخص آخر » — والمفروض أن هذا يتضمن الحق فى شراء الهيئات التشريعية أسوة بأحجار الماس .

وبكلمة واحدة نقول إن الاقتصاد الرسمى كان يدافع عن الأوضاع القائمة بغير وعى وحسن بصر . لقد أشاح بوجهه عن القطائع والبذخ مما كان جوهر الصورة الأمريكية وراح يطلى بدلا من ذلك نموذجاً بالياً بخطوط شكلية وألوان لا رونق لها . هذا الاقتصاد الرسمى لم يفتقر إلى الأمانة أو الشجاعة أو الكفاية الفكرية فهذه كلها صفات توافرت فيه ، ولكنه كان يعانى مما سبق لمالثس أن دعاه « التحيز الغامض لأصحاب المركز والمصلحة » لقد اندفع الاقتصاديون الأمريكيون فى تيار العصر بحيث لم يستطيعوا الرجوع عن موضوعهم والنظر إليه فى هدوء ووضوح وحياد .

إن ما كانت تمس إليه الحاجة هو عين الرجل الأجنبي — شخص مثل توكفيل أو برايس اللذين كان فى إمكانهما أن يشهدا الصورة بالإضافة إلى الوضوح والنظرة البعيدة اللذين ينبعثان من الشخص الغريب عنها . مثل هذه العين وجدت فى شخص ثور شتاين بونده فبلن الأمريكى مولداً والذى لا ينتمى بحكم طبيعته إلى أى وطن .

إن ثورشتاين فبلن رجل غريب جداً . كان له مظهر فلاح ، وفلاح نرويجى . وتبين لنا صورة فوتوغرافية له شعره المسترسل المنبسط ، الذى يفترق فى وسط رأس شبيهة برأس القزم ، وقد تدلى على صورة حرف V المقلوب فوق جبهة واطئة ومائلة . ومن وراء أنف غير دقيق تلوح عينا فلاح

تنمان عن الدهاء والتفكير . أما فمه فيخفيه شارب أشعث ، بينما تبتلع ذقنه لحية خشنة قصيرة وهو يرتدى بذلة سميكة غير مكوية ، وهناك دبوس أمان كبير مثبت فى صدريته . والصورة لا تبين لنا دبوسين آخرين مشبوكين فى سراويله لمنع جوربه من الهبوط ولا توحى لنا إلا بجسم صلب نحيف ، ومشية بخطى خفيفة وواسعة ، لا تحدث صوتاً كأنها خطى الصياد .

كان مظهره غريباً ، ولكن يخفى وراءه شخصية أشد غرابة . هاتان العينان الثاقبتان قد توحيان بدقة عقلية نفاذة بالمثل وذلك المظهر الخارجى الريفى قد يعد الآن ليتوقع صفة بليدة فى البحث . ولكن لم يكن ثمة دلالة خارجية عن سر حياة فبلن : أى ابتعاده عن المجتمع .

إن الابتعاد غالباً ما يكون من صفات المرضى ، وطبقاً للمستويات التى نحكم بها على الأمور فلا بد أن فبلن كان مصاباً بمرض عصبى فى الحقيقة . كان يسير فى الحياة كأنما هو شخص هبط من عالم آخر ، والتصرفات التى كانت تبدو طبيعية فى أعين معاصريه بدت فى نظره مرة المذاق ، شاذة وغريبة كما تظهر طقوس الجماعة المتوحشة فى عين عالم الأجناس . إن الاقتصاديين الآخرين — ومنهم آدم سميث وكارل ماركس — لم يعيشوا فى مجتمعهم فحسب بل وكانوا جزءاً من هذا المجتمع وكانوا يشعرون أحياناً بالإعجاب بالعالم الذى يقوم حولهم ، وغالباً ما كانت نفوسهم تمتلىء باليأس والغضب الشديد إزاء ما يرونه . ولكن ثورشتاين فبلن لم يكن من هذا الطراز . لقد عاش فى المجتمع الصاخب المتوسع ، والمكون من عناصر مختلفة ، غريباً لا يتورط فيه أو يشتبك فى مشاكله ، بعيداً وفى عزلة دون أن يشعر بأى اهتمام نحوه .

وإذ كان غريباً عن المجتمع لهذا كان خارجاً على قواعده دون أن يكون راديكالياً . كان العالم فى نظره متعباً وقاسياً ، وكيّف نفسه إزاءه كما يكيف داعية الدين نفسه إزاء شعب بدائى ، يرفض أن يصبح واحداً منهم ولكنه يحتفظ بنزاهته على حساب العزلة المخيفة التى يعيش فيها . لقد أعجب به

الكثيرون بل وأحبوه ، ولكن لم يكن له أصدقاء ، فلم يكن هناك رجل يناديه فبلن باسمه الأول أو امرأة يستطيع أن يحبها تماماً .

وكما كان متوقعاً فقد كان كتلة من المظاهر الشاذة . فرفض أن يدخل التليفون فى بيته ، واحتفظ بكتبه فوق الرفوف الموضوعة على الحائط على أغلفتها الأصلية ، ولم يكن يرى أى معنى فى إعداد الفراش يومياً ، فكان يكوم الأغطية إلى الوراء فى الصباح ثم يسحبها ليلا فوق جسده . ونظراً لكسله كان يترك الصحون تتراكم حتى لا يتبقى منها شىء فى الدولاب ثم يأخذ فى غسلها كلها بأن يمسك بالخرطوم ويصب الماء عليها . وإذ كان قليل الكلام لهذا كان يقضى الساعات صامتاً بينما زواره جميعاً فى شدة الرغبة فى الاستماع إلى آرائه . وإذ كان رجلا يسخر من التقاليد والعرف لهذا كان يمنح طلابه جميعاً نفس الدرجة بغض النظر عن عملهم ، ولكن إذا احتاج أحدهم إلى درجة أعلى حتى يتسنى له الحصول على منحة دراسية ، فإن فبلن يغير الدرجة من (ج) إلى (أ) . وكطفل شقى يحمل بلطة تطحنها السلطات الإدارية فى الكلية فإنه (إذا قررت السلطات) كان يعد القائمة بعناية مبالغ فيها ، ثم يضع بدقة بطاقات الطلاب الغائبين فى جانب ، وحين يتم فرز الأغنام من الماعز فإنه يخلط القسمين من جديد كأنما حدث ذلك بطريق الصدفة . وبسبب نزعة صادية بشكل غريب كان قادراً على إطلاق ضحكات عملية لا معنى لها كأن يستعير زكيبة من فلاح مار فى الطريق ثم يعيدها إليه وقد وضع فيها عش دبابير . وإذ نادراً ما كان هوائياً فقد حدث مرة أن سألت بنت صغيرة عن معنى الحروف الأولى من اسمه وهى « ت . ب » .T. B فقال إن معناها Teddy Bear ، فراحت تناديه بهذا الإسم ولكن أحـدا غيرها لم يجرؤ على ذلك . وكان رجلا غامضاً يرفض أن يلتزم بشىء ، وإذا سئل عن رأيه فيما يكتبه أحد علماء الاجتماع فى مجلة يشرف فبلن على تحريرها ، أجاب « أن متوسط عدد الكلمات فى الصفحة هو ٤٠٠ كلمة — أما متوسط عددها فى كتابات الأستاذ — فعبارة عن ٣٧٥ » . وربما كان الأغرب من ذلك كله

أن هذا الرجل الساخر الذى يفتقر إلى الجاذبية ، كان يملك صفة لا يمكن تعريفها وهى جاذبيته للنساء ، فقد كانت له علاقات معهن دائماً ، ولم يكن ذلك دائماً بإرادته . ولقد سأل مرة صديقاً له « ماذا تفعل إذا زحفت عليك امرأة ؟ » .

كان شخصية محيرة معقدة ومنطوية على نفسها وليس أمامه سوى طريق واحد للتعبير عن نفسه ، ذلك أنه كان يكتب بلغة إنجليزية كأنها حافة الموسى وبأسلوب يشبهه كثيراً ، لولبي ومليء بالمعلومات والمصطلحات الخفية ، فهو أسلوب جراحى يجرد العالم من لحمه دون إراقة دماء وهكذا كانت رقة حد المبضع الذى يستعمله . لقد كتب عن البذل فى سبيل الإنسانية فدعاه ، «مقالات فى رواية تصويرية ذات طابع عملى» . وكتب عن الدين ووصفه بأنه « صنع أشياء لا وزن لها وتباع فى مجال غير معروف » . وكتب عن المنظمات الكنسية الرئيسية بأنها « مخازن من السلاسل » ، وعن الكنيسة الفردية بأنها « محل لتجارة التجزئة » وهذه كلها عبارات قاسية ولكنها ذات مغزى . ووصف العصا التى يتوكأ عليها المرء بأنها « إعلان بأن حاملها يداه مشغولتان فى غير العمل النافع » كما لاحظ أيضاً أنها سلاح وفى هذا يقول « إن استعمال مثل هذه الوسيلة الهجومية المادية والبدائية مريحة جداً لكل من وهب حتى القدر المعتدل من الوحشية» . كل من وهب الوحشية . . . يا لها من عبارة وحشية وإن كانت جافة بشكل غريب .

ولكن ما علاقة هذا بعلم الاقتصاد ؟ إذا نظرنا إلى الموضوع بالمعنى التقليدى الذى تدل عليه الكلمة فليست هناك علاقة . إن علم الاقتصاد عند فبلن لم تكن له علاقة « باللعبة المهذبة الدقيقة التى كان يمارسها أهل العصر الفكتورى والتى يبررون فيها أساليب العالم باستخدام حساب التفاضل ، كما كانت علاقته يسيرة بالجهود التى بذلها الإقتصاديون الأوائل فى تفسير سير الأشياء . كان فبلن يريد أن يعرف شيئاً آخر ، كتفسير السبب الذى بدت فيه الأشياء كما كانت عليه أولا . ومن هنا فإن بحثه لم يبدأ بالمسرحية الاقتصادية

وإنما بدأ بالممثلين ، ولم يبدأ بحبكة القصة وإنما بدأ بكل تلك المجموعة كلها من العادات والتقاليد التي أسفرت عن ذلك النوع المخصوص من المسرحية والذي يقال له « نظام الأعمال » . وبكلمة واحدة كان ينقب في طبيعة الرجل الاقتصادي وشعائره وطقوسه الاقتصادية ، وفي ذلك الأسلوب من البحث والذي يكاد يشبه طريقة علماء الأجناس ، كان من المهم عنده أن يلاحظ أن السادة كانوا يمشون والعصي في أيديهم ويتوجهون إلى الكنيسة كما كان ملاك الأرض يقبضون شيئاً دعاه المجتمع ريعاً . كان يسعى إلى أن ينفذ إلى أعماق الماهية الحقيقية للمجتمع الذي عاش فيه ، وأثناء بحثه في ذلك التيه من المخادعات والتقاليد كان عليه أن يلتقط التلميحات والشواهد حيثما تظهر ، سواء بدت في الملبس أو الخلق أو الحديث أو العرف المهذب . وكالمحلل النفساني كان غالباً ما يركز الاهتمام على أصغر التوافه إذا اعتقد أنها المقبض البارز الذي يقبض به على حقيقة ولكنها خفية ، ومرة ثانية — وكما يفعل المحلل النفساني ، كان يسعى وراء معان غالباً ما كانت غريبة ولا يستسيغها العقل .

وفحصه للمجتمع ، على ما سنرى خال من الرحمة ، ولكن صفته القارصة لا تنبعث من رغبة في الذم والتحقير بقدر ما تصدر عن ذلك البرود الغريب الذي يقوّم به أفكارنا التي نعتز بها . إن الأمر ليبدو كأنما ليس من شيء مألوف عند فبلن ، أو عادي بحيث لا يستحق التفاته ، وبذلك ليس ثمة شيء لا يخضع للحكم عليه . وليس سوى عقل منعزل بصورة غريبة يستطيع أن يرى في عصا نتوكأ عليها إعلاناً مستتراً عن الفراغ وسلاحاً بربرياً .

ويبدو أن الانعزال كان ملازماً له دائماً . ولد فبلن في عام ١٨٥٧ في مزرعة عند الحدود ، وهو الإبن الرابع والطفل السادس لأسرة نرويجية سبق أن هاجرت إلى أمريكا . وكان أبوه توماس فبلن شخصاً يعيش بمعزل عن الناس وبعيداً عنهم وبطيء التفكير وينزع إلى الاستقلال ، وقد وصفه فبلن فيما بعد بأنه أرق عقل سبق أن قابله . وكانت أمه كاري ، دافئة العاطفة ، سريعة الفهم ، وحادة الطبع ، وهي التي علمت ثورشتاين القصص الأيسلندية

والملاحم النرويجية ، التى ظلت تفتنه طيلة حياته . ولكنه كان منذ البداية طفلا غريباً ، كسولا ، ومكباً على القراءة فى الحجرة الصغيرة بالطابق العلوى بدلاً من ترتيل المزامير ، كما كان مغرماً باختراع الأسماء الساخرة التى تلصق بمن تطلق عليه وتدل على نباهة أكبر من سنه . وقد أبدى أخ أصغر له الملاحظة التالية : « منذ بدأت أتذكر الأشياء كنت أظن أنه يعرف كل شىء . كنت أستطيع أن أوجه إليه أى سؤال فيجيبنى عليه بالتفصيل . وقد اكتشفت منذ ذلك الحين أن قدراً كبيراً مما كان يحدثنى به كذب تماماً ، ولكن حتى أكاذيبه كانت جيدة » .

وأضيف إلى كل ما يجعل الشخصية شاذة تربية ساعدت على دق إسفين بينه وبين العالم كمكان يؤخذ حسب قيمته الظاهرية . كانت له طفولة الرواد : بسيطة قاسية ، ومتقشفة ، فكانت الملابس من صنع أهل البيت والملابس الصوفية غير معروفة ، والمعاطف من جلد العجول . وكانت القهوة والسكر من الكماليات ، وكذلك كانت الملابس الداخلية كالفانلات مثلا . ولكن الأهم من هذا أنها كانت طفولة أجنبية أى طفولة شخص غريب عن البلاد . فقد عاش النرويجيون فى أمريكا جماعات متماسكة ومنفصلة عن غيرها وكانت النرويجية هى اللغة السائدة ، والنرويج هى الوطن . وكان على فبلن أن يتعلم الإنجليزية كلغة أجنبية ولم يتقنها إلا بعد أن التحق بالكلية . ومما يدل على طابع ذلك المجتمع الأبوى المنطوى على نفسه أن فبلن لم يعرف أبداً بالقرار الخاص بإرساله إلى الكلية إلا حين استدعى من الحقول ليجد حقائبه قد أعدت ووضعت فى العربة إنتظاراً لسفره .

كانت سنه فى ذلك الحين السابعة عشرة ووقع اختيار الأسرة على Carleton College Academy ، وهى مركز أمامى صغير للثقافة والتنوير على مقربة من بلدة مينيسوتا الصغيرة حيث كان آل فبلن يمارسون الزراعة . وكان السبب فى إرساله إلى هناك أنهم كانوا يريدون أن يصبح من رجال الدين البروتستانت من شيعة مارتن لوثر . وجد فبلن فى كارلتون معهداً دينياً

بكليته ، ولكن لم يكن ثمة أمل فى ترويض هذا العقل النشيط المتمرد ، أو اندماجه فى هذا الجو التقى . وفى العظات الأسبوعية نجد أن فبلن بدلاً من الخطاب التقليدى عن تنصير الوثنيين كان يثير غضب الكلية حين يلقى كلمة بعنوان « دفاع عن الهمجية » ، و « اعتذار عن مدمن » . وحين سئل عما إذا كان يدافع عن هذه الأمثلة الدالة على الفساد الخلقى أجاب فى رقة أن الأمر لا يعدو اهتماماً بملاحظات علمية . واعترفت الكلية بعبقريته ولكنها كانت تخشاه بعض الشيء . فكان أستاذه جون بيتس كلارك الذى سوف يصبح من الاقتصاديين الأكاديميين البارزين فى البلاد يميل إليه وان ظن أنه « شاذ » .

هذا الشخص الشاذ الغريب الموهوب لم يجد فى كارلتون إلا أقل الفرص المتاحة له . ونشأت قصة غرامية بينه وبين بنت أخت عميد الكلية ، وهى إيلين رولف وكانت شخصية ذات ذكاء ونباهة على طريقتها الخاصة بها ، فنشأ بينهما نوع من جاذبية طبيعية . وكان فبلن يقرأ لها مؤلفات سبنسر وجعلها من اللاأدريين ، وأقنع نفسه بأنها تنحدر من البطل النرويجى الأول جانج رولف .

وتزوجا فى عام ١٨٨٨ ولكن العلاقة بينهما كانت مليئة بالتقلبات ويبدو أن هذا الرجل الانعزالى الذى لم يملك إلا القليل من الحب ليمنحه ، كان بحاجة إلى العناية من جانب المرأة ، ووجد ذلك بوفرة بغض النظر عن حالات استثنائية قلائل (فقد وصفته إحدى السيدات الجميلات بأنه « شمبانزى ») ولكنه لم يكن يهتم بامرأة معينة من طراز خاص ، إذ لم يكن مخلصاً لإيلين التى هجرته أكثر من مرة بسبب نزواته تارة وبسبب القسوة التى عاملها بها تارة أخرى ، ونظراً — مرة ثالثة — لما كانت تشعر به من خيبة الأمل فى محاولة فهم ذلك العقل الغامض المغلق عليها . ومع ذلك ، ولسنوات كثيرة ، كان فبلن نفسه يسعى إليها فى بيتها بالغابات دون أن يعلن عن مقدمه ومعه جورب أسود يتدلى من يده ويسألها « هل هذا جوربك يا سيدتى ؟ » .

وحين ترك فبلن كلية كارلتون كان قد استقر رأيه على أن يتخذ لنفسه

حياة أكاديمية ، ومن ذلك الحين بدأت تلك السلسلة الطويلة التى لا تنتهى من خيبة الأمل والإحباط مما تميزت به حياته الجامعية . من المؤكد أن اهتماماته كانت خالية من الروح العدوانية ، ومع هذا يبدو أن نوعاً من سوء الحظ كان يلاحقه. فحدث مرة مثلا أن طلب من أحد طلابه السابقين أن يبحث له عن عمل فى إحدى منظمات الرفاهية المدنية فى نيويورك فإذا بالطالب يوافق على القيام بالمسعى — ولكن ليظفر بالوظيفة لنفسه ، ولكن هذا حدث بعد ذلك بسنوات كثيرة . حصل فبلن الآن على وظيفة فى أكاديمية مونونا الصغيرة جداً فى وسكونسن ، فلما أغلقت أبوابها نهائياً بعد عام توجه إلى جونز هوبكنز أملا فى الحصول على منحة دراسية ليدرس الفلسفة ، ولكنه لم يوفق إلى الحصول على المنحة بالرغم من التوصيات المزوقة . فانتقل إلى ييل ، وفى عام ١٨٨٤ حصل على درجة الدكتوراه فى الفلسفة مع المرتبة الأولى الممتازة ، ولكن بدون مستقبل أو أمل .

وعاد إلى موطنه مريضاً بالملاريا التى أصيب بها فى بلتيمور ، وفى حاجة إلى نوع خاص من التغذية ، ولكنه لم يكن من المرضى الذين يعترفون بالجميل . كان يضايق أسرته بأن يأخذ الحصان والدوكار فى الوقت الذى تشتد فيه الحاجة إليهما ، وكان يقول لهم إنهم جميعاً مصابون بالسل وأنهم لن ينجحوا أبداً لأنهم ليسوا بالقدر الكافى من الخيانة والغدر . وكان يتسكع حول المكان قتلا للوقت . وكتب أخ له يقول « كان من حسن حظه أنه ينحدر من شعب وأسرة جعلا من الولاء للأسرة وتضامنها ديناً . . وكان ثورشتاين المتسكع (الصايع) فى جماعة محترمة . . كان يقرأ ويتسكع ، وفى اليوم التالى يتسكع ويقرأ » .

من المحقق أنه قرأ كل شىء : كالبحوث السياسية ، الاقتصاد ، علم الاجتماع ، كتب الأناشيد اللوثرية ، والمقالات فى علم الأجناس . ولكن كسله زاد من عزلته عن المجتمع وجعلها أشد مرارة وأكثر تغلغلا فى نفسه . وكان يزاول أعمالا غريبة من وقت لآخر ، فشغل نفسه باختراعات لا جدوى

منها ، وكتب تعليقات ملتوية على أحداث عصره ، ودرس علم النبات عملياً ، وتحدث إلى والده ، وكتب عدداً قليلا من المقالات ، وبحث عن عمل ولكن دون جدوى ، إذ نظراً لعدم حصوله على درجة علمية فى اللاهوت لم تقبله الكليات الدينية ، وكان يفتقر إلى الأدب والمظهر اللذين يجعلانه موضع القبول من جانب الكليات الأخرى .

وحين تزوج من إيلين ، وهو زواج أشاع الأسى والخيبة فى نفس أسرتها . كان بعض السبب فى ذلك أمل راوده فى الحصول على عمل يكسب منه عيشه إذ كان يأمل أن يحصل على وظيفة اقتصادى لشركة أتشيسون وتوبيكا وسانتا فيه التى كان عمها رئيس مجلس إدارتها .

ولكن تدخل سوء حظه الهوائى المتقلب إذ وقعت الشركة فى صعاب مالية واستولى عليها جماعة من رجال المصارف واختفى المنصب الذى كان يطمع فيه . وتهيأ له مجال جديد عند إنشاء جامعة إيووا : فهو حاصل على الدكتوراه فى الفلسفة ، ومعه خطابات توصية ، وهناك صلات زوجته وبذلك بدا التعيين مؤكداً . ولكن أخفق المشروع إذ حال دون تعيينه افتقاره إلى القدرة على التأثير فى الغير فضلا عن آرائه اللاأدرية . وكذلك أخفق فى اللحظة الأخيرة فى الحصول على عمل فى كلية سانت أولاف . لقد بدا كأنما الأقدار تتآمر عليه وترغمه على البقاء فى عزلته .

دامت العزلة سبع سنوات لم يعمل فبلن خلالها شيئاً بالفعل سوى القراءة والاطلاع . وأخيراً عقد مجلس عائلى . لقد صار الآن فى الرابعة والثلاثين من العمر ولم يحصل أبداً على مركز محترم . فتقرر أن يبدأ دراساته الجامعية من جديد ويقوم بمحاولة أخرى كى يلتحق بالعالم الأكاديمى .

فاختار كورنل فى عام ١٨٩١ ودخل مكتب ج . لورنس لافلن معلناً « أناثورشتا ين فبلن » . لا بد أن شعر لافلن بصدمة ، وهو أحد أعمدة الاتجاه المحافظ فى علم الاقتصاد ، وكان المتكلم يرتدى قبعة من جلد وبنطلوناً من

المحمل المضلع . ولكن شيئاً ما فى مظهره كان له تأثير على الرجل الذى يكبره سناً ، فتوجه إلى رئيس الجامعة وحصل على منحة لكى يصبح فبلن زميلا بالكلية . وفى العام التالى حين فتحت جامعة شيكاغو أبوابها وعينت لافلن رئيساً لقسم الاقتصاد فيها اصطحب معه فبلن وجعل مرتبه ٥٣٠ دولاراً فى السنة . ويمكن أن نضيف أنه لما مات لافلن فالشىء الأساسى الذى أسهم به فى علم الاقتصاد كان فوز جامعة شيكاغو بفبلن .

ولم تكن جامعة شيكاغو أول عمل التحق به فبلن — فى الخامسة والثلاثين من عمره — وإنما كانت معهداً يعكس بشكل خاص المجتمع الذى سوف يتولى فبلن تشريحه . وكان روكفلر أنشأ الجامعة وكان الطلبة يرددون أغنية شعبية تقــول :

جون د . روكفلر
يا له من رجل عجيب
إنه يمنح كل ما يفيض من ماله
إلى الجامعة والكلية

لم تكن الجامعة ، كما كان يتوقع منها ، مرتبطة بسياسة محافظة جامدة . وإنما كانت الصورة التى تتجسد فيها ، فى الدوائر التعليمية ، إمبراطوريات عالم الأعمال وهى الإمبراطوريات التى خلقتها . فرئيس الجامعة وليم رينى هاربر رجل طموح لم يتجاوز السادسة والثلاثين من العمر وقد وصفه فى إعجاب ولتر هاينزبيج بأنه طراز من أساطين الصناعة . كان منظماً يرأس كلية ولهذا لم يتردد فى أن يسرق من الكليات الأخرى أفضل رجالها وذلك بأن عرض عليهم مرتبات مغرية ، وكما كان شأن مجموعة ستاندارد أويل التى خلقت هذه الجامعة وبسبب ضخامة القوة المالية وحدها نجحت الجامعة والكلية فى الاستحواذ على قسم كبير من المفكرين الأمريكيين البارزين. كل هذا سوف يصفه فيما بعد قلم فبلن السليط ، ولكنه زوده فى الوقت نفسه بوسط مناسب من المثقفين وذوى الفكر . كان هناك ألبرت ميشيلسون الذى

سوف يحسب سرعة الضوء بدقة لم تكن معروفة حتى ذلك الوقت ، وجاك لويب أستاذ الفسيولوجيا ولويد مورجان العالم الاجتماعى ، وكانت هناك مكتبة ضخمة ومجلة جديدة للاقتصاد .

وبدأت الأنظار تتجه إلى فبلن الذى أكسبه علمه الغزير سمعة . فقال عنه أحد الطلبة « ها هو ذا الدكتور فبلن الذى يتحدث بست وعشرين لغة » . ودخل عليه فى غرفة الامتحان جيمس هايدن تفتس وهو من رجال العلم المعروفين . ويحدثنا قائلا « حين دخلت الحجرة كان الإمتحان قد بدأ وكان هناك شخص لا أعرفه يوجه الأسئلة . وخيل لى أن هذا أبطأ صوت سمعته يتكلم — إذ كان من الصعب على حين ينتهى السؤال أن أتذكر بدايته . ولكن لم تمض لحظة حتى بدأت أرى أن هنا عقلا داهية ينفذ إلى أعماق المسائل الأساسية دون أن يكشف من أفكاره سوى العزم الوحيد على الوصول إلى أعماق الأشياء » .

ولكن كان من المستحيل الوصول إلى داخلية شخصيته الانعزالية فلم يعرف أحد رأيه فى أى شىء . كان الناس يسألون زوجته إذا كان اشتراكياً حقيقة فكانت تجيبهم بأنها نفسها لا تعلم . ولم يدخل معركة أبداً بدون درعه أى تلك الموضوعية المهذبة التى يتحكم فيها والتى كانت تجرد العالم من محتواه العاطفى وتجعل الذين يودون أن يوجهوا سهامهم إلى شخصه يقفون منه على بعد . وقد سأله مرة أحد الطلاب « أستاذ فبلن ، هل لك أن تخبرنى إذا كنت تأخذ أى شىء مأخذ الجد ؟ » فأجاب فى همس الشخص المتآمر « نعم ، ولكن لا تخبر أحداً بهذا » .

ومن عاداته التى نعرفها عنه فى أواخر حياته وإن كانت تلقى الضوء على الرجل ، أنه كان يدخل الفصل شاحب اللون وزائغ البصر بعد ليلة طويلة قضاها فى المطالعة ثم يبدأ فى تقليب الصفحات بأصابع مرتعشة قد اصفرت نتيجة غروره الوحيد وهو الميل إلى تدخين السجاير الغالية. ولقد وصف هذا القس هوارد وولستون الذى كان من تلاميذه فى يوم من الأيام فقال

« وبنغمة تشبه الصرير بدأ الحديث عن الاقتصاد القروى عند الألمان الأوائل ، وسرعان ما أمسك بخرافة قانونية غير عادلة فرضها النبلاء الناشئون وأجازها رجال الدين . ثم لوى شفتيه بابتسامة ساخرة . ولمعت فى عينيه نظرة شيطانية . وبسخرية حادة أخذ فى تشريح الرأى الملتوى الذى يذهب إلى أن رغبة الأرستقراطيين هى إرادة الله . وتضمن حديثه عن الأنظمة الحديثة معانى مماثلة . وأطلق ضحكة مكتومة فى هدوء ، ثم رجع إلى التاريخ ليواصل الشرح » .

ولكن طريقته فى التدريس لم تكن موضع تقدير الجميع . وكان رأيه الصريح بالنسبة إلى الطلاب أنه كلما قل عددهم كان ذلك أفضل ولم يحاول أن ينعش المناقشة . والحق لقد كان يشعر بالابتهاج ، إذا أبعد الطلاب عنه . ومرة سأل طالبة متدينة عن قيمة الكنيسة عندها بالنسبة إلى أقداح البيرة . ولاحظ أن طالباً يواظب على نقل كلماته وأراد منه أن يكرر جملة فما كان منه إلا أن قال إنها لا تستحق الإعادة. وحين يشرح موضوعاً كان يتمتم بعبارات لا تسمع ، ثم ينتقل إلى نقطة بعيدة ويخرج على الموضوع . وأخذ عدد طلاب فصله فى التناقص حتى انتهى الأمر إلى أنه لم يضم سوى طالب واحد . وفى جامعة أخرى علقت على باب حجرته بطاقة كالآتى : « ثورشتاين فبلن من ١٠ إلى ١١ ، فى أيام الإثنين والأربعاء والجمعة » ، ثم انتهت بالتدريج البطىء كالآتى : « أيام الإثنين من العاشرة حتى العاشرة وخمس دقائق » .

ولكن الذين كانوا يصغون بعناية إلى ذلك الصوت المتضجر الذى يطن فى الأذن وجدوا أن هذه المظاهر الشاذة فى طباع الرجل لها جزاؤها الذى يبررها . وقد كتب أحد تلاميذه السابقين : « كان صوته خافتاً وبطيئاً كأنه صوت رجل ميت يتكلم ، وكأنما اختفى النور وراء ذينك الجفنين ، المسدولين ولكن هل كان للأمر أهمية ؟ لقد وجدنا نحن الذين كنا نستمع إليه يوماً بعد يوم ذلك الأسلوب غير العادى مناسباً فى دقة للتعبير عن ذلك العقل المتباعد الذى تسرى فيه السخرية قليلا وهو يتحرك فوق ظاهر الأشياء . كانت هناك

جاذبية فى فكره المنعزل الذى يتحرك فى حرية ، ومع ذلك بدا كأنه شخصية مشوهة . إن ما اتصف به عقله من طابع رجل العلم كان يدعو إلى العجب ويبعث على الغبطة وكان يتذكر التفاصيل التى تطغى على معظم العقول وتصبح غاية فى ذاتها ، ولم يحول نظره أبداً عن رسم خريطة لتنظيم كبير . . هذا الصوت الهادىء قد يستخدم فى لحظة وبأدق طريقة عبارة عامية دارجة أو شعراً شعبياً رديئاً ليبين لنا رأياً ، ثم تراه فى اللحظة التالية يقتبس بيتاً من الشعر فى إثر آخر من ترنيمة لاتينية ترجع إلى العصور الوسطى .

وكانت شئونه المالية الخاصة متشابكة كالاقتصاد السياسى الذى حاول أن يزيح الستار عنه . وكان يعيش فى شيكاغو مع زوجته إيلين ، دون أن يمنعه هذا من الإقدام على تصرفات أكسبته سمعة سيئة مما أثار استياء الرئيس هاربر . وحين وصل به الأمر إلى حد السفر فى الخارج مع امرأة أخرى أصبح مركزه فى الجامعة لا يطاق ، فبدأ البحث عن منصب آخر .

لقد قضى أربعة عشر عاماً فى شيكاغو حيث وصل إلى مرتب رائع قدره ألف دولار فى عام ١٩٠٣ . ولكن تلك السنوات كانت أبعد من أن تذهب سدى ، لأن عقله النزاع إلى البحث والاستقصاء على نحو لا يمكن إشباعه ، والذى يعمل فى نهم على اكتساب المعرفة ، بدأ يثمر فى النهاية . ففى سلسلة من المقالات اللامعة ومؤلفين رائعين أرسى أسس شهرته فى البلاد — وإن كان المرجح أن تلك السمعة قامت على غرابة طباع الرجل أكثر منها على اى اعتبار آخر .

وضع فبلن كتابه الأول وهو فى الثانية والأربعين من العمر ، وكان ما يزال مدرساً متواضع المرتبة ، وفى تلك السنة كان قد توجه إلى الرئيس هاربر ليطلب العلاوة العادية وقدرها بضع مئات من الدولارات . وأجاب هاربر بأنه لم يعلن عن الجامعة بالدرجة الكافية ، فرد فبلن بأنه لا يعتزم أن يفعل هذا . ولولا وساطة لافلن لترك فبلن الجامعة ، ولو فعل هذا لفقد الرئيس هاربر أبرز إعلان عنها إذ كان فبلن على وشك أن ينشر كتابه

« نظرية الطبقة التى لا تعمل » . ليس ثمة دليل على أنه كان يتوقع أن يكون للكتاب تأثير خاص ، فقد قرأ بعض أجزائه على الطلبة ولاحظ بجفاف أنهم وجدوا الأسلوب متعدد المقاطع مما اضطره إلى أن يعيد كتابته عدة مرات قبل أن يقبله الناشرون . ولكن الكتاب على خلاف المتوقع أحدث ضجة، فخصص وليم دين هوولز مقالين طويلين عرضه فيهما . وأصبح الكتاب بين يوم وليلة كتاب الجيب أو السمير الصامت عند المثقفين فى تلك الأيام ، وكما قال أحد علماء الاجتماع البارزين لفبلن أن الكتاب « أحدث اضطراباً فى أبراج الحمام بالشرق » .

لا عجب أن يثير الكتاب الاهتمام إذ لم يسبق أبداً أن ظهر كتاب يتضمن تحليلا رزيناً بمثل هذا الأسلوب اللاذع . لو أن أحد االتقطه عفواً لأطلق ضحكة مكتومة بسبب ما ينطوى عليه من نظرات بعيدة شريرة وعبارات شائكة ورأى قارص فى المجتمع يتضمن عناصر من السخرية والقسوة والوحشية مرتبطة بأشياء هى موضع التسليم وأبلتها العادة والإهمال فى تناولها .

وكان التأثير كهربياً ومضحكاً ومريعاً ومسلياً ، واختيار الألفاظ رائعاً وفيما يلى عينة صغيرة :

> يقال إن أحد ملوك فرنسا مات من فرط حرصه الأخلاقى على مراعاة السلوك الطيب . ونظراً لغياب الموظف التى كانت مهمته أن ينقل مقعد مولاه ، ظل الملك جالساً أمام النار دون أن يشكو وقاسى النار تشوى شخصه الملكى بحيث استحال إنقاذه . ولكنه إذ فعل هذا أنقذ جلالته الشديدة التمسك بالمسيحية من التدنيس الدنىء .

لم يزد الكتاب فى نظر معظم الناس عن كونه هجواً لأساليب الطبقة الأرستقراطية ، وهجوماً شديداً على حماقات الأغنياء ونقائصهم ، وهذا ما بدا به فى ظاهره . إن فبلن بأسلوبه النثرى المزخرف نسج نظريته التى تذهب

إلى أن الطبقة الخالية من العمل تعلن عن تفوقها بطريق الإنفاق الظاهر للعيان — الصارخ أو المنطوى على الدهاء — وأنها تزداد تمتعاً بالطابع الذى يميزها — أى الفراغ نفسه — كلما تلاعبت به أمام أعين الجمهور . فالكتاب يعرض للفحص اللاذع وعن طريق ضرب العدد الكبير من الأمثلة ، النظرة التى ترى أن الشىء « الأغلى » يجب أن يكون حتماً « الأفضل » . ومثال ذلك :

إننا جميعاً نشعر ، فى إخلاص وبغير ارتياب ، أن معنوياتنا ترتفع لأننا حتى فى خلوة حياتنا المنزلية ، نتناول طعامنا الذى جرى طهيه فى أوانى فضية مصنوعة باليد ، ويؤتى به فى أطباق من الصينى المطلى باليد وإن كانت قيمتها الفنية غالباً موضع الشك . ويوضع فوق مفرش مائدة غالى الثمن . وأى تراجع عن مستوى المعيشة الذى درجنا على اعتباره ذا قيمة من هذه الناحية يعد إهانة فظيعة لكرامتنا الإنسانية .

إن معظم الكتاب يعنى بمثل هذا الفحص الدقيق للأمراض النفسية الاقتصادية فى حياتنا اليومية فقواعد الحشمة التقدية تبرز بصورة كاملة وفى ضوء غريب كما لو كانت كشوفاً أثرية جرى الحصول عليها حديثاً من المقابر . أما أن قدراً كبيراً من الكتاب قد استساغ مذاقه كل من طالعه فالسبب راجع إلى أنه فى بلد يهتم بالإعلان ويحاول كل فرد فيه أن يقتفى أثر من تقدموه كان من المستحيل أن يفعل المرء شيئاً خلاف هز الرأس والإعجاب فى أسف بالصورة التى رسمت له ، والتى لا يمكن أن يخطئها .

ولكن تلك الأوصاف لميلنا إلى التظاهر ، مهما كانت مسلية أو تحقق الغرض المقصود منها ، فإنها ليست أكثر من مادة الكتاب الإيضاحية ، ذلك أنه وفقاً لعنوانه ، بحث فى نظرية الطبقة الخالية من العمل . وبالرغم من أن فبلن قد يتوقف خلال هذه الرحلة ليبدى تعليقاً على المناظر الطبيعية المحلية الأكثر لفتاً للنظر إلا أن اهتمامه منصب على نقطة النهاية فى الرحلة، أى على

أمثال هذه الأسئلة : ما طبيعة الرجل الاقتصادى ؟ وكيف يتصادف انه يبنى مجتمعه بحيث يخلق طبقة لا تؤدى عملا ؟ وما المعنى الاقتصادى الذى يدل عليه الفراغ نفسه ؟

كان الإقتصاديون الكلاسيكيون يجيبون على مثل هذه الأسئلة إجابات تستند إلى العقل ، فهم يرون العالم على هيئة أفراد يسعون بطريقة تتفق مع العقل إلى تحسين مصلحتهم الذاتية . قد يحدث أحياناً أن تكون الغلبة للطبيعة البشرية البهيمية كما هو الحال بالنسبة إلى الطبقات العاملة التى يتضاعف عدد أفرادها بشكل لا رجاء فيه على ما يرى مالثس ، ولكن الغالب أن هؤلاء الاقتصاديين يصورون العالم كمجموعة من مخلوقات عاقلة تفكر . ففى الصراع التنافسى يرتفع البعض إلى القمة ويبقى البعض عن أسفل السلم ، والذين هم من حسن الحظ أو رجاحة العقل بحيث يجمعون ثروة يستغلون ثروتهم بطبيعة الحال كى يقللوا من الجهد الذى يبذلونه . فالمسألة إذن بسيطة جداً ومعقولة تماماً .

ولكن هذه النظرة إلى الجنس البشرى لم تكن ذات معنى بالنسبة إلى فبلن . فهو لم يكن متأكداً على الإطلاق من أن القوة التى تحافظ على تماسك المجتمع هى تفاعل « المصلحة الذاتية » المحسوبة وفق مقتضيات العقل . ولم يكن مقتنعاً تماماً بأن الفراغ فى حد ذاته وبذاته أفضل من العمل . فمطالعاته جعلته على بينة بأساليب أقوام كانوا موضع الملاحظة القليلة كالهنود الأمريكيين وجماعة الأينو باليابان والتودا فى تلال نيلجيرى والبوشمن فى أستراليا ، إذ بدا أنه لا وجود لطبقة خالية من العمل فى هذه الشعوب ذات الاقتصاديات البسيطة . ومما يلفت النظر بدرجة أكبر فى أمثال هذه الجماعات التى يعتبر العمل فيها ثمن البقاء أن كل فرد فيها يعمل ، مهما كان نوع العمل الذى يقوم به دون أن يشعر أن كده يقلل من كرامته .

فالدافع الإيجابى فى اقتصادها لم يكن الاعتبارات المتعلقة بالكسب والخسارة ، وإنما فخر طبيعى بالعمل وإحساس أبوى بالاهتمام بالأجيال

المستقبلة . فالناس ينافس بعضهم بعضاً فى ذلك الأداء النبيل لأعمالهم اليومية المحددة لهم ، وإذا كان الامتناع عن العمل – أى الفراغ – موضع التجاوز على الإطلاق فمن المؤكد أنه لم يكن موضع الإحترام .

ولكن نوعاً آخر من الجماعات تراءى لنظرة فبلن الفاحصة . فأهل بولينيزيا وسكان جزيرة أيسلنده القدماء وطبقة القادة والحكام فى اليابان الإقطاعية ، كانوا يمثلون نوعاً مختلفاً من المجتمع البدائى إذ كانت لديهم طبقة معينة تنعم بالفراغ ، ولكن هذه الطبقات لم تكن خاملة ، بل كانت على العكس من أكثر أعضاء الجماعة نشاطاً ، وكان « عملها » كله قائماً على السلب ، إذ كان أفرادها يستولون على ثرواتهم بالقهر أو الدهاء ولم يشتركوا فى الإنتاج الفعلى للثروة عن طريق العرق أو المهارة .

ولكن ، إذا كانت الطبقات الخالية من العمل تأخذ الثروة دون أن تؤدى مقابلها أية خدمة إنتاجية إلا أن هذا كان يتم بالموافقة التامة من جانب الجماعة ، لأن هذه المجتمعات كانت من الغنى بحيث تحتمل قيام طبقة غير منتجة وذات روح عدوانية يعجب المجتمع بها . فبدلا من النظر إلى هؤلاء الذين ارتقوا إلى صفوف الخالين من العمل على أنهم يبددون ثروة الجماعة أو يسلبونها ، كانوا يعتبرون الأقوياء والقادرين .

ونتيجة لهذا حدث تغيير ينذر بالخطر فى موقف الجماعة الأساسى من ناحية العمل ، فأصبح النشاط الذى تمارسه الطبقات من أهل الفراغ وهو كسب الثروة بالقوة – يعتبر نبيلا وموضع التبجيل ، وعلى العكس من هذا أصبح العمل الخالص مشوباً بالحطة . فشقة العمل والتى ظن الاقتصاديون الكلاسيكيون أنها كامنة فى طبيعة الرجل الاقتصادى رآها فبلن انحطاطاً طرأ على أسلوب للحياة كان نبيلا من قبل ، وذلك تحت تأثير روح نزاعة إلى السلب . ولهذا فالجماعة التى تعجب بالقوة والبسالة البهيمية وترفع من شأنهما لا تستطيع أن تضفى الجمال على الكد الذى يبذله الإنسان .

ولكن ، ما علاقة هذا كله بأمريكا أو أوربا ؟ العلاقة كبيرة . فالإنسان الحديث فى نظر فبلن ليس إلا ظلا ابتعد عن أسلافه البرابرة . مثل هذه النظرة كانت تبعث الرعدة فى أوصال الأستاذ ادجورث المسكين لأنها ليست سوى سخرية بآلات اللذة التى تحدث عنها ، ولأنها تستبدل بهذه الآلات المحاربين والزعماء ورجال الطب والشجعان وما يلى هؤلاء من الأفراد العاديين الأذلاء ممن يدب الرعب فى أوصالهم . وفى مقال نشره فبلن بعد ذلك كتب يقول « إن نظام الحياة المتوحشة كان إلى حد بعيد ذلك المظهر من الثقافة الذى دام أكثر من أية مظاهر أخرى وكان أشدها ابتزازاً ، خلال تاريخ حياة الجنس البشرى ، بحيث لا تزال الطبيعة البشرية بحكم الوراثة طبيعة بشرية متوحشة ويجب أن تظل كذلك إلى أجل غير مسمى » .

وهكذا رأى فبلن فى الحياة الحديثة ميراثاً خلّفه الماضى . إن الطبقة التى تنعم بالفراغ قد غيرت مهنها وهذبت أساليبها ، ولكن غرضها لا يزال كما كان — وهو الاستيلاء على الطيبات بطريق النهب وبغير أداء عمل . لم تعد تسعى بطبيعة الحال إلى اقتناء الغنائم والنساء ، إذ لم يعد ثمة وجود لذلك الغرض البربرى . ولكنها تسعى وراء المال ، وأصبح تجميعه وإظهاره فى إسراف أو بدهاء الصورة الحديثة التى تقابل ما كان يعمله الهندى الأمريكى من تعليق فروة رأس الضحية على خيمة القاتل . ولا يقف الأمر بطبقة الفراغ عند حد أنها لا تزال تتبع النمط السلاب القديم ، وإنما ينظر إليها أيضاً بتلك النظرة القديمة القائمة على الإعجاب بالقوة الشخصية . فلا يزال أفرادها فى نظر المجتمع أشد أفراده شجاعة وأكثرهم بعثاً على الخوف ، ومن هنا تسعى الطبقات التى تحتهم إلى تقليد من هم أفضل منها . فكل شخص ، من العمال ورجال الطبقة الوسطى فضلا عن الرأسماليين — يسعى عن طريق إنفاق المال بشكل ظاهر — أو تبديده الظاهر فى الحقيقة — إلى أن يظهر للناس بسالته فى النهب والسلب . ويشرح فبلن الأمر بقوله : « لكى تشغل مركزاً طيباً فى نظر الجماعة من الضرورى أن تصل إلى مستوى معين من الثروة ويقره العرف

بشكل غير محدود نوعاً ، كما كان من الضرورى فى المرحلة السلابة السابقة أن يصل الهمجى إلى ذلك المستوى من الاحتمال الجثمانى والدهاء والحذق فى استخدام السلاح ، وهو المستوى الذى أقرته القبيلة » . وبالمثل ، ففى المجتمع الحديث لا يقف المرء عند حد التنافس على الظهور بمظهر الامتياز المفترس فى نظر إخوانه ، بل وكجزء من العملية نفسها فإنه يشعر « بصورة غريزية » بالحطة التى تلازم تلك الوسائل غير السلابة فى كسب العيش ، كالعمل .

هل يبدو هذا بعيداً عن الواقع ؟ إننا لم نتعود النظر إلى أنفسنا كبرابرة ونتلوى من ألم الموازنة أو نهزأ بها . ولكن ، بالرغم من غرابة الفكرة فإن فى الملاحظات التى يبديها فبلن ظلا من الحقيقة . فهناك تحقير اجتماعى للعمل الجثمانى الشاق بالقياس إلى الأعمال الأرق فى المكاتب . وهناك تلك الحقيقة من أن تجميع الثروة يتجاوز كثيراً حدود المطالب والحاجات المعقولة — على الأقل فى حالة الموظف الإدارى الناجح . لسنا مضطرين إلى أن نقبل تفسير فبلن المستمد من دراسة الأجناس (وهو تفسير ضعيف نوعاً على ضوء البحوث المعاصرة التى أجريت على الجماعات البدائية لنستفيد من نظرته العميقة الرئيسية — وهى أن دوافع السلوك الاقتصادى يمكن أن نفهمها على ضوء تلك التصرفات الدفينة غير المعقولة بأفضل مما نفهمها على أساس نظرة القرن التاسع عشر التى تجعل هذا السلوك مبنياً على المعقولية وسلامة الإدراك .

أما طبيعة هذه الأشياء غير المعقولة — سواء كانت سيكولوجية أو أنثروبولوجية — فلا ينبغى أن نتوقف عندها . ويكفى أن نقول إنه لو تتبعنا تصرفاتنا حتى مصدرها لوجدنا أنفسنا فى طبقة تحتية مدفونة تحت ذلك التفسير الرقيق عن المعقولية الحلوة . ففى الدراسة الكلاسيكية التى قام بها روبرت وهيلين ليند مثلا « ميدلتاون » وجدا أن الطبقة العاملة ، باستثناء أفقر فئاتها ، تقتصد فى غذائها وملبسها ، قبل أن تخفض كماليات « ضرورية » معينة بينما نجد فى حالة الطبقات الوسطى والعليا أن مستوى الظهور حباً للظهور فى حد ذاته تشهد به بصورة واضحة صفحات الإعلان فى أية مجلة . إن أحداً لا يخلو

من فضائل التنافس من أجل التفوق ، واتجاهات البرابرة السلابين الذى يتحدث عنهم فبلن تساعدنا على الأقل بالمعنى الحرفى على فهم اتجاهاتنا .

وثمة نتيجة أخيرة نستخلصها . إن الفكرة التى تعتبر الإنسان متوحشاً يكسوه غشاء رقيق من الحضارة فكرة لها أهمية أكثر من كونها تفسر وجود طبقة فراغ وقبول التباهى كمعيار للإنفاق . إنها ترشدنا إلى طبيعة التماسك الاجتماعى نفسه . فالإقتصاديون السابقون لم ينجحوا كثيراً فى تفسير السبب الذى يشد أجزاء المجتمع بعضها إلى بعض إزاء ما للطبقات التى يتكون منها من مصالح متباينة قوية . فلو كان رأى ماركس صحيحاً مثلا وكانت البروليتاريا معادية للرأسمالى بصورة لا سبيل إلى التوفيق بينهما وعلى طول الخط ، فما الذى حال دون نشوب الثورة فوراً ؟ الجواب يمدنا به فبلن . إن الطبقات الدنيا ليست فى حالة حرب مع العليا ، ولكنها مرتبطة بها بتلك الروابط غير المحسوسة وإن كانت صلبة والممثلة فى الاتجاهات ووجهات النظر المشتركة . فالعمال لا يسعون إلى تنحية المديرين من مراكزهم وإنما يسعون إلى مباراتهم والاقتداء بهم . وهم أنفسهم يوافقون على الاعتقاد العام بأن العمل الذى يؤدونه أقل « احتراماً » نوعاً من العمل الذى يقوم به رؤساؤهم وليس هدفهم التخلص من طبقة أعلى منهم وإنما هدفهم الارتفاع إليها . ومن هنا ففى نظرية طبقة الفراغ نلقى جوهر نظرية عن الاستقرار الاجتماعى .

وبعد ظهور « الطبقة التى لا تعمل » فى عام ١٨٩٩ اكتسب فبلن سمعة — وإن كانت بوصفه ناقداً ساخراً أكثر منه اقتصادياً . فهام به الراديكاليون والمثقفون ، ولكنه كان يحتقر مديحهم . وظل زملاؤه من رجال الاقتصاد يتساءلون عما إذا كان اشتراكياً ، ولم يدروا هل يأخذونه مأخذ الجد أم لا . وكان لحيرتهم هذه ما يبررها ، فقد امتدح ماركس فى جملة ثم انتقده فى الجملة التالية ، وكانت أحكامه الاجتماعية الأكثر جدية يكسوها فى الغالب نوع من الهزل الفكرى بحيث تؤخذ على أنها دعابة رجل يعانى مرض السوداء أو أنها عاطفة صريحة تماماً .

ولكن فى هذه الأثناء كان فبلن يعد كتاباً آخر ، يتضمن تعريفه لنظام مشروعات الأعمال . ولقد كتب إلى صديقة له ، هى السيدة جريجورى ، يقول : « يقال لى ، وأميل إلى التصديق ، إن الكتاب بعيد عن الموضوع أو كما حدثنى أصدقائى الذين اطلعوا عليه ، خارج عن الموضوع . أن عنوانه هو نظرية مشروع العمل — وهذا موضوع لى الحرية فى أن أضع نظرية عنه بكل ذلك التحرر الذى يتأتى من المناعة ضد الحقائق » .

وظهر الكتاب الجديد فى عام ١٩٠٤ . وسواء أكان واقعياً أم لم يكن ، فقد كان أشد لمعاناً وغرابة من كتابه الأول . ذلك أن وجهة النظر التى دافع عنها تتحدى الإدراك السليم نفسه . إن كل اقتصادى منذ أيام آدم سميث جعل من الرأسمالى الشخصية المحركة فى اللوحة الفنية الاقتصادية ، وسواء كان هذا للخير أو للشر ، فقد كان المفروض بوجه عام أنه القوة الرئيسية التى تولد التقدم الاقتصادى . ولكن هذا كله قلبه فبلن رأساً على عقب . فرجل الأعمال لا يزال الشخصية الرئيسية ولكنه لم يعد القوة المحركة . وهنا نجد فبلن يصوره لنا على أنه الشخص الذى يخرب saboteur النظام .

ليست بنا حاجة إلى القول إن هذه النظرة إلى المجتمع والتى تستطيع إخراج مثل هذه الفكرة المربكة ، نظرة غريبة . لم يبدأ فبلن بتصادم مصالح البشر ، كما فعل ريكاردو أو ماركس أو اقتصاديو العصر الفكتورى ، وإنما بدأ من مرحلة أدنى من هذا أى بدأ بتلك الطبقة التحتية غير البشرية ونقصد بها التكنولوجيا . فالآلة هى التى فتنته ، إذ رأى المجتمع تسوده الآلة وتفرض عليه مستوياتها وتنظم تصرفاته وفقاً لدورتها المنتظمة فى العمل وتربطه إلى ما تصر عليه من قواعد الدقة والضبط . وأكثر من ذلك فقد تصور العملية الاقتصادية على أنها أساساً عملية ميكانيكية فى طابعها . فالاقتصاد معناه الإنتاج ، والإنتاج معناه تداخل أجزاء المجتمع وهو ينتج السلع ، كما تتشابك أجزاء الآلة . مثل هذه الآلة الاجتماعية تحتاج بالطبع إلى من يحافظون عليها — وهم الفنيون والمهندسون — لإجراء عمليات الضبط التى لا بد منها لضمان تعاون أجزائها

بأعلى درجة من الكفاية . ولكن إذا نظرنا إلى المجتمع من وجهة نظر شاملة لكان أفضل لنا أن نصوره كجهاز هائل ولكنه عملى بحت أى أنه عبارة عن عُدد ساعة بشرية ، على أعلى درجة من التخصص والتنسيق .

ولكن ، ما مكان رجل الأعمال فى مثل هذا النظام ؟ فرجل الأعمال ينصب اهتمامه على كسب المال ، بينما ليس للآلة وسادتها المهندسين من غاية سوى صنع السلع . فإذا أدت الآلة وظيفتها على الوجه الطيب وتماسكت أجزاؤها فى سهولة ، فأين مكان رجل لا هدف له سوى الربح ؟

من الناحية النظرية يمكن القول بأن لا محل له . فالآلة لا تعنيها القيم والأرباح ، وإنما تنتج السلع ومن هنا فليس لرجل الأعمال من وظيفة يضطلع بها إلا إذا انقلب مهندساً . ولما كان عضواً فى الطبقة التى تعيش فى فراغ لذلك لا يهتم بفن الهندسة وإنما يريد جمع المال وهذا ما لم تعد الآلة له على الإطلاق . وهكذا حقق رجل الأعمال غايته ، لا عن طريق العمل فى داخل إطار الآلة الاجتماعية وإنما بالتآمر عليها . فوظيفته ليست المساعدة على إنتاج الطيبات ولكنها إحداث الاضطرابات فى ذلك السبيل المنتظم من الإنتاج بحيث تتقلب القيم ويستطيع أن يستفيد من الاضطراب الناجم فيجنى ربحاً . وهكذا ، على رأس ثبات جهاز الإنتاج الفعلى فى العالم يقيم رجل الأعمال صرحاً علوياً من الائتمان والقروض والتمويل الكاذب . ففى أسفل يواصل المجتمع عمله الروتينى الآلى ، وفى أعلى يتقلب صرح المالية ويتنقل . وإذ تتحرك الصورة المالية المقابلة للعالم الحقيقى بغير انتظام فإن فرص اجتناء الأرباح تظهر وتختفى ثم تعود إلى الظهور من جديد ، بصورة دائمة . ولكن ثمن هذا الجرى وراء الربح عال ، إنه إثارة الاضطراب الدائم فى الجهود التى يبذلها المجتمع للتزود بحاجاته وتحطيمها بل وتضليلها عن وعى .

هذه نظرية فظيعة نوعاً لأول وهلة . أما أن رجال الأعمال يعملون ضد مصالح الإنتاج فأمر يبدو أسوأ من الزندقة ، بل وينم عن الحماقة .

ولكن قبل أن نستبعد النظرية باعتبارها ثمرة عقل ملتو بصورة غريبة وممتلىء بالمرارة ، علينا أن ننظر من جديد إلى الصورة التى استقى منها فبلن موضوعه . وعلينا أن نتذكر أن هذا كله كان عصر الصناعة الأمريكية الذى أجاد ماتيو جوزيفسون وصفه بأنه عهد البارونات اللصوص . لقد رأينا أمثلة عن غطرسة عمالقة عالم الأعمال وعبيد القوة غير المسئولة والبريئة التى استخدموها كما كان يفعل الكثيرون من زعماء البرابرة ، ونعلم كذلك إلى أى مدى غريب ساروا فى طريق إدراك أهدافهم التى غالباً ما كانت قائمة على السلب . ولكن بينما يمثل هذا كله الحبوب اللازمة لطاحون فبلن ، إلا أنه لا يبرر تماماً رأيه فى التخريب : ولذلك يجب أن ننظر إلى نقيصة أخرى فى البارونات اللصوص ، وهى أن هؤلاء الناس لم يكونوا يهتمون بإنتاج السلع

ونستطيع توضيح هذا بحادثة ترجع إلى عام ١٨٦٨ . ففى ذلك الوقت كان جولد يحارب فاندربلت من أجل السيطرة على سكة حديد إيرى ، مما يلقى بعض الضوء على التاريخ الصناعى الذى اضطر فيه جولد ورجاله إلى الفرار عبر نهر هدسن فى قارب تجديف والاعتصام فى أحد فنادق نيوجرسى . ولكنا لا نتوقف الآن لنلاحظ الطبيعة البدائية للصراع بينهما وإنما الذى يسترعى الملاحظة هو عدم اهتمامهما كلية بالخط الحديدى الفعلى نفسه ، إذ بينما كان جولد يحارب فاندربلت تلقى خطاباً من أحد الملاحظين يقول فيه :

« لقد تكسرت القضبان الحديدية وتحولت إلى صفائح رقيقة وبليت على نحو لم يسبق له مثيل بحيث لا يكاد يوجد ميل واحد فى خطك فيما بين جرسى سيتى وسالامانكا أو بفالو ، يستطيع أن يسير فيه قطار فى أمان بسرعة قطار الركاب العادى أو قطار البضاعة ، وثمة أجزاء كثيرة من الخط لا يمكن السير عليها فى أمان إلا إذا خفضت سرعة جميع القطارات إلى ١٠ أميال أو ١٥ ميلا فى الساعة » .

وحين تراكمت الحوادث قال أحد نواب رئيس الشركة « على الجمهور أن يهتم بنفسه فهذا أقصى ما أستطيع أن أعمله للعناية بالخط الحديدى » وكان يقصد بذلك ما يبذله من جهود جنونية فى دعم قوائم المشروع المالية المتداعية .

ولم يكن جولد استثناءً ، ذلك أن عدداً قليلا من أبطال عصر المالية الأمريكية الذهبى كان يبدى الكثير من الاهتمام بالحقائق الصلدة الكامنة تحت صرح الأسهم والسندات والقروض الذى أقاموه . قد يستهل رجل مثل هنرى فورد فيما بعد : عصراً من قياطنة الصناعة الذين ينصرف تفكيرهم إلى الإنتاج ، ولكن أمثال هاريمان ومورجان وفريك وروكفلر كانوا أكثر اهتماماً بالتلاعب المثير بتلك المقادير الضخمة من الثروة غير المادية : منهم بذلك العمل الممل وهو إنتاج السلع . لقد استقبل هنرى فيلارد مثلاً عام ١٨٨٣ على أنه من أبطال عالم الأعمال : إذ فى تلك السنة كان يستخدم مطرقته فى الجولد سبايك التى وصلت الخط العظيم الذى أنشأه مخترقاً القارة حتى الساحل المطل على شمال الباسفيك . وهتفت الألوف وتنازل الزعيم الهندى المعروف باسم « الثور الجالس » (والذى أطلق سراحه من السجن لهذا الغرض) رسمياً إلى شركة الخط الحديدى عن كل أراضى الصيد المملوكة لقبيلة الغراب ، وصرح الاقتصاديون أن هفوات فيلارد المالية لا تعد شيئاً بالقياس إلى عبقريته التنظيمية . ولعل شعور المعجبين به كان يختلف لو علموا بالخطاب الذى كتبه جيمس هل وهو من رجال السكك الحديدية المنافسين . لقد استعرض إمبراطورية فيلارد بنظرة أقل تحمساً وأعلن أن « . . . الخطوط واقعة فى إقليم طيب ، بعضه غنى وعمدها بمقادير ضخمة من البضائع لنقلها ، ولكن الاستفادة تسبق ما ينبغى أن يكون هناك لإظهاره ، كما أن اختيار الطرق والدرجات مريع . ويمكن القول من الوجهة العملية أنه يجب إنشاء الخط من جديد » .

وكمثال أخير نشير إلى إنشـــاء شركة الولايات المتحدة للصلب فى عام ١٩٠١ . حين تنظر إليها بعينى فبلن فقد كانت آلة اجتماعية هائلة

لإنتاج الصلب ، فهى مجموعة من المصانع والأفران والخطوط الحديدية والمناجم تحت إدارة مشتركة من أجل تنسيق أكثر كفاءة بينها . ولكن هذا لم يكن إلا اعتباراً ضئيلاً فى نظر الذين « صنعوا » شركة الولايات المتحدة للصلب . كانت أصول الشركة التى سوف تصبح عملاقاً فى النهاية نحواً من ٦٨٢ مليون دولار ، ولكن مقابل هذا بيع ما قيمته ٣٠٣ مليون دولار من السندات ، ٥١٠ مليون دولار من الأسهم الممتازة ، ٥٠٨ مليون دولار من الأسهم العادية . وبعبارة أخرى كانت الشركة المالية فى ضعف « حجم » الشركة الحقيقية ، ولم يبق بعد الأسهم العادية سوى ذلك الجوهر غير المادى وهو « الشهرة » . إلا أنه خلال عملية خلق هذه الأشياء غير المادية كسب ج . ب . مورجان وشركاه أتعاباً قدرها ١٢,٥٠٠,٠٠٠ دولار ، ووصلت أرباح الاكتتاب للذين قاموا بترويج المشروع إلى ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار . وقد بلغت جملة تكاليف ترويج المغامرة ١٥٠,٠٠٠,٠٠٠ دولار . ولكن كل هذا كان يمكن أن يغتفر لو أن الاحتكار الجديد استخدم فى الغرض الذى كان فبلن يضعه نصب عينيه — وهو أن يكون آلة على درجة هائلة من الكفاية لإنتاج الصلب ، ولكنه لم يكن شيئاً من هذا القبيل ، إذ ظل الطن من القضبان المصنوعة من الصلب يباع طيلة ثلاثة عشر عاماً بمبلغ ٣٨ دولاراً بينما تقل تكاليف إنتاجه عن نصف هذا المبلغ . وبعبارة أخرى أسيء توجيه الكسب كله الناجم من التوحيد التكنولوجى لتحقيق غاية أخرى هى الإبقاء على صرح من المالية الكاذبة .

لو بحثنا نظرية فبلن على ضوء عصره لما بدت بعيدة عن الواقع بهذا القدر . كانت لاسعة لأنها وصفت بعبارات تكاد تشبه طقوس المتوحشين وبأساليب لقيت الاعتراف بأنها الغاية النهائية من المعرفة ، ولكن نظريته الرئيسية كانت تدعمها الحقائق : فوظيفة كبار بارونات الأعمال كانت مختلفة جداً فى الحقيقة عن وظائف الذين كانوا يقومون فعلا على إدارة الآلة الإنتاجية . إن تلك اللعبة الصاخبة الجريئة التى مارسها الاحتيال المـالى ساعد على

إشاعة الاضطراب فى تدفق السلع بقدر ما عمـل على تنميته .

ومن الغريب نوعاً أن الكتاب أثار حماساً أقل منه فى حالة « نظرية الطبقة التى لا تعمل » . فكتاب « نظام مشروع العمل » لم يتجاوز حدود القراء المحترفين لينتزع اهتمام المثقفين كما فعل الكتاب الذى سبقه ؛ بل إن الاقتصاديين أنفسهم نظروا إليه بعين قلقة ، إذ كيف يمكن أن يحمل على محمل الجد تماماً كتاب يمثل هذه المهارة ؟ إن النموذج التالى لدعابته التهكمية الحادة يعرّف « الترقب اليقظ » من جانب رجل الأعمال :

لا ريب أن عبارة « الترقب اليقظ » كانت تستخدم أولا لوصف أسلوب تفكير ضفدع بلغ سن رجاحة العقل ووجد مكانه المقرر على طول طريق يكثر ارتياده حيث تمر الذباب والعناكب ثم تمر من جديد فى طريقها إلى ذلك المصير الذى قدرته لها عناية إلهية بعيدة النظر ورحيمة ، ولكن وجد بتحوير الألفاظ أن هذه العبارة تصلح لوصف ذلك الفريق الناضج من قباطنة الصناعة الذين تحكمهم بعض مبادىء العمل السليمة . إن وجـه الضفدع الذى يجد نفسه فى مثل هذه الظروف يبدو عليه نوع من علامات الرضا الرقيق بينما جسمه الظريف يؤكد وجود هرم من المبادىء المستقرة .

من المؤكد أنه كان من الصعب تقدير قيمة الكتاب ، ولعل التعليق الذى كان أبعد من أن يكون متوقعاً ، ذلك الذى كتبه أحد القراء إلى فبلن يطلب منه أن يهديه إلى الطريقة التى يستطيع بها كسب المال .

ولكن الكتاب كان أكثر من معالجة جافة للنظام الاقتصادى ، إذ كان أيضاً نظرية فى التغيير الاجتماعى ، ذلك أن فبلن كان يعتقد أن أيام قادة الأعمال معدودة ، وأنه بالرغم من قوتهم يقف فى وجههم خصم قوى . ذلك الخصم لم يكن البروليتاريا (التى بين كتاب الطبقة التى لا تعمل كيف يتطلع أفرادها إلى قادتها) ولكنه مع ذلك عدو أشد ضراوة وقسوة ، ذلك هو الآلة .

والسبب فى هذا على حد ظن فبلن أن الآلة « تخلق عادات فى التفكير شبيهة بتفكير الإنسان » . فهى تجبر الناس على أن يفكروا على أساس الواقع وطبقاً لاعتبارات دقيقة يمكن قياسها ، وتخلو من الخرافة والنزعات الروحانية . وبهذا فالذين يحتكون بالعملية التى تقوم بها الآلة يجدون صعوبة متزايدة فى تقبل تلك الفروض عن « القانون الطبيعى » والتمييز الاجتماعى ، التى يستند إليها قيام الطبقة ذات الفراغ . وهكذا ينقسم المجتمع لا إلى فقراء يقفون ضد الأغنياء ، وإنما إلى فنى ضد رجل أعمال ، وميكانيكى ضد زعيم حربى ، وعالم ضد رجل يتمسك بالطقوس .

وعبر عن « الثورة » بتفصيل أكبر فى سلسلة من الكتب أصدرها فيما بعد ، وأهمها « المهندسون ونظام الثمن » ،و « الملكية الغائبة ومشروع العمل » . سوف ينتهى الأمر بتجنيد هيئة من المهندسين ليتولوا أمر هذه الفوضى التى تشيع فى نظام الأعمال . إنهم يمسكون بأيديهم الآن قوة الإنتاج الحقيقية ولكنهم لا يزالون على غير إدراك بأن نظام الأعمال لا يتفق مع نظام من الصناعة الحقة . ولكن سوف يحل اليوم الذى يتشاورون فيما بينهم ، ويستغنون عن « نواب المالكين الغائبين » ويديرون الاقتصاد وفق المبادىء المناسبة لآلة إنتاج ضخمة حسنة التنظيم . وماذا يحدث لو لم يفعلوا هذا ؟ فى هذه الحالة سوف يزداد العمل افتراساً إلى أن ينحط فيصبح نظاماً من القوة العارية والامتياز السافر والسيطرة التعسفية ، يخلى فيه رجل الأعمال مكانه ليحل فيه سيد الحرب القديم . وسوف ندعو مثل هذا النظام فاشية .

ولكن هذا كله كان بعيداً بسنوات عن فبلن الذى أخرج كتاب « الفنيين والثورة » فى عام ١٩٢١ . « ليس من شىء فى الموقف ينبغى أن يقلق بشكل معقول مشاعر الحفاظ على النظام أو مشاعر تلك المجموعة الهائلة من المواطنين الميسورى الحال ممن يتكون منهم جمهور الملاك الغائبين . ليس بعد » .

إن عبارة « ليس بعد » هى التى تدل على طراز الرجل . فبالرغم مما يتصف به أسلوبه من ابتعاد مدروس عن العامل الشخصى ، فإن ما يقصده

يتغلغل فى كتابته . ومع ذلك فهذا القصد غير شخصى ، وليس بالحقد الذى يشعر به الشخص الذى عانى الإهانات فى حياته الخاصة ولكنه الابتعاد المسلى الساخر الذى يتصف به رجل معتزل يرى كل هذا زائلا ، وأن الطقوس والمظاهر الباطلة سوف تحلى مكانها فى الوقت المناسب لشىء آخر .

ليس هذا بالوقت الذى يمكن تقييم ما قاله ، فسوف يحدث هذا فيما بعد . ولكن يمكن أن نلحظ مقارنة غريبة . فالأسلوب العام الذى يعالج به فبلن موضوعه يذكرنا بشخصية أبعد ما تكون عن فبلن ، تلك هى شخصية الاشتراكى الخيالى نصف المجنون . الكونت هنرى دى سان سيمون . فعلى القارىء أن يتذكر أن سان سيمون كان أيضاً يمجد المنتج ويهزأ بالموظف الذى يشبه الحلية . ولربما يقلل من حكمنا على ذلك،الاحتقارُ الذى يبديه فبلن نحو سادة ميدان الأعمال لو تذكرنا أن السخريات التى سبق أن أطلقها سان سيمون مرة على « السيد شقيق الملك » لا بد أنها صدمت بالمثل مشاعر الناس .

وانتهت حياة فبلن فى جامعة شيكاغو فى عام ١٩٠٦ . وكان قد بدأ يكتسب الشهرة فى الخارج ، فدعى إلى مأدبة حضرها ملك النرويج ، ومن قبيل إبداء العاطفة على نحو غير عادى كان قد بعث بقائمة الطعام إلى أمه التى تأثرت كثيراً لأن ابنها قابل ملكاً . ولكن الأمور فى وطنه لم تسر على هذا النحو الطيب . فعلاقاته النسائية تجاوزت الحد،وبالرغم من كتبه ومن حصوله قبل ذلك بوقت قصير على منصب الأستاذ المساعد فإن سلوكه لم يكن إعلاناً عن الجامعة بالصورة التى كان يدعو إليها الرئيس هاربر .

وسعى إلى الحصول على منصب جديد ولكن شهرته كانت أقرب إلى السمعة السيئة منها إلى الطيبة ، ولهذا لقى صعوبة كثيرة فى الحصول على منصب آخر . وأخيراً توجه إلى ستانفورد ولكن سمعته كانت قد سبقته من حيث لوذعيته المخيفة ، وعزلته الشخصية وعلاقاته النسائية ، وكل هذه الأشياء كانت ثابتة إلى حد كبير . وكان يؤثر فى ذلك العدد القليل من زملائه الذين كان فى وسعهم احتمال تلك النزعة التى تثير الجنون إذ يرفض أن يلتزم بشىء

وأصبح يعرف باسم « آخر رجل يعرف كل شيء » . ولكن أحواله المالية المنزلية ظلت بدون تغيير ، وفى إحدى المناسبات أشار صديق له إلى سيدة شابة تقيم فى بيت فبلن بوصفها بنت أخته ، فأجاب وهو يحاول أن يكون لبقاً « إنها لم تكن ابنة أختى » . وهذا أنهى المسألة .

وكانت زوجته قد طلقته فى عام ١٩١١ ، ولا بد أنه كان زوجاً تستحيل معاشرته (فقد كان يترك خطابات المعجبات فى جيوبه حيث يكون متأكداً من عثور زوجته عليها) ، ولكنها ، وبنوع من الإشفاق عليه إلى حد ما ، هى التى كانت تأمل أن تصحح الأوضاع الزوجية فى النهاية . ولكنها لم تنصلح أبداً إلا بصورة مؤقتة . فحدث مرة وقد ظنت أنها حامل ، أن بعث بها إلى أهلها وقد تملكه الذعر إذ كان يعتبر نفسه لا يصلح كلية لأن يكون أباً ، وراح يبرر مخاوفه بحجج أنثروبولوجية لبيان عدم أهمية الذكر فى البيت . وأخيراً أصبح الطلاق ضرورة لا مفر منها . وكتبت إيلين خطاباً طويلا تبرر فيه موقفها ختمته بالعبارة الآتية : « بالرغم من أن دور المستر فبلن فى الصفقة أن يمدنى بمبلغ ٢٥ دولاراً فى الشهر فالأرجح أنه لن يفعل هذا » . وكانت على حق .

وفى السنة التى وقع فيها الطلاق انتقل من جديد ، فى هذه المرة إلى جامعة ميسورى ، وأقام فى بيت صديقه دافينبورت الاقتصادى المعروف ، فى وحدته وشذوذه يكتب فى قبو الدار ، ولكنها كانت فترة إنتاج كبير بالنسبة إليه ورجع بفكره إلى تلك الأيام التى قضاها فى شيكاغو ثم أخرج أعنف تعليق على الجامعة الأمريكية ، لخص فيه كيف انحرفت مراكز العلم إلى مراكز بالغة القوة للعلاقات العامة وكرة القدم ، وهذا هو كتاب « التعليم العالى فى أمريكا » . وبينما كان مشغولا بتأليفه قال بما يشبه الجد إن العنوان الفرعي للكتاب سوف يكون « دراسة فى الفساد الكلى » .

ولكن الأهم من هذا أنه تحول ببصره إلى أوربا حيث أوشك التهديد بنشوب الحرب أن يتحقق ، فكتب عن ألمانيا مشبهاً دولتها الملكية ذات

النزعة الحربية بالدودة الوحيدة وذلك فى هذه الكلمات المحرقة : « . . . إن علاقة الدودة الوحيدة بالجسم الذى تقيم به ليست شيئاً من السهل أن نصفه بألفاظ جميلة ، أو أن نثبت صحته بدرجة من الإقناع التى تؤكد الميل إلى الاحتفاظ بها لأسباب ترجع إلى المنفعة والعادة » . ولقى كتاب « ألمانيا الإمبراطورية » مصيراً غير عادى ، وبالرغم من أن مكتب الدعاية التابع للحكومة أراد استخدامه لأغراض الحرب فإن مصلحة البريد ، وجدت فيه ملاحظات كثيرة تسىء إلى بريطانيا والولايات المتحدة ولهذا منعت إرساله .

وحين نشبت الحرب فى النهاية عرض خدماته على حكومة وشنطن ، فهذا الرجل الذى لم تكن الوطنية فى نظره سوى عرض آخر من أعراض الثقافة البربرية ، لم يكن هو نفسه مجرداً منها . ولكن وشنطن تلاعبت به كما يلعب المشعوذ بكرة من النار . كان الكل قد سمعوا عنه ، ولكن أحداً لم يرد أن يستخدمه . وأخيراً وضعوه على الرف إذ عينوه فى وظيفة غير ذات أهمية بإدارة شئون الغذاء . وهناك تصرف بالأسلوب الذى درج عليه ، فكتب مذكرات عن أفضل الوسائل لزيادة الإنتاج . ولكن لما كانت المقترحات التى تقدم بها تنطوى على عملية شاملة من إعادة تنظيم الأساليب الاجتماعية وأساليب العمل فى الريف ، فقد وصفت بأنها « تستحق النظر » ثم أهملت . ولقد اقترح فرض ضريبة شديدة على الذين يستخدمون الخدم بالمنازل حتى يحرر بذلك طاقة بشرية ، فكان مصير الاقتراح أيضاً التجاهل . إنه اقتراح يدل على حقيقة الرجل تماماً ، فقد كتب يقول « إن السقاة والخدم نوع قوى البنية بدرجة ممتازة ويصلحون لشحن السفن وتفريغ الشحنات بمجرد أن يؤدى العمل اليومى الذى يقومون به إلى تقوية عضلاتهم نوعاً والتخفيف من وزنهم » .

وفى عام ١٩١٨ وفد إلى نيويورك ليكتب فى مجلة ديال Dial وهى مجلة حرة الاتجاهات . وكان قد نشر قبل ذلك بقليل كتاباً عنوانه « بحث فى طبيعة السلام » ، قرر فيه بشجاعة أن ليس أمام أوربا إلا الإبقاء على النظام القديم بكل ما فيه من الدوافع الهمجية التى تؤدى إلى الحرب ، أو نبذ نظام

الأعمال نفسه . كان البرنامج موضع النقاش فى مبدأ الأمر ثم فقد جدته . وأخذ فبلن يعالجه بطريقة خفية فى المجلة ولكن التوزيع كان يقل مع كل عدد يصدر منها . وطلب منه أن يحاضر فى المدرسة الجديدة للأبحاث الاجتماعية ، وهى معهد حديث الإنشاء، ويضم نخبة من نجوم الفكر من أمثال جون ديوى، شارل أ . بيرد ، ودين روسكو باوند ولكن حتى هذا كان تجربة مرة ، إذ ظل يتمتم بالكلام فى الفصل ، وبعد أن كانت محاضراته تزدحم تماماً فى أول الأمر انتهى الحال بأن لم يكن يحضرها سوى حفنة من الطلاب .

كانت حياة فبلن مزيجاً من الشهرة والإخفاق . ولقد كتب ه . ل . منكن أن « الفبلنية كانت تسطع بأنوار متلألئة ، فكان هناك أتباع فبلن ، ونوادى فبلن ، ووصفات فبلن لعلاج جميع أحزان العالم . وفى شيكاغو وجدت بنات فبلن ولعلهن بنات جيسون ممن بلغن أوسط العمر وامتلأت نفوسهن باليأس . ولكن لم يكن هناك شيء للرجل نفسه . كان له تمثال نصفى فى أحد أروقة المدرسة الجديدة ، فكان يسبب له الكثير من الحرج وانتهى الأمر بنقله إلى المكتبة حيث يكون أقل تعرضاً للأنظار . وفيما يتعلق بحياته الشخصية كان عاجزاً ، يعاونه فى مشكلات العيش اليومية عدد قليل من تلاميذه السابقين المخلصين ، ومنهم ويزلى ميتشل وايزادور لوبين وكلاهما كانا من الاقتصاديين ذوى الأهمية . وظل فترة يراقب فى شغف أية علامة تدل على مقدم عالم جديد أى عصر المهندسين والفنيين ، وكان يأمل أن تكون الثورة الروسية بداية لحلول مثل هذا العصر . ولكن خاب أمله بسبب ما رآه ، وكما كتب هوراس كالن من رجال المدرسة الجديدة للأبحاث الاجتماعية « حين لم يتحقق الأمر ، ظهرت عليه علامات تنم عن هبوط معين فى إرادته واهتمامه ، وعن نوع من التفكير فى الموت » .

وعرضت عليه رئاسة الجمعية الاقتصادية الأمريكية ، ولكن العرض جاء متأخراً فرفضه معقباً بقوله « لم يعرضوه حين كنت فى حاجة إليه » . وأخيراً عاد إلى كاليفورنيا . ويحدثنا جوزيف دورفمان فى السيرة التى كتبها للرجل

يصف لنا وصوله إلى كوخه الصغير فى الغرب حيث خيل إليه أن أحداً قد استولى بغير حق على قطعة الأرض التى كان يملكها : « والتقط فأساً وراح يكسر النوافذ بصورة منظمة ، وبحدة باردة تشبه الجنون . وهى حدة الشخص البليد جثمانياً حين ينشط فجأة بدافع الغضب» . . وكان الأمر كله سوء تفاهم . وأقام هناك مع أثاثه الريفى المصنوع فى البيت . والذى لا بد أن كان يذكره بأيام الصبا وكان يرتدى ملابس العمال الخشنة التى يشتريها بطريق البريد من سيرس فى روبك ، ودون أن يمس أى شيء خلقته الطبيعة ولو كان العشب نفسه ، بل وكان يسمح للفئران وحيوان الظربان الأمريكى بأن تتمسح فى ساقيه ، وتدخل فى الكوخ وهو جالس بلا حراك مشغولاً بالأفكار البعيدة السوداء .

تلك الحياة التى كان يسترجع ذكراها لم تكن سعيدة أو ناجحة . فالزوجة الثانية التى تزوجها فى عام ١٩١٤ كانت تساورها الأوهام بأنها موضع الاضطهاد فأرسلت إلى مستشفى الأمراض العقلية ، وأصدقاؤه يقيمون على بعد كبير عنه ، والعمل الذى قام به استولى عليه الهواة وتجاهله الاقتصاديون إلى حد كبير ولم يعلم به المهندسون .

لقد بلغ الآن السبعين من العمر . ولم يكتب شيئاً ، وأعلن « قررت ألا أخرج على عادة الصيام يوم السبت . إنه ليوم جميل » . وجاء الأصدقاء لرؤيته فوجدوه أبعد عن العالم من ذى قبل . وكان ممن يسر من الملق ، وكان يتلقى خطابات من أتباع اختارهم لنفسه . وكتب إليه أحدهم سائلا : « هل لك أن تخبرنى فى أى بيت فى شيكاغو وضعت كتاباتك الأولى ، وإذا أمكن ، ففى أية حجرة ؟ » .

ومات فى عام ١٩٢٩ قبل أن تحل الأزمة الاقتصادية الكبرى . وخلف وصية ومعها هذه التوصية التى خطها بالقلم الرصاص ولم يوقع عليها : « وكذلك أرغب فى حالة موتى أن تحرق جثتى إذا أمكن عمل ذلك فى غير مشقة وبسرعة وبنفقات قليلة ، وبدون إجراء أى طقوس أو احتفال من أى

نوع كان . وأرغب أن يلقى بالرماد بحيث يتطاير فى البحر أو فى أى مجرى مائى كبير يصب فى البحر ، وألا ينام على قبرى شاهد أو لوحة رخامية أو صورة أو لوح أو كتابة أو تمثال من أى نوع أو شكل تخليداً لذكراى أو اسمى فى أى مكان أو فى أى وقت ، وألا ينشر لى نعى أو ذكرى أو صورة أو تاريخ حياة ، وألا تطبع أو تنشر أية رسائل تلقيتها أو بعثت بها أو إخراجها أو اقتباسها أو تداولها بأية طريقة » .

وكما هو الحال دائماً كان طلبه موضع الإغفال : لقد أحرقت جثته ونثر الرماد فوق المحيط الهادى ، ولكن تخليد ذكراه عن طريق الكلمة المكتوبة بدأ فى الحال .

ماذا نظن فى هذه الشخصية الغريبة ؟

لا يكاد من الضرورى أن نبين أنه كان يتطرف . فتصويره للطبقة التى لا تعمل مثلا كان قطعة فنية فى رسم الشخصية ، كما كان من جهة أخرى صورة كاريكاتورية . فحين يلتقط ذلك الدافع الصامت على تكوين الثروة فى معايير الجمال التى تقبلناها ، وحين يذكر فى خبث أن « اللمعان الشديد فى قبعة السادة أو فى الحذاء المصنوع من الجلد الممتاز ، ليس فيه من الجمال الحقيقى أكثر من اللمعان الشديد المماثل فى الكم الرث » فإنه فى هذه الحالة واثق مما يقول . ويجب أن نتقبل فى خنوع الحكم الذى أصدره على ذوقنا بأنه ذوق الشخص المحدث النعمة . ولكنه حين يقول « إن ذلك الإيحاء المبتذل بالتدبير والذى لا ينفصل تقريباً عن البقرة هو حجة قائمة ضد استخدام الحيوان لغرض الزينة » فإنه يدخل فى نطاق السخافة . وقد أمسك به مينكن الذى لا يقهر بسبب العبارة الآتية : هل قام الأستاذ المهذب ، وهو يفكر فى المشكلات الكبرى التى يعرض لها ، برحلة فى الريف ؟ وهل تصادف وهو يتجول هناك أن اخترق مرعى تسكنه بقرة ؟ وهل حدث أبداً وهو يعبر المرعى أن مر بمؤخرة البقرة نفسها ؟ وهل خطا فوقها بإهمال وهو يمر بمؤخرتها » .

وجزء كثير من هذا النقد يمكن أن يوجه إلى الصورة التى قدمها فبلن لرجل الأعمال ، أو بسبب تلك المسألة ، للطبقة التى لا تعمل . أما أن العملاق المالى فى تلك الأيام السعيدة فى تاريخ الرأسمالية الأمريكية كان من البارونات اللصوص فحقيقة لا ريب فيها ، والصورة التى رسمها له فبلن وإن كانت أثيمة ، تقرب للأسف من الحقيقة . ولكن فبلن ، على غرار ماركس ، أساء تقدير طاقة نظام الديموقراطى على تصحيح مساوئه ومظالمه . فالمجتمع الذى يرى فى وقت ما أن رجل الأعمال غير مسئول عن سلوكه إلا أمام نفسه قد يصبح بالتدريج المجتمع الذى يعتبر فيه رجل الأعمال مسئولا عن النتائج الاجتماعية المترتبة على أفعاله . لم يدرك فبلن أن جو العمل كان قابلاً للتغيير وأن نظام مشروع العمل ، كالملكية فى انجلترا ، يمكن أن يتكيف ليلاءم عالماً تغير تغيراً هائلا .

أو لنعبر عن الفكرة بطريقة مختلفة نوعاً ، فنقول إن فبلن بدا أنه يشعر أن الطبقات التى لا تعمل كانت تحتكر مخزون المجتمع من نزعة السلب والنهب ، وأن المهندسين والفنيين هم الأوصياء الوحيدون على غريزة المجتمع التى تدفعه إلى العمل الأمين . ولكن إذا كان علم النفس الحديث يعلمنا شيئاً فإنه يعلمنا أن فينا جميعاً وبغض النظر عن المركز الاجتماعى ، ميولاً عدوانية متغلغلة فى نفوسنا وميولاً خلاقة قوية . لم يتوقف فبلن كى يرى أن الأفكار الجديدة والمواقف الاجتماعية الجديدة قد تضعف من عنصر السلب عند طبقة رجال الأعمال وتشجع بقوة اهتمامها فى العمل الخلاق . ولم يمتد به العمر كى يشهد بداية عصر قد يبرر وجود الرأسمالية بسبب مزاياها بوصفها منتجاً للطيبات ولكنها لن تعود تقبل بسهولة أن تستخدم قوتها كمنتج للكسب الخاص على حساب الشعب دون أن تكون مسئولة عن هذا الاستخدام .

وثمة نقد أخير ، إن افتتان فبلن بالآلة نغمة نشاز فى فيلسوف دنيوى وبخلاف هذا فهى مجردة من الوجدان الشاعرى . حقيقة تجعلنا الآلات نفكر فى برود ، ولكن قد ينتهى الأمر بها إلى أن يتجاوز هذا البرود حده السليم .

وعلينا ألا ننسى أن نهاية السلوك « العلمي » للإنتاج قد يكون ظهور إنسان آلى بشرى ، وأنه بينما قد تنمى العملية الآلية أحكامنا الفنية فإنها قد تخنق وتفسد خيالاتنا وعواطفنا ، وأن « فيلم » « العصر الحديث » الذى أخرجه شارلى شابلن ليبين لنا أن شارلى لم يكن سعيداً أو متزناً . قد تستطيع فرقة من المهندسين أن تدير شئون مجتمعنا بكفاءة أعظم ، أما أن تديره بروح أكثر إنسانية فأمر هو موضع الجدل .

ولكن بالرغم من هذه الاعتراضات فهناك الكثير الذى يمكن أن نتعلمه من المرارة المؤدبة التى اتصف بها هذا العقل المتشكك . فمن المؤكد أن تقسيمه أمريكا إلى فريق يكسب المال وآخر يصنع السلع وصف بارع لاقتصادنا وأكثر واقعية من النموذج البالى عن الصراع الطبقى الذى يتحدث عنه الماركسيون ، والحق أن الوصف الذى قدمه فبلن لما يتسم به الخلق الأمريكى من نزعة إلى التفوق عن طريق التنافس ، يساعد على أن يوضح كيف أنه لم تحدث أبداً فى هذا البلد انقسام طبقى خطير . لقد نعمنا بالتحرز من كابوس ماض إقطاعى باتجاهاته الموروثة بشأن انقسام المجتمع إلى طبقات جامدة ، ولكن أقلقنا هذا الانقسام إلى العبقرية الفنية من جهة والاستهتار المالى من ناحية أخرى . وكان فبلن أول من لاحظ هذا الانقسام واستخلص منه نتائج اجتماعية واقتصادية كئيبة .

ولكن ما هو أعظم من هذا كله أن الرجل قدم الكثير إلى علم الاقتصاد ، إذ قدم له عينين يرى بهما العالم . فبعد ذلك الوصف الوحشى الذى قدمه لعادات الحياة اليومية أصبح من الصعب الإبقاء على الصورة التقليدية التى يبدو فيها المجتمع أشبه بجماعة مهذبة حول مائدة الشاى . وكان احتقاره للمدرسة القديمة لاذعاً حين كتب مرة يقول « إن عصابة من أهل جزر ألوشيان قد ركبت البحر ومعها الكباشات والتعاويذ السرية من أجل صيد المحار تعتبر كأنها تقوم بعمل فذ هو تحقيق التوازن اللذيذ فى الريع والأجور والفائدة » . وكما سخر من محاولة الاقتصاديين الكلاسيكيين فض الصراع البشرى البدائى

بإدخاله فى إطار يخلو من اللحم والدم . كذلك ألقى ضوءاً كبيراً على عدم جدوى المحاولة الرامية إلى فهم أفعال الإنسان الحديث وفق اعتبارات مستمدة من فروض سابقة ناقصة وعتيقة . فالإنسان على ما يقول فبلن يجب ألا نفهمه على أساس « قوانين اقتصادية » سفسطائية تختفى فيها شراسته الكامنة وقدرته على الخلق تحت رداء من المبررات العقلية . الأفضل أن نفهمه بأسلوب عالم الأجناس أو عالم النفس وهو أسلوب وإن كان أقل ملقاً إلا أنه أساسى بدرجة أعظم ، ومعنى هذا أن نفهمه الآن على أنه مخلوق مكون من حوافز قوية وغير عقلية ، سريع التصديق ، لم يتعلم ويؤمن بطقوس معينة . وطلب فبلن من الاقتصاديين أن يدعوا جانباً تلك الأفكار السابقة عن عصر آخر ، ويكتشفوا السبب الذى من أجله يتصرف الإنسان بالفعل على النحو الذى يبدو به .

ولقد لخص تلميذه ويزلى كليير ميتشل – وهو باحث إقتصادى – بطريقته الخاصة ، الرأى فى فبلن على النحو التالى « كان هناك التأثير المقلق من جانب ثورشتاين فبلن – ذلك الزائر القادم من عالم آخر والذى قام بتشريح المسائل العادية الجارية التى اكتسبها الطالب عن غير وعى ، كما لو كانت أفكاره اليومية المألوفة تمازاً غريبة أوجدتها فيه قوى خارجية . إن العلم الاجتماعى لم يعرف شخصاً آخر مثله عمل على تحرير العقل من الطغيان البارع الذى تفرضه عليه الظروف . أو شخصاً مثله عمل على توسيع رقعة عالم البحث » .

الفصل التاسع

العالم المريض

الذي عالجه مينارد كينز

قبل أن يموت ثورشتاين فبلن بسنوات قلائل أقدم على أمر غير عادى بدرجة غريبة إذ قام بمغامرة فى بورصة الأوراق المالية . وكان صديق له قد أشار عليه بشراء أسهم فى إحدى شركات البترول ، فخاطر بجزء من مدخراته وكان فى ذلك يفكر فى المشكلات المالية التى تصاحب كبر السن . وحقق من وراء المغامرة ربحاً قليلا فى أول الأمر ، ولكن سوء الحظ الذى لا يفارقه تعقبه ، فلم تكد أسعار الأسهم ترتفع حتى قيدت الشركة فى سجل الفضائح البترولية الجارية ، وانتهى الحال بأن أصبح استثماره غير ذى قيمة .

هذه الحادثة غير ذات أهمية فى حد نفسها إلا من حيث أنها تكشف عن شق ضئيل آخر فى درع فبلن . ومع هذا ، فلو نظرنا إلى هذه المقامرة السيئة الأسيفة على ضوء محتوى آخر ، لكانت ذات دلالة بشكل غريب ، ذلك أن فبلن نفسه وقع فى نفس الإغراء البراق الذى كان يعمى أمريكا . فإذا كان أبعد مراقبيها عن الافتتان به قد أمكن إغراؤه على أن يبتلع جرعة ، فهل من عجب أن تسكر البلاد بأكسير الرخاء ؟

والحق ، أن أمارات الرخاء كانت واضحة لكل ذى عينين . ففى أواخر العشرينات من القرن الحالى وفرت أمريكا أعمالا لخمس وخمسين مليوناً من مواطنيها درت عليهم ٧٧ بليوناً من الدولارات ، على صورة أجور وريوع وأرباح وفوائد — وهو فيض من الدخل لم يشهد له العالم مثيلاً أبداً .

حين قال هربرت هوفر ببساطة جادة « سوف نقترب بعون الله من ذلك اليوم الذى يزول فيه الفقر من الشعب » ، فربما كان قصير النظر – ومن ذا الذى لم يكن ؟ – ولكنه كان يستند فى رأيه إلى حقيقة لا تقبل الجدل وهى أن الأسرة الأمريكية كانت تنعم بحياة وغذاء وملبس ومباهج فى الحياة ، أفضل مما عرفته أية أسرة عادية فى تاريخ العالم .

كان الشعب تتملكه رؤيا جديدة ، أسمى بكثير من مثل القرصنة التى سار عليها البارونات اللصوص . هذا الأمل الجديد عبر عنه بدقة جون ج . راسكوب رئيس الحزب الديموقراطى حين جعل عنوان المقال الذى كتبه فى إحدى المجلات النسائية Ladies' Home Journal ينبغى أن يكون كل فرد غنياً ، ثم قال : « إذا ادخر المرء ١٥ دولاراً فى الأسبوع واستثمرها فى الأسهم العادية الجيدة ، فسوف يصبح فى نهاية عشرين عاماً صاحب ثروة قدرها ٨,٠٠٠ دولار ، ويحصل من استثماراته على دخل يبلغ حوالى ٤٠٠ دولار فى الشهر . سوف يكون غنياً » .

مثل هذه الحسبة الرياضية كانت تفترض أن مثل هذا الشخص سوف يواصل إعادة إستثمار أرباح الأسهم والتى تبلغ نسبتها ستة فى المائة سنوياً . ولكن كان هناك طريق إلى الثروة أشد إغراء . فلو أن أحد المؤمنين بالصيغة التى ذكرها راسكوب أنفق أرباح أسهمه واقتصر على أن يدع ماله يزيد تبعاً لاتجاه أسعار الأسهم لحقق هدفه فى اقتناء الثروة ، بدرجة أكبر من السرعة وبقدر أقل من المشقة . لنفرض أنه اشترى أسهماً فى عام ١٩٢١ بمبلغ ٧٨٠ دولار والذى تجمع من ادخار ١٥ دولاراً فى الأسبوع . فبحلول عام ١٩٢٢ لأصبحت قيمة المبلغ معادلة ١٠٩٢ دولاراً . ولو أنه أضاف ٧٨٠ دولاراً سنوياً لأصبح يقتنى ثروة قيمتها ٤٨٠٠ دولار فى عام ١٩٢٥ – ٦٩٠٠ دولار بعد ذلك بسنة ، ٨٨٠٠ دولار فى عام ١٩٢٧ ، ثم تقفز إلى رقم لا يمكن تصديقه وهو ١٦,٠٠٠ دولار فى عام ١٩٢٨ . هل هذا رقم لا يقبل

التصديق ؟ عند ما يحل شهر مايو من عام ١٩٢٩ فإنه يجد ثروته الدنيوية تزيد على ٢١,٠٠٠ دولار ، أى أن مدخراته البالغة ٧٠٢٠ دولاراً قد زادت إلى ثلاثة أمثالها فى أقل من تسع سنوات . وحين استمرت الأسعار تسير فى طريق الارتفاع بدون توقف لفترة تقرب من نصف جيل ، فمن ذا الذى يمكن أن يلام إذا ظن أن هذا هو الطريق الملكى إلى الثروة ؟ فسواء كان المرء حلاقاً أو ماسح أحذية ، مصرفياً أو رجل أعمال — فقد قامر الجميع وربحوا . والسؤال الوحيد الذى كان يدور فى أذهان معظم الناس هو السبب الذى جعلهم لم يفكروا أبداً فى ذلك من قبل .

لا نكاد نجد من الضرورى أن نسهب فى بيان ما أعقب هذا . ففى ذلك الأسبوع الأخير الرهيب من أكتوبر ١٩٢٩ إنهارت السوق . لا بد أن هذا الحادث بدا فى نظر السمسار الواقف فى حلبة البورصة كما لو أن شلال نياجرا قد انفجر فجأة وحطم النوافذ ، ذلك أن سيلا من المبيعات التى لا يمكن التصرف فيها إنهال على السوق من كل ناحية . وبكى السماسرة من فرط الإعياء وشقوا الجيوب . لقد وقفوا مشدوهين وهم يرون ثروات هائلة تذوب كقطع السكر ، وكانوا يرفعون أصواتهم عالية حتى يجتذبوا نظر أحد المشترين . إن الضحكات الكئيبة فى ذلك العهد تتحدث عن نفسها ، فقد كان يقال إنك كنت تحصل على مسدس هدية مع كل سهم من أسهم جولدمان ساخس ، وإنك إذا أردت أن تحجز لنفسك غرفة فى فندق كان الكاتب يسأل : « للنوم أو للقفز منها ؟ » .

وحين أزيلت الأنقاض كان الحطام مرعباً للنظر . فخلال شهرين فقد الناس فيهما عقولهم ، أضاعت السوق كل المكاسب التى حققتها فى عامين من الارتفاع الجنونى ، إذ اختفى ٤٠ بليون دولار من القيم . وفى نهاية سنوات ثلاث نجد أن ثروة صديقنا المستثمر التى تضخمت على الورق حتى أصبحت ٢١,٠٠٠ دولار قد نقصت بنسبة ثمانين فى المائة ، فمدخراته الأصلية التى كانت تبلغ ٧,٠٠٠ دولار أصبحت بصعوبة تساوى ٤٠٠٠ دولار . لقد

وضح أن الحلم بأن كل إنسان سوف يصبح غنياً ، إن هو إلا هذيان .

وحين نسترجع تلك الصورة الماضية إلى ذاكرتنا ، فإنها كانت أمراً محتوماً فسوق الأوراق المالية كانت مبنية على أساس ضعيف من القروض لا يحتمل أكثر من العبء الواقع عليه . وأكثر من ذلك فالأساس الذى كان يسند ذلك المعرض الفخم من الرخاء كان يشتمل على ألواح من الخشب مهتزة ومتعفنة . إن الصيغة التى وضعها الرئيس راسكوب للفرد حين يعتزل الخدمة كانت بالدرجة الكافية من الدقة من وجهة النظر الحسابية . حسناً هذا . ولكنها لم تجب على السؤال المهم وهو : كيف كان فى وسع الشخص أن يدخر ١٥ دولاراً من دخل لا يتجاوز متوسطه ٣٠ دولاراً .

لا شك أن ضخامة الدخل القومى كانت تلفت النظر ولكنا إذا تتبعنا توزيعه على الملايين لوجدنا أن الشعب بصفته الكلية لم يكن ينتفع به بدرجة متساوية فنحو من أربعة وعشرين ألف أسرة فى قمة الهرم كانت تحصل على دخل يعادل ثلاث مرات ما تحصل عليه ستة ملايين أسرة من الطبقة الدنيا ؛ وكان متوسط دخل الأسرة من الفئة العليا المحظوظة يعادل دخل الأسرة من الفئة التى فى أسفل الهرم الاجتماعى ستمائة وثلاثين مرة . ولم يكن ذلك بالعيب الوحيد . إذ فى هذا الضجيج العالى من الرخاء الذى لا حدود له كان الإغفال نصيب مليونى مواطن لا يجدون عملاً ، ووراء الواجهات المرمرية التقليدية للمصارف تجاهل المجتمع أن هذه المؤسسات كانت تفلس بمعدل مصرفين فى اليوم طيلة السنوات الست التى سبقت الكارثة . ثم هناك الحقيقة الأخرى وهى أن الأمريكى العادى استخدم رخاءه بطريقة انتحارية ، فغرق فى الرهونات حتى ذقنه ، وأغراه نظام الشراء بالتقسيط فتجاوز موارده إلى درجة خطيرة . ثم راح يسعى إلى ضمان مصيره بالإقبال الشديد على شراء كميات خيالية من الأسهم ، قدرت بنحو ٣٠٠ مليون سهم .

وسواء أكانت الكارثة محتومة أم لم تكن ، فإنها لم تكن بادية للعيان

فى ذلك الوقت . وندر أن مر يوم دون أن تدلى إحدى الشخصيات البارزة بتصريح يطمئن الشعب على سلامة اقتصاده . بل أن اقتصادياً بارزاً مثل ارفنج فيشر : الأستاذ بجامعة ييل . خدعته مظاهر الرخاء السطحية إلى حد التصريح بأننا نتسلق هضبة مرتفعة بصورة دائمة . وهو تعبير مجازى كان من السخرية القاتلة به أنه لم ينقضى أسبوع على التصريح المشار إليه حتى هوت الأسهم من فوق حافة تلك الهضبة .

وبالرغم من الطابع المثير الذى اتسم به الهبوط العنيف فى سوق الأوراق المالية ، فإن هذا الهبوط ليس هو الذى حطم إيمان جيله الثابت فى رخاء لا ينتهى . إن الذى حطم هذا الإيمان هو ما حدث فى داخل البلاد مما توضحه بضع أمثلة من تلك السنوات العجاف . ففى منسى بولاية إنديانا — وهى المدينة التى اكتسبت شهرة بسبب اختيارها مسرحاً لكتاب « ميدلتاون » Middletown فقد كل عامل من أربعة عمال المصانع عمله عند ما انتهت سنة ١٩٣٠ ، وفى شيكاغو كان أجر أغلبية البنات العاملات أقل من خمسة وعشرين سنتاً فى الساعة ، وكان أجر ربعهن أقل من عشرة سنتات . وفى حديقة نيويورك وحدها كان يتجمع يومياً ألفان من العاطلين فى طوابير انتظاراً للحصول على الخبز . وفى البلاد بوجه عام هبطت عملية بناء المساكن بنسبة خمس وتسعين فى المائة ، وفقد تسعة ملايين مواطن مدخراتهم ، و أفلس خمسة وثمانون ألفاً من مشروعات الأعمال . وتضاءل حجم المرتبات فى البلاد كلها بنسبة أربعين فى المائة . وهبطت أرباح الأوراق المالية بنسبة ست وخمسين فى المائة والأجور بنسبة ستين فى المائة .

وأسوأ ما فى الأمر أن هذا الجانب الأشد مدعاة إلى الحزن ، من الكساد العظيم ، أنه بدا ألا نهاية له ، وألا مخرج أو إنقاذ منه . فى عام ١٩٣٠ كان الشعب يغنى فى رجولة « لقد عادت الأيام السعيدة ثانية » ولكن الدخل القومى هبط بشدة من ٨٧ إلى ٧٥ بليون دولار . وفى سنة ١٩٣١ كانت البلاد تغنى

« إن معي خمسة دولارات » وفى هذه الأثناء انكمش دخلها إلى ٥٩ بليون دولار . وفى عام ١٩٣٢ كانت الأغنية أشد كآبة ، وهى « أخى ، هل معك عشرة سنتات تقرضها لى » — ذلك أن الدخل القومى كان قد تضاءل إلى رقم تعيس وهو ٤٢ بليون دولار .

وبحلول عام ١٩٣٣ كان الشعب قد خر على وجهه بالفعل . فهبط الدخل القومى إلى ٣٩ بليون دولار ، وزال الرخاء الذى عرفته البلاد منذ أربع سنوات خلت فقط ودون أن يخلف أى أثر وراءه ، وعاد متوسط مستوى المعيشة إلى ما كان عليه قبل ذلك بعشرين عاماً ، وكان هناك ١٤ مليوناً من العاطلين يجلسون فى الشوارع والبيوت والمعسكرات التى عرفت باسم هو ڤرڤيل أى مدن الرئيس هوڤر وهؤلاء كانوا شبحاً يطارد البلاد . لقد بدا كأنما فقدت أمريكا بصورة دائمة روح الأمل الفخورة التى كانت تمتلىء بها نفسها !

كان أصعب ما يمكن احتماله البطالة . فملايين العاطلين كانوا أشبه بصمام يحبس الدورة الدموية فى جسم الشعب ، وبينما كان وجودهم الذى لا يرقى إليه الجدل حجة أقوى من أى كتاب على أن ثمة عيب فى النظام ، راح الاقتصاديون يعصرون أيديهم ويرهقون عقولهم ويضرعون إلى روح آدم سميث كى ترشدهم . ولكنهم كانوا عاجزين عن تشخيص الداء أو وصف العلاج . إن البطالة — وهذا النوع من البطالة — لم تكن ببساطة من الأمراض التى يمكن أن تصيب النظام : إنها عبث ، ومستحيلة ، وغير معقولة وتنطوى على تناقض . ولكن هذه البطالة كانت موجودة .

قد يبدو منطقياً أن الرجل الذى يسعى إلى حل هذا التناقض المستحيل وهو وجود القدر الوفير الكافى من الإنتاج جنباً إلى جنب مع أناس يسعون عبثاً وراء العمل ، من أهل اليسار أى اقتصادى ذى ميول قوية إلى البروليتاريا ، ورجل يشعر بالغضب . ولكن ليس أبعد من هذا عن الحقيقة ، فالرجل

الذى سوف يعالج المشكلة يكاد أن يكون هاوياً وليس شخصاً يتحدى الأساليب السائدة . الحقيقة البسيطة هى أن مواهبه كانت تميل فى كل اتجاه . فقد سبق أن وضع مثلا كتاب على أكبر درجة من الغموض عن نظرية الاحتمالات فى الرياضة وهو كتاب صرح برتراند رسل بأن « من المستحيل المبالغة فى امتداحه » ، ثم راح يبارى مهارته فى المنطق الغامض باستعداد لكسب المال فجمع ثروة بلغت ٥٠٠,٠٠٠ جنيه بأشد وسائل الإثراء غدراً إذ كان يتاجر فى العملات والسلع الدولية . ومما هو أشد وقعاً فى النفس أنه كتب بحثه فى الرياضة بينما كان فى خدمة الحكومة وجمع ثروته الخاصة بأن خصص لها نصف ساعة كل يوم وهو ما يزال نائماً فى فراشه .

ولكن هذا ليس إلا مثالاً عن تعدد جوانب شخصية هذا الرجل . كان اقتصادياً بطبيعة الحال — فكان زميلا فى كمبردج مع كل ما يصحب مثل هذا المركز من اعتبار وعلم ، ولكن حين تعلق الأمر باختيار الزوجة تجنب السيدات من أهل العلم واختار راقصة الباليه الأولى فى فرقة دياجيليف الشهيرة . ونجح فى أن يكون فى الوقت نفسه محبوب جماعة بلومزبيرى التى تضم صفوة المثقفين النابهين فى انجلترا كما نجح فى أن يرأس شركة تأمين على الحياة وهى مكان فى الحياة يندر أن يعرف عنه الاهتمام بالفكر . وكان من أكبر الدعاة إلى الاستقرار فى المسائل الدقيقة المتعلقة بالدبلوماسية الدولية ، ولكن نزاهته الرسمية لم تمنعه من اكتساب معرفة بالساسة الأوربيين الآخرين ، وهى معرفة شملت محظياتهم وأمراضهم العصبية ومتاعبهم المالية . وكان يجمع التحف الفنية قبل أن يصبح جمعها نمطاً مألوفاً ، ولكنه كان فى الوقت نفسه من عشاق الدراسات القديمة ، فاقتنى أبدع مجموعة خاصة فى العالم من مؤلفات نيوتن ، وكان يدير مسرحاً وأصبح مديراً لبنك انجلترا . وعرف روزفلت وتشرشل كما عرف أيضاً برنارد شو وبابلو بيكاسو . وكان يلعب البريدج بروح المضارب ، مفضلا اللعب المثير على اللعب الهادىء الرزين ويعيش فى وحدة كرجل الإحصاء ، يراقب الزمن الذى يستغرقه اللعب . وزعم

مرة أنه لم يأسف إلا على شيء واحد فى الحياة . ذلك أنه كان يود لو شرب الكثير من الشمبانيا .

كان اسمه جون مينارد كينز وهو اسم بريطانى قديم (يجرى النطق به على غرار كلمة rains) ويمكن أن نتتبعه حتى نصل إلى شخص يقال له وليم دى كاهاجنز وعام ١٠٦٦ . وكان كينز من التقليديين ، يود أن يظن أن العظمة تجرى فى الأسر . صحيح كان أبوه جون نيفيل كينز اقتصادياً لامعاً بالدرجة الكافية فى الاتجاه الذى سار فيه . ولكن تفسير مواهب الإبن يتطلب ما هو أكثر من هبات الوراثة العادية ، إذ بدا كأنما المواهب التى كانت تكفى ستة أفراد تجمعت بحكم الصدفة السعيدة فى شخص واحد .

ومن قبيل التوافق الزمنى أنه ولد فى ١٨٨٣ وهى نفس السنة التى مات فيها كارل ماركس . ولكن الإقتصاديين اللذين اتصل كل منهما بالآخر من الناحية الزمنية ، لم يكد أن يكون فى الإمكان أن يختلف كل منهما عن الآخر بهذا القدر بالرغم من أن كلا منهما سوف يكون له أعمق التأثير على فلسفة النظام الرأسمالى . كان ماركس مر المذاق إذا وقع فى مأزق ، وعنيفاً ويشعر بخيبة الأمل ، وكان على ما عرفنا الرجل الذى رسم صورة « الرأسمالية المحكوم عليها بالفناء » ، أما كينز فكان يحب الحياة ويسبح فوق سطحها فى انشراح وراحة وبنجاح فائق بحيث أصبح ذلك المهندس الذى وضع تصميم « الرأسمالية القادرة على الحياة » . وربما إذا تتبعنا مصدر نبوءة ماركس الحماسية عن انهيار الرأسمالية لوصلنا إلى ذلك الخيط من الإخفاق المنبعث من الاختلال العصبى والذى ميز حياته العملية . فإذا كان الأمر كذلك ففى مستطاعنا بالتأكيد أن ننسب نجاح كينز فى إقناع الناس بإمكانية إعادة بناء الرأسمالية إلى ما تميزت به حياته العملية من بهجة ونجاح .

لقد نشأ فى العصر الفكتورى وفى ظل المدرسة القديمة ، ودلّ فى صغره على ما يتصف به من النباهة . فحين بلغ الرابعة والنصف من عمره كان يشعر بالحيرة إزاء المعنى الاقتصادى للفائدة . وحين أدرك السادسة كان يعجب

كيف يعمل دماغه ، وفى سن السابعة رأى فيه أبوه « رفيقاً لطيفاً تماماً » . وتوجه إلى مدرسة إعدادية يديرها شخص يقال له المستر جودتشيلد . حيث دل على استعداد لكى يسوس الناس ، فكان لديه « عبد » يسير وراءه فى طواعية حاملا كتبه المدرسية ، وهى خدمة كان يؤديها مقابل المساعدة على حل المسائل المعقدة فى الواجب المنزلى ؛ كما عقد « معاهدة تجارية » مع تلميذ آخر يكرهه كينز ، فوافق كينز على أن يعيره فى كل أسبوع كتاباً من المكتبة مقابل تعهد فريق هذا التلميذ بأن يكون دائماً على بعد خمس عشرة ياردة من فريقه .

وفى سن الرابعة عشرة طلب وحصل على منحة دراسية للالتحاق بكلية إيتون . وعلى نقيض القصص المرعبة التى كانت تذاع عن المدارس العامة الإنجليزية ، لم يكن موضع الإساءة المنبعثة من نزعة إلى القسوة ، كما لم يكن محل القضاء عليه من الناحية الفكرية . لقد أينع هناك وكان يحصل على درجات ممتازة ، وكسب الجوائز بالعشرات ، واشترى لنفسه صديرية ذات لون أزرق فاتح ، وصار يتذوق الشمبانيا ، وأصبح طويل القامة يميل إلى الانحناء قليلا وربى شاربه . وكان يمارس رياضة التجديف ، وأصبح مجادلا قوياً ؛ وصار من المتحمسين لإيتون وهو حماس خلا من التظاهر الذى يبدو به الشخص المحدث النعمة . إلا أن خطاباً بعث به وهو فى السابعة عشرة من العمر إلى والده يكشف عن فطنة غير عادية بالنسبة إلى تلك السن . كانت حرب البوير قد وصلت إلى الذروة وألقى ناظر المدرسة خطبة وصفها كينز تماماً فى خمس عبارات قال : « نفس الموضوع المعتاد . ينبغى أن نعبر عن امتناننا . تذكروا كرامة المدرسة . إذا تعين عمل شىء فيجب أن يكون ذلك على أفضل وجه . كما هو الحال دائماً من قبل » .

وإذا كان قد أحرز نجاحاً باهراً فى إيتون فقد حقق نصراً فى كلية الملك بجامعة كمبردج ، فرجاه ألفرد مارشال أن يصبح اقتصادياً متفرغاً وكان الأستاذ بيجو — المرشح لأن يكون وريث مارشال — يدعوه إلى مائدته

مرة كل أسبوع . وانتخب سكرتيراً للاتحاد ، وهو منصب تصحبه فى النهاية رئاسة واحدة من أشهر جمعيات المناظرة غير الحكومية فى العالم . وكان يسعى إليه ليونارد وولف وليتون ستراتشى ، وتكونت نواة ما أصبح يعرف باسم جماعة بلومز بيرى . وكان يتسلق الجبال (وكان ستراتشى يشكو من « تلك الأعداد الكبيرة من الجبال البلهاء » ، ويشترى الكتب ، ويسهر حتى الفجر فى النقاش والجدل . لقد لمع ، وأصبح ظاهرة طبيعية تسترعى الاهتمام) .

ولكن حتى الظاهرات يجب أن تأكل ، وهنا جاء السؤال : ماذا يفعل ؟ كان لا يملك من المال إلا القدر القليل جداً ، والاشتغال بالحياة الأكاديمية لن يهيىء له إلا ما دون ذلك . وكانت له أحلام أكبر ، فكتب إلى ستراتشى يقول : « أريد أن أدير شركة للسكك الحديدية أو أن أتولى تنظيم إحدى هيئات أمناء الاستثمار . إن اتقان مبادىء هذه الأشياء سهل ويخلب اللب » .

ولم يعرض عليه أحد سكة حديدية أو هيئة استثمار ، واختار بدلا من ذلك الطريق السهل المفتوح أمام الشاب اللامع ، فأدى امتحان الإلتحاق بخدمة الحكومة بعدم اكتراث ظاهر جعل أخت ستراتشى تتساءل عما إذا كان عدم اكترائه تظاهراً . كلا ، لقد حسب كل شيء وإذن ما فائدة الشعور بالقلق وقد كان متأكداً أنه سوف يكون بين العشرة الأوائل . وحدث هذا بالطبع إذ كان ترتيبه الثانى ، وكانت أقل درجة حصل عليها فى القسم الاقتصادى من الامتحان . ولقد فسر الأمر فيما بعد بقوله « يحتمل أن معلومات الممتحنين كانت أقل مما أعرف » ، ومثل هذه الملاحظة كانت تدل على ادعاء لا يغتفر لولا أنها كانت صحيحة تماماً فى هذه الحالة .

وهكذا التحق فى عام ١٩٠٧ بوزارة الهند . كان كينز يكره هذا العمل وكان ينفق نشاطه فى البيت فى إعداد بحثه الرياضى ، كما كان منصب موظف صغير فى إدارة حكومية شيئاً بعيداً عن إدارة سكة حديدية . ولم يمض عامان حتى ضجر بالعمل ، إذ انحصرت جهوده ، كما صرح فيما بعد ، فى شحن

فحل من سلالة أفضل إلى بومباى ، وكل ما وجده فى العمل الحكومى هو أن ملاحظة غير سديدة قد تؤدى إلى « تعنيفك » فاستقال من عمله وعاد إلى كمبردج . ولكن لم يكن فى الإمكان أن تكون هذه السنوات بغير جدوى ، فبفضل ما تعلمه عن الشئون الهندية أصدر فى عام ١٩١٣ كتاب « العملة والمالية فى الهند » الذى اعتبره الجميع تحفة رائعة صغيرة الحجم ، وحين شكلت لجنة ملكية لبحث مشكلة العملة فى الهند طلب إلى كينز الذى لم يتجاوز التاسعة والعشرين من العمر أن يكون من أعضائها — وهو شرف رائع .

كانت كمبردج أقرب إلى نفسه ، وسرعان ما حقق نجاحاً ، وكدليل على التقدير الذى كان يحظى به أسندت إليه رئاسة تحرير « المجلة الاقتصادية » . وهى أعظم النشرات الاقتصادية أثراً فى بريطانيا — وهذا مركز سوف يحتفظ به طيلة ثلاثة وثلاثين عاماً .

غير أن بلومز بيرى كانت أبعث على سروره من كمبردج . كانت بلومز بيرى مكاناً وفى الوقت تمثل اتجاهاً فكرياً . فهذه الجماعة الصغيرة من المثقفين والتى انتمى إليها كينز وهو ما يزال طالباً بالجامعة قد أصبح لها الآن مقر وفلسفة وسمعة . ربما لم يزد أفرادها على عشرين أو ثلاثين شخصاً ولكن آراءهم وضعت المستويات الفنية لانجلترا — وأخيراً فقد كانت تضم ليونارد وفرجينيا وولف ، أ . م . فورستر ، كليف بل ، روجر فراى ، وليتون ستراتشى . فإذا ابتسمت بلومز بيرى ابتسامة الرضا أصبح للشاعر اسم وسمعة ، وإذا عبست فقد الفنان مكانته . ويقال إنها كانت قادرة على أن تستعمل كلمة « حقاً » باثنى عشر معنى مختلفاً ، ليس أقلها بالتأكيد الضجر الكاذب . كانت جماعة مثالية وفى الوقت نفسه تسخر من الناس ، شجاعة وسهلة الكسر . وكان بها مس طفيف من الجنون ، الأمر الذى تدل عليه الحادثة المعروفة باسم « خدعة المدرعة » حيث تزيت فرجينيا وولف (أوستيفن فى ذلك الوقت) وعدد قليل من المتآمرين معها ، فى زى إمبراطور الحبشة وحاشيته ، وبذلك سار بهم حرس الشرف حتى صعدوا إلى ظهر بارجة

من بوارج البحرية الملكية كانت موضع أشد درجات الحراسة .

فى كل هذا كان كينز شخصية رئيسية ، فكان ناصحاً ومستشاراً وحكماً . كان فى وسعه أن يتحدث عن أى شيء وهو واثق من نفسه تماماً . فوليم وولتن المؤلف الموسيقى وفردريك آشتون أستاذ الرقص وأى فنان آخر أو محترف تعود أن يسمع من كينز ، لا ، لا . . . أنت مخطىء تماماً فى ذلك ، ويمكن أن نضيف أنهم كانوا يطلقون عليه اسم بوزو Pozzo وهو مأخوذ من اسم دبلوماسى كورسيكى عرف باهتماماته المتعددة وعقله المتأخر . كانت هذه إلى حد ما بداية هاو بالنسبة إلى رجل قدر له أن يشد العالم الرأسمالى من أذنيه .

وأدت سنوات الحرب إلى تفكك جماعة بلومز بيرى توعاً ، إذ استدعى كينز إلى وزارة الخزانة وأسندت إليه إدارة شئون بريطانيا المالية فيما وراء البحار . لا بد أنه كان هناك أيضاً من الظواهر التى تلفت النظر ، وبهذا الصدد نورد القصة التالية عنه والتى رواها فيما بعد زميل مسن له فى العمل : « كانت الحاجة ماسة إلى البزيتات الأسبانية ، واستطعنا بصعوبة الحصول على مبلغ صغير نوعاً ، فأبلغ كينز الأمر كما يقضى الواجب إلى وزير الخزانة الذى سرى عنه لذلك ثم أبدى ملاحظة مؤداها أن لدينا على أى حال كمية من من البزيتات تكفينا زمناً قصيراً . فقال كينز « لا . . وقال رئيسه الذى تملكه الرعب : ماذا ؟ فأجاب كينز : لقد بعتها جميعاً وسوف أحطم السوق . ونفذ وعده » .

وسرعان ما أصبح شخصية رئيسية فى وزارة الخزانة . ويحدثنا كاتب سيرته وزميله الاقتصادى روى هارود أن ذوى الفكر الناضج كانوا يصرحون بأن ما أسهم به كينز فى كسب الحرب يفوق ما عمله أى مدنى آخر . ومهما يكن الأمر فقد وجد متسعاً من الوقت لأداء أشياء أخرى . فحين كان فى بعثة مالية إلى فرنسا طرأت عليه فكرة رائعة فجأة وهى أنه إذا أراد الفرنسيون موازنة ميزان مدفوعاتهم مع بريطانيا فعليهم أن يبيعوا بعض الصور الفنية التى

يملكونها إلى الناشينال جالبرى ، وبهذا حصل لبريطانيا عرضاً على ما قيمته مائة ألف دولار من الصور التى رسمها كورو ، ديلاكروا ، فوران ، جوجوان ، اينجر ، ومانيه ، وحصل لنفسه على صورة لسيزان .

كانت مدافع برتا الكبيرة تصب قنابلها على باريس وهبطت الأسعار على نحو يبعث فى نفسه الابتهاج . وعنـــد ما عاد إلى لندن حضر الباليه حيث كانت ليديا لوبوكوفا ترقص فى دور حسناء الرواية المعروفة باسم « The Good-Humoured Ladies » ، وكانت الراقصة التى تثير ضجة ، ودعاها آل سيتول إلى حفل حيث التقت بكينز . وفى الوسع أن نتخيل كينز بأسلوبه الإنجليزى الكلاسيكى وليديا بنضالها الكلاسيكى مع الإنجليزية : « أكره أن أكون فى هذا البلد فى أغسطس لأن المحامين يعضون ساقى » .

ولكن هذا كله يعتبر على الهامش بالنسبة إلى الموضوع الرئيسى وهو تسوية أوربا بعد الحرب . كان كينز الآن شخصاً مهماً من أولئك الأشخاص غير المعروفين للناس والذين يقفون وراء مقعد رئيس دولة يهمسون فى أذنه كلمة يرشدونه بها إلى ما يفعل . لقد سافر إلى باريس بوصفه نائباً لوزير الخزانة فى المجلس الاقتصادى الأعلى ومزوداً بالسلطة الكاملة فى اتخاذ القرارات ، وممثلا لوزارة الخزانة فى مؤتمر الصلح نفسه . ولكنه لم يزد عن أن يكون الرجل الثانى . كان له مقعد كبير ولكن دون سلطة الاشتراك مباشرة فى اللعبة . ولا بد أن هذا جعله يحس بالألم المتولد من الخيبة والعجز ، إذ راقب عن قرب كيف تغلب كليمنصو على ويلسون ، وكيف أن المثل الداعية إلى عقد صلح إنسانى الصبغة حلت محلها معاهدة صلح قائمة على الانتقـــام .

لقد كتب إلى أمه فى عام ١٩١٩ يقول : « لا بد أنى لم أكتب إلى أحد منذ أسابيع ولكنى كنت منهوك القوى تماماً بسبب العمل من جهة ، وبسبب الانقباض الذى تملكنى وأنا أرى الشر حولى . لم أشعر بمثل هذه التعاسة كما أحسست بها خلال الأسبوعين الأخيرين أو الأسابيع الثلاثة الأخيرة . إن

معاهدة الصلح ظلم صارخ ويستحيل تنفيذها ولا يمكن أن تجلب سوى النكبات ».

وتحامل على نفسه وغادر فراش المرض ليحتج على ما دعاه « مقتل فينا » ولكنه لم يستطع أن يوقف المد . كان الصلح من النوع المدمر الذى فرض على قرطاجنة فى العصر القديم ، وتعين على ألمانيا أن تدفع تعويضات كانت من الضخامة بحيث ترغمها على اتباع أسوأ الأساليب فى ميدان التجارة الدولية حتى تحصل على الجنيهات والفرنكات والدولارات . لم يكن هذا هو الرأى الشائع بطبيعة الحال ، ولكن كينز رأى فى معاهدة فرساى باعثاً عن غير وعى على عودة الدكتاتورية والعسكرية فى ألمانيا إلى الظهور ، بصورة أقوى وأشد من ذى قبل .

وقدم استقالته وقد تملكه اليأس ، ثم بدأ يعد الهجوم على المعاهدة قبل أن يتم التوقيع عليها بثلاثة أيام ، وأطلق عليه عنوان « النتائج الاقتصادية للصلح » . وحين ظهر الكتاب فى ديسمبر (وقد كتبه بأقصى سرعة وفى أشد حالات الغضب) خلق اسمه وسمعته .

كان الكتاب يدل على نباهة ، وساحقاً فى حججه . لقد رأى كينز أبطال المسرحية وهم يقومون بأدوارهم ، وإن الأوصاف التى قدمها لنا لتجمع بين مهارة الروائى وبين النظرة البعيدة القاطعة التى يتميز بها ناقد من جماعة بلومز برى . فكتب عن كليمنصو « كان فى مخيلته وهم هو فرنسا ، وزال من مخيلته وهم كاذب وهو الجنس البشرى بما فيه زملاؤه » ، وعن ويلسون « . . . كان مثل أوديسيوس ، يبدو أوفر حكمة حين يكون جالساً » .

ولكن بينما كانت الصور التى رسمها ذات ألوان براقة إلا أن الشىء الذى لم يكن لينسى فهو تحليله الضرر الذى وقع ، ذلك أن كينز رأى المؤتمر كتسوية متهورة للأحقاد السياسية مع الإغفال التام للمشكلة الملحة التى تتطلب تلك اللحظة حلها ، وهى بعث أوربا من جديد إلى وحدة مترابطة الأجزاء تضطلع بوظيفتها .

إن مجلس الأربعة لم يوجه التفاتاً إلى هذه المشكلات بسبب انصرافه إلى غيرها — فكليمنصو مشغول بسحق حياة العدو الاقتصادية ، ولويد جورج بإجراء صفقة يعود بها إلى وطنه حيث يعرضها لمدة أسبوع . والرئيس مشغول بلا شيء لم يكن عادلا وصواباً . إنها لحقيقة غير عادية أن المشكلة الأساسية التي تعانيها أوربا التي تموت جوعاً وتتفكك أوصالها أمام أعينهم كانت المسألة الوحيدة التي من المستحيل أن تثير اهتمام الأربعة . كان التعويض هو الناحية الرئيسية في الميدان الاقتصادي التي كانت موضع بحثهم ، وخلوا هذه المشكلة كأنها من مسائل اللاهوت أو السياسة أو الخداع الانتخابي ، من كل وجهة نظر عدا المستقبل الاقتصادي للدول التي كانوا يقررون مصيرها .

ثم راح يلقي بهذا التحذير الخطير :

وعلى ذلك فالخطر الذي يواجهنا هو الإنحطاط السريع في مستوى حياة الشعوب الأوربية إلى الحد الذي سوف يكون معناه الموت جوعاً بالفعل بالنسبة إلى البعض (وهو الحد الذي وصلت إليه الروسيا وكادت تبلغه النمسا) . لن يموت الناس دائماً في هدوء وسكون لأن الجوع الذي يؤدي إلى نوع من الفتور واليأس العاجز ، يدفع بالأمزجة الأخرى إلى ذلك الاضطراب العصبي الذي تسببه الهستيريا ، وإلى اليأس الجنوني . وهذه في محنتها قد تقلب بقايا التنظيم وتفرق الحضارة ذاتها ، وذلك في المحاولات التي تبذلها من أجل أن تشبع في يأس وتهور حاجات الفرد الجماعية . هذا هو الخطر الذي يجب أن نتعاون على دفعه جميع مواردنا وشجاعتنا ومثاليتنا .

وأحرز الكتاب نجاحاً هائلا . كانت استحالة تنفيذ المعاهدة واضحة منذ لحظة التوقيع عليها تقريباً ، ولكن كينز كان أول من رأى ذلك وعبر عنه

واقترح البدء مباشرة فى إعادة النظر فيها . وأصبح يعرف كاقتصادى على درجة غير عادية من بعد النظر . وحين بدأ مشروع داوز فى عام ١٩٢٤ تلك العملية الطويلة من تحطيم المأزق الذى شهده عام ١٩١٩ ، تأيدت هبة الرجل فى التنبوء .

كان مشهوراً الآن ولكن بقيت المشكلة الخاصة بما يتعين عليه أن يعمله ، فاختار ميدان الأعمال ، وأكثر الأعمال تعرضاً للمخاطر . وبدأ برأس مال من بضعة آلاف من الجنيهات ، يضارب فى الأسواق الدولية . وخسر كل ما معه تقريباً ، ثم حصل على قرض من مصرفى لم يقابل كينز أبداً ولكنه أعجب بعمله أثناء الحرب . واسترد كينز خسارته وواصل المضاربة حتى خرج منها بثروة قدرت فى ذلك الحين بما قيمته مليونا دولار . وتم ذلك كله بطريقة عرضية إلى أكبر حد . كان كينز يحتقر المعلومات الداخلية ، والحقيقة أنه صرح ذات مرة أن تجار وول ستريت يستطيعون أن يجمعوا ثروات هائلة لو أنهم تجاهلوا معلوماتهم التى يحصلون عليها « من الداخل » ، وكان العرافون الذين اعتمد عليهم عبارة عن التمحيص الدقيق للميزانيات ، ومعرفته الموسوعية بالمالية ، وفراسته فى فهم الشخصيات ، واستعداد معين للمتاجرة . فكان وهو ما يزال مستلقياً فى فراشه فى الصباح يدرس البيانات المالية المتوافرة لديه ، ويتخذ قراراته ويصدر أوامر الشراء أو البيع ، بالتليفون ، وهذا كل ما فى الأمر . وأصبح الآن حراً لعمل أشياء أكثر أهمية كالنظرية الاقتصادية ، وكان يحرز نفس الشهرة التى وصل إليها دافيد ريكاردو .

لقد كسب المال ، ولكنه لم يكسبه لنفسه فقط . لقد أصبح أمين صندوق كلية الملك فاستطاع أن يزيد رصيداً صغيراً قدره ٣٠,٠٠٠ جنيه إلى ٣٨٠,٠٠٠ جنيه . وأدار إحدى هيئات أمناء الاستثمار ، وأشرف على توجيه مالية إحدى شركات التأمين على الحياة . ولكن بالرغم من الأمنية التى راودته ولما يزال طالباً بالجامعة فإنه لم يتول إدارة سكة حديدية .

وفى هذه الأثناء — وكان هناك دائماً أكثر من شىء واحد يشغل بال

كينز فى نفس الوقت — كان يكتب لصحيفة منشستر جارديان ، ويلقى المحاضرات بانتظام على الطلبة فى جامعة كمبردج وكان يخفف من جفاف الجانب النظرى فيها بسرد دقيق لسير الأسواق العالمية للسلع وتحليل للشخصيات العاملة فيها . واقتنى المزيد من الكتب ، وتزوج من ليديا لوبوكوفا . أصبحت راقصة الباليه زوجة عميد كمبردج ، وهو دور أدته إلى حد الإتقان ، مما أثار دهشة أصدقاء كينز (وأدى إلى ارتياحهم) . وهجرت حياتها العملية بالطبع ، ولكن صديقاً زارهما ذكر فيما بعد أنه كان يسمع أصواتاً مقلقة نتيجة قفز وخبط فى الدور العلوى ، الأمر الذى معناه أن ليديا ما زالت تمارس فنها .

كانت جميلة للغاية وكان هو العاشق بالمعنى الصحيح : لم يكن رشيقاً ولكنه كان طويل القامة وذا وقار . كان جسمه الكبير والسمج نوعاً يهيء قاعدة مناسبة يقوم عليها وجه مثلث الشكل ينم عن حب الاستقصاء ، وبه أنف مستقيم ، وشارب مقلم مرفوع إلى أعلى منذ أيام إيتون ، وشفتان مليئتان متحركتان وذقن تبعث على الخيبة نوعاً . وكانت العينان تحت حاجبين مقوسين أشد انحناء ، فى وسعهما ، أن يكونا رزينتين ، باردتين لامعتين وناعمتين مثل أقدام النحل فى الزهور الزرقاء على حد قول أحد الكتاب ، وربما كان هذا متوقفاً على ما إذا كان يعمل مبعوثاً للحكومة ، أو مضارباً ، أو مفكراً لامعاً فى بلومز بيرى ، أو متحمساً للباليه .

ولكن كان فيه تكلف غريب ، إذ كان يحب أن يجلس كأنه صورة إنجليزية للحكام الصينيين ، مخفياً يديه فى كمى سترته المتقابلين . كان ذلك حركة يريد بها إخفاء يديه ، وهى حركة تزداد غرابتها بسبب اهتمامه المفرط بملاحظة أيدى الآخرين وافتخاره بأيديه . والحق ، لقد تطرف إلى الحد الذى جعله يأمر بصنع قوالب تمثل يديه ويدى زوجته وكان يتحدث عن رغبته فى تكوين مجموعة من القوالب تمثل أيدى أصدقائه ، وكان إذا قابل رجلا فإن أول شىء يلاحظه هو طبيعة باطن اليد والأصابع والأظافر . وبعد

ذلك بحين ، حين تحدث مع فرنكلين روزفلت لأول مرة سجل هذا الوصف للرئيس :

ولكن ، فى أول الأمر بطبيعة الحال ، لم أمعن النظر فى هذه الأشياء ، إذ من الطبيعى أن اهتمامى كان مركزاً على يديه . إن يديه ثابتتان وقويتان إلى حد ما ، ولكنهما تفتقران إلى المهارة والدقة ، أما الأظافر فستديرة نوعاً وتشبه الأظافر التى نجدها فى أطراف أصابع رجل الأعمال . لا أستطيع أن أرسمهما تماماً ، ولكن بينما ليسا على صفات مميزة (فى نظرى) إلا أنهما ليسا من الطراز العادى . وعلى كل حال ، فقد كانتا مألوفتين لدى بشكل عريب . أين رأيتهما من قبل ؟ وقضيت عشر دقائق على الأقل أفتش فى ذاكرتى كأنى أحاول تذكر اسم نسيته ، وكدت لا أدرى ما كنت أقول عن الفضة والميزانيات المتوازنة والأعمال العامة . وأخيراً تذكرت أنه سير إدورد جراى ولكنهما أصلب وأكثر أمريكية من أيدى سير ادورد جراى .

من المشكوك فيه ما إذا كان روزفلت يكتب مثل هذا الكلام الذى كتبه إلى فليكس فرنكفورتر « كان لى حديث عظيم مع ك . وأحببته إلى درجة بالغة » ، لو أنه عرف أن الأخير وصفه بأنه صورة وزير خارجية إنجليزى يبدو .با رجل أعمال .

وإذ حل عام ١٩٣٥ كانت حياة كينز العملية قد استقرت بدرجة باهرة . إن كتابه « العملة والمالية فى الهند » لفت الأنظار بشدة ، بالرغم من صغر حجمه وأكسبه كتاب « نتائج الصلح الاقتصادية » شهرة عالمية ، وكان « مقال عن الاحتمال » فوزاً مماثلا له ، وإن كان أكثر تخصصاً . وهناك حادثة لطيفة لمناسبة الكتاب الأخير . كان كينز يتعشى مع الأستاذ ماكس بلانك العبقرى الرياضى الذى له الفضل فى وضع نظرية الكم فى الميكانيكا التى تعتبر من أعظم الإنجازات المدهشة التى حققها العقل البشرى . والتفت بلانك

إلى كينز وقال إنه سبق أن فكر نفسه فى دراسة الاقتصاد ولكنه قرر العدول عنه إذ وجده أصعب مما يجب . وأعاد كينز فى لذة القصة على صديق عاد إلى كمبردج فقال الأخير « هذا غريب . إن برتراند رسل قال لى بالأمس إنه كان يفكر أيضاً فى دراسة الإقتصاد ثم عدل إذ وجده أسهل مما ينبغى » .

ولكن الرياضة لم تكن إلا نشاطاً جانبياً عند كينز ، وكما نعلم فإن كتابه « بحث فى الإصلاح النقـــدى » Tract on Monetary Reform الصادر فى عام ١٩٢٣ لفت أنظار العالم مرة ثانية . كان كينز يحمل على عبادة الذهب ، وعلى تلك السلبية الغريبة التى يشهد بها تخلى الناس عن رقابتهم الواعية على عملاتهم وإلقاء هذه المسئولية على جهاز أصم هو عيار الذهب الدولى . كان الكتاب بحثاً فنياً بالطبع ، ولكنه ملىء بالعبارات ذات المغزى ، شأنه فى ذلك شأن جميع مؤلفات كينز ، والتعليق التالى سوف يضاف بالتأكيد إلى مخزون اللغة الإنجليزية من الأقوال المأثورة ، إذ بينما كان يتحدث عن النتائج « فى الأجل الطويل » والتى تشير إليها إحدى البديهيات الاقتصادية ، قال كينز فى جفاء « فى الأجل الطويل سوف نكون جميعاً فى عداد الموتى » .

ثم تدرج هذا حين نشر فى عام ١٩٣٠ كتابه « رسالة فى النقود » Treatise on Money ، وهو محاولة طويلة ، صعبة ، غير متساوية ، وذكية أحياناً ومحيرة أحياناً أخرى ، لتفسير سلوك الاقتصاد بأسره ، كانت الرسالة « كتاباً يأخذ بالألباب ، لأنه جعل المشكلة الرئيسية التى يعالجها هى السبب الذى يجعل الاقتصاد يعمل فى غير استواء — فتارة يضج بالرخاء وتارة أخرى يبطىء بسبب الكساد » .

هذه المشكلة استوعبت بطبيعة الحال اهتمام الاقتصاديين مدى عقود . وإذا استبعدنا الانهيارات الكبرى المتولدة من المضاربة كأزمة عام ١٩٢٩ والأزمات التى سبقتها فى التاريخ (ورأينا مثلها خلال القرن الثامن عشر بفرنسا حين انهارت شركة المسيسبى) — فإن مجرى التجارة العادى كان يبدو أنه يشهد بتعرضه لموجات متعاقبة حالات التوسع والانكماش ، فكأنهما

أشبه بتنفس اقتصادى . ففى إنجلترا مثلا ساءت الأعمال فى عام ١٨٠١ م تحسنت فى سنة ١٨٠٢ ، وساءت من جديد فى سنة ١٨٠٨ ، وعادت إلى التحسن فى عام ١٨١٠ ، ثم ارتدت فى عام ١٨١٥ ، وهكذا استمرت الحال لأكثر من مائة عام . وحدث الشىء ذاته فى أمريكا بالرغم من الاختلاف الطفيف فى التواريخ .

فما الذى كان وراء هذا الاستعراض من الرخاء والكساد ؟ كانوا فى مبدأ الأمر يظنون أن الدورات الاقتصادية نوع من اضطراب عصبى جماعى ، وفى هذا المعنى كتب أحد المراقبين فى عام ١٨٦٧ : « هذه الانهيارات الدورية عقلية حقيقة فى طبيعتها ، وتتوقف على التغييرات فى اليأس و الأمل والهياج وخيبة الأمل والذعر » . ولكن بالرغم من أن مثل القول كان بغير شك وصفاً طيباً للحالة الفكرية السائدة فى وول ستريت أو لمبارد ستريت ، ولانكستر أو نيو إنجلند ، فإنه ترك بدون جواب السؤال الأساسى وهو : ما الذى يسبب مثل هذه الهستيريا العصبية الواسعة الانتشار ؟

وحاولت بعض التفسيرات المبكرة أن تبحث عن الجواب فى خارج العملية الاقتصادية . فالأستاذ و . ستانلى جيفونز الذى عرفنا آراءه الاقتصادية الفكتورية عن الألم واللذة ، جازف بتفسير ألقى به اللوم على البقع الشمسية — وهى فكرة ليست خيالية تماماً على ما يبدو لأول وهلة ، ذلك أن جيفونز كان متأثراً حين شاهد أن الدورات الاقتصادية التى وقعت فيما بين عامى ١٧٢١ ، ١٨٧٨ كان متوسطها من رواج إلى رواج ١٠,٤٦ سنة وأن البقع الشمسية (التى اكتشفها سير وليم هرشل فى عام ١٨٠١) كانت دورتها ١٠,٤٥ سنة ، وكان جيفونز على اقتناع بأن العلاقة بين الظاهرتين وثيقة بحيث لا يمكن أن ترجع إلى الصدفة البحتة ، ولهذا ظن أن البقع الشمسية تسبب دورات فى الطقس تسبب بدورها دورات فى سقوط المطر ، وهذه الأخيرة تحدث دورات محصولية تنجم عنها دورات اقتصادية .

لم تكن هذه نظرية رديئة فيا عدا شيء واحد ، إذ لو أننا دققنا فى حساب الدورات للبقع الشمسية لوجدنا أن متوسطها أحد عشرة سنة ، وبذا ينهار التطابق الوثيق بين الميكانيكا السماوية والأهواء الشاردة لمشروعات الأعمال . إن البقع الشمسية تقع فى مجال علم الفلك ، أما البحث عن العوامل التى تسبب الدورات الاقتصادية فيرتد إلى اعتبارات أكثر اتصالا بالأرض التى نعيش عليهـــا .

إنه يرتد فى الحقيقة إلى مجال كان مالثس أول من أوضحه فى غير جلاء وإن يكن بطريق الوجدان ، منذ قرن قبل ذلك — وهو مجال الادخار .

ربما نتذكر الشكوك التى ساورت القس مالثس — أى شعوره الغامض نوعاً بأن الادخار يمكن أن تنتج عنه على نحو ما « وفرة عامة » . وسخر ريكاردو ، وهزأ مل ، وأصبحت الفكرة من زخارف العالم السفلى . إن القول بأن الادخار يمكن أن يكون مصدراً للمتاعب معناه الطعن فى حسن التدبير نفسه ، ويكاد أن يكون أمراً غير أخلاقى : ألم يقل آدم سميث : « إن ما يعتبر سداد رأى فى سلوك كل أسرة خاصة يندر أن يكون حماقة فى سلوك شعب عظيم » .

ولكن حين رفض الاقتصاديون الأوائل أن ينظروا إلى الادخار على أنه يمكن أن يكون حجر عثرة فى وجه الاقتصاد ، فإنهم لم يكونوا يسترشدون بمبادىء الأخلاق ، وإنما كانوا يراقبون فقط حقائق العالم الحقيقى .

ذلك أنه فى أوائل القرن التاسع عشر كان المدخرون هم نفس الذين كانوا يستخدمون المدخرات . ففى عالم ريكاردو ومل والذى كان يعانى من شدة الضيق ، فإن الذين كان فى وسعهم بالفعل أن يدخروا هم ملاك الأرض والرأسماليون ، وأى أموال اقتطعوها من دخولهم كانوا يستخدمونها بصورة مجزية فى شراء الأراضى أو توسيع نطاق عمليات المصانع ، ومن هنا يطلق على الادخار ، وبحق ، اسم « التجميع » إذ كان أشبه بقطعة من العملة لها

وجهان ، فهو من جهة يمثل جمع مبلغ من المال ، ومن جهة أخرى استخدامها مباشرة فى شراء العدد أو المبانى أو الأراضى لكسب مزيد من المال .

ولكن حوالى منتصف القرن التاسع عشر تغير صرح الاقتصاد ، فتحسن توزيع الثروة ، وأصبحت إمكانية الادخار متاحة لعدد يزداد باطراد من أعضاء المجتمع . وفى الوقت نفسه أصبحت الأعمال أكبر حجماً وتضاءل العنصر الشخصى فيها ، فراحت تبحث بصورة متزايدة عن رأس مال جديد لا فى جيوب الأفراد الذين يملكونها ويديرونها ، فحسب ، بل وكذلك فى محافظ نقود المدخرين التى لا تحمل أسماء أصحابها ، فى جميع أنحاء البلاد . وبهذا انفصل الادخار عن الاستثمار . أى أصبحا عمليتين منفصلتين تمارسهما مجموعتان من الناس كل منهما منفصلة عن الأخرى .

وهذا بالتأكيد جلب الاضطراب على الاقتصاد — وهكذا ثبت أخيراً أن مالثس كان على صواب وإن يكن لأسباب لم يرها أبداً .

والاضطراب من الأهمية — والأهمية الرئيسية بالنسبة إلى مشكلة الكساد — بحيث يجب أن نقف لحظة حتى نوضح أمره .

ويجب أن نبدأ بفهم الطريقة التى يقاس بها رخاء الشعب . إنه لا يقاس بما يملك من الذهب — فالهند التى يخيم عليها الفقر غنية بالذهب — ولا بالأصول المادية التى يحوزها ، إذ فى عام ١٩٣٢ لم تتبخر المبانى والمناجم والمصانع والغابات . إن مشكلة الرخاء والكساد ليست متعلقة بالأمجاد الماضية قدر تعلقها بالإنجازات الحاضرة ، وعلى ذلك فإنهما يقاسان بمبلغ الدخول التى نحصل عليها . فحين يتمتع معظمنا بصورة فردية (وبالتالى بصورة جماعية) بدخول عالية ، فإن الشعب فى رخاء ، وحين يهبط دخلنا الفردى (أو القومى) الكلى فإننا نصبح فى كساد .

ولكن الدخل — الدخل القومى — ليس فكرة ساكنة . إذ الواقع أن الصفة الرئيسية التى تميز أى اقتصاد هى انسياب الدخول من يد إلى أخرى .

فمع كل شيء نشتريه ننقل جزءاً من دخولنا إلى جيب شخص آخر . وبالمثل فإن كل بنس من دخولنا ، سواء كانت أجوراً ، أو مرتبات ، أو ريوعاً أو أرباحاً أو فائدة ، إنما مصدره فى النهاية مال أنفقه شخص آخر . على القارئ أن يفكر فى أى جزء من الدخل الذى يتمتع به ، وهنا يتضح أنه ورد إليه من جيب شخص آخر حين استأجر خدماته ، أو عضد متجره ، أو ساعد على بقاء الشركة التى يملك فيها سنداته أو أسهمه .

بهذه الطريقة فى تداول المال يجرى بعث دم الحياة بصفة دائمة فى الاقتصاد

هذه العملية من تداول الدخل تحدث الآن إلى حد كبير بطريقة طبيعية وبدون أى عائق . فكلنا ننفق الشطر الأكبر من دخولنا على السلع التى نستعملها ونتمتع بها . أى السلع الاستهلاكية كما يقال لها — ولما كنا نواصل شراء السلع الاستهلاكية بانتظام مطرد نوعاً فهذا يضمن تداول جزء كبير من دخلنا القومى . ولما كان علينا أن نأكل ونلبس ونسعى إلى المتعة فهذا يضمن انتظام الإنفاق واطراده من جانبنا جميعاً ، كما يضمن للآخرين كسباً منتظماً ومطرداً .

كل هذا يبدو حتى الآن بسيطاً تماماً ومباشراً ؛ ولكن هناك جزءاً من دخولنا لا يتجه مباشرة إلى السوق ليصبح دخل شخص آخر ، وهذا هو المال الذى ندخره .

فلو أننا دسسنا مدخراتنا فى مراتب أسرتنا أو اكتنزناها على صورة نقد حاضر ، فمن الواضح أننا نعرقل دورة الدخل ، لأننا فى هذه الحالة نجمد بعض الدخل الذى أعطى لنا ونعيد إلى المجتمع أقل مما أعطانا . وإذا انتشرت عملية التجميد هذه واستمرت فسرعان ما يحدث نقص متجمع فى الدخل النقدى الذى يحصل عليه كل شخص بسبب استمرار النقص فى التداول . ومعنى هذا أننا نعانى كساداً .

ولكن هذا التوقف الخطير فى انسياب الدخل لا يحدث فى الحقيقة ، إذ

أننا فى المجتمع المتحضر لا نجمد مدخراتنا وإنما نستثمرها فى أسهم أو سندات أو نودعها فى المصارف ، وبهذه الطريقة نجعل فى الإمكان استخدامها من جديد ، وبهذا ، فحين نشترى أسهماً جديدة فإننا نعطى مدخراتنا مباشرة إلى رجال الأعمال ، وحين نضعها فى المصارف ففى الإمكان استخدامها بإقراضها إلى رجال الأعمال الذين يسعون وراء رأس مال . فسواء أودعنا مدخراتنا فى المصارف أو استخدمناها فى شراء بوالص التأمين أو الأوراق المالية فإن هناك المسالك التى تعود بها إلى التداول عن طريق عمليات الأعمال ، إذ حين يأخذ رجل الأعمال مدخراتنا وينفقها فإنها تتحول إلى أجر أو مرتب أو ربح يحصل عليه شخص آخر .

ولكن — وعلى القارئ أن يلاحظ هذه الحقيقة الحيوية — ليس من شىء آلى فى هذه العملية من الادخار والاستثمار . فمشروع العمل لا يحتاج فى العادة إلى المدخرات كى يواصل عملياته ، ولكنه يعمل فى داخل حدود ميزانيته العادية ، ويدفع نفقاته من متحصلات مبيعاته . إنه لا يحتاج إلى المدخرات إلا عند توسيع نطاق عمليته — لأن المبالغ المنتظمة التى يحصل عليها لن تزوده فى العادة برأس مال يكفى لإنشاء مصنع جديد أو لأن يزيد من المعدات بصورة جوهرية .

وهنا المنفذ الذى يدخل منه الاضطراب . فالجماعة المقتصدة تحاول دائماً ادخار جزء من دخلها ، ولكن مشروع العمل ليس دائماً فى المركز الذى يجعله يوسع من نطاق عملياته . ولنضرب مثلا بحالة واضحة . فالظاهر للعيان أن أيام التوسع الكبير فى صناعة الراديو — على خلاف صناعة التليفزيون — أصبحت إلى حد كبير من أحداث الماضى . والآن ، ولأسباب سوف نبحثها فى موضع قادم ، لو كانت جميع الصناعة فى مركز صناعة الراديو ، فمن الواضح إذن أن يكون الاستثمار صغيراً جداً .

وهنا تكمن امكانية وقوع الكساد ، ذلك أنه إذا لم تستثمر مدخراتنا

بواسطة شركات الأعمال الآخذة فى التوسع ، فلا بد أن تهبط دخولنا . سوف تكون فى نفس تلك الحلقة الحلزونية من الانكماش كما لو جمدنا مدخراتنا عن طريق اختزانها .

فهل يمكن أن يحدث شيء من هذا القبيل ؟ سوف نرى . ولكن على القارىء أن يلاحظ أن لعبة شد الحبل هذه غريبة وخالية من العاطفة . فلسنا هنا أمام ملاك أرض جشعين أو رأسماليين شرهين . ليس هناك سوى مواطنين فضلاء تماماً يحاولون فى حكمة أن يدخروا بعض دخولهم ، ورجال أعمال فضلاء تماماً ولا يقاون حكمة حين يقررون ما إذا كان موقف الأعمال يبرر المخاطرة بشراء آلة جديدة أو بناء مصنع جديد . إلا أن مصير الاقتصاد يتوقف على نتيجة تلك القرارات المعقولة التى يتخذها الطرفان : إذ لو اضطربت القرارات — أى لو استثمر رجال الأعمال أقل مما تحاول الجماعة أن تدخره ، ففى هذه الحالة يتعين على الاقتصاد كله أن يعيد التوازن حتى يحول دون الكساد . وعلى هذا — أكثر من شيء آخر — تتوقف تلك المشكلة الضخمة : مشكلة الرواج أو الركود .

وتعرض مصيرنا لتقلب المدخرات والاستثمار ، يمكن أن يعتبر الثمن الذى ندفعه لقاء الحرية الاقتصادية . ليست هناك مشكلة كهذه فى روسيا السوفيتية . كما لم يكن هناك مثلها فى مصر أيام الفراعنة ، إذ فى ظل الاقتصاديات التى تنظمها القوانين والمنشورات يجرى تحديد المدخرات والاستثمار — على سواء — من قبل سلطة عليا ، وتضمن الرقابة الكلية على حياة الشعب الاقتصادية بأسرها ، أن تتساوى مدخرات الشعب مع المبلغ الصحيح اللازم لتمويل أهراماته التى يبنيها أو محطات توليد الكهرباء التى ينشئها . ولكن الأمر بخلاف هذا فى العالم الرأسمالى حيث نجد أن الرأى الخاص بالادخار والحافز على الاستثمار يتركان للقرارات الحرة التى يتخذها الممثلون فى المسرحية الاقتصادية أنفسهم . ولما كانت هذه القرارات حرة لهذا يمكن أن تفتقر إلى الاتفاق فيما بينها ، فقد يكون الاستثمار أقل من أن يستوعب ما ندخر أو تكون المدخرات

دون حاجة الاستثمار . إن الحرية الاقتصادية حالة مرغوب فيها بدرجة عالية ولكن يجب فى حالتى الركود والرواج أن تكون على استعداد لمواجهة النتائج التى يمكن أن تترتب عليها .

كدنا ننسى جون مينارد كينز وكتابه « رسالة فى النقود » ، ولكننا لم نفعل هذا تماماً ، لأن « الرسالة » شرح مشرق لهذا التقلب الذى يطرأ على المدخرات والاستثمار . إن الفكرة ليست من ابتكار كينز ، إذ سبقه إليها عدد كبير من الاقتصاديين أشاروا إلى الأدوار الخطيرة التى يلعبها هذان العاملان فى الدورة الاقتصادية ، ولكن نظريات الاقتصاد المجردة العارية تبدو فى أسلوبه النثرى ذات رونق جديد ، شأنها شأن كل شىء امتدت إليه . ومن هنا نراه يقول :

> درجنا على الظن بأن ثروة العالم المتجمعة تكونت مع ما صحبها من ألم ، من امتناع الأفراد بمحض اختيارهم ، عن التمتع العاجل بالاستهلاك ، وهو الامتناع الذى ندعوه حسن التدبير . ولكن ينبغى أن يكون واضحاً أن مجرد الامتناع لا يكفى بذاته لبناء المدن أو تجفيف المستنقعات .
>
> إن النشاط هو الذى يبنى ممتلكات العالم ويعمل على تحسينها .
>
> فإذا كان النشاط على قدم وساق تجمعت الثروة مهما حدث لحسن التدبير ، وإذا خبا انحطت الثروة مهما كان ما يعمله حسن التدبير .

ولكن بالرغم من التحليل الرائع الذى تضمنته الرسالة ، فلم يكد كينز يكتبها حتى مزقها ، بالمعنى المجازى ، لأن نظرية تأرجح المدخرات والاستثمار بان عجزها فى ناحية رئيسية واحدة ، ذلك أنها لم توضح كيف يستطيع اقتصاد أن يظل فى حالة كساد يطول أمده . والحق ، فكما يدل نفس التمثيل بالزحلوقة seasaw بدا كما لو كان اقتصاداً أثقل كاهله فائض من

المدخرات يجب فى وقت قصير نوعاً أن يصحح أوضاعه ويتحول إلى الناحية الأخرى .

والسبب فى هذا أن المدخرات والاستثمار — أى حسن التدبير والنشاط — لم يكونا ضربين من النشاط الاقتصادى ؛ كل منهما منفصل عن الآخر ، بل على العكس من هذا كانا مرتبطين فى السوق حيث « يشترى » رجال الأعمال المدخرات — أو على الأقل يقترضونها : أى سوق المال . وللمدخرات أسوة بأية سلعة أخرى ، ثمنها : أى معدل الفائدة . وهكذا (أو هذا ما بدا) ففى أشد حالات الكساد حين تفيض المدخرات فإن ثمنها يهبط — تماماً كما يهبط ثمن الأحذية إن حدثت وفرة فيها . وإذ يرخى ثمن المدخرات — أى كلما هبط معدل الفائدة — يبدو من المحتمل جداً أن يزداد الحافز على الاستثمار ، بمعنى أنه إذا كان بناء مصنع جديد يعتبر كثير التكلفة إذا كان المال يساوى ستة فى المائة ، أفلا يبدو الإنشاء أمراً مجزياً إذا أمكن الحصول على المال بأداء ثلاثة فى المائة فقط ؟

ومن هنا بدا كأن نظرية الزحلوفة تبشر بوجود صمام أمان أوتوماتيكى فى داخل الدورة الاقتصادية نفسها ، بحيث حين تزيد المدخرات عن القدر المناسب يصبح من الأرخص اقتراضها وبذلك يتشجع المشروع على الاستثمار . قد ينكمش الاقتصاد ولكن بدا من المؤكد أنه يسترد نشاطه كما تقول النظرية .

ولكن هذا ما لم يحدث تماماً فى الكساد الكبير الذى حل فى خريف عام ١٩٢٩ . لقد هبط معدل الفائدة ، فلم يحدث شىء . وأخرجت العقاقير السرية القديمة — نتفة من الغوث تقدمه السلطات المحلية ، وجرعة كبيرة من الانتظار الملىء بالأمل — ولكن المريض لم تتحسن حالته . إذ بالرغم مما تظهر به النظرية من براعة فكرية ، فقد كان هناك شىء رئيسى ينقص هذه الصياغة البارعة عن تأرجح المدخرات والاستثمار والذى فيه يحلق معدل الفائدة فوق الزحلوفة ليضمن استمرارها فى الحركة . لا بد أن شيئاً آخر كان يشد الاقتصاد إلى الوراء ويمنعه من الانتعاش .

كان عمدة كتب كينز يختمر فى ذهنه منذ وقت . ولقد كتب إلى برنارد شو فى عام ١٩٣٥ — وكان قد أعاد قراءة ماركس وإنجلز بناء على اقتراح شو ومال إليهما — « . . . يجب أن تعرف أنى أعتقد أنى أضع كتاباً فى النظرية الاقتصادية سوف يحدث ثورة إلى حد كبير — ليست الآن وإنما خلال السنوات العشر القادمة — فى الطريقة التى يفكر بها العالم فى المشكلات الاقتصادية . . لست أتوقع منك أو من سواك أن تعتقد هذا فى المرحلة الحالية . ولكن بالنسبة لى فإن ما أقوله ليس مجرد أمل بل أنى متأكد منه تماماً » .

وكان كالعادة ، على حق تماماً ، فكان صدور الكتاب قنبلة انفجرت ، ولكن من المشكوك فيه أن المستر شو كان يدرك ذلك لو حاول أن يفهمه . وكان عنوان الكتاب ممقوتاً وهو « النظرية العامة فى البطالة والفائدة والنقود » ولكن ما اشتمل عليه كان أبعث على المقت . ونستطيع أن نتصور حالة شو وهو يحملق فى صفحة ٢٥ فى الفقرة الآتية « لنفرض أن « Z » تمثل ثمن المعروض كله من الإنتاج باستخدام « N » من العمال ، وأن العلاقة بين « Z » ، « N » وهى « Z » = (N) « Φ » يمكن أن يطلق عليها وظيفة العرض الإجمالى » . وإذا لم يكن هذا كافياً ليخيف كل شخص تقريباً فالكتاب يفتقر إلى ذلك الضرب من التصرفات الاجتماعية التى يتوقعها القارئ غير المتخصص من تصفح كتابات سميث أو مل أو ماركس . إننا هنا فى صحراء لا نهاية لها ، من الاقتصاد وعلم الجبر والتجريد ، فيها فيافى قاحلة من حساب التفاصيل ، ولا نجد واحات من النثر المنعش إلا فى مواضع متفرقة .

ومع هذا ، كان الكتاب ثورياً ، وليس غير كلمة « ثورى » تناسب الوصف . لقد جعل الاقتصاد يقف فعلا على رأسه ، كما سبق أن فعلته كتب ثورية أخرى مثل « ثروة الشعوب » و « رأس المال » .

والسبب فى هذا أن النتيجة التى انتهى إليها الكتاب كانت مذهلة ومؤسفة إذ ثبت أخيراً أنه لا وجود لجهاز أمان أوتوماتيكى ، فبدلا من زحلوفة توازن نفسها بنفسها فإن الاقتصاد يشبه مصعداً : يمكن الصعود أو الهبوط به ، ولكن

يمكن أيضاً أن نجعله ساكناً تماماً ، وهو قادر على أن يبقى ساكناً فى أسفل البرج كما يمكن أن يكون كذلك فى أعلى البرج الذى يتحرك فيه . وبعبارة أخرى فإن الكساد قد لا يشفى نفسه على الإطلاق ، أى يمكن أن يخر الاقتصاد على وجهه إلى أجل غير محدود كأنه سفينة راكدة فى الميناء .

ولكن كيف يمكن هذا ؟ ألا يترتب على وفرة المدخرات فى غمرة الكساد انخفاض معدل الفائدة ، وألا يؤدى الانخفاض بدوره إلى إثارة اهتمام مشروع العمل من حيث إمكانية استخدام النقود الرخيصة من أجل توسيع مصنعه ؟

وجد كينز حل المشكلة فى أبسط وأوضح حقيقة من حقائق الحياة الاقتصادية (وهذه البساطة وهذا الوضوح إنما تحققا بمجرد اكتشاف الحقيقة) هذه الحقيقة هى أنه لا وجود لسيل من المدخرات فى قاع الحوض ، لأن الذى يحدث حين يهوى الاقتصاد إلى الكساد أن دخله ينكمش ، وحين ينكمش دخله فإن مدخراته تعتصر ويتساءل كينز : كيف يمكن أن نتوقع من الجماعة أن تدخر حين يكون كل فرد فى ضائقة ، بنفس القدر الذى تدخر به حين يكون كل فرد فى رخاء ؟ واضح ، أن هذا ليس فى الإمكان . فالكساد لا تترتب عليه وفرة فى المدخرات ، وإنما تجف فيه المدخرات . ليست النتيجة المترتبة على الكساد فيضاناً من المدخرات ولكن قطرات منها .

وهذا ما حدث فى الواقع . ففى عام ١٩٢٩ جنب المواطنون الأمريكيون ٣,٧ بليون دولار من دخولهم ، ولكنهم لم يدخروا شيئاً فى عامى ١٩٣٢ ، ١٩٣٣ ، بل الحقيقة أنهم كانوا ينفقون من المدخرات القديمة التى كونوها فى السنوات السابقة . والشركات التى اقتطعت ٢,٦ بليون دولار من دخلها فى ذروة الرواج ، وبعد دفع الضرائب وأرباح الأسهم ، وجدت نفسها تخسر ما يقرب من ٦ بلايين دولار بعد ذلك بثلاث سنوات . واضح تماماً أن كينز كان على صواب ، فالادخار نوع من الترف لا يمكن أن يثبت أمام الأيام العصيبة .

ولكن النتيجة العملية التى نجمت من ذلك النقص فى الادخار كانت أشد إنذاراً بالخطر من المآسى الفردية التى صحبته . لقد نتج عنه موقف معطل كان فيه الإقتصاد فى حالة توازن اقتصادى كامل حتى وإن كان يعانى الأوجاع الاجتماعية . والسبب أنه إذا لم يكن هناك فائض فى المدخرات فلن يكون هناك ضغط على معدلات الفائدة يشجع رجال الأعمال على الاقتراض . وإذا لم يكن هناك فائض من الاستثمار (ونفس جوهر الكساد على ما رأينا هو أن الاستثمار ليس كبيراً بالدرجة الكافية) فإذن لن يكون دافع على التوسع . وبذلك لن يتحرك الاقتصاد قيد أنملة .

وهكذا التناقض من حيث وجود الفقر وسط الوفرة ؛ وهكذا الشذوذ حيث نلقى عمالا عاطلين وآلات عاطلة . من المؤكد ، أنه فى ذروة الركود يوجد تناقض قاس بين حاجة ملحة إلى السلع ونقص فى الإنتاج ، ولكنه تناقض معنوى بحت ، لأن الاقتصاد لا يعمل من أجل إشباع الحاجات البشرية — وهى واسعة دائماً كالأحلام ، ولكنه ينتج السلع لإشباع الطلب — وهو صغير يتفق حجمه مع حجم ما يملك المستهلك من مال . ومن هنا فالعاطلون لا يزيدون إلا قليلا عن كونهم أصفاراً اقتصادية ، وتأثيرهم الاقتصادى كله على السوق لا يختلف عنه فى حالة ما إذا كانوا من أهل القمر .

وبمجرد أن ينقص الاستثمار وينكمش حجم الاقتصاد ، يظهر الشقاء الاجتماعى ، ولكنه ليس بالشقاء الاجتماعى الفعال ؛ على ما يبين كينز ، فضمير الشعب لا يصلح بديلاً فعالاً عن الاستثمار الكافى . ولما كانت المدخرات تتناقص مع الاستثمار فإن الإنتاج يتصف بالاستواء ، ولا يتعرض للاضطراب بسبب كون حجم الاقتصاد أصبح أصغر مما درج عليه .

حقاً إنها لحالة غريبة أو مأساة خلت من الشخصية الشريرة . إن أحداً لا يستطيع أن يلوم المجتمع على الادخار الذى هو فضيلة خاصة على ما يظهر ، كما يستحيل بالمثل أن نعاقب رجال الأعمال لامتناعهم عن الاستثمار وهم الذين

لا يشعر أحد بمثل سعادتهم فى هذا العمل لو وجدوا فرصة معقولة للنجاح . كلا ، فالصعوبة لم تعد أخلاقية ، فهذه ليست مسألة عدالة أو استغلال أو حتى حماقة إنسانية . إنها صعوبة فنية ، أو تكاد أن تكون خطأ ميكانيكياً . وبالرغم من هذا فثمنها ليس أقل فداحة ، لأن ثمن الجمود هو البطالة .

ولكن لا يزال هناك ما هو أسوأ من ذلك . لقد أوضح كينز كيف أن الاقتصاد وهو فى حالة الكساد ، يمكن أن يعجز عن توليد انتعاشه ، بطريقة آلية . كان هذا الرأى قاتماً بالدرجة الكافية ، ولكنك إذ تقلب النظرية على وجهها الآخر تجد أنها تسبب الاضطراب فى قمة الدورة الاقتصادية أيضاً .

سبب هذا أنه لما كانت المدخرات تنكمش بانكماش الاقتصاد كذلك تزداد باتساع نطاقه . كان لتلك الحقيقة البسيطة نتيجة مخيفة ، إذ معناها أن كل رواج مهدد على الدوام بالانهيار ، لأنه إذا حدث فى أى وقت أن أبطأ الاستثمار بصورة تلقائية فسوف تصبح لمدخرات الشعب التى تضخمت اليد العليا من جديد ، فتتحطم سلسلة تداول الدخول وتبدأ عملية الانكماش .

وهنا فى التحليل الأخير يتوقف الاقتصاد على مبلغ الاستثمار الذى تقوم به مشروعات الأعمال ، فإذا كان الاستثمار منخفضاً ، انكمش حجم الاقتصاد ، وإذا ارتفع جذب الشعب معه إلى أعلى ، وإذا أخفق الاستثمار فى أن يظل عالياً ، فإنه يسمح لعملية الانكماش أن تبدأ من جديد . فالغنى والفقر ، والرواج والكساد ، هذه جميعاً تتوقف على رغبة مشروعات الأعمال فى الاستثمار .

وفى هذا أعسر حقيقة على الهضم ، لأن تلك الرغبة فى الاستثمار لا يمكن أن تستمر إلى غير نهاية ، ولا بد أن ينكمش الاستثمار عاجلا أو آجلا .

وتفسير هذا أن الصناعة فى أى وقت يحددها حجم السوق التى تستوعب الإنتاج ، ولنضرب مثلا عن هذا بالخطوط الحديدية فى الستينات من القرن الماضى وهى فترة من الاستثمار الضخم فى إنشاء خطوط حديدية جديدة . إن

أساطين السكك الحديدية الأوائل لم ينشئوها من أجل أسواق عام ١٩٥٠ ، إذ لو أنهم قاموا بمد القضبان التى سوف يحتاج إليها الاقتصاد بعد ذلك بتسعين عاماً لكانوا يمدون خطوطاً لمدن لا وجود لها فى أقاليم غير مأهولة ولهذا أنشأوا ما كان فى إمكانهم أن يستخدموه ثم توقفوا بعد ذلك . وينطبق الشيء نفسه على صناعة السيارات . فحتى لو استطاع هنرى فورد أن يجد رأس المال لبناء مصنع كريفر روج الحالى فى عام ١٩١٠ لأفلس بسرعة ، والسبب بسيط إذ لم تكن هناك الطرق ، ومحطات البنزين ، والطلب على ذلك العدد الكبير من السيارات . وللتمثيل من الظروف الحالية نقول إن مصانع توليد الكهرباء تنفق الآن ٦ بلايين دولار لكى ترفع من طاقتها ، ولكنها لا تستطيع أن تنفق ٦٠ أو حتى ١٦ بليوناً ، وإن كانت قد تفعل هذا فى يوم ما . والسبب أن مثل تلك الطاقة الكثيرة لن يمكن استخدامها .

وليس الاستثمار محدود الحجم فحسب ، بل أن الصفة التى تميزه أنه يسير بقفزات واحدة . فلا تستطيع أن تمد خطاً حديدياً ، ميلا بعد ميل ، كى تتمشى مع الطلب وإنما تمد خطاً واحداً كله فى نفس الوقت الواحد . ولا تستطيع أن توسع مصنعاً للسيارات شيئاً فشيئاً بعد حجم معين ، ففى هذه الحالة يجب أن تقيم مصنعاً جديداً كلية . وإذ مددت ذلك الخط ، وأنشأت ذلك المصنع ، فأنت قد أشبعت حاجة السوق لفترة ، ثم تتوقف عن الاستثمار . وكتب كينز يقول :

« كانت مصر القديمة موفقة بصفة مزدوجة ولا شك أنها كانت مدينة بهذا إلى ثروتها الخيالية ، من حيث أنها كانت تملك ضربين من النشاط ، وهما بناء الأهرامات والبحث عن المعادن الثمينة ، وثمار هذه لا تتعفن بسبب الوفرة ما دام لم يكن فى الإمكان أن تشبع حاجات الإنسان عن طريق استهلاكها . وأنشأت العصور الوسطى الكاتدرائيات وأنشدت المراثى . إن أهرامين ، وقداسين

على أرواح الموتى ، يصلحان كهرم واحد أو قداس واحد ،
ولكن هذا لا ينطبق على خطين حديديين من لندن إلى يورك » .

وهكذا يتخذ الاستثمار النمط الذى يميزه : ففى مبدأ الأمر شغف فى الاستفادة من فرصة جديدة ، ثم حرص خشية أن يؤدى الحماس إلى إفراط فى الإنشاء وبعد ذلك جمود حين يجرى إشباع السوق مؤقتاً .

وحين يتوقف كل مشروع استثمار منفصل فليس من الضرورى أبداً وقوع كساد إذا ظهر مشروع آخر فوراً ، ولكن لا يحتمل أن يكون الأمر على هذه الصورة . إن مجرد كون الحاجات البشرية واسعة ليس معناه أن أى استثمار سوف يكون مجزياً لنفسه ، فالاقتصاد تتناثر فيه مشروعات انهارت بسبب التوسع الزائد عن الحد ، والذى يتصف بالتهور والحماقة . كلا ، إن معظم الاستثمار فى حاجة إلى ما هو أكثر من الدافع المنبثق من التوقعات المصحوبة بالثقة . إنه بحاجة إلى شىء ملموس ، كاختراع جديد ، أو طريقة أفضل لعمل الأشياء ، أو منتج خداع يجتذب أنظار الجمهور . وأمثال هذه الفرص ليست موجودة دائماً ، على ما يحدثك به أى رجل من رجال الأعمال .

ولذلك حين يموت مشروع استثمار فقد لا يكون هناك غيره على استعداد ليملأ الفراغ الناشىء . فإذا وجد هذا المشروع الآخر — أى إذا احتفظ الاستثمار بحجمه بالرغم من التغيير الذى طرأ على تكوينه — فإن الاقتصاد يسير فى طريقه فى يسر . ولكن ، إذا لم يكن هناك بديل حاضر عن كل خسارة فى الاستثمار ، فسوف يظهر الأثر الناجم من ضغط المدخرات ويبدأ الانكماش . وليس ثمة حاجة إلى القول بأن الاستثمار لا ينجح فى مثل هذه السوق الآخذة فى التضاؤل .

كل هذا كان التشخيص الكئيب الذى قدمه لنا كتاب «النظرية العامة» .

فأولا : قد يظل الاقتصاد الذى يعانى الكساد فى مثل هذه الحالة إذ ليس من شىء كامن فى الموقف ليخرجه من كساده .

وثانياً : يتوقف الرخاء على الاستثمار ، لأنه إذا لم تستخدم المدخرات يبدأ ذلك الحلزون المخيف من الانكماش .

وثالثاً : فالاستثمار ليس دافعاً للاقتصاد يمكن الاعتماد عليه ، فهو مهدد على الدوام بالتشبع والتشبع يولد الانكماش ، ودون أن يكون هذا من خطأ رجل الأعمال .

وبكلمة واحدة ، نقول إن الاقتصاد يعيش مهدداً بشبح الانهيار .

كانت هذه بالتأكيد نظرة سوداوية ، ولكن كينز كان يخالف طبيعته تماماً لو أنه قنع بتشخيص قاتم ووقف عند هذا الحد . فبالرغم من كل ما فى « النظرية العامة » من نبوءة بالخطر ، لم يكن القصد منها أن تكون كتاب الفناء ، بل على العكس كانت تبشر بالأمل وتقترح العلاج .

والواقع أن العلاج بدأ قبل أن يصفه فعلا ، إذ استخدم الدواء قبل أن يتأكد الأطباء تماماً من مفعوله . فالأيام المائة من السياسة الاقتصادية الجديدة New Deal كانت قد شهدت سَنّ سيل من التشريعات الاجتماعية التى ظلت متعثرة طيلة عشرين عاماً وراء حاجز من النفور الحكومى . كان المراد من تلك القوانين تحسين النغمة الاجتماعية أو رفع الروح المعنوية لشعب ساخط . ولكن لم يكن التشريع الاجتماعى هو الذى يقصد به بعث الحياة فى المريض ، فذلك الدواء المقوى كان شيئاً آخر وهو قيام الحكومة مباشرة بالاستثمار .

وهو لم يبدأ كاستثمار بقدر ما بدأ كأسلوب موقت لتوفير أعمال للاغاثة . لقد وصلت البطالة إلى الحد الذى فرضت عنده الضرورة السياسية الصرفة اتخاذ إجراء معين — ولا ننسى أن ذلك كان الوقت الذى شهد قبل ذلك بقليل حوادث الشغب فى ديربورن وزحف الجموع الجائعة على وشنطن حيث كانت الأسرات تتزاحم طلباً للدفء فى المبانى البلدية التى تضم محارق القمامة ، بل وكانت تبحث عن الغذاء فى عربات الفضلات . كان الغوث

جوهرياً وبدأ فى عهد الرئيس هوفر ، ثم تحول فى عهد روزفلت إلى أعمال فرعية بسيطة أصبحت بعد ذلك مشروعات إنشائية أصبحت الحكومة ذاتها فجأة مستثمراً اقتصادياً كبيراً ، فكثر إنشاء الطرق والسدود والقاعات العامة للاجتماع والمطارات والنوادى ومشروعات الإسكان .

وجاء كينز إلى وشنطن فى عام ١٩٣٤ — وكان ذلك حين سجل ملاحظاته عن الأثر الذى أحدثته فى نفسه أعمال روزفلت — وأشار بالتوسع فى البرنامج . وأظهرت الإحصائيات كيف انخفضت الاستثمارات الخاصة ، فتوسع الأعمال الذى كان يدفع ١٥ بليون دولار فى عام ١٩٣٢ على هيئة أجور ومرتبات وأرباح نقص إلى رقم مخيف فى عام ١٩٣٢ وهو ٨٨٦ مليون دولار — أى بنقص قدره تسعون فى المائة . كان لا بد من البدء بشىء يدفع محرك الاستثمار الذى يحرك السيارة الاقتصادية وكان يأمل أن يكون فى الإنفاق الحكومى مثل هذا الدافع بأن ينشط طاقة الشعب الشرائية العامة — أى (يلقم المضخة) حسب التعبير الذى شاع فى تلك الأيام .

وهكذا حين أخرج كينز كتابه « النظرية العامة » فى عام ١٩٣٦ لم يكن ما عرضه برنامجاً جديداً وراديكالياً بقدر ما كان دفاعاً عن اجراء كان مطبقاً آنذاك . كان دفاعاً وشرحاً لأنه بين بوضوح أن الكارثة التى تواجه أمريكا ، والعالم الغربى كله فى الواقع ، لم تكن إلا نتيجة نجمت عن نقص الاستثمار من جانب مشروعات الأعمال ، وبذلك كان العلاج منطقياً تماماً ، فإذا لم تكن المشروعات قادرة على التوسع فيجب أن تسد الحكومة النقص .

لقد كتب كينز ولسانه على خده بصورة جزئية :

إذا كان على وزارة الخزانة أن تملأ الزجاجات القديمة بأوراق النقد ثم تدفنها على أعماق مناسبة فى مناجم فحم مهجورة تمتلىء بعد ذلك حتى سطحها بالقمامة التى تجمع من المدينة ، وتتركها للمشروع الخاص على مبادىء مجربة من سياسة الحرية الاقتصادية

كى تستخرج أوراق النقد من جديد . . فلن يكون هناك بالضرورة مزيد من البطالة ، وبفضل الآثار الناجمة يحتمل أن يصبح دخل الجماعة الحقيقى أكبر بدرجة طيبة مما هو عليه . سوف يكون الأقرب إلى العقل فى الحقيقة بناء البيوت وأمثالها ، ولكن إذا قامت صعاب عملية تعترض هذا السبيل ، فإن الأمر الذى ذكرناه فى أعلاه خير من لا شىء .

لا شك أن البعض نظر إلى الكثير من المشروعات التى قامت بها إدارة الرفاهية على أنها ليست أسلم عقلا من الاقتراح الهوائى الذى تقدم به كينز ، ولكن هذه المشروعات كان وراءها على الأقل الآن مبرر عقلى ، ذلك أنه إذا وجد المشروع الخاص نفسه غير قادر على السير قدماً ببرنامج للاستثمار ، على درجة كافية من الكبر ، فعلى الحكومة إذن أن تملأ الفراغ بأفضل ما تقدر عليه — فالحاجة إلى الاستثمار من نوع ما كانت ملحة إلى حد كاد معه أن يكون أى شىء خير من لا شىء .

وإذا لم يكن فى الإمكان تنشيط الاستثمار مباشرة ففى الوسع تنشيط الاستهلاك إذ بينما الاستثمار هو العنصر المتقلب الأهواء فى النظام فإن الاستهلاك يهيىء القاعدة الكبيرة للنشاط الاقتصادى ، ومن هنا كان ينظر إلى مشروعات الترفيه على أنها هجوم على المشكلة بسلاح ذى حدين . فهو يساعد مباشرة على المحافظة على القوة الشرائية لغير العاطلين ، كما يؤدى إلى استئناف توسع مشروعات العمل الخاصة .

وفى خطاب إلى صحيفة نيويورك تيمز فى عام ١٩٣٤ كتب كينز نفسه يقول : « إنى أنظر إلى مشكلة الانتعاش فى الضوء التالى : بأى درجة من السرعة يتقدم مشروع العمل العادى للإنقاذ ؟ وعلى أى نطاق ، وبأية وسائل ، وإلى متى ، يستحسن التنصح بالإنفاق الحكومى غير العادى فى هذه الأثناء ؟ » .

على القارىء أن يلاحظ عبارة « غير العادى » أى المخالف للمألوف ،

إذ أن كينز لم ينظر إلى البرنامج الحكومى على أنه تدخل دائم فى مجرى الأعمال ، أو أنه أكثر من مد يد المساعدة إلى نظام انزلق ويجاهد من أجل استرداد توازنه .

لقد بدا ذلك جوهر العقل السليم . والحقيقة أنه كان جوهر العقل السليم . ومع ذلك فإن برنامج « تلقيم المضخة » لم يحقق أبداً النتائج التى كان يأملها الذين أعدوه . فالإنفاق الحكومى الكلى الذى دار حول مستوى ١٠ بلايين دولار من عام ١٩٢٩ حتى ١٩٣٣ ارتفع إلى ١٢ ، ١٣ ، ثم ١٥ بليوناً من الدولارات فى عام ١٩٣٦ . ونهض الاستثمار الخاص من الأرض التى وقع عليها واسترجع ثلثى خسارته ، فاستثمرت الشركات الخاصة ١٠ بلايين دولار بحلول عام ١٩٣٦ . وارتفع الدخل القومى والاستهلاك القومى بنسبة خمسين فى المائة بعد ثلاث سنوات من الحقن الحكومية . ومع هذا ظلت البطالة قائمة . لقد أمكن التحكم فيها ومنعها من الازدياد ولكن ظل هناك ٩ ملايين شخص لا عمل لهم . الأمر الذى يصعب أن يكون علامة على بزوغ فجر عصر اقتصادى جديد .

هناك سببان يفسران قصور العلاج عن تحقيق نتيجة أفضل ، أولهما أن برنامج الحكومة للاستثمار لم ينفذ أبداً إلى مداه الكامل الذى كان يقتضيه الوصول بالاقتصاد إلى حالة العمالة الكاملة . لقد ارتفع الإنفاق الحكومى فيما بعد خلال الحرب العالمية الثانية إلى رقم هائل قدره ١٠٣ بليون دولار ، مما لم يسبب تحقيق العمالة الكاملة فحسب بل وترتب عليه التضخم أيضاً . إلا أنه فى إطار اقتصاد السلم فى الثلاثينات كان مثل هذا الإنفاق الشامل مستحيلا تماماً ، بل أن برنامجاً متواضعاً من الاستثمار الحكومى سرعان ما أثار التذمر فى الواقع من أن الحكومة الاتحادية تجاوزت حدودها التقليدية .

والسبب الثانى وثيق الارتباط بالأول ، أن كينز أو القائمين على الإنفاق الحكومى لم يأخذوا فى الاعتبار أن المستفيدين من الدواء الجديد قد يعتبروه

أسوأ من المرض . كان الاستثمار الحكومى مقصوداً به مد يد المعونة إلى مشروعات الأعمال ، ففسرته هذه بأنها حركة تهددها .

وليس فى هذا ما يثير الدهشة . لقد زحفت السياسة الاقتصادية الجديدة على موجة من الشعور المعادى لمشروعات الأعمال ، فالقيم والمستويات التى كانت قد أصبحت بالفعل موضع التقديس تعرضت فجأة للفحص والنقد القائمين على الشك فيها . إن الفكرة كلها عن « حقوق مشروع العمل » و « حقوق الملكية » و « دور الحكومة » تعرضت لهزها بخشونة ، وفى ظرف سنوات قلائل طلب إلى مشروع العمل أن ينسى تقاليده عن الامتياز الذى لا يحتمل المناقشة ، وأن يتخذ فلسفة جديدة من التعاون مع نقابات العمال ، وتقبل قواعد وتنظيمات جديدة ، وإصلاح الكثير من أساليبه لا عجب أن نظر إلى الحكومة فى وشنطن على أنها معادية له ، ومتحيزة ضده ، وراديكالية على خط مستقيم . ولا عجب فى مثل الجو ، أن فتر شغفه بالقيام باستثمارات على نطاق واسع ، بسبب القلق الذى شعر به فى هذا الجو الذى لم يألفه .

ومن هنا فإن كل جهد تبذله الحكومة للاضطلاع ببرنامج بالدرجة الكافية من الضخامة بما يستوعب العاطلين جميعاً — وهو برنامج ربما كان فى ضعف البرنامج الذى نفذ فى الحقيقة — نقول إن مثل هذا الجهد تعرض للهجوم على أنه شاهد جديد على تدبير اشتراكى ، وفى الوقت نفسه ، كانت الإجراءات النصفية التى اتخذتها وطبقتها الحكومة بالفعل باعثاً على تخويف مشروعات الأعمال بحيث تعزف بذاتها عن بذل مجهود على نطاق كامل ، كان موقفها لا يختلف عن الموقف الذى وجد فى الدواء ، فالدواء عالج المريض من داء واحد ليضعفه بسبب ما ترتب عليه من نتائج جانبية . فالإنفاق الحكومى لم يشف الاقتصاد حقيقة أبداً — لا لأنه لم يكن سليماً من الوجهة الاقتصادية ، وإنما كان مزعجاً من الناحية الأيديولوجية .

لم يقصد به أن يكون مزعجاً ، وإنما كان سياسة تولدت من اليأس

أكثر مما كان وليد تدبير مرسوم . فلو لم تبدأ الحكومة فى فتح صمام الاستثمار العام ، فمن المحقق أن المشروع الخاص كان يقود الطريق من جديد فى النهاية ، فقد فعل هذا فى الماضى وبالرغم من قسوة الكساد الكبير فلا نزاع أنه سوف يجد مسالك جديدة للمغامرة . ولكن كان من المستحيل الانتظار . لقد صبر الشعب الأمريكى أربع سنوات طوالا ، ولم يعد فى حالة نفسية تسمح له بالانتظار أكثر من هذا ، ولم يقف الأمر عند حد الاضطرابات التى وقعت ، بل ارتفعت أصوات تدعو إلى القلق والانزعاج . رن صوت ماركس بأعلى مما فعل فى الماضى ،وأشار الكثيرون إلى العاطلين على أنهم دليل— من أول نظرة — على أن ماركس كان على حق . وكان فى الإمكان تمييز ما همس به فبلن ، وذلك فى الأصوات الخافتة التى كان يرددها الداعون إلى حكومة يتولاها الفنيون والذين لم يريدو أن يتجهوا بدعوتهم إلى البروليتاريا ولكن إلى المهندسين . وكان هناك ذلك الصوت الأشد خطورة والذى لم يتعب أبداً من الإشارة إلى أن هتلر وموسولينى عرفا ما يجب عمله مع العاطلين فى بلديهما . فى هذا الخضم من ضروب العلاج المقترحة ومن الدعوة إلى عمل يائس ، كان صوت « النظرية العامة » ، أى أنغام كينز المهذبة ، معتدلا وباعثاً على الطمأنينة بالتأكيد .

والسبب فى هذا أنه بينما حبذ كينز سياسة التحكم فى الرأسمالية وتوجيهها فإنه لم يكن خصما للمشروع الخاص . « من الأفضل أن يستبد رجل برصيده فى البنك من أن يستبد بإخوانه المواطنين » . هذا ما كتبه كينز فى « النظرية العامة » ثم راح يقرر أنه لو قصرت الحكومة اهتمامها على توفير القدر الكافى من الاستثمار فيمكن وينبغى أن يترك سير الاقتصاد إلى المبادأة الخاصة . حين نستعرض « النظرية العامة » . نرى أنها لم تكن حلاً راديكالياً ، وإنما الأحرى أنها كانت تفسيراً للسبب الذى من أجله ينبغى أن ينجح علاج لا مفر منه . فإذا استطاع الاقتصاد وهو فى حالة سكون أن يسير مع التيار إلى أجل غير محدود فقد يكون ثمن جمود الحكومة أخطر بكثير من النتائج التى

تترتب على اتباع سياســـة جريئة تخالف المبادىء المألوفة .

كانت المسألة الحقيقية أخلاقية وليست اقتصادية . فخلال الحرب العالمية الثانية أخرج الأستاذ هايك كتاباً عنوانه « الطريق إلى الرق » ، كان يتضمن – بالرغم من جميع المبالغات التى اتصف بها – اتهاماً متغلغلاً فى نفسه ومخلصاً للاقتصاد المخطط إلى درجة عالية . كان كينز يعطف على الكتاب ويميل إليه ، ولكن بينما امتدحه فقد كتب يقول :

« ينبغى .. أن استخلص نتيجة تختلف نوعاً عن هذا . أود أن أقول إن ما نريده ليس الامتناع عن التخطيط بل قدر قليل منه ، بل أود حقاً القول بأننا نكاد نريد شيئاً أكثر . ولكن ينبغى أن يتم التخطيط فى جماعة يشترك فيها عدد كثير من الناس بقدر الإمكان ، من القادة والأتباع – على سواء – يشاركونك كلية مركزك الأخلاقى نفسه . سوف ينطوى التخطيط على درجة كافية من الأمان إذا كان الذين يتولون تنفيذه يتجهون بعقولهم وقلوبهم ناحية المشكلة الأخلاقية . وهذا يصدق حقيقة الآن على البعض منهم ، ولكن اللعنة تنحصر فى أن هناك أيضاً فريقاً هاماً يمكن أن يقال عنهم إنهم يريدون التخطيط لا للتمتع بثماره وإنما لأنهم يعتنقون أفكاراً هى على النقيض تماماً من أفكارك ، ولا يريدون أن يخدموا الله دائماً وإنما يريدون أن يخدموا الشيطان » .

هل يحتمل أن يكون هذا أملا ساذجاً ؟ هل يمكن أن تدار الرأسمالية ، بمعنى أن الهيئات الحكومية القائمة بالتخطيط سوف تفتح وتغلق صنبور الاستثمار على النحو الذى يكمل الاستثمار الخاص دون أن يحل محله أبداً ؟ من المؤكد أن هذا من المشكلات الرئيسية التى تواجهنا اليوم ، ولكن فلنؤجل مناقشتها إلى الفصل القادم لأننا هنا ندرس الرجل كينز ومعتقداته مهما كانت فى تقديرنا ضالة أو مثالية أو غير عملية أو نافعة ، ومن الخطأ الجسيم أن ندرج

هذا الرجل الذى كان هدفه إنقاذ الرأسمالية فى معسكر الذين يريدون إغراقها . حقيقة كان ينصح بأن يكون الاستثمار اجتماعياً فى طابعه ، ولكن إذا كان يضحى بالجزء ، فلكى ينقذ الكل .

كان كينز فى قرارة نفسه محافظاً ولا يميل كثيراً إلى إخفاء الحقيقة . لقد سبق أن قال فى عام ١٩٣١ « كيف يمكن أن أقبل المذهب (الشيوعى) الذى يتخذ إنجيله ، الذى يعلو على مستوى النقد ، من كتاب عتيق أعلم أنه ليس خاطئاً من الناحية العلمية فحسب بل ولا يثير الاهتمام أو يقبل التطبيق فى العالم الحديث ؟ كيف يمكن أن أعتنق عقيدة إذ تفضل الطين على السمك ، تمجد البروليتاريا خشنة الطباع على البورجوازية وطبقة المثقفين وهم الذين بالرغم من جميع أخطائهم طابع الحياة وينقلون بكل تأكيد بذور كل إنجاز بشرى ؟ » هذا ما كتب كينز حين لم تكن المشكلة واضحة بكل تأكيد فى نظر الكثيرين .

كلا ، قد يغالط البعض فى نظرياته وتشخيصه وعلاجه — وإن كان العدل يقضى بأن نقول إن الذين يصرون على أن كينز ليس إلا رجلا يتدخل عن نية أذى ، فى نظام يضطلع بوظيفته بدرجة طيبة ، لم يطالعونا بنظرية أبعث على التفكير ، أو تشخيص أبعد غوراً أو علاج أشد إقناعاً ، مما فعله . ولكن ليس فى وسع أحد أن ينكر هدفه ، وهو خلق اقتصاد رأسمالى تزول منه البطالة إلى الأبد — وهى أعظم وأخطر تهديد واحد لبقاء النظام .

كان رجلا يعجز عن أداء شىء واحد فى وقت واحد ، فبينما كان يصوغ أركان « النظرية العامة » فى ذهنه كان يبنى مسرحاً من ماله الخاص ، فى كمبردج . كان مغامرة تنم عن طراز كينز . فبعد أن بدأ المسرح بخسارة لم يمض عامان حتى كانت جميع الأماكن مشغولة وكان نجاحه الفنى هائلا . وكنت تجد كينز فى كل مكان فى نفس الوقت الواحد يضارب فى المال ، ويتسلم التذاكر (وحدث هذا مرة حين لم يحضر الكاتب المختص) ، وزوجا للسيدة الأولى (كانت ليديا تمثل فى شكسبير ولفتت الأنظار بدرجة طيبة للغاية) ، بل وصاحب الامتياز . وألحق بالمسرح مطعماً وكان يراقب فى غيرة

وحرص المتحصلات ويرسم خطوطاً بيانية على سبيل الموازنة مع أنواع الترفيه المختلفة حتى يتأكد من مدى استهلاك الغذاء حسب حالة المرء النفسية . وكان هناك بار أيضاً تقدم فيه الشمبانيا مع اجراء خصم كبير بصفة خاصة فى الثمن حتى يشجع على انتشار استهلاكها . لقد كانت أبهج ترويح عن النفس فى حياته المرحة .

ولكنها لم تستمر طويلا ، إذ توقفت قصة نجاحه فى عام ١٩٣٧ بسبب نوبة قلبية وأرغم على التزام الراحة ، ولكنها راحة نسبية إذ واصل عملياته التجارية النشيطة وظل برأس تحرير المجلة الاقتصادية ويكتب مقالات نابهة قليلة دفاعاً عن النظرية العامة . ولقد علق أحد الأكاديميين على الكتاب عند ظهوره قائلا « لقد عمل أينشتاين لعلم الطبيعة بالفعل ما يعتقد المستر كينز أنه فعله لعلم الاقتصاد » ، ولم يكن كينز بالرجل الذى يسمح لأحد أن يخرج بمثل تلك الملاحظة سليما . وكان فى وسعه إن أراد ، أن يستخدم قلمه اللاذع ، فبدأ الآن يعمل بصورة منظمة على تحطيم ناقديه ، كل منهم على حدة ، ثم بصفتهم الجماعية ، تارة بالسخرية منهم وتارة أخرى باستخدام ذكائه ، وكثيراً ما فعل ذلك بحدة كأن يقول « إن المستر (س) يرفض أن يفهمنى » ، وهذه العبارة ككثير غيرها من تعليقاته توحى بما كان ينتابه من شعور باليـــأس .

ولكن الحرب كانت تقترب وأعقب ميونخ ما هو أسوأ منها . وراح كينز يراقب فى غضب شديد الخطابات الدالة على الجبن والتى بعث بها بعض اليساريين إلى مجلة «السياسى الجديد والشعب» New Statesman and the Nation التى استطاع أن يجد وقتاً للاشتراك فى هيئة تحريرها ، فكتب فيها يقول « من المستحيل بالتأكيد أن أعتقد أن هناك حقاً شخصاً يقال له « اشتراكى » . إنى لا أؤمن بوجوده « ثم » حين تتأزم الأمور فلا تكاد تمضى أربعة أسابيع حتى يتذكروا أنهم من أنصار السلام ويكتبون إلى مجلتكم خطابات مليئة بروح الهزيمة تاركين الدفاع عن الحرية والحضارة إلى الكولونيل بليمب ورابطة

عنق المدرسة القـــديمة ، ممن يهتفون له ثلاث مرات » .

وحين جاءت الحرب كان كينز فى حالة مرض لا تسمح له أن يكون عضواً دائماً فى الحكومة . لقد أفسحوا له مجالا فى وزارة الخزانة واستفادوا من أفكاره ، وكان قد وضع كتاباً آخر باسم (كيف ندفع تكاليف الحرب) وهى خطة جريئة حث فيها على المدخرات المؤجلة كالوسيلة الرئيسية لتمويل الحرب . كانت الخطة بسيطة ، وهى أن يقتطع جزء من أجر كل أجير ليستثمر بصورة آلية فى سندات حكومية لا يبدأ استهلاكها إلا بعد انتهاء الحرب . وحينئذ حين تمس الحاجة من جديد إلى تشجيع القوة الشرائية الاستهلاكية يجرى صرف قيمة شهادات السندات .

إنه يدعو إلى الادخار الإجبارى . . فيا له من تحول عن جهوده السابقة لتحقيق نوع من الاستثمار الإجبارى . . ولكن التغير كان فى الزمن وليس فى تفكير كينز . كانت المشكلة القديمة قصور الاستثمار ومن أعراضه البطالة ، أما المشكلة الجديدة فهى وفرة الاستثمار — المجهود الشامل للتسليح — وأعراضها التضخم . ولكن « النظرية العامة » كانت صالحة لفهم التضخم كما كانت بالنسبة إلى فهم نقيض التضخم أى البطالة . كل ما فى الأمر أن صرح النظرية أصبح معكوساً . فالآن يجرى تداول المزيد من الدخول مع كل دورة من العجلة ، بدلا من تناقص التداول . والآن أصبحت المدخرات تقصر عن مطالب المحافظة على توازن انسياب الدخل ، بدلا من كونها كبيرة إلى درجة تسبب الارتباك .

وعلى ذلك فالعلاج على نقيضه فى حالة الكساد . كان كينز يدعو إلى تشجيع الاستثمار بكل طريقة ممكنة أما الآن فإنه يدعو إلى زيادة المدخرات .

والنقطة مهمة إذ أخطأ الكثيرون فحكموا على كينز بأنه اقتصادى يحبذ التضخم . إنه حبذ بالفعل « إعادة النفخ » « reflation » (أى زيادة الدخول وليس الأثمان) من أعماق الكساد ، أما أن نظن أنه كان يحبذ

التضخم من أجل التضخم لذاته فمعناه أننا نغفل فقرة كهذه من كتابه « نتائج الصلح الاقتصادية » .

يقال إن لينين صرح بأن أفضل طريقة لتحطيم النظام الرأسمالى هى إفساد العملة . فعن طريق سلسلة متصلة من التضخم تستطيع الحكومة أن تصادر بطريقة سرية وغير ملحوظة ، جزءاً هاماً من ثروة مواطنيها . بهذه الطريقة لا تصادر فحسب ، بل وتصادر بطريقة تعسفية . كان لينين على حق بالتأكيد إذ ليس هناك من طريقة أبرع ولا أضمن لقلب الأساس الحاضر الذى يقوم عليه المجتمع ، من إفساد العملة . إن العملية تجند كل قوى القانون الاقتصادى الخفية من أجل التدمير ، وتفعل هذا بطريقة لا يستطيع واحد فى المليون أن يحللها أو يشخصها .

ولكن بالرغم من منطق مشروع المدخرات المؤجلة وجاذبيته — حيث راح كينز يعلق أهمية على أن المشروع سيؤدى إلى توسيع قاعدة توزيع الثروة بأن يجعل كل شخص مالكاً لسندات الحكومة — نقول إنه بالرغم من هذا لم ينل المشروع الكثير من التأييد ، لأنه جديد فى فكرته بينما الأساليب القديمة كالضرائب ونظام البطاقات والادخار الاختيارى كانت أسلحة مجربة ومضمونة لتمويل الحرب . لقد نظروا إلى مشروع الائتمان المؤجل على أنه شيء للزينة ولكنهم لم يضعوه فى المكان الرئيسى الذى كان يتخيله كينز .

ولكن لم يتوافر له الوقت لإبداء الأسف على الاستقبال البارد الذى لقيه اقتراحه ، إذ كان منغمراً تماماً فى المجهود البريطانى الحربى ففى عام ١٩٤١ سافر إلى الولايات المتحدة بطريق لشبونه ، فكانت هذه الرحلة أولى ست من نوعها ، وكانت ليديا ترافقه كممرضة وحافظة له . فمنذ أن أصيب بالنوبة القلبية لأول مرة اضطلعت بدور الحارس الدائم على زوجها الذى لا يكف عن العمل ، وكثيراً ما كانت تطلب فى أدب ولكن بطريقة حازمة إلى زائر

كبير المقام أن يخرج بمجرد انتهاء الوقت المحدد له . كانت تقول « انتهى الوقت أيها السادة » فيتوقف العمل .

كانت الرحلات التى قام بها إلى الولايات المتحدة تشتمل على المشكلات الخطيرة المتعلقة بتمويل بريطانيا للحرب وكذلك بالمشكلة المعلقة فوق الرؤوس وهى ماذا سوف يحدث فى الفترة الرهيبة التى تعقب انتهاء الحرب . ولم تكن بريطانيا الدولة الوحيدة المعنية بالأمر ، ذلك أن الولايات المتحدة أيضاً كانت تريد أن تضع الأساس الذى تقوم عليه حرية تبادل التجارة الدولية مما يحول دون نشوب الحرب المالية اليائسة التى أدت الآن إلى الحرب المادية . كان المتفق عليه إنشاء بنك دولى وصندوق دولى للنقد ، ليكونا ضماناً يكفل انسياب النقود على النطاق الدولى ، فبدلاً من الأسلوب القديم الذى يحاول فيه كل شعب أن يقضى على الآخر عن طريق خفض الأسعار ، يكون هناك مجهود تعاونى جديد لمساعدة أى شعب يجد نفسه فى صعاب نقديه .

وعقد المؤتمر الأخير فى بريتون وودز وبالرغم من مرض كينز وتعبه سيطر على الاجتماع لا لأن المؤتمر أخذ بجميع وجهات نظره ، ذلك أن المشروع النهائى كان أقرب إلى المقترحات الأمريكية منه إلى البريطانية ، وإنما سيطر على الاجتماع بشخصيته ، ويقدم لنا أحد المندوبين فى يومياته هذه الفكرة عن الرجل :

فى هذا المساء اشتركت فى احتفال رقيق بشكل خاص . فهذا اليوم هو الذكرى الخمسمائة للاتفاق بين كلية الملك فى كمبردج والكلية الجديدة بأكسفورد ، وللاحتفال بالمناسبة أقام كينز وليمة صغيرة فى غرفته . . كان كينز الذى ظل يتطلع أسابيع إلى هذا الحادث فى حماس التلميذ ، فى أقصى درجات الجاذبية ، وألقى كلمة بديعة . . كان ذلك مثالا يلفت النظر عن طبيعة هذا الرجل غير العادى ، المعقدة بشكل غريب . ففى الوقت الذى يبدو راديكالياً فى المسائل الفكرية البحتة كان محافظاً بأسلوب بيرك

فى مسائل الثقافة . كانت كلها عبارة عن معزوفة صغيرة مما يتفق مع المناسبة ، ولكن عاطفته كانت مؤثرة حقاً حين راح يتكلم عما ندين به إلى الماضى .

وحين ألقى كينز خطابه الأخير عند ختام المؤتمر ، وقال « لو استطعنا أن نستمر فى الاضطلاع بمهمة أكبر كما بدأنا فى هذه المهمة المحدودة ، فإن هناك أملا للعالم » ، وقف المندوبون وراحوا يهتفون .

وكما هو الحال دائماً فإن جهوده الكبرى لم تستبعد جهوداً صغيرة قليلة . فعين مديراً لبنك انجلترا (وقد سبق أن قال إن ما يجعل من المرأة الأخرى امرأة أمينة إنما هو ما يراه الناس فيها) . وكذلك عين رئيساً للجنة جديدة للموسيقى والفنون . وهى لجنة أنشئت فى ظل رعاية الحكومة ، كما هو الشأن بالنسبة إلى الجامعات الإنجليزية . وهكذا ، بينما كان يحمل عبء عرض وجهة نظر بريطانيا على مجلس إقتصادى دولى ، كان يواصل كتابة الرسائل عن الموسيقى والباليه وقراءة الشعر والمعروضات التى بالمكتبة . واستمر بطبيعة الحال يقتنى المجموعات فحصل من مكتبة فولجر على نسخة نادرة من مؤلفات سبنسر ، وشرح لأمين المكتبة ، بروح تنم عن قدر يسير من الشعور بالإثم أنه استخدم الحقيبة الدبلوماسية فى الحصول على الكتالوج .

وبدأت ألقاب التشريف تنهال عليه ، فرفع إلى مرتبة الأعيان إذ أصبح الآن لورد كينز ، بارون أوف تيلتون وهى ضيعة اشتراها فى أواسط عمره حيث وفق إلى كشف بعث فى نفسه الغبطة وهو أن أحد فروع آل كينز سبق أن كان مالكاً لتلك الأرض . ومنح درجات علمية فخرية من جامعتى أدنبره والسوربون والجامعة التى تعلم فيها . وعين عضواً فى لجنة أمناء المتحف القومى . ومع هذا ظل هناك ما يعمله ، فقد كان لا بد من إجراء المفاوضات الخاصة بأول قرض تحصل عليه بريطانيا ، وعهد إلى كينز بمهمة عرض وجهة نظر بريطانيا . وحين عاد من تلك الرحلة وسأله أحد المخبرين الصحفيين عما إذا

كان صحيحاً أن بريطانيا أصبحت الآن الدولة التاسعة والأربعين ، أجاب فى غموض « ليست بهذا القدر من الحظ » .

وانتهت المحنة فى عام ١٩٤٦ . لقد عاد إلى سسكس للاطلاع والترويح عن النفس ولكى يستعد لاستئناف التدريس فى كمبردج . وذات صباح أصابته نوبة من السعال ، وطارت ليديا لتكون إلى جانبه ، ولكنه مات .

وأقيمت مراسيم الجنازة فى وستمنستر آبى ، وسار أبوه جون نيفيل كينز البالغ من العمر الثالثة والتسعين وأمه فلورنس فى ممشى الكنيسة وراء النعش . وبالرغم من حزنهما فإن عدداً قليلا من الأهل كانوا يطلبون لابنهم أكثر من هذا . وحزنت البلاد لخسارة زعيم عظيم راح فى وقت كانت فى أشد الحاجة إلى فطنته وحكمته ، وكما قالت التيمز فى نعى طويل نشرته بعددها الصادر فى الثانى والعشرين من آبريل « لقد فقدت البلاد بموته إنجليزياً عظيماً » .

لم يكن كينز بأى حال من الأحوال ملاكاً . فهذا الرجل الذى يعتبر من ألمع الاقتصاديين لم يكن إلا بشراً فيه كل ما فى أى شخص من أخطاء وعيوب وإن كان إنساناً رائعاً . كان فى استطاعته وهو مسرور أن يكسب اثنين وعشرين جنيهاً من اثنتين من الكونتيسات وأحد الدوقات فى لعبه البريدج والغراب ، كما كان فى وسعه أن يعطى بقشيشاً بسيطاً لماسح الأحذية فى الجزائر ويرفض أن يصحح خطأه قائلا « لن أشترك فى خفض قيمة العملة » . وكان فى وسعه أن يكون رقيقاً إلى درجة خارقة للعادة بطالب بطىء التفكير (إذ يجب على حد قوله أن يكون الاقتصاديون متواضعين كأطباء الأسنان) وقاسياً بشكل كريه مع رجل أعمال أو موظف كبير يتصادف أن يشعر إزاء أى منهما بكراهية باطنية . وحدث مرة أن قال سير هارى غوشن رئيس مجلس إدارة ناشينال بروفنشيال بنك مخطئاً كينز ، بأن نصح بأن « علينا أن ندع الأمور تجرى فى مجراها الطبيعى » ، فأجاب كينز « هل من الأصلح أن نبتسم أو نثور على هذه المشاعر الساذجة ؟ ربما الأفضل من هذا كله ، أن ندع سير هارى يسير فى طريقه الطبيعى » .

وقد فسر لنا كينز سر عبقريته — وان لم يكن فى ذلك الوقت يكتب عن نفسه . فحين كان يناقش صفات أستاذه القديم الفرد مارشال (وكان يحبه وفى نفس الوقت يسخر منه بروح يسودها العطف ، فيصفه بأنه «رجل عجوز سخيف») شرح كينز مؤهلات الاقتصادى على النحو الآتى :

إن دراسة علم الاقتصاد لا يبدو أنها تتطلب أى مواهب متخصصة من طراز عال لدرجة غير عادية . ألا يعتبر من الوجهة العقلية موضوعاً سهلا جداً إذا قيس بالفروع الأعلى من الفلسفة أو العلوم المجردة ، موضوعاً سهلا لا يتفوق فيه إلا عدد قليل جداً وربما نلقى تفسير التناقض فى أن الاقتصادى الممتاز يجب أن يملك مزيجاً نادراً من المواهب . فيجب أن يكون إلى حد ما رياضياً ومؤرخاً وسياسياً وفيلسوفاً . يجب أن يفهم الرموز ويتحدث بالكلمات .

ويجب أن يتخيل الخاص على ضوء العام ، وأن يعالج المسائل المجردة والمحسوسة بنفس الطريقة فى التفكير . ويجب أن يدرس الحاضر على ضوء الماضى لفائدة المستقبل . ويجب ألا يدع أى جزء من طبيعة الإنسان أو أنظمته خارج نظرته . ويجب أن يكون له هدف وخالياً من المصلحة فى نفس الوقت الواحد ، وأن يكون عزوفاً ولا يمكن إفساده كالفنان ، كما يجب أن يكون أحياناً قريباً من الأرض كالسياسى .

أما مارشال — كما يقول كينز — فكان يقرب من هذا المثل الأعلى — إذ بوصفه من رجال العصر الفكتورى كان اقتصاده يفتقر إلى طابع التحطيم الذى لا بد منه حتى يجعله ينفذ إلى أعماق المجتمع . ولكن كينز كان أقرب منه إلى هذا المثل الأعلى . فاتجاه جماعة بلومز بيرى من حيث عدم اعتبار أى شخص مقدس كان يطغى على المجالات التى كانت تعتبرها النظريات

الاقتصادية الصحيحة المقررة مقدسة . وهكذا مرة أخرى أصبح العالم تتركز عليه أنظار رجل لم يكن أعمى بحيث لا يرى المرض الذى يعانيه العالم ، ولم يكن يائساً من الناحيتين العاطفية والفكرية بحيث لا يرغب فى علاجه . فإذا كان مستنيراً إقتصادياً فقد كان مخلصاً من الناحية السياسية ، وفى هذا المزيج من العقل النشيط والقلب الملىء بالأمل تكمن عظمته .

الفصل العاشر

العالم الحديث

فى عام ١٩٣٠ ، وبينما معظم الناس تساورهم المشاغل القائمة بسبب الكساد الذى كان يزداد حدة ، كان كينز يتلاعب بفكرة ذات لون مختلف جداً . فبغض النظر عن عبارته المأثورة من أنه فى الأجل الطويل سوف نكون جميعاً فى عداد الموتى ، كان قد ألقى نظرة على المستقبل ، والمستقبل فى الأجل الطويل،وطلع بنبوءة تتعارض مع الأصوات المتشائمة التى كانت ترتفع فى ذلك الحين ، ذلك أن ما رآه كينز — وفى حالة عدم وقوع كوارث من قبيل زيادة لا يمكن السيطرة عليها فى عدد السكان أو حرب مدمرة كلية — لم يكن استمراراً لحالة البؤس والشك السائدة وإنما كان أملا براقاً على نحو يكاد يستحيل تصديقه أى شيئاً لا يقل عن عالم الوفرة الشاملة الذى بشر به آدم سميث .

وأطلق كينز على هذه الرحلة الصغيرة فى المستقبل « الإمكانيات الاقتصادية أمام أحفادنا » (ويمكن أن نضيف هنا أنه لم يكن له أحفاد) . وما هذه الإمكانيات ؟ نقول — وبدون الإسراف فى الشاعرية — إن هـــذه الإمكانيات توحى بعهد ذهبى متواضع إذ كان من رأى كينز أنه بحلول عام ٢٠٣٠ قد تحل المشكلة الاقتصادية ، وهو لا يقصد بهذا حالات الكساد العاجلة ، وإنما المشكلة الاقتصادية ذاتها ، أى الحقيقة القديمة الأمد وهى عدم توافر أسباب العيش . فى هذا الحين ، ولأول مرة فى التاريخ ، سوف يخرج الجنس البشرى — والجنس البشرى البريطانى على أى حال — من صراع ضد العوز إلى بيئة جديدة يمكن أن يحصل فيها كل فرد على حاجته بسهولة .

كانت هذه من النظرات إلى المستقبل ، تلك النظرات التى تميز بها كينز . فبعد الحرب العالمية الأولى وحين كان العالم سعيداً يهنىء نفسه ، كان كينز هو الذى راح يقدم النذير محذراً . والآن ، وفى الثلاثينات ، وحين انقلب العالم يرثى لنفسه ، كان كينز نفسه هو الذى تحدث بشجاعة عن قرب انفراج الشدة وانتهاء المشقة . ولكنه لم يكن مجرد شخص يصفر فى الظلام ، بل على العكس كان يتناول ناحية من الاقتصاد سبق أن شغلت جميع أساطين المخططين فى الماضى — وهى ميل الرأسمالية إلى النمو .

كان حظ هذا الميل إغفاله فى أوقات الكساد . إلا أننا إذ نرجع بأبصارنا إلى الوراء عبر المائتى العام الماضية ، فسوف نجد أن الذى ميز النظام لم يكن مجرد هذا التعاقب الذى لا معنى له ، من حالات الرواج التى تشيع الغبطة وحالات الركود التى تبعث على خيبة الأمل وإنما الذى ميز النظام كان اتجاهه التصاعدى المطرد وإن كان غير منتظم إلى درجة عالية . فالأربعون مليوناً من الإنجليز فى أيام كينز لم يعتبروا أنفسهم بكل تأكيد قوماً يحسنون بما جادت عليهم به الطبيعة بكرمها ، وإنما كانوا يتمتعون بلا نزاع وبالرغم من جميع المشاق التى أحاطت بهم فى تلك الأوقات ، بنصيب من خيرات الطبيعة أوفر بكثير مما تهيأ للعشرة ملايين من أهل انجلترا فى أيام مالتس .

لم يكن السبب أن الطبيعة أصبحت أكثر كرماً ، بل على النقيض من هذا ، وكما أوضح قانون تناقص الغلة المشهور ، كانت الطبيعة تغل ثروتها على مضض أعظم كلما ازدادت كثافة الاستغلال الزراعى . إن السر فى التقدم الاقتصادى كان يكمن فى أن كل جيل كان يهاجم الطبيعة لا بواسطة طاقاته وموارده فحسب ، بل وكذلك بما ورثه من معدات تجمعت على أيدى الأجيال التى تقدمته . وإذ نما ذلك الميراث — كلما أضاف كل جيل نصيبه من المعرفة الجديدة والمصانع والعدد والتكنيكات إلى ثروة الماضى — فإن الإنتاجية البشرية كانت تزداد بسرعة مدهشة . فعامل المصنع بالولايات المتحدة كان فى الساعة يخرج من السلع فى عام ١٩٦٠ ما يعادل أربعة وخمسة أمثال ما كان

ينتجه عامل فى زمن الحرب الأهلية ، لا لأنه يشتغل بجد أكثر أو بمهارة أكبر . ولكن لأنه يشتغل بآلات ميكانيكية تجعله بالقياس إلى سلفه الذى عاش فى زمن الحرب الأهلية ، يبدو كأنه ذلك الإنسان الأسمى الذى تخيله الفلاسفة (سوبرمان) .

ولو أن هذه العملية من الإنتاجية النامية باطراد استمرت قرناً آخر ، أو مجرد ثلاثة أجيال ، لأدت الرأسمالية اللاعبة التى حيرت الكثيرين . فخلال مائة سنة أخرى من جمع الثروة وبنفس السرعة التى شهدتها السنوات المائة الماضية فإن انجلترا ، طبقاً لحساب كينز ، سوف تضاعف ثروتها الإنتاجية الحقيقية سبع مرات ونصف مرة . فبحلول عام ٢٠٣٠ سوف يكون تحت تصرف كل عامل آلات تجعل منه سوبرمان بالقياس إلى جده الذى كان يعيش فى عام ١٩٣٠ .

ومثل هذه الزيادة فى الإنتاجية يمكن أن تحدث الفارق كله ، فتجعل كتب التاريخ المكان الذى يشغله الاقتصاد بوصفه علم الندرة . لن تصبح المشكلة الجديدة التى يواجهها المجتمع إيجاد الفراغ ، وإنما كيف يتصرف فى ذلك القدر من الفراغ والذى لم يسبق له مثيل . وراح كينز بضحكة فاترة يقتبس تلك الأبيات التقليدية التى نقشت على قبر الخادمة المياومة العجوز :

لا تحزنوا من أجلى ، يا أصدقائى ، ولا تبكونى أبداً
لأنى لن أعمل شيئاً إلى الأبد
سوف تدوى السماوات بالترانيم والموسيقى العذبة
ولكن لن يكون لى دخل فى الغناء

لم تكن هذه بطبيعة الحال سوى جولة نظرية فى علم المستقبل ولم يأخذها أحد مأخذ الجد . كانت الآلات فى عام ١٩٣٠ تقعقع بصوت ينذر بالخطر بحيث لم تتح لأحد أن ينظر إلى مثل هذا الأمل على أنه يزيد على كونه خيالا لطيفاً وسرعان ما نسيه كينز نفسه فى غمرة المشكلة العاجلة المتعلقة بتحليل

ماهية تلك البطالة التى لم يسبق لها مثيل وكانت تشل العالم .

وسواء كانت الصورة التى رسمها كينز مجرد أمنية أو شيئاً جاداً رزيناً ، فإنها ذات أهمية بالنسبة إلينا ، لأن كتاب « الإمكانيات الاقتصادية أمام أحفادنا » يواجهنا لأول مرة بمشكلة مستقبلنا نحن . إن كل ما بحثناه حتى الآن ليس إلا تاريخاً . فتطور العالم المنظم الذى تسيره القوانين كما عرفه القرن السابع عشر ، وتحوله إلى رأسمالية السوق والمكونة من ذرات ، كما وصفها آدم سميث وخلاص تلك الرأسمالية بصعوبة من الاقتصاد الذى يسيطر عليه مالك الأرض ، وتوقعه ريكاردو ، أو من مجتمع الكفاف المزدحم بالسكان والذى خشيه مالثس ، واتجاه الرأسمالية صوب القضاء على نفسها كما تنبأ ماركس ، واتجاهها المزمن نحو الركود مما حلله كينز — كل هذه المغامرات والمغامرات الخاطئة التى قامت بها الرأسمالية ومهما كانت تلفت النظر ، تفتقر بالرغم من هذا إلى عنصر معين من الترقب ، لأننا كنا نعرف عن أى تحول فى سير التاريخ ما سوف تكون النتيجة فى النهاية . أما الآن فإننا نجد أنفسنا فى مركز يبعث على الحيرة ، وإذ نتحول إلى الاقتصاديين الحديثين فإننا لم نعد نناقش الأفكار التى ساعدت على تشكيل ماضينا لأن الشىء المهدد بالخطر هو مجتمعنا ومصيرنا والميراث الذى سوف نخلفه لأطفالنا .

ولهذا يجب أن نتحول من دراسة ماضينا إلى تقييم مستقبلنا . ما موقف الرأسمالية اليوم ، وإلى أين تتجه ، وما العلامات التى تشير إلى ما سوف تأتى به السنوات القادمة ؟ هذه هى المشكلات الكبيرة فى علم الاقتصاد المعاصر ، وإليها يجب أن نوجه اهتمامنا الآن .

ربما ينبغى أن نبدأ بتقدير ما حققناه ، وسوف نكون أقدر على الحكم على ما يخبئه لنا المستقبل من فرص وأخطار إذا كانت لدينا فكرة واضحة عن حالتنا فى الوقت الحاضر ، ولهذا نضع أمامنا هذا السؤال الجوهرى :

ما حظ الأمريكيين فى ظل نظامهم الاقتصادى الحاضر ؟

إن حظ بعضهم سيء جداً .

ففي عام ١٩٦٠ – وهو العام الذى بلغت فيه مستويات المعيشة العادية أقصى درجاتها – نجد أن فريقاً لا بأس به من الأمريكيين كانوا ما يزالون يعيشون فى أحوال يخيم عليها البؤس الاقتصادى والعوز . ففى الأحياء الفقيرة المزدحمة من نيويورك ، حيث يقيم الزنوج وأبناء بورتوريكو والجماعات الزراعية الفقيرة بالمناطق البعيدة من ولايتى مسيسيبي وتنيسى ، نجد أعداداً كبيرة من الأسرات الأمريكية والأفراد الذين لا يرتبطون بأسرة – وهؤلاء يكادون يمثلون خمسة عشرة فى المائة من الشعب – يعيشون على دخل سنوى أقل من ٢٠٠٠ دولار ، كما أن خمسة ملايين آخرين يلقون عسراً فى العيش بدخل سنوى يقل عن ٣٠٠٠ دولار . إن هذا بعيد عن الفقر المعروف فى آسيا بكثير ، الأمر الذى يشهد به انتشار أجهزة التليفزيون حتى فى أفقر الأحياء بالمدن . ولكنه مستوى من الانحطاط الاقتصادى حيث التليفزيون على حساب العناية الصحية وحيث يجرى التمتع به فى حجرة مزدحمة بساكنيها وتتخذ منها الفئران مقراً . فلو اعتبرنا أن ٤٠٠ دولار كدخل سنوى للأسرة بمثابة بداية الاستقلال الاقتصادى – وهو مبلغ لا يسمح لكل فرد من الأسرة المكونة من أربعة أشخاص إلا بإنفاق ١٩ دولاراً فى الأسبوع – ففى هذه الحالة نجد أن أسرة واحد من كل خمسة أسرات من غير أهل الزراعة قد عجزت عن الوصول إلى هذه الدرجة الأولى من سلم الاكتفاء الاقتصادى الصحيح فى عام ١٩٦٠ . ولو أدخلنا فى حسابنا الأسرات من الفلاحين لاكتشفنا أن كل أسرة من أربع تعيش دون هذا المستوى . وهذا لا يشمل الأفراد غير المرتبطين أى الشباب الذى فى مستهل حياته ، والكبار الذين انتهت حياتهم الإنتاجية ومن هؤلاء يعيش أربعون فى المائة دون ٢٠٠٠ دولار فى السنة .

وفى مجتمع يفخر بنجاحه الاقتصادى الضخم لا يكاد يكون هذا سبباً يدعو إلى الغبطة المطلقة ، بل أن معناه فى الحقيقة أن الرأسمالية بالنسبة إلى ذلك الربع من الشعب والذى يعتبر أدنى درجاته حظاً ، وبوصفها نظاماً من المستويات الغالية للعيش والكرامة الشخصية أو « الرخاء » الفردى ، لا تزال ، لا تزيد على كونها أسطورة أو أسوأ من هذا ، سخرية مرة .

ولكن من الممكن أن نشعر بالغضب إزاء أمثال هذه الحقائق إذا لم ننظر إليها على ضوء الماضى . وهذا الذى تحقق فى الماضى هو أنه ما من مكان آخر فى العالم استطاعت البشرية فيه اقتطاع القدر الكافى من الطبيعة واقتسامه بين أفرادها بطريقة جعلت فى الإمكان توفير درجة لائقة من العيش للجميع . ففى قارات الشرق الشديدة الازدحام بالسكان نجد أن الورطة المالثسية فى أصدق وأبشع صورها قد هبطت فعلا بمستويات العيش فى شعوب كثيرة خلال السنوات الخمسين الأخيرة . فالأسيويون فعلا على باب عيش الكفاف نفسه . وفى أفريقية والشرق الأدنى وأمريكا الجنوبية وأوروبا الشرقية يعتبر الفقر الذى يطحن الناس هو القاعدة بدلا من أن يكون استثناء . وأعلى مستويات المعيشة التى أمكن الوصول إليها فى أوروبا — كما فى سويسرا مثلا — لا تزيد إلا قليلا عن نصف المستوى الأمريكى — ومتوسط دخل الفرد فى سويسرا ضعفه فى الأراضى الواطئة .

ولم تحقق الشعوب الاشتراكية شيئاً أفضل من هذا . فبالرغم من أن بعضها قسم ثروته على نحو أكثر عدالة مما نفعل إلا أنها أخفقت فى إنتاج الثروة بالقدر الذى أنتجناه منها ، وشرائح الكعك الناتجة عن ذلك أرق مما لدينا وإن كانت أكثر تشابهاً . وبالرغم من المثل الأصلية الداعية إلى المساواة والتى تنادى بها الروسيا ، ومن محاولاتها العنيفة للحاق بالعالم الغربى فإنها فى مستوى منخفض بكثير من ناحية الوفرة الشاملة .

من الصعب أن نعقد موازنة بين المستويات الروسية والأمريكية نظراً لأن

خدمات كثيرة ندفع ثمنها — كالخدمة الطبية أو التعليم العالى أو الإيجار تقدمها الحكومة السوفيتية بالمجان أو بثمن قليل ، ولكن المؤكد أن التمتع بالرفاهية المادية فى الروسيا لا يزال دونه بكثير فى ظل اقتصادنا .

ومقابل هذا المنظر الكئيب لم تحقق الرأسمالية الأمريكية إنجازات طيبة وإنما اضطلعت بوظيفتها على نحو باهر . فبالرغم من أن ربع شعبنا يعيش دون المستوى اللائق فإننا أقرب مجتمع فى التاريخ إلى بلوغ الهدف البراق الذى تصوره كينز — أى الاقتصاد الذى يخلو من الفقر . والحق ، إننا نكاد أن نكون قد وصلنا إلى ذلك الهدف ولو أن الاتجاه الذى شهدناه فى الماضى يستمر عشرين سنة أخرى فقد نستطيع أن نسهل خلال حياتنا أول اقتصاد عرفه العالم حيث يحصل الجميع فى ظله على ما فيه كفايتهم .

وواضح أن إمكانية حدوث هذا قائمة . ففى عام ١٩٢٩ كان متوسط الدخل ٢٣٤٠ دولاراً بالنسبة إلى جميع الأسرات والأفراد غير المرتبطين ، وهذا المبلغ يعادل أكثر من ٤٠٠٠ دولار حسب قيمة الدولار سنة ١٩٦٠ ويمثل متوسط مستوى المعيشة فى السنة التى بلغ فيها الرواج ذروته والسابقة على الأزمة الاقتصادية .

واليوم يبلغ متوسط الدخل ٦٥٠٠ دولار بالنسبة إلى جميع الأسرات والأفراد غير المرتبطين أى أننا لو استبعدنا الزيادات التى طرأت على الأسعار لكان متوسط عيش الأسرة أفضل بنسبة النصف مما كان عليه منذ ثلاثين عاماً خلت — وذلك بالرغم من سنوات الكساد الكبير التى خلت من النمو . وإذا اطرد معدل التقدم فى هذه المدة ثلاثين عاماً أخرى فسوف تكون الصورة التى تتراءى لنا ذات وقع فى النفس بصورة صادقة على نحو لم يسبق له مثيل بالتأكيد ، إذ فى عام ١٩٩٠ سوف يبلغ متوسط دخل الأسرة — حسب القيم الحالية — ١٠,٠٠٠ دولار تقريباً . وإذا تجنبنا سنوات من التبديد بسبب وقوع كساد كبير ، فإن هذا المستوى يمكن أن يكون أعلى من ذلك بدرجة بالغة .

لقد قدر البعض أن يصل هذا المتوسط إلى ١٥,٠٠٠ دولار عند بدء القرن الحادى والعشرين .

وسوف تكون الحال أفضل أيضاً . ففى ذلك العالم الذى سوف يحقق الوفرة ، تكون قد ضاقت الفجوة بين الأغنياء والفقراء . فخلال السنوات الثلاثين الماضية وبينما حسنت الأسرة المتوسطة مركزها بنسبة النصف فإن الطبقات التى تعتبر دون المستوى اللائق كانت دخولها تزيد أيضاً بنحو نصف الزيادة فى حالة الأسرات ذات الدخول العالية . ويعزى بعض السبب فى هذا إلى القفزة الهائلة التى حدثت فى إنتاجية الطبقة العاملة كما يرجع من جهة أخرى إلى محاولة مقصودة لتحديد ثروة الطبقات التى تعيش فى قمة الهرم الاجتماعية وذلك بفضل سياسات الضرائب التصاعدية . وكانت النتيجة طبقاً للحسابات التى أجراها الدكتور سيمون كوزنتس أن هبط بمقدار النصف تقريباً ومنذ عام ١٩٢٩ ذلك النصيب من الدخل القومى الذى يذهب إلى الذين يشغلون قمة الهرم الاقتصادى — أى تلك الفئة العليا من أصحاب الدخول والبالغ نسبتها واحد فى المائة . وبينما إخفاء الدخول العالية عن طريق حسابات المصروفات والفوائد المعفاة من الضريبة ، والمكاسب الرأسمالية قد جعل الهبوط الحقيقى بدون شك أقل بكثير فى الحقيقة مما تدل عليه هذه الأرقام ، إلا أنه لا يمكن الشك فى أن الرأسمالية آخذة فى توزيع المكاسب التى تحققها على أساس أدنى إلى المساواة مما كان عليه الحال من قبل .

وبذلك لو استمر اتجاه الماضى ففى إمكاننا أن نتوقع فى المستقبل الملئ بالأمل أن يكون حظ ذلك الربع من شعبنا والذى يشغل أدنى مراتب الهرم الاجتماعى أحسن بكثير ولا يقتصر على مجاراة السير مع التيار . ليس من المحتمل أن يزداد امتصاص دخول الأغنياء إذ أصبح التهرب من الضرائب منافساً خطيراً للأسلوب القديم فى كسب المال غير أن إعادة التوزيع يمكن أن تتحقق بالرغم من هذا عن طريق تحويل المزيد من المكاسب الناجمة من النمو

الاقتصادى إلى الطبقات ذات الدخول الأدنى بدلا من تقسيمها بين الأغنياء والفقراء على حد سواء .

إذا حدث هذا كله صار فى الإمكان القول بأننا قد توصلنا إلى حل المشكلة الاقتصادية . إن دراسة للفقر فى الولايات المتحدة الآن توحى بأن العوز أصبح مرضاً اجتماعياً بدلاً من أن يكون مرضاً إقتصادياً ، أى أن المحتاجين عندنا يتكونون من مجموعات خاصة بحول الجنس أو العجز أو الظروف الاجتماعية دون اشتراكها فى التقدم الرئيسى . ومما له مغزاه أن عامل المصنع — ذلك البروليتارى الذى أحبه كارل ماركس وعبد الرأسمالية الذى يضرب به المثل — لا وجود له فى صفوف الفقراء . إن العامل فى منشأة صناعية متوسطة يحصل على أجر قدره ٤٥٠٠ دولار فى السنة ، كما أن عاملا من كل خمسة عمال يكسب أكثر من ستة آلاف دولار فى السنة . فالذى يحمل عبء الاستغلال ليس العامل أو الفلاح ولكنه الخادم الذى يقوم بالأعمال البسيطة والمستأجر وطريد المجتمع . إن الفقر الذى يعانيه ربع الشعب الأمريكى ليس مرضاً إقتصادياً بقدر ما هو سبة اجتماعية .

هل هذا المستقبل الملىء بالأمل يبشر بالخير للرأسمالية هنا ؟ هل معنى هذا أن المجتمع سوف يجدنا أو يجد أطفالنا يعيشون فى مجتمع يشبه فى أساسه مجتمعنا الحالى ، بالرغم من التغييرات التى لا بد أن تحدث حتما ؟

ليس ذلك أمراً تفرضه الضرورة لأن الرأسمالية ليست ساكنة كما أن نموها ليس بالبساطة التى نلقاها فى الطريق ذى الاتجاه الواحد . وهو الطريق الذى رسمه كينز . إن الرأسمالية لا تزداد غنى فحسب ولكنها تنمو أيضاً فى اتجاهات أخرى وتبدى اتجاهات أخرى — ليست سليمة كلها . لقد حققت الرأسمالية أشد مطالبها الحاحاً — وهو توفير الحياة لأهلها ، كما أنها تفسح الأمل أمام حياة أفضل . والآن يتعين علينا أن نبحث عما إذا كانت هناك قوى أخرى قد تجعل صورة المستقبل مختلفة جداً عن الصورة التى بيناها .

يجب أن نعود بضع سنوات إلى الوراء لندرس ما يمكن أن تكون عليه هذه القوى . وسوف نستمع أولا إلى صوت ينطوى على التحذير ، صدر فى عام ١٩٣٢ .

ومما له أهمية أن هذا الصوت لم تكن له علاقة بالصورة التى رسمها كينز للمستقبل ، كما أنه بالتأكيد لبس مزيجاً من الهوى والاقتصاد المشوب بالأمل ، على غرار ما فعل كينز . إننا نلقى التحذير فى الإحصائيات الجافة التى تضمنها كتاب « الشركة الحديثة والملكية الخاصة » The Modern Corporation and Private Property الذى لم يحاول مؤلفاه أدولف بيرل وجادنير مينز أن يضيعا وقتهما بتخيل ما سوف يأتى به عام ٢٠٣٠ . كان اهتمامهما منصباً على اتجاه سوف يتطور وينمو سريعاً إلى درجة كبيرة .

هذا التحذير يتلخص فى العبارة الآتية : إذا استمر هذا الاتجاه الذى يسيطر على مشروع العمل الأمريكى لمدة خمسين سنة أخرى فسوف يتحطم نسيج الرأسمالية التقليدى .

والسبب فى هذا النذير أنه حين نظر بيرل وميز إلى السوق الأمريكية وجدا هذا الإحصاء المخيف . ففى عام ١٩٣٢ كان نصف المشروعات التى تدار على نظام الشركة ، فى أيدى مائتى شركة . وأسوأ من هذا ، فعلى أساس معدل نمو هاتين المائتين من العمالقة بالقياس إلى ثلاثة ملايين من الأقزام التى تتكون منها بقية مشروعات العمل الأمريكية ، فقد بدا من المحتمل أن تسيطر الأولى فى عام ١٩٥٠ على ثلاثة أرباع ثروة الشعب الممثلة فى الشركات . وإذا سرنا بأرقام بيرل وميز إلى نتيجتها المنطقية ، وإن لم يذكراها ، ففى سنة ١٩٧٥ أو حوالى ذلك التاريخ سوف يسيطر مائتا مارد على حياة الشعب الاقتصادية بالفعل ، ولن تختلف عن تلك الإمارات الإقطاعية التى سبق أن أدارت الحياة الاقتصادية فى أوربا .

ولكن الذى كان له الوقع فى نفس هذين المراقبين لم يكن مجرد

الإحصائيات الخاصة بحجم المشروعات وإن كانت أكبر تلك الشركات أغنى من إحدى وعشرين ولاية من ولايات الاتحاد . إن الأثر المرعب لتلك الإحصائيات كان يتمثل فيما تنطوى عليه من معنى بالنسبة إلى نظام السوق نفسه ، إذ حين نجد رؤساء الشركات التى تنتج ما يقرب من نصف السلع التى تشتريها أمريكا جالسين فى دعة وراحة فى وليمة بفندق متواضع ، فإن تلك الفكرة التقليدية كلها عن المنافسة تبدو فجأة فكرة غير واقعية ، الأمر الذى يبعث على الأسى .

هل تتصرف شركتا الولايات المتحدة للصلب وبيت لحم للصلب ، وكل منهما تنظر إلى الأخرى باحترام وحذر ، كما لو كانتا مجرد بائعين خضار متجولين فى سوق مزدحمة ؟ هل تتصرف الشركات الثلاث التى تتحكم فى ثلثى إنتاج السيارات كما لو أنها لم تعرف أنها تسيطر على صناعتها ؟ أو هل تفعل هذه الشركات الثلاث التى تشغل مركزاً مشابهاً فى صناعة السجاير أو الآلات الزراعية أو الإطارات أو الآلات التى تستخدم فى المكاتب أو العلب المصنوعة من الصفيح ؟

واضح أن الجواب بالنفى . انتهى العهد الذى يهتم فيه كل امرىء بنفسه وليذهب الغير إلى الشيطان . إن الموقف الجديد أملى فلسفة جديدة قوامها أن تعيش وتدع غيرك يعيش وبالرغم من أن مثل هذه القاعدة التى يقوم عليها السلوك قد تكون أسهل بكثير على رجل الأعمال ، فلنا أن نسأل : ماذا فعلت للمستهلك ؟ إن المبرر الأخلاقى كله للرأسمالية هو أن المستهلك ملك فى سوق تنافسية . وحين أصبحت الحياة الاقتصادية تدور فى رعاية مشروعات هائلة الحجم لم تعد مضطرة إلى التنافس فيما بينها . فقد ظهر كثيراً جداً كما لو أن القناع الملكى قد ألقى على وجه المنتجين .

ولمضاعفة الخطر لم يعد هؤلاء المنتجون يستجيبون إلى مصالح « مالكيها » الاقتصادية .

جرى العرف بطبيعة الحال على أن صراع مصالح المالكين الاقتصادية هو الذى جعل جهاز السوق فى المكان الأول ، ولكن الرجال الذين كانوا يديرون شركة التليفون والتلغراف الأمريكية أو شركة سكك حديد بنسلفانيا لم يكونوا أصحاب هذه الشركات وكل ما ملكوه فيها لم يزد عن جزء صغير من ملايين الأسهم . فمتوسط ما كان يملكه المديرون فى أكبر شركات الشعب كان أقل من ثلاثة فى المائة من أسهمها - وكانت النسبة دون الواحد فى المائة فى ثلث أكبر الشركات .

كان الملاك الفعليون فى نظر القانون ألوف حملة الأسهم المنتشرون فى طول البلاد وعرضها . ممن ملك الواحد منهم سهماً أو عشرة أسهم أو حتى ألف سهم ، ولكن هؤلاء الملاك العديدين لم يتعموا بتلك المزايا والامتيازات المنبعثة عن الملكية والتى كانت موضع الاحترام منذ زمن طويل . فلم يديروا المشروعات التى يسهمون فيها كما لم يكن لهم صوت فى عملياتها إلا بصورة غير ظاهرة ، بل أن الكثيرين منهم لم يعرفوا ما تنتجه شركاتهم . لقد بدا أن «الملكية» تحولت إلى نوع من المضاربة السلبية أى إلى تذكرة للحصول على الدخل أى أصبحت قطعة من الورق يمكن الإتجار فيها على نحو مجز فى السوق .

وهذا جعل المديرين أحراراً بصورة غريبة للسعى وراء أية غايات رغبوا فى تحقيقها . فبالنسبة للقائمين بإدارة الشركات الكبيرة انتفى عنصر الإرغام الذى كان يدفع الرجل الذى يملك ويدير فى نفس الوقت متجراً للعقاقير على ناصية الشارع إلى أن يتصرف على نحو السلوك الذى كان عليه أن ينتهجه طبقاً لما قاله آدم سميث من قبل . وإذ تحرروا من ضغط المنافسة المباشر وإذ أصبحوا غير مسئولين إلا بدرجة طفيفة أمام آلاف « الملاك » القانونيين الذين كانوا يصوتون بطريقة الإنابة على الوجه الذى يطالبهم به المديرون ، فإن حكام المشروعات العملاقة أصبحوا فى حالة سجن اقتصادى .

قد يتصرفون بطبيعة الحال وفقاً لما تعظ به الكتب المدرسية . أو قد

يبتزون شركاتهم من أجل كسبهم الشخصى ومن ذلك أن رئيس مجلس إدارة إحـــدى شركات الطباق جعل مكافأته مليون دولار فى السنة بالرغم من اعتراضات المساهمين ، أو قد يضطلعون بأفضل العمل أو العلاقات التى تعود بالخير على الجماعة . ولكن النقطة المهمة أنه لم يعد فى الإمكان التنبؤ بأعمالهم عن طريق الإشارة إلى دافع « المصلحة الذاتية » البسيط فى بيئة بسيطة تسودها المنافسة .

مثل هذا النظام عن الإدارة المستقلة قد يكون خيراً أو شراً — ولكن من المؤكد أنه لم يكن الرأسمالية التقليدية لأن جوهر الرأسمالية هو أنه لم يكن فى وسع أى منتج أن يمارس عمله بوصفه قوة مستقلة وأن يفعل حسبما يريد تماماً . كان الجميع يسيرون سوياً فى صف متماسك وكانت النتيجة — كما لم يكف آدم سميث أبداً عن توضيحها — هى انتصار المستهلك .

أما الآن فقد بدا ذلك كأنه حلم تبدد من أحلام الماضى . كان المديرون المستغلون الجدد يهزون أكتافهم استخفافاً بالسوق ، ويبتسمون من ضآلة ذلك الجزء الذى يملكونه ، واكتفوا بإدارة المشروع بأفضل ما قدروا عليه ووفقاً لما كان صالحاً فى نظرهم — مع العمل على التوفيق بين مطالب العمل والمساهم والحكومة والجماعة ومطالبهم أيضاً .

إن مراقباً وهو الأستاذ چيمس برنام فى كتابه « ثورة المديرين » أبدى الشك فى أننا نسير صوب مجتمع تتولى تنظيم العالم الاقتصادى فيه هيئة دائمة من المحترفين ، وهو الأمل الذى ساور فبلن من ناحية المهندسين ، بل لقد أبدى برنام تلك الفكرة المزعجة وهى أن المديرين المحترفين فى ظل الرأسمالية الجديدة neo-capitalism يشبهون من حيث المهام التى يضطلعون بها ، المديرين المحترفين فى القوميسيريات الروسية والرابطات النازية .

كان هذا طريقاً إلى المستقبل بدا أن الاقتصاد أخذ يسير فيه منذ ثلاثين عاماً خلت . سوف نعود إلى هذا فى موضع قادم إذ واضح أن من الأهمية

الرئيسية بالنسبة إلى تقدير احتمالات المستقبل أن نعرف ما إذا كانت الملكية الخاصة فى سبيل التبلور إلى نوع من إقطاع حديث .

ولكن هذا الصوت لم يكن بالنذير الوحيد إذ جاء تحذير ثان من ناحية مختلفة من الاقتصاد العالمى ، وكان معنياً بالمثل بانحطاط الرأسمالية التقليدية ، غير أن التحذير لم ينصب على المشروعات الكبيرة وإنما كان منصباً على ضخامة التسليط الحكومى .

أشرنا بإيجاز إلى صاحب هذا النذير وهو الدكتور فردريك هايك ، وربما يذكر القارئ أنه خلال الحرب العالمية الثانية هاجم الدكتور هايك التخطيط الحكومى فى كتابه « الطريق إلى الرق » والذى اختلف رأى كينز فيه حيث أعجب به وإن لم يتفق مع الرأى الذى ورد فيه . ولكن بينما اختلف كينز مع هايك حول الحاجة إلى التخطيط إلا أن دفاعه عن أخطار التخطيط بدا بالفعل ضعيفاً نوعاً . لقد راقب هايك الاستعباد التدريجى الذى خضع له وطنه فى أوربا الوسطى تحت الحكم الحديدى الذى فرضته الفاشية واعتقد أنه يرى فى تلك العملية القاسية شيئاً شبيهاً بقانون داخلى كان يعتقد فى الحقيقة أنه بمجرد أن تتدخل الحكومة بدرجة كافية فى جهاز السوق فلن يعد أمامها من سبيل آخر سوى أن تمسك بالاقتصاد من أسفله إلى أعلاه بيد شديدة .

لم يكن كل عمل حكومى بالنوع الذى يولد عملا آخر من طرازه ، فقد كان هايك يوافق على نوع من التدخل — لأغراض تتصل بتحقيق الرفاهية أو لتصحيح ميزان القوة إذا اختل بشكل واضح ، أو لمقاومة كساد حل بالاقتصاد . إن ما كان يخشى نتائجه هو نوع آخر من العمل الحكومى أى السيطرة المباشرة على النشاط الاقتصادى نفسه ، إذ أن الشيء الذى بدا أنه يميز هذا النوع من التخطيط عن أنواع التدخل الحكومى الأخف وطأة والأكثر نفعاً ، هو أن ذلك التخطيط كان يتميز بعجز غريب عن التوقف ، فبمجرد أن يبدأ فإن ضرورة باطنية تضطره إلى التوسع . وتلك الضرورة لم تنشأ عن

أهداف شخصية تحرك القائمين بالتخطيط - بل يكاد يمكن القول « بأنها نشأت بالرغم منهم » . إنهم لم يبدأوا فى كل حالة بفرض السيطرة على اقتصاد الشعب بأسره وإنما كل الذى أرادوه كان تخطيط قطاعات قلائل من ذلك الاقتصاد . كإنتاج الصلب أو صناعات التصدير مثلا .

ولكن كانت هناك صعوبة ، إذ لم يكن من السهل أن تخطط جزءاً فقط من مجتمع لا يأخذ بنظام التخطيط لأن معنى هذا أنك تسير فى خط مستقيم خلال جمهور من الناس . فمهما كانت العناية فى إعداد الخطة ، ومهما فكرنا فى حمايتها من التطورات الطارئة ، فإن شيئاً يغير دائماً التنظيم الموضوع ، قد يكون مشروعاً عجز عن التمشى مع عملية تجميع جوهرية أو نقابة عمدت إلى الاضراب ، وربما قد يكون مجرد تغير فى أذواق المستهلكين يقلب الأسعار رأساً على عقب فى بقية قطاعات الاقتصاد .

مثل هذه الحالات من فشل التوقعات هى التى تبعث اليأس فى نفس كل رجل من رجال الأعمال، ولكن ما لا يزيد على كونه نكبة خاصة بالنسبة إليه يعتبر مصيبة قوية عند القائم بالتخطيط لأنه إذا انهارت خطة كبيرة ومتماسكة أعدت نقسم حيوى من الاقتصاد فقد يعرض هذا للخطر المجهود الإنتاجى بأسره الذى تبذله الجماعة ذاتها . وإذن ماذا يعمل القائم برسم الخطة حين تواجهه متاعب لا يمكن تجنبها ؟ الجواب - والجواب السهل الواضح والمعقول - هو مزيد من التخطيط ، وتوسيع الخطة الأصلية بحيث تندرج العناصر الصعبة فى الاقتصاد فى نطاق ذلك الجهاز الناعم وهو النشاط الموجه .

ففى إنجلترا مثلا . ومن أجل تحقيق الإنتاج المرسوم لمناجم الفحم المؤممة فى أواخر الأربعينات ، كان من الضرورى تنفيذ خطة لتجنيد العمل وهذا الأمر الأخير بدوره كان يتطلب وضع جدول للأجور . ومن أجل الإبقاء على جدول الأجور المرسوم فى مستوى أفضل بشكل مناسب من الأجور الأخرى فإن النظام القومى كله للأجور الصناعية أصبح موضوعاً يدعو إلى

القلق . وبذلك فإن ما بدأ كخطة بسيطة للإنتاج أصبح بالضرورة خطة أوسع مدى بكثير . فكما أن أسهل طريقة للمشى خلال جمهور مزدحم هى أن تجعل أفراده يقفون فى خطوط مستقيمة فكذلك أسهل طريقة لإعداد خطة قابلة للتطبيق إنما تكون بفرض تنفيذها .

وماذا يحدث فى النهاية ؟ كان الدكتور هايك يخشى أن يؤدى التخطيط حتما إلى من وصفهم لينين بقوله : من ذا الذى يخطط للغير ، ومن ذا الذى يوجه ويختار ويخصص أى شىء لهم ؟ فى هذا ليس نهاية الرأسمالية وحدها فحسب بل ونهاية الحرية الشخصية أيضاً .

هذا السؤال وجهه فى أواخر الثلاثينات رجل كان فى الإمكان أن نراه كل يوم تقريباً يسرع الخطى وهو يعبر فناء جامعة هارفارد ليحاضر طلابه ، ذلك هو الدكتور ألفين هانسن الذى كان من أعظم الاقتصاديين الأمريكيين مكانة وكان يقال عنه من وراء ظهره أنه « كينز الأمريكى » . حين توجه إلى وشنطن لأداء الشهادة فى التحقيقات التى أجريت بشأن الاحتكار (حيث ظهر أمام اللجنة بنظارته الخضراء والمؤشر الذى يستعمله فى الفصل) حول اللجنة إلى ندوة خاصة صامتة ، فقال رئيسها « إن المناقشة تزداد أهمية يا دكتور بحيث أننا نخرق قواعدنا من جميع الجهات » .

لا عجب أن كانت المناقشة كذلك . كان الدكتور هانسن يشعر بأن البيئة كلها التى تعيش فيها الرأسمالية آخذة فى التغير وبطريقة غير موفقة إلى أبعد حد . إن التيار القوى الذى كان يدفع السفينة الرأسمالية فى الماضى أخذ يضعف ومن هنا أصبح من المتعين أن يتم التقدم بدون مساعدة دافع دائم ومناسب وعاجل .

وماذا كان الدافع ؟ ما من أحد كان يشعر بدهشة أكبر خلاف مالتس — ذلك أن الدافع هو نمو السكان .

كان مالتس يعتقد أن الحاجز العظيم فى وجه التقدم الاقتصادى هو ذلك

الفيض من الأفواه الذى يلتهم أية زيادة طفيفة قد يحققها المجتمع من الطبيعة .

ولكن هانسن كان ينظر إلى الزيادة فى السكان فى ضوء مختلف . فبينما الزيادة قد تغرق المجتمع فإن معدلاً من الزيادة ينبغى أن تكون له نتيجة مضادة ، أى ينبغى أن يدفع المجتمع إلى الأمام بتوفير طلب يزداد نمواً باطراد على البيوت الجديدة والملابس والسلع من كل نوع . فالزيادة المنتظمة فى عدد الشعب — بشرط تقييدها — كانت أفضل الضمان بأن برنامجاً جريئاً من التوسع يصبح عملاً معقولاً .

لقد حدثت فى الماضى بالتأكيد تلك الزيادة المنتظمة فى عدد السكان وكل عقد جاء بسوق جديدة واسعة ، ففيما بين عامى ١٨٠٠ ، ١٨١٠ زاد عدد أفراد الشعب الأمريكى مليوناً ، وبلغت الزيادة مليونى نسمة فيما بين عامى ١٨١٠ ، ١٨٢٠ ثم تضاعفت فى السنوات العشر الأخيرة من القرن كانت الزيادة ١٢ مليوناً ثم صارت ١٥ مليوناً خلال كل من العقود الثلاثة المنتهية فى سنوات ١٩١٠ ، ١٩٢٠ ، ١٩٣٠ .

ولكن حين نظر الدكتور هانسن إلى أرقام الإحصاء فى الثلاثينات وجد فيها ما يدل على اتجاه يبعث على الانزعاج إذ أخذ معدل الزيادة فى السكان يبطىء . لقد توقف بالفعل فى انجلترا وفرنسا ، وكان يتناقص بسرعة فى أمريكا . إننا لا نزال شعباً يزداد عدده ، ولكن ببطء أكبر من ذى قبل بكثير .

وفى السنوات العشر التى شهدت الكساد الكبير لم تزد السوق إلا بثمانية ملايين من المستهلكين الجدد ، أى ما يعادل نصف الزيادة العادية ، فلا عجب إذن أن قال الدكتور هانسن أن من الصعب على ما يبدو علاج هذا الكساد . وقدر أن الزيادة خلال السنوات العشر التالية أى من ١٩٤٠ إلى ١٩٥٠ ، لن تتجاوز ٦ ملايين أى ثلث الزيادة المتوقعة فى حجم السوق عادة . وإذن لو استمر هذا الاتجاه فسوف ينتهى عصر الزيادة الكبيرة فى الربع

الأخير من القرن وسوف تواجه أمريكا شعباً توقف عن التكاثر .

هذا الاتجاه كان كفيلا أن يدخل البهجة على قلب مالثس ، أما هانسن فكان شعوره مختلفاً لأن معنى هذا أن أعظم دافع وحيد على الاستثمار لن يمكن الاعتماد عليه بعد ذلك . وإذا حرم الاستثمار من أضمن حليف له أى إذا أبطأت عملية نمو الاستثمار والتى علق عليها الجميع آمالهم منذ آدم سميث حتى كينز ، فماذا يحدث لآمال الأمريكيين بالنسبة إلى المستقبل ؟

لا يمكن أن نستبعد فى بساطة إمكانية حدوث ذلك . من المؤكد أن الثراء الخيالى الذى حققه الشعب الأمريكى لم يعتمد اعتماداً كلياً على الزيادة فى السكان ، فقد كانت هناك المناطق الغربية من البلاد ليستغلها ، كما كان هناك سيل متجدد من المخترعات الثورية التى تخلق الحاجات . ولكن كما أنه لم يعد فى الإمكان الاعتماد على زيادة السكان لتهيىء دافعاً قوياً (وعلى القارئ أن يفكر فى المساكن التى كان لا بد من انشائها لسد حاجة الزيادة التى بلغت خمسة عشر مرة خلال القرن التاسع عشر) فكذلك أصبح الحد الغربى من أحداث الماضى . لم يعد الغرب إقليماً لم يكتشف بعد حيث يستطيع أى امرىء آن يقتنى ثروة وإنما أصبح منافساً قوياً للشرق .

وما الذى يدل عليه كل هذا ؟ إنه يدل على أن الدافع على الاستثمار من جانب الرأسمالية سوف يعتمد فى المستقبل على التقدم التكنولوجى وحده ، وهذا أمر كانت تصحبه صعوبة من نوع خاص . إن المخترعات الكبرى التى أسهم بها الجنس البشرى كانت تحدث دائماً على صورة فورات مفاجئة فهناك عصر الثورة الصناعية ، وعصر إنشاء السكك الحديدية ، وعصر توليد القوة الكهربائية ، ثم عصر بناء معدات القوة المحركة الذاتية . وكانت كل مجموعة من الاختراعات تسفر عن دفعة فى الاستثمار ، ولكن بمجرد أن تنتهى فإن النشاط المحموم فى البناء كانت تعقبه فترة من السكون .

قد يكون المستقبل خلاقاً كالماضى وربما أكثر منه ، ولكن يحتمل بالمثل

أن تكون خطى الاختراع متباعدة وغير منتظمة . فإذا لم يدعّم الاقتصاديين فترتى التقدم التكنولوجى ، فسوف يولد بالتأكيد سلسلة متعاقبة من الكساد والكساد الشديد التى تزداد صعوبة التحكم فيه بسبب عدم وجود تيار تحتى من الزيادة المطردة فى عدد السكان أو سهولة الوصول إلى أسواق جغرافية جــديدة .

وكانت النتيجة كالآتى : لقد بدا كأن الموتور الحكومى الذى أعد على عجل حين بلغ الكساد أقصاه لا بد وأن يتحول إلى آلة مساعدة ثابتة . سوف يتعين على نظام المشروع الحر القديم أن يقبل شريكاً له — وهو شريك غير مرغوب فيه ولكنه ضرورى — وذلك على صورة مجرى دائم من الإنفاق الحكومى للإبقاء على اطراد تقدم الاقتصاد . لقد انتهى عصر الرأسمالية التى توجه وتدير نفسها بنفسها ، وبدأ يظهر عصر جديد من الرأسمالية « الناضجة » التى تسيطر عليها الدولة .

كادت هذه ألا تكون نظرة يراد منها أن توحى بثقة لطيفة فى المستقبل ، وهذه لم تكن سوى المشكلات الكبرى التى أقلقت بال الذين كانوا يشخصون داء الرأسمالية فى أواخر الثلاثينات وأوائل الأربعينات . وكان هناك عدد كبير من المسائل الفرعية أيضاً ، وهى موجات متكررة من القلق بشأن عيار الذهب أو العمل أو الزراعة أو التعريفات الجمركية والتجارة الدولية . ولكن المسائل الكبرى الثلاث وهى الاتجاه نحو تضخم حجم الشركات والخطر الناشىء من الإسراف فى التخطيط والقلق بصدد النمو ، هذه كلها بدا أنها جوهر المسألة ، لأن هذه الاتجاهات ظهرت كأنها اتجاهات يسير فيها التطور الرأسمالى وبذلك بدت كأنها تثير سلسلة من المشكلات البعيدة الغور والكامنة التى سوف تواجه المستقبل .

فهل كان لمصادر القلق هذه ما يبررها أم أن هذه « الاتجاهات » ، صعاب مآلها إلى الزوال ؟ لقد انقضى ما يقرب من ربع قرن منذ أن بدأ

توجيه تلك الأسئلة ، وأتيح للرأسمالية الوقت الوفير كي تخلص نفسها من أية انحرافات مؤقتة ربما أضلت المراقبين في الثلاثينات . فإذا كانت الاتجاهات مجرد مظهر زائل فينبغي أن يكون ما أوحت به من أخطار أقل وضوحاً اليوم . فهل الأمر كذلك ؟

كانت أكبر الشركات الصناعية المائة والثلاثون في أواخر الثلاثينات تضطلع بنصف الإنتاج الصناعي في الولايات المتحدة ، وكانت أكبر الشركات البالغ عددها مائتان وخمسون شركة تنتج سلعاً تعادل قيمتها قيمة إنتاج الاقتصاد بأسره قبل الحرب . هذه الأرقام لا تكاد توحي بأن المخاوف التي ساورت بيرل وميتز لم تكن غير ذات أساس .

وينطبق الأمر نفسه على مخاوف الدكتور هايك فبحلول عام ١٩٦٠ كان مجموع الإنفاق من جانب حكومات الولايات والإدارة المحلية والحكومة الاتحادية قد بلغ الحد الذي أصبح يمثل ربع المنتج القومي الإجمالي . فالميزانية الاتحادية ، بالرغم من محاولات الجمهوريين والديموقراطيين على حد سواء لخفضها ، بدت ذات اتجاه توسعي لا يمكن الحد منه ، حيث ارتفعت النفقات الاتحادية من ٤٠ بليون دولار سنة ١٩٤٩ إلى ما يقل قليلا عن ٨٠ بليوناً بعد ذلك بعشر سنوات . كان معظم الزيادة مرتبطاً بطبيعة الحال بارتفاع مستوى الدفاع القومي ، إلا أنه خلال الخمسينات اضطرت الحكومة — تحت ضغط مشكلات التخطيط المتصلة باقتصاد الدفاع ، وفي ثمان وأربعين مناسبة — إلى الاستيلاء على الصناعة الخاصة من أجل تنفيذ خططها الخاصة بالدفاع .

إن شكوك الدكتور هانسن بصدد النمو بدت أقل بصراً بالمستقبل إلى حد ما . كانت هناك اضطرابات بالتأكيد في سير التقدم الاقتصادي ، ولكن يلاحظ ابتداء من أواخر الثلاثينات ، خلال الحرب ثم بعدها ، أن التقدم كان يسير بخطى رائعة . فالمنتج القومي الإجمالي الذي كان أقل من ١٠٠ بليون دولار حين وجه الدكتور هانسن تحذيراته بشأن الاقتصاد « الناضج » زاد إلى

خمسة أمثاله . كما زاد الإنتاج الكلى إلى ثلاثة أمثاله تقريباً منذ عام ١٩٣٥ ، وذلك مقاساً بعدد الأطنان والياردات أكثر منه بالأثمان الآخذة فى الارتفاع . إلا أن كون النمو راجعاً إلى حد كبير إلى حربين ثم إلى ازدياد الإنفاق الحكومى ، ظل يثير السؤال الذى وجهه الدكتور هانسن وهو : هل يواصل الاقتصاد النمو لو توقف الإنفاق الحكومى ؟

وهكذا يبدو أن التحذيرات التى صدرت عن أولئك الذين كانوا يبحثون أمر الرأسمالية فى أواخر العقد الرابع من القرن لم تكن بغير أساس . فالمسائل الرئيسية التى شغلت الاهتمام منذ ربع قرن مضى لا تزال اليوم تشتمل على المشكلات الاقتصادية الكبيرة التى تواجه الرأسمالية . وعلينا الآن أن نتابع الخطوط الرئيسية فى الفكر الاقتصادى المعاصر حتى يتسنى لنا أن نكشف عما تنذر به هذه المشكلات بالنسبة إلى المستقبل .

فهل نحن مسوقون إلى اقتصاد يصبح فيه النشاط الاقتصادى كله وقد ابتلعته قلة من عمالقة مشروعات الأعمال ؟ إن الإحصائيات التى لدينا عن حجم المشروعات تبعث بالتأكيد على الخوف . فقبل الحرب العالمية الثانية حين كانت مبيعات شركة مثل جنرال موتورز تبلغ بليون دولار ، كان ذلك يحتل العنوان الرئيسى فى صفحات المجلات المالية . ومنذ وقت وجيز بلغت مبيعات هذه الشركة أكثر من سبعة بلايين دولار ، وكانت الأهمية الوحيدة فى نظر مجتمع المال — تبلغ بليون دولار بوصفه وحدة للقياس — هى ما إذا كانت جنرال موتورز تحقق مثل هذا الربح ، إلا أن الحقائق العارية عن ضخامة المشروعات تلفت النظر دون أن توضح المسألة ، وهذه المسألة ليست ظهور شركات ضخمة فردية . ولكنها تنحصر فيما إذا كانت العمالقة بصورتها الجماعية تستحوذ باطراد على مزيد من النشاط الاقتصادى للشعب .

وهنا نجد الدليل باعثاً على الدهشة ، فالدراسة الاحصائية الدقيقة التى قام بها الأستاذ م . أ . أديلمان من هيئة M.I.T. قد أظهرت أنه بالرغم من قيام

عدد كبير من العمالقة الفرديين فإن نصيب الشركات الكبيرة من الاقتصاد كله لا يبدو عليه الازدياد . والحقيقة أنه حين نرجع بأبصارنا إلى مستهل القرن حين ظهرت أولى الشركات الصناعية العملاقة وهى شركة الولايات المتحدة للصلب فإن نصيب أكبر الشركات من النشاط الاقتصادى الكلى ظل ثابتاً بشكل يثير الدهشة . ومما يلفت النظر بالدرجة الكافية أن النتيجة نفسها تصدق على انجلترا أيضاً ، على الأقل بالنسبة إلى السنوات الخمس والعشرين الأخيرة .

ولكن كيف يمكن أن يحدث هذا حين أظهرت شركات كثيرة خلاف جنرال موتورز معدلات هائلة من النمو ؟ يكمن الجواب فى هذه الحقيقة، وهى أن الاقتصاد كله أخذ ينمو بسرعة أيضاً وبمعدل أتاح للمشروعات فيه أن تتوسع بالدرجة نفسها التى زادت بها الشركات الكبيرة من مبيعاتها . لقد زاد حجم المستنقع إلى جانب الضفادع الآخذة فى النمو فقد بلغ عدد الشركات « الأقزام » ثلاثة ملايين فى سنة ١٩٣٢ ولكنه ارتفع بمقدار ١,٣ مليون شركة فى عام ١٩٦٠ .

فهل معنى هذا أننا نطرح جانباً القلق الذى أعرب عنه بيرل وميز ؟ ليس من أى شيء أبعد عن الواقع من الرد بالإيجاب ، إذ بغض النظر عن عدم تغير نصيب الشركات الكبيرة فى الاقتصاد الأمريكى فإننا نلاحظ على صناعات فردية تزيد أكثر فأكثر أن حالة كالتى توقعها بيرل وميز يبدو أنها آخذة فى الظهور . ربما فى سبعين فى المائة من الصناعة لا يتميز نمط الإنتاج بوجود عدد كبير من المتنافسين ولكن الذى يميزه هو وجود عدد قليل من الشركات العظمى المسيطرة على الصناعة . إن الشركة العملاقة لا تبتلع الاقتصاد بصورته الكلية . ولكن هذه الظاهرة تزداد وضوحاً للعيان فى القطاعات الصناعية الحيوية من الاقتصاد .

وكانت النتيجة تغييراً ينذر بالخطر فى طابع الكثير من هذه القطاعات. فمثلا قد وضح أمام لجنة تحقيق بمجلس الشيوخ فى عام ١٩٥٨ أن « المنافسة »

فى قاموس المشروع الكبير ، معناها إلى حد كبير اجتذاب العملاء من المنافسين عن طريق منتجات « مختلفة وأفضل » أو تقديم خدمات مغرية أو اتباع أساليب أحسن فى الإعلان أو اتخاذ صور من الشركة أكثر إغراء . هذا التعريف الجديد هيأ للمستهلك جميع المزايا عدا ميزة واحدة وهى أنه لم يعد أمامه جهاز يعمل بصورة آلية على خفض الأثمان إلى أدنى مستوى يتفق مع تكاليف الإنتاج . والحقيقة بدا أحياناً أن « المنافسة » الجديدة تضمن أن يدفع المستهلك أعلى سعر ممكن وليس أقل سعر . ففى عام ١٩٥٧ مثلا أعلنت شركة فورد أثمان سياراتها الجديدة فكانت تزيد بنسبة ٢,٩ فى المائة على أثمان السنة السابقة . وبعد ذلك بعامين أعلنت جنرال موتورز قائمة الأثمان وقد زادت بنسبة ٦,١ فى المائة ، وهنا سرعان ما أعادت شركة فورد النظر فى أثمانها ورفعتها حتى يتسنى لها مواجهة « المنافسة » (كما صرح بذلك متحدث باسم الشركة) .

وهكذا حتى إذا كانت الشركات الكبيرة لا تواصل باطراد بسط سيطرتها على الاقتصاد الكلى ، فإن شيئاً توقعه بيرل وميتز كان يحدث فعلا فى داخل الصناعات التى لهذه الشركات الغلبة فيها . ذلك الشىء هو التحطم البطىء الذى أصاب الوظيفة التقليدية للسوق بوصفها السلطة الاقتصادية العليا فى اقتصاد المشروع الحر . ففى العالم القديم الذى كان مكوناً من عدد كبير جداً من المشروعات الصغيرة والذى استندت إليه نظرية الرأسمالية كان يمكن القول بحق أن المستهلك كان ملكاً وأن الشركة كانت خادمته ، أما فى العالم الجديد حيث الشركات الصناعية العملاقة فإن المستهلك لم يعد السيد الواضح الذى يسيطر على الاقتصاد . والحق ، وكما قال الأستاذ بيرل فى عام ١٩٥٧ « إن بعض هذه الشركات وحدات يمكن النظر إليها كأنها شعوب إلى حد ما » .

فهل معنى هذا أن الشركة تحررت اليوم من كل ذلك النسيج التقليدى المكون من القيود التى تفرضها المنافسة ، وهى القيود التى جرى الاعتماد عليها

منذ أيام آدم سميث لإخضاع المصلحة الذاتية الفردية للإرادة الاجتماعية ؟ وهل معناه أن المستهلك سيد الرأسمالية الذى كان موضع التبجيل ليس إلا ملكاً صورياً الآن . . يلقى التشجيع على أداء واجبات وظيفته الشرفية وهى الشراء ، ولكنه ممنوع من القيام بأعباء وظيفته الحقيقية وهى الحكم ؟

ليس الموقف مظلماً بالكلية . فبينما فى داخل الأسواق التى يسيطر عليها عدد قليل جداً من البائعين digopolistic markets تخلى المنافسة مكانها لتشغله الأثمان « المقررة » من جانبهم فإن معركة اقتصادية لها معناها تنشب بين هذه الهيئات الصغيرة عدداً المتحكمة فى الأسواق . لم تعد المعركة بين شركتى الولايات المتحدة وبيت لحم للصلب ولكنها أصبحت معركة تشتبك فيها كل صناعة الصلب ضد الألمنيوم وكل صناعة الألمنيوم ضد الزجاج ، والزجاج ضد البلاستيك ، والبلاستيك ضد الخشب ، والخشب ضد الخرسانة ، والخرسانة — لتكملة الدائرة — ضد الصلب . فى هذه المعركة الناشبة بين الصناعات لا يزال المستهلك يلعب دوره المحورى ولا تزال له قوة هائلة . وإذا لم يعد له الخيار فى أن يفرض آراءه مباشرة بصدد الأثمان فإن فى إمكانه أن يفرض قراراته النهائية بشأن المنتجات بل ويفرضها بالفعل .

أضف إلى هذا أن الاقتصادى المعاصر الدكتور جون كينيث جالبريث لفت النظر إلى ضمان جديد فى هذا العالم الجديد المكون من تلك الصناعات ، الضخمة القليلة العدد والتى ينافس بعضها بعضاً ، فيقول إن مجموعات عظيمة من القوة فى جانب تميل إلى تسهيل تكوين مجموعات من القوة « تقابلها » فى الجانب الآخر . وهكذا تقف الشركة الكبيرة أمام النقابة الكبيرة ، ومنتج المواد الأولية الكبير تواجهه بالمثل الشركة القوية التى تتولى معالجة منتجاته وعلى الشركة الصناعية الهائلة الحجم أن تصارع تلك السلسلة الهائلة من تجارة التجزئة أو تلك السلسلة من المحلات التجارية الكبرى . مثل هذه القوة المقابلة لا تنشأ فى كل حالة أو فى جميع الظروف — بما فى ذلك ، وهو الأهم حالة

التضخم حين لا يستخدم المشروع الكبير والنقابة الكبيرة قوتهما ضد بعضهما البعض وإنما يستخدمانها ضد المستهلك . إلا أنه يظهر فى الظروف « العادية » أن هناك تقسيما للقوة عبر السوق مما يهيىء بعض الحماية للثمن والتى لم يعد يهيئها تقسيم القوة بين عدد كبير من الوحدات الصغيرة المتنافسة على كل من جانبي السوق .

ثم أبان الدكتور جلبريث وجهاً آخر من عالم الوحدات القليلة الضخمة كان موضع الإغفال ذلك أنه عالم أرق بكثير من الموقف القديم القائم على المنافسة التى يحاول فيها كل فرد أن يقضى على الآخر ، لأن المعركة الاقتصادية القديمة فى ظل المنافسة لم تكن نعمة خالصة ، إذ بينما أبقت القوة الاقتصادية الخاصة فى حدها الأدنى فإنها حققت ذلك على حساب شىء آخر حيث جعلت الناس أيضاً قساة لا يرحمون . إن الرأسماليين الذين تحدث عنهم كارل ماركس لم يدرسوا على وجوه الفقراء لأنهم قساة القلب ، وإنما كانوا مضطرين على ما أوضح الرجل إلى استغلال العمل إذا شاءوا البقاء فى ميدان الأعمال . ومن هنا حين تعمل درجة من هذه السيطرة الاحتكارية على حماية رجل الأعمال من ضغط السوق الذى لا يرحم فإنها تسمح له أيضاً بتحسين أحوال عماله .

والنتيجة عبارة عن شىء يتعارض مع الإنجيل الذى نلقاه فى الكتب الدراسية . ليست صناعات الشعب التنافسية هى التى تقوم بدور الرواد فى ميدان البحث أو السياسات التقدمية بشأن العمل ، وإنما على ما يقول الدكتور جلبريث « هذه النماذج الظاهرة فيما عدا استثناءات نادرة ، هى الصناعات التى تسيطر عليها حفنة من الشركات الكبيرة . إن الزائر الأجنبي الذى يؤتى به إلى الولايات المتحدة . . يزور نفس الشركات تماماً كما يزورها الموظفون القضائيون فى وزارة العدل فى بحثهم عن الاحتكار » .

ما الذى نستخلصه من هذا النسيج المعقد كله من القوة التى تملكها الشركات ؟! ليست هناك إجابات قاطعة كما هو الحال بالنسبة إلى الكثير من

المشكلات الاقتصادية . إذا كان الدكتوران بيرل ومينز متشائمين بغير موجب حين توقعا نمو الشركات العملاقة التى تبتلع الاقتصاد فقد كانا بعيدى النظر بشكل بارز حين تنبآ بأن المشروعات الضخمة التى يديرها رجال لم يعودوا مسئولين أمام « ملاك » المشروع أو « السوق » سوف تشكل شكلا من القوة تختلف تماماً عن الشكل الذى كان المفروض أن الرأسمالية قامت عليه . أما أن هذه القوة يمكن استخدامها على نحو غير مسئول ولما فيه دمار المستهلك فأمر واضح . وواضح فى الوقت نفسه أن الشركات العملاقة ليست إقطاعاً اقتصادياً مغلقاً ، وأن نفس حجمها لا يؤدى إلى مشكلات اقتصادية فحسب بل ويؤدى أيضاً إلى بعض منافع اجتماعية بعيدة المدى .

ونقول بإيجاز إنه يبدو أننا نواجه شكلا من القوة الاقتصادية مليئة بالإمكانيات للخير أو الشر الاقتصادى ، وهو شكل لم يلق بعد « التبرير العقلى » فى نطاق فلسفة شاملة للاقتصاد السياسى كما لم يجر تنظيمه داخل نظام من القيود النظامية . وفى النهاية بطبيعة الحال إذا لم نستسلم لنوع من الإقطاع الحديث فى عالم الأعمال فإن القوى الجديدة التى تتمثل فى الشركات يجب أن يكون لها مكان مشروع فى داخل قالبها الاجتماعى والسياسى الأكبر وليس فوقه . أما نوع المكان الذى سوف تشغله وكيف تحدد مسئولياتها فى النهاية ، وبأية طريقة يتحقق التوازن الجديد للقوة الاقتصادية — نقول إن هذه كلها مسائل تعبر اليوم وستظل لفترة طويلة قادمة بالتأكيد من المشكلات الجوهرية التى يجب أن تكون موضع اهتمام الرأسمالية الحديثة .

إلا أن هناك شيئاً واحداً مؤكداً ، ذلك أن استمرار توسع الشركات العملاقة الفردية يجعل أهمية مزدوجة لاستمرار توسع الاقتصاد الكلى — لا بوصف ذلك وسيلة لتوفير المزيد من السلع والخدمات للشعب فحسب وإنما ليضمن أن نمو المشروعات الكبيرة لن يبتلع الاقتصاد .

ومن هنا فقلقنا من ناحية كبر حجم الشركات يعود بنا عن طريق غير

متوقع إلى المشكلة التي واجهت الدكتور هانسن . ما الغرض أمامنا فى أننا سوف نواصل النمو ؟ وإلى أى حد يجب أن نعتمد على تأييد الحكومة لتحقيق هذا النمو ؟

على خلاف الإحصائيات المخيفة عن حجم مشروعات الأعمال يبدو من أول نظرة إلى إحصائيات النمو الاقتصادى أنها تبدد جميع بواعث القلق فى نفس الدكتور هانسن . لقد كان مشغول البال على ما نذكر ببطء معدل الزيادة فى عدد سكان شعبنا وبالعبء الإضافى الذى سوف يلقى نتيجة لذلك على عاتق التكنولوجية بوصفها الأداة الرئيسية لتحقيق نمو الرأسمالية. لقد بدت هذه فى أواخر الثلاثينات مشكلات خطيرة ، ولكن بعد العهد بها خلق صورة جديدة ، إذ فى أعقاب الحرب العالمية الثانية حدثت زيادة فى معدل المواليد وكانت زيادة غير متوقعة بالكلية ومزعجة وإن لم يكن فى الإمكان إنكارها ؛ فأصبح المعدل ٢٥ فى الألف تقريباً فى العقد السادس مقابل ١٧ فى الألف فى عام ١٩٣٥ . هذه الزيادة أحدثت تغييراً جذرياً فى النظرة إلى موضوع السكان . واليوم إذا كنا نستشعر القلق من شىء فهذا الشىء هو أن عـــدد سكان شعبنا قد لا يزيد بالسرعة التى تجعل مواردنا تتمشى معه . ولكن على أية حال إذا كانت مجرد الأعداء مصدراً لطاقة التوسع الاقتصادى فينبغى لنا الآن أن نواجه عقداً من أشد عقود التاريخ مدعاة إلى الغبطة إذ سوف يزداد عدد المستهلكين فى السوق الأمريكية بنسبة الثلث فى عام ١٩٧٥ .

ليست هذه بالصورة كلها . فحين نرتد بأبصارنا إلى الوراء نبدأ نرى أننا قللنا بدرجة خطيرة من قيمة قوة اندفاعنا التكنولوجى فى الثلاثينات ، ولم نبدأ إلا حديثاً فى إدراك أن منحنى التكنولوجية آخذ فى الارتفاع بصورة تكاد أن تكون رأسية تحت أقدامنا ، أى أننا قد دخلنا فى عصر العلم . لقد حسب أحد أساتذة جامعة هارفارد مثلا أن من جميع العلماء الذين عرفهم التاريخ فإن تسعين فى المائة منهم أحياء اليوم ، وذكر أحد نواب رئيس شركة

جنرال موتورز أن السنوات العشر الأخيرة شهدت إنفاق نصف الأموال التى أنفقتها المصادر الخاصة والعامة على الأبحاث والتنمية فى الولايات المتحدة منذ عام ١٧٧٦ والبالغة ١٠٠ بليون دولار .

وهكذا فإن المستقبل التكنولوجى أمام النمو يبدو لامعاً حقاً إذا قيس بالماضى . ومن الطريف أن نلاحظ أنه حين طلبت لجنة التنمية الاقتصادية وهى من منظمات الأعمال المشهورة للبحث ، إلى خمسين من الاقتصاديين البارزين فى العالم أن يبدوا الرأى بصدد أهم مشكلة اقتصادية سوف تواجه الولايات المتحدة فى السنوات الخمس والعشرين القادمة ، فإن أحداً منهم لم يشر بوقف النمو .

إلا أن هذا لا يجيب تماماً على اعتقاد الدكتور هانسن الثانى والأهم وهو أنه لن يعود فى الإمكان فى ظل البيئة المتغيرة فى منتصف القرن العشرين الاعتماد على المشروع الخاص وحده كآلة النمو ، إذ فى وسط هذا الشعور العام من التفاؤل بشأن إمكانيات النمو فإن ما كان موضع الإغفال غالباً هو الدرجة التى اعتمد بها نمونا الاقتصادى الفعلى على نواة من الإنفاق على الأسلحة . فالزيادة الهائلة فى هذا الإنفاق أثناء الحرب العالمية الثانية أولا ، ثم الزيادة الثانوية خلال الحرب الكورية ثانياً ، وبعد ذلك استمرار حالات التيقظ فى الحرب الباردة — نقول إن هذه كلها أضافت على التعاقب قوة اقتصادية هائلة تدفع الاقتصاد قدماً . واليوم نجد أن مطالبنا الدفاعية تمثل بصورة مباشرة عشرة فى المائة من إنتاج الشعب كما تخلق بطريق غير مباشر أجوراً وأرباحاً تكفى لعيش نسبة أكبر من هذه من أفراد الشعب .

فهل معنى أنه فى حالة عدم وجود قطاع الدفاع — أى لو تحقق مثلا نزع السلاح فى العالم بصورة فعالة — يتوقف نمونا ؟ إن الذين يرون هذا الرأى قليلون إزاء الزيادة التى تطرأ على عدد السكان والتقدم التكنولوجى الهائل ، بل الأحرى أن معظم الاقتصاديين سوف يؤكدون أن إزالة تلك النواة الممثلة

فى نفقاتنا العسكرية الهائلة يجعلنا أكثر استعداداً للتأثر ، بالتقلبات العادية فى مشروع العمل — وهى تقلبات تميل إلى الوقوع حتى فى أفضل الظروف .

لقد تعرضنا الآن إلى تقلبات معتدلة قليلة فى العقدين الخامس والسادس ، وكان أحدها من الشدة بحيث أدى إلى ارتفاع عدد العاطلين بأكثر من ثلاثة ملايين . إن الخطر من إجراء خفض فى مصروفات الدفاع هو أن اتجاهاً نزولياً فى الأعمال قد يجذب معه الاقتصاد إلى كساد خطير نوعاً . فإذا كان من سوء حظنا مثلا أن ندخل فى « دورة جرد » مصحوبة ببطء مؤقت فى الإسكان والتوسع فى المصانع والمعدات فقد تشهد ابتداء موقف يكمن فيه الخطر .

إلا أن هذا كله لا يتعدى النطاق النظرى ، فقد نتناقش إلى ما لا نهاية بشأن ما يحدث لو توقف الإنفاق الحكومى . والذى يجعل للنقاش أهمية هو أننا لا نجرؤ على كشف الحقيقة . إن أى حزب سياسى يرفض كل استثمار حكومى ويعتمد اعتماداً كلياً على الاستثمار الخاص للمحافظة على رخاء الشعب سوف يخاطر بأن يلقى عليه اللوم إذا وقع كساد — أى إذا انهار رواج الأعمال — ولن يجرؤ حزب سياسى على المخاطرة بشىء من هذا القبيل .

ومن هنا فالاحتمال كله أننا لن نعرف أبداً الجواب على المشكلة التى واجهت الدكتور هانسن . لن نعرف أبداً ، ما إذا كان فى وسع المشروع الخاص بمفرده أن يجد السبل لتوفير التريليونات من الدولارات للاستثمار والتى نحتاج إليها للإبقاء على نمونا فى مستوى عال خلال السنوات الخمس وعشرين أو الأربعين القادمة . إن الاحتمالات تشير إلى سيل متدفق دائماً من الاستثمار العام ليكون إجراء تأمينياً تستطيع أن تعتمد عليه الصناعة الخاصة .

وهل يمكن أن ننمو فى مثل هذا الجو من الاستثمار المختلط الذى يجمع بين المال الخاص والعام ؟ إن الرواج الناجم من التسليح دليل قوى على أننا نستطيع تحقيق النمو ، ذلك أن وجود تيار نحتى قوى من الاستثمار الحكومى يقلل من

استعداد التوسع الخاص للتعرض إلى الخطر ، إذ توقع أفضل النتائج أسهل حين تعرف أن أسوأ الأمور لا يمكن أن تقع . حقيقة لا يزال عالم الأعمال ينظر إلى النشاط الاقتصادى الكثير من جانب الحكومة نظرة تنطوى على الضيق ، ولا يزال الكثيرون من ذوى النزعات السياسية المحافظة يعتبرون الإنفاق الحكومى علاجاً أسوأ من المرض . ولكن جميع الأعمال ترحب ببعض من الاستثمار الحكومى . كما ترحب جميع الأحزاب ببعض الإنفاق العام ، إذ لم يعد الجدل ينصب على الاستثمار أو عدمه وإنما ينصب على مقداره والأغراض المتوخاة منه . ففى حالة انتفاء الدفاع قد لا يكون من السهل إيجاد مشروعات حكومية كبيرة بالدرجة التى لا تنافس بها المشروع الخاص ، ولكن لا ينبغى أن يستوقفنا ذلك الآن . فسواء كان الإنفاق على الصواريخ أو أبحاث الفضاء أو لإنشاء بديل عن الطرق والسدود القديمة أو القيام بمشروعات جديدة مثل تقديم المعونة إلى البلاد المتخلفة ، فإن تدعيم الحكومة للنمو الاقتصادى بصورة نشيطة حقيقة سياسية بالفعل .

ولكن الغريب فى الأمر أن الجواب على مشكلة الدكتور هانسن يعود بنا وجهاً لوجه أمام مشكلة الدكتور هايك ، لأنه إذا قدر لتوسعنا فى المستقبل أن يحدث فى بيئة تشترك فيها الحكومة ففى هذه الحالة سوف يلعب التخطيط دوراً أكثر أهمية بكثير فى اقتصادنا . فهل فى ذلك نذير بأننا نسير فى الطريق إلى العبودية ؟ هل يجب أن ينتهى التخطيط بالسؤال الذى وجهه لينين : من ولمن ؟

يمكن أن يكون الأمر كذلك . فحين يتولى بلد فى محنة ، التخطيط ، كما هو الحال مثلا فى بلد متخلف يتعجل فى يأس تحقيق التصنيع ، ففى هذه الحالة يكاد حتما أن يعتدى التخطيط على المجالات الأولية للحرية الاقتصادية فأنت لا تستطيع أن تخطط من أجل البقاء دون تخصيص الرجال للأعمال وتخصيص المواد للمنتجين ، ومن المشكوك فيه أن يكون فى الإمكان اجراء

مثل هذا التخصيص مع الاحتفاظ فى الوقت نفسه بنظام السوق الحرة .

ولكن ليس كل التخطيط تخطيطاً من أجل البقاء . ففى بلد مثل الولايات المتحدة لن يكون الغرض من التخطيط تحديد التوزيع بسبب الندرة . وإنما ضمان تحقيق الوفرة ، وفى مثل هذا الوضع يقل السبب الذى يجعلنا نتوقع اندفاعاً نحو التخطيط . إنها ليست مسألة عدم اكتراث بالبلد المتخلف إذا أخفقت خططه الاقتصادية فى تحقيق التوقعات ، ولكنها مسألة المعد الحاوية فى الشعب كله . ولكن الأمر ليس كذلك فى اقتصاد غنى ، فالغرض الأساسى من التخطيط فى جماعة غنية هو ضمان قدر من النشاط الاقتصادى يكفى لمنع وقوع كساد . فإذا استبعدنا الاعتبارات الخاصة بالدفاع فإن مثل هذه الأعمال التخطيطية ليست مسألة حياة وموت . لنفرض مثلا أن الحكومة ينبغى أن تتولى تنفيذ برنامج لإنشاء الطرق العامة . فإذا لم تنفذ مثل هذه الخطة وفقاً للجدول الزمنى المعد لها فليس من الضرورى الاستيلاء على مصانع الأسمنت كلها ، لأن الطرق — بخلاف مصروفات الشعب المتخلف — يمكن أن تنتظر . فالذى يجعل فرقاً بين الحالتين هو عدم وجود الحاجة الملحة . فالتخطيط فى شعب غنى يمكن أن يتسم بمرونة لا يمكن توافرها أبداً حين يكون كل مشروع على أكبر جانب من الأهمية القومية .

وبالرغم من هذا فإن هناك تحذيراً أخيراً . فالتخطيط على هيئة الإنفاق الحكومى لا يستدعى أن يكون عملية تغذى نفسها بنفسها فى مجتمع من الثراء ، ولكننا لا نستطيع أن نستبعد إمكانية النمو التجميعى للتخطيط على صورة شبكة من القيود على أسواقنا التى تأخذ الشركات الضخمة فى السيطرة عليها باطراد . فإذا لم نجد طريقة لمنع هذه التجمعات الهائلة للقوة فى السوق من أن تفرض إراداتها على المجتمع ، سواء بوصفها منتجة للسلع أو هيئات توفر اليد العاملة فسوف يتعين على الحكومة أن تنشىء جهازاً للتخطيط قد يزداد فى الحقيقة حجماً وشدة . ما من اقتصادى استطاع حتى اليوم أن يصف علاجاً يفرض عودة التفاعل القديم بالسوق إلى دوره التقليدى . هناك على الأقل اقتصادى

له احترامه بشكل بارز وهو بن لويس Ben Louis كتب معلقاً على انحطاط شأن السوق التى تنظم نفسها بنفسها فقال فى صراحة عما سوف يحدث «سوف تشهد السنوات القادمة زيادة كبيرة فى القيود الحكومية والمشروعات الحكومية الواعية والجماعية . . فالاعتقاد بأن القوة العظيمة على الاقتصاد لا يجب أن تكمن فى غير حكومة من الشعب إعتقاد سوف يستمر التعلق به فى ثبات ووضوح وبقوة» .

من الصعب القول بما إذا كان مثل هذا التخطيط سبيلاً إلى العبودية أولاً ، إذ يتوقف الكثير على ميول المرء السياسية أى على ما دعاه مالثس «الهوى الذى لا نحس له والمنبعث عن الموقف والمصلحة» . وربما يكون العامل الجوهرى فى النهاية — كما أوحى كينز — التحفظات الأخلاقية التى تساور القائمين بالتخطيط (بل أننا لنذكر أنه كان يأمل ألا يوافق هؤلاء بصورة غامضة على التخطيط) . مثل هذه الآمال الأخلاقية قد تكون هزيلة وضعيفة فى اقتصاد يسوده العوز والضجر . أما أن تكون آمالا معقولة فى اقتصاد من الرفاهية المتزايدة فهذا ما لا سبيل إلى معرفته . فيكاد من المؤكد أن يشهد المستقبل زيادة فى أهمية التخطيط لدعم وتوجيه نمونا من جهة وللإشراف من جهة أخرى على تلك الوحدات الإنتاجية الضخمة فى الاقتصاد والتى تسير بصورة متزايدة فى طريق الاستقلال . ربما أهم مشكلة تواجه المجتمع الاقتصادى الذى نعيش فيه هى إذا كنا سنجد بعد خمسين عاماً نسيج اقتصادنا متفقاً مع النذر التى طلع بها الدكتور هايك أو الإمكانية التى تصورها كينز . وليس من غير مغزى أن النتيجة سوف تتوقف على عملية التطور الاقتصادى وحده كما تتوقف على العوامل الأخلاقية .

وهكذا تصل المشكلات دون أن تحل حلا كاملا . فالضعف الذى انتاب جهاز المنافسة التقليدى أمام قوة ذلك العدد القليل من مشروعات الأعمال البالغة الضخامة ، واستخدام الإنفاق الحكومى بصورة دائمة على ما يبدو

كوسيلة لضمان النمو والمشكلات الجديدة المترتبة على التخطيط — هذه كلها لا تزال فى منتصف الطريق ، فإذا كانت لم تتحقق المخاوف التى ساورت الاقتصاديين والمراقبين الاجتماعيين ممن كانوا أول من اكتشف هذه الاتجاهات ، فإن الاتجاهات ذاتها واضحة جداً . وللتعبير عن الأمر على نحو مختلف نقول إن بنيان الرأسمالية الاقتصادى قد تطور طبقاً للتنبؤات بشأنه ولكن النتائج الاجتماعية لهذه التغييرات التى طرأت على بنيان الرأسمالية ليست واضحة تماماً بعد .

هل معنى هذا أن الرأسمالية ذاتها موضع التجربة إن صح القول ؟

ذلك سؤال يجب إرجاؤه إلى الفصل الأخير من كتابنا إذ لا يزال هناك صوت يتعين الاستماع إليه . إنه صوت أكثر ميلا فى عطف إلى الرأسمالية من أى من الأصوات التى استمعنا إليها فى هذا الفصل . ومن الغريب إذن أن هذا الصوت سوف يجعلنا أكثر من غيره من النقاد ، نفكر فى المستقبل .

الفصل الحادي عشر

وراء الثورة الاقتصادية

كان الصوت صوت جوزيف شومبيتر .

إن أحداً لم يستطع أبداً أن يفهم هذا الرجل الصغير الحجم ، ذا البشرة الداكنة ، الأرستقراطي المظهر ، والذي يميل إلى النثر الدرامي والحركات المسرحية . ولقد تحدث في أواخر حياته فقال إن رغبات ثلاثاً كانت تجيش دائماً في صدره ، وهي أن يكون عاشقاً ولهاناً ، وفارساً بارعاً . واقتصادياً عظيما ، ثم أكد أن اثنتين من هذه الرغبات كان نصيبهما التحقيق .

كان الجميع يتفقون على أنه رجل بارع ، ومحير . وكان طلابه في جامعة هارفارد يشكون من أن من المستحيل أبداً التنبؤ بما سوف يفعله ، وكانوا على حق تماماً ، ففي السابعة والعشرين من عمره ، أي في تلك السن الغضة ، وقد قال عنه مدرسه إنه لم يكن أبداً مبتدئاً ، فاجأ العالم الاقتصادي بتفسير لعملية النمو الاقتصادي ، يعتبر خروجاً عن الأسلوب المألوف في البحث . وفي سن الثلاثين اكتسب مجداً جديداً حين أصدر تاريخاً رائعاً للمذاهب الاقتصادية . ولكن الطلاب الذين كانوا يحضرون محاضراته في أواخر الثلاثينات كانوا يشعرون بصدمة بصورة منتظمة حين يستمعون إلى هذا الرجل الذي يشرح النمو الرأسمالي ، يصرح في غبطة ظاهرة بأن حالات الكساد ليست شراً اجتماعياً خالصاً ولكنها بالفعل نوع من « دش طيب من الماء البارد » لإنعاش النظام الاقتصادي .

وزادت شهرته مع السنين — كما زاد ما سببه للناس من الحيرة . ولقد

أعقب الكتب التى أصدرها فى المراحل الأولى من حياته ، كتاب ضخم عن الدورات الاقتصادية ، ثم أصدر فى عام ١٩٤٢ وقبل موته بسنوات قلائل كتاباً من أشد ما كتب عن الرأسمالية إثارة للجدل ، ذلك هو « الرأسمالية ، الاشتراكية والديموقراطية » . ولكن ظل يتعين على طلابه أن يوفقوا بين نظرته المحافظة الباعثة على أشد اليأس . وبين الإعجاب الذى كان يكنه فى الوقت نفسه للاقتصاد الماركسى ، أى أنه كان ناقداً ساخراً لنقاد الرأسمالية وفى الوقت نفسه من أقسى الذين انتقدوها . كان يهزأ ممن تساورهم الهواجس إذا شاهدوا أية دلالة على المتاعب فى الاقتصاد، وفى الوقت نفسه كان يشخص المرض الذى أصابها فأضعف صحتها .

والذى يبعث على أشد الضيق أن شومبيتر كتب بإعجاب عما دعاه « الرأسمالية التى يمكن تدبيرها » أى الرأسمالية التى تحقق هدف كينز وهو الاكتفاء الشامل . كان يتفق مع إخوانه الاقتصاديين على أنه ليس ثمة سبب اقتصادى بحت يحول دون أن تتاح للرأسمالية فترة حياة أخرى ناجحة ، وهو لم يهزأ بالحجج التى كان يدلى بها فى معرض الدفاع عن الرأسمالية كما لم يثر مشكلات اقتصادية جديدة أغفلها النقاد . بل أنه تطرف إلى حد التنبؤ بأن هذا النظام سوف يستمر لمدة خمسين عاماً أو مائة عام أخرى .

ومع ذلك وبطريقته القاطعة سجل رأيه النهائى فى المستقبل بقوله « هل يمكن للرأسمالية أن تعيش ؟ كلا ، فلست أظن أنها قادرة على هذا » .

لو أنه كان مدفوعاً بالعاطفة وحدها لما كتب مثل هذه الجملة أبداً ، فقد كان شومبيتر من أعظم الاقتصاديين رومانسية وكانت الرأسمالية فى نظره تملك كل البهاء والإثارة اللذين تتصف بهما المبارزات التى كان يقيمها فرسان العصور الوسطى للتسلية . ولكن هذه هى المشكلة . فمبارزة التسلية كانت تتطلب إعداداً مثيراً تماماً وفى ظل ذلك الجو الصاخب الواقعى الذى خلقه النشاط الاقتصادى نفسه لم يكن فى إمكان الروح الرأسمالية الرائدة القديمة أن تعيش .

فالرأسمالية فى نظر شومبيتر استطاعت أن تحتفظ بقوة اندفاعها التقدمى طالما تصرف الرأسماليون كالفرسان أو على الأقل الرواد . لم يكونوا جميعاً من هذا الطراز بطبيعة الحال إذ مقابل كل منظم جرىء كان هناك عدد من الأتباع الجبناء ، ولكن الدافع الذى يحرك النظام كان مصدره أهل الشجاعة ممن خاطروا بثرواتهم لدعم أفكار جديدة أو أوتوا الجرأة على استحداث الجديد واجراء التجارب وتوسيع نطاق عملياتهم . ذلك الطراز آخذ فى التناقص . وأسوأ من هذا فالحضارة التى خلقها كانت تعمل على تحطيمه . إذ بالرغم من جرأة الرأسمالى كانت حضارته قائمة أساساً على اتجاه يتمشى مع مقتضيات العقل ، يميل إلى البحث ، والاستقصاء ، وتسوده نزعة الشك . تلك النزعة العقلية حطمت فى الأصل دعاوى الملوك واللوردات ، ولكنها الآن حولت نظرتها الباردة المربكة إلى نفسها . لقد قال المثقفون « ليس المال بكل شىء » وإذ فعلوا ذلك غرسوا بذور الشك بشأن قيم كسب المال بوصفه غاية فى حد ذاته . وقال المثقفون « إن الملكية الخاصة ليست أكثر قدسية من حق الملوك المقدس » . وإذ فعلوا ذلك أوضحوا أن الأساس الذى يقوم عليه الامتياز فى مجتمع الأعمال ليس أكثر ضرورة أو أقل قابلية للعدوان عليه من الامتيازات التى كانت قائمة فى المجتمع الإقطاعى . وهكذا نجد أن المثل الرومانسية والأيديولوجية المقدسة التى اعتنقها مشروع العمل تعرضت لضوء البحث العقلى الشديد ، وكانت النتيجة أن القيم التى سار عليها مشروع العمل فقدت بهاءها الجذاب . إنك لا تستطيع أن تقيم مبارزة للتسلية إذا كان المشاهدون يعتبرون العملية كلها مدعاة إلى السخرية ، بل أن أشد الفرسان غيرة سوف يفقد حماسه إذا لم يصفق أحد لنجاحه .

ولكن الرأسمالية لم تكن تسير فى طريق السقوط بسبب ما تعرضت له من هجوم شنه المثقفون من أبنائها ، وإنما كانت تعانى الانحلال لأسباب كامنة فيها . ففارس الأعمال القديم الذى سبق أن اتصف بالجرأة والروح الاستقلالية وربما بالخلو من وازع الضمير وإن كان نشيطاً بالرغم من ذلك — هذا الفارس

أخذ تحل محله شخصية خالية تماماً من روح الفروسية وتبدو فى رداء لا رونق له . كان سادة الأعمال الجدد هم « المديرون » أى « الملاك » الذين فقدوا طابعهم الإنسانى أو البيروقراطيون فى إدارة المشروعات . وذلك هو التأثير الحقيقى الناجم عن تضخم حجم المشروعات وليس التهديد الذى كان يفترض أنها توجهه إلى المنافسة . كان معنى المشروع الكبير هو المشروع ذو النزعة المحافظة من حيث الجرأة الاقتصادية وليس بالضرورة من السياسات أو الأفكار الاجتماعية . إذ لمَّا تحول الرأسمالى إلى شخص يتولى الإدارة لم يعد يهتم بالرأسمالية بصفتها هذه ، وإنما أصبح يحرص على دخله الكبير المنتظم وضمان مركزه فى المجتمع ونسى أيام المخاطرة والسعى وراء الثروة التى لا حدود لها .

وهكذا سوف تصبح الرأسمالية فى النهاية طرازاً عتيقاً . لن تعود كلمة ذات معنى أو فكرة يمكن أن تدفع الناس إلى العمل أو تجمع الأنصار فى أزمة تتعرض لها . وبمرور الوقت سوف تختفى أمام زحف الاشتراكية ولن يكون اختفاؤها مصحوباً بالضجيج أو العويل . سوف تنزوى الرأسمالية وهى تهز الأكتاف فى استسلام .

أية نظرية غريبة هذه . .

ليس فى الإمكان إثباتها أو تفنيدها لسبب بسيط وهو أنها غير ذات علاقة بقوانين الاقتصاد . لسنا نعرف إذا كانت هناك قوانين للنمو الاقتصادى أو التطور الأيديولوجى ، وعلى أية حال إذا كان تقدير شومبيتر صحيحاً بشأن ما بقى فى النظام من حيوية فسوف يكون أبناؤنا أو أحفادنا هم القادرون على تقييم صحة تشخيصه .

وسواء كان شومبيتر مصيباً أو مخطئاً فإن لأفكاره أهمية بالنسبة إلينا لسبب آخر إذ هنا أول اقتصادى كبير يسير بتحليله الاقتصادى للرأسمالية إلى نتيجته النهائية الباعثة على التفاؤل ، ثم يغض النظر عن نتيجة تفكيره الاقتصادى ويصدر حكم الفناء على النظام لسبب غير اقتصادى . فلأول مرة

يقول اقتصادى إن النمو الاقتصادى بذاته لا يحدد فى نهاية الأمر عملية صنع التاريخ التى ستقرر مصير الرأسمالية . فإذا كان شومبيتر على حق فإن فصلا بأكمله فى التاريخ الاقتصادى يدنو من نهايته .

حين تابعنا هذا الفصل سائرين فى ذلك الطريق القصير والنشيط فى عنف والذى بدأ منذ مائتى سنة خلت فإن الذى يثير دهشتنا تنوع العوالم التى صاغ فيها الاقتصاديون العالم الحقيقى نفسه . ولكن وراء هذا التنوع خيطاً مشتركاً ، خيطاً من الاستمرار ينبغى لنا الآن أن نتوقف حتى نتبينه وهذا الخط هو : إذا كان فى الإمكان أن نستكشف طبيعة القوى الاقتصادية فى العالم أصبح فى الوسع التنبؤ بالمستقبل .

لم يكن معنى ذلك أن السياسات أو الأفكار لم تكن ذات أهمية ، أو أن الاقتصاديين لم يروا أن قوة السيف والقلم كانت تلعب دوراً أساسياً عند كل أزمة نشأت فى التاريخ ، ولكن معناه أن قوة المال كانت أكثر أهمية . قد يشتبك الملوك فى حرب مع البرلمانات ، وتشن البرلمانات الحروب ، وقد يقدم رؤساء الدول على أشياء حكيمة أو حمقاء ، إلا أن النظام الاقتصادى بالمجتمع كان يلعب فى الوقت نفسه دوره الذى بلغ حداً من التعقيد لا يقبل التصديق ، وذلك فى سبيل التوسع الذاتى ، وكانت الطريقة التى يؤدى بها هذا الدور هى التى تحدد اتجاه المستقبل .

وكانت بالفعل تحدده بوسع ما تدل عليه العبارة من معنى . فقبل أن تظهر الرأسمالية إلى عالم الوجود كانت الثروة تعقب القوة ، وكانت القوة من ملحقات المركز الاجتماعى أو الكنسى أو السياسى . وفى مثل هذا الجو كان المستقبل يتوقف على القرارات — بل والأهواء — التى تصدر عن قلة من الأفراد ، وكان التاريخ يقرب من أن يستوى مع المغامرة .

فلما حدثت الثورة الاقتصادية تغير النظام القديم ، فأصبحت القوة الآن تعقب الثروة وكانت الثروة من نصيب الرابحين فى لعبة السوق . ومن هنا حين

سعى الاقتصاديون إلى التنبؤ بما سوف يحدث حين يصطدم كثير من الناس فى ساحة السوق ، وكل منهم يسعى إلى توسيع نطاق حظه الدنيوى ، فإنهم فى الواقع كانوا يتنبأون بالخطوط العريضة لمستقبل المجتمع . سوف يظل الأفراد يرتفعون فوق مستوى الجماهير ليفرضوا إرادتهم على الغير ، ولكن من ناحية المجتمع بصورته الكلية كانت عملية كسب المال هى التى تهىء له الدافع وتبعث فيه الحركة وتحدد الاتجاه الذى يسير فيه . فالدورات الاقتصادية لم تكن وليدة قرار يتخذه إنسان ولكنها فورة من فورات السوق ، ولم يكن الغنى والفقر ليعتمدان على هوى ملك ، ولكنهما ينشئان ويتقلبان ويختفيان طبقاً لأحكام السوق . أصبح التاريخ ، بدرجة أعظم مما كان عليه الحال من قبل ، عملية آلية ، وأصبح القالب الذى يضم المستقبل يشكله نضال لا إسم له ، ويمكن التنبؤ به وشبيهاً باللعبه .

واختلفت التنبوءات إذ كانت تضع تأكيدات مختلفة على نواح مختلفة من اللعبة . فعند آدم سميث كان تجميع رأس المال هو المظهر الحاسم من عالم السوق ، بينما كان ذلك المظهر فى نظر مالثس وريكاردو هو نمو السكان . وأكد ماركس الصراع بين العامل والرأسمالى بينما فبلن أكد الصراع بين الفنى والمالى ، وأشار هوبسن إلى الحاجة إلى تصدير مقادير هائلة من رأس المال للأسواق القائمة فيما وراء البحار .

إن خيطاً اقتصادياً واحداً لم يمتد ليشمل ذلك الفصل كله من تاريخ المجتمع الرأسمالى ، ولكن كل خيط كان يهىء بالفعل ولفترة مؤقتة الدافع الذى يحرك المستقبل . كان المجتمع ينمو بالفعل وكان يهدده طوفان السكان ، وكان يشهد فعلا صراعاً طبقياً وصراعاً بين المالية والإنتاج واندفاعاً فى سبيل التوسع الاستعمارى . والحق ، إذا كان الاقتصاديون فى العصر الفكتورى والكتاب المتاليون قد أخفقوا فى أن يسهموا بشىء له مغزاه فى فهم المستقبل الذى كان كل فريق منهم يتوقعه فالسبب فى هذا الإخفاق أنهم عجزوا عن رؤية ضرورة مفعول القوى الاقتصادية .

ولكن بينما ظل المجتمع مشبكاً طيلة الوقت فى لعبته الاقتصادية التى ليس لها سوى غرض واحد ، فإن هدفاً آخر يتعارض معه كان قائماً . علينا ألا ننسى أن الرأسمالية هى المجتمع الوحيد فى التاريخ الإنسانى والذى لا تشرف فيه التقاليد أو التوجيهات الواعية على مجهود الجماعة الكلى . إنها المجتمع الوحيد الذى نجد فيه المستقبل أى حاجيات الغد قد تركت كلية فى أيدى نظام آلى . لهذا لا نعجب إلا قليلا إذا بدأ الركاب يشعرون بالقلق بمجرد أن بدأت السفينة فى السير . قد تؤدى سفينة بغير ربان ، عملها على نحو طيب جداً — أو على الأقل هذا ما وعد به الذين قاموا بتصميمها ، ولكن لنفرض أنها لم تسر على هذا النحو ؟ ولنفرض مثلا أن نتائجها الاجتماعية ليست بهيجة كما هو الحال بالنسبة إلى نتائجها الاقتصادية ، أو لنفرض أن النتائج الاقتصادية لم تكن باعثة على رضاء البعض بالقياس إلى غيرهم ؟ فماذا يحدث إذن ؟

لم يحدث شىء فى أول الأمر . ففى وسع آدم سميث أن يسخر من أولئك الذين كانوا يأملون تحسين المجتمع عن طريق « عمل الخير » إذ كان يعتقد اعتقاداً جازماً أن الرفاهية يمكن تحقيقها على أفضل وجه بوصفها منتجاً ثانوياً من منتجات النشاط الاقتصادى . اما الفكرة التى ترى أن الدوافع غير الاقتصادية ينبغى أن يسمح لها بالتدخل فى جهاز السوق أو ربما قلبه رأساً على عقب — نقول إن هذه الفكرة كانت تبدو فى نظر مالثس وريكاردو إنحرافاً متعمداً فى أسلوب حياة سليم بصورة ظاهرة .

وبدأ التغيير على أيدى جون ستيوارت مل و لكتاب الخياليين . فحين أوضح مل أن الاقتصاد ليس لديه حل نهائى لمشكلة التوزيع وأن فى وسع المجتمع أن يتصرف فى ثمار كده على الوجه الذى يراه مناسباً ، فإنه بذلك أدخل فى تقدير السوق الآلى تقديراً يتعارض معه ويقوم على أحكام أخلاقية .

ولم يكن ذلك حكماً أخلاقياً فحسب بالمعنى الذى يستحق الثناء ، وإنما كان أخلاقياً بوصفه اعتباراً معارضاً للحكم الآلى أى أنه تأكيد القرار الواعى

المستقل الذى يتخذ بشأن الغايات التى نرغب فى تحقيقها من وراء العملية الاقتصادية ، وليس بالاستكانة السلبية لغايات تظهر حين لا نفعل شيئاً . إن الغايات التى نرغب فيها قد لا تكون موضع إدراكنا بالقياس إلى الغايات التى تنشأ من مفعول السوق الذى لا يقوم فى وجهه أى عائق — ولكن ذلك يتوقف بطبيعة الحال على ما إذا كان الشخص الذى يحكم على تغيير يقع بأنه « معقول » شخصاً يكسب أو يخسر بسبب النتيجة التى يسفر عنها هذا التغيير .

ولكن بمجرد أن تتحرك عملية التدخل فى عملية السوق فإنها لن تتوقف . فالنتيجة الطبيعية المترتبة على الصراع الاجتماعى كانت تقام فى وجهها العقبات أو توجه إلى مسالك معينة ، أو تلقى التشجيع ، أو يحال دون تحقيقها ، فى كل تحول — وإن من الأسباب مثلا التى من أجلها لم تتحقق أبداً تنبوءات ماركس الجامدة ، أننا تدخلنا فى اللعبة حين بدا أنها قد تؤدى إلى النهاية السيئة المتوقعة إذا لم تتدخل . فقيدنا الاحتكارات وحاربنا « الشركات الموحدة » وشجعنا نقابات العمال ، ونظمنا المنافسة واتخذنا مئات التدابير التى تجعل اللعبة الاقتصادية تسفر عن النتائج التى نتوخاها منها وليس النتيجة التى تولدها هذه اللعبة بصورة طبيعية .

ليس معنى هذا أن الدوافع الاقتصادية قد ماتت ، إذ ليس أبعد من هذا الظن عن الواقع . فبالرغم من الاتجاهات إلى سيطرة عدد قليل من المشروعات الضخمة ، وإذا كان مبدأ الشراء بثمن رخيص والبيع بثمن غال لا ينظم اقتصادنا غير الموجه بخلاف هذه الطريقة فينبغى أن نواجه فى الغد فوضى تسود السوق . وإذا كان الدافع على جمع الثروة ما زال لا يحمل الناس على الانتقال من عمل إلى آخر ، وتغيير الاتجاه الذى يسير فيه نشاطهم ، وتوسيع نطاق عملياتهم أو الحد منها — نقول إنه فى هذه الحالات سوف نجد أنفسنا أمام اقتصاد بطىء خامد لا يتغير ، بدلا من اقتصاد نشيط ، مرن وقادر على الحركة . إن الدافع الاقتصادى لا يزال موجوداً ولا تزال له أهمية حيوية .

وبذلك لا تزال تبدو فى المجتمع اتجاهات اقتصادية بحتة . والحقيقة أن تنبؤات الاقتصاديين الحديثين ليست إلا إبرازاً للنتائج المترتبة على الخواص الاقتصادية البحتة التى يتميز بها مجتمع السوق الذى نعيش فيه . ولكن المجتمع لم يعد يطيع دافعه الاقتصادى وحده ، فكون الاتجاهات والمشكلات التى تضمنها الفصل الماضى ليست حاسمة ، دليل على وجود قوى أخرى خلاف تلك القوى الآلية غير الشخصية . إن المسائل التى نواجهها فى المستقبل ليست بالمسائل الاقتصادية البحتة التى تتعلق بما إذا كانت الشركات سوف تزداد حجماً بصورة طبيعية أو أننا سوف نقاسى من الدورات الاقتصادية ، ولكنها المسائل الأخلاقية بشأن ما إذا كنا سنسمح للشركات بالنمو بغير قيد أو ما إذا كنا سنسمح للدورات الاقتصادية أن تصل إلى غايتها النهائية فى حرية غير مقيدة . إن التخطيط الحكومى والاستثمار العام ، والسياسة المعادية للاحتكار — هذه جميعاً هى الأدوات التى يستخدمها الشعور الأخلاقى الذى يخالف الدافع الاقتصادى .

وبقدر ما يصدق هذا ، وبالقدر الذى لا نعود معه نسمح للعبة الاقتصاد أن تسير بغير عائق نحو نتيجتها الطبيعية ، فإننا نتجاوز الثورة الاقتصادية . فبعد انقضاء قرنين سارت خلالهما سفينتنا كما وجهتها الرياح تقريباً ، فإن توجيه المجتمع أصبح فى قبضتنا من جديد . لقد أخذنا على عاتقنا أكثر فأكثر مسئولية اختيار الهدف الذى نتجه إليه بكل ما يأتى به السير نحوه من أخطار لا مفر منها فضلا عن فرص للتقدم . إننا نخلف وراءنا عالماً شكلت فيه مستقبلنا ، على الأقل من ناحية خطوطه العريضة ، ضغوط العمل الاقتصادى وإنا لسائرون نحو عالم سوف تلعب فيه القوى الاقتصادية دوراً هاماً ولكن لن يعود الدور الذى له الغلبة .

أما عن العوامل الجديدة التى سوف تؤثر علينا فى ذلك المستقبل فذلك ما لا نعرفه تماماً . فلسنا نعيش بالتأكيد فى ظل اقتصاد موجه تماماً وبذلك يمكن

بكل تأكيد أن نواجه الكثير من المشكلات الاقتصادية القديمة كالرواج والكساد ، والصراع بين الاحتكار والمنافسة ، والخلاف الذى لا ينتهى حول توزيع الكعكة الاقتصادية . قد يكتم صوت المشكلات فى انبيئة الجديدة ولكنها سوف تظل موجودة نحاول حلها . وربما تواجهنا مشكلات دقيقة كالتى أثارها جوزيف شومبيتر – أى تغير بطىء ولكنه نفاذ فى جو الرأسمالية وموقفها من الملكية الخاصة . يجب أن نعمل حساباً لأمثال هذه الإمكانيات ولكنا لا نستطيع أن نعرفها مقدماً .

ولكنا سنواجه بالتأكيد مشكلتين كبيرتين ، وسوف تكون أهميتهما بالنسبة إلى بقائنا كبلد يسير وفق نظام الاقتصاد الحر ، أعظم من جميع الضغوط الاقتصادية القديمة أو أى من الضغوط الأيديولوجية الجديدة .

فأولا يجب أن نواجه المشكلة السياسية المتعلقة بالعزلة .

إن هناك حقيقة مغلقة يجب أن نأخذها فى الحسبان وهى أن معظم الجنس البشرى لم يكن له اتصال بالرأسمالية بأى حال من الأحوال ، وليس له أى اتصال الآن ويحتمل تماماً ألا يكون له اتصال بها أبداً . فالرأسمالية ليست النظام الذى يسود نشاطات الإنسان الاقتصادية ، بل أنها على النقيض من هذا شىء نادر وتكاد أن تكون طرازاً فريداً من الندرة .

إن الدراما الصاخبة كلها التى تابعناها فى هذه الصفحات كانت مقصورة على قسم صغير من سطح الأرض وخلال هذه السنوات المائتين ، وبالنسبة إلى ملايين لا حصر لها من الصينيين والهنود والعرب والأفريقيين أو عمال أمريكا الجنوبية فإن فكرة اقتصاد مرن وديناميكى فيه تظهر المنتجات الجديدة وتختفى ويرتبط فيه الناس بعضهم ببعض بفعل سلسلة كبيرة من العمليات – هذه الفكرة لم تكن أبداً إلا طرفة على هامش حياتهم – غريبة ، قاسية ومقلقة وغالباً ما كانت استغلالية .

ولا يزال ذلك صحيحاً اليوم . ولكن بينما كان من الجائز الظن منذ قرن

مضى بأن العالم السابق على النظام الرأسمالى سوف يتحول إلى الرأسمالية فإن هذا التحول أصبح اليوم أملا ضائعاً بالنسبة إلى بليون من البشر ، فربما يعيش خمسا العالم فى ظل أنظمة أدارت ظهرها للرأسمالية وحتى إذا أخفقت تلك النظم وسقطت فمن المشكوك فيه إلى درجة بالغة أن يتحول رعاياها إلى نظام علموهم الاعتقاد بأنه عنيف ، قاس وشرير .

وحتى فى تلك المناطق من العالم ، مثل أمريكا الجنوبية ، والتى يستمر فيها التطور إلى الرأسمالية ، فليس من المؤكد أن الثمرة النهائية سوف تكون شبيهة بذلك النوع من العالم الذى نعرفه حين نرى تلك المفارقات من ناطحات السحاب إلى جانب الفلاحين الذين يحرثون الأرض بعصا خشبية ، ومن الطائرات إلى جانب العربات التى تجرها الثيران ، مما يضفى على أمريكا اللاتينية بهاءها وبهجتها ، فإن هذه المفارقات تذكرنا بانجلترا فى القرن السابع عشر باقتصادها السوقى الذى قطع نصف الطريق إلى التكوين . ولكن هناك فارقاً ، وفارقاً حيوياً . ففى القرن السابع عشر كانت إنجلترا تقود العالم أما فى القرن العشرين فالبلاد التى تعيش فى المرحلة السابقة على الرأسمالية تجاهد فى غضب من أجل اللحاق بنا .

ليس الفلاحون والعمال هم الذين يحاولون اللحاق بنا ، إذ غالباً ما يقاومون هذا الأسلوب الجديد من الحياة ، بل وليس الرأسمالى الذى يقدم على هذه المحاولة إذ أنه قانع بالتمتع بعزبته أو بيته الغنى بالمدنية . إن الذى يحاول اللحاق بنا هو الحكومة لأن حكومات البلاد التى لم تأخذ بأسباب الأسلوب الرأسمالى ترى مستقبلها السياسى فى التصنيع أى فى المصانع والسكك الحديدية والمناجم والأسواق القومية ومن هنا فهذه الحكومات هى التى تسوق مواطنيها غير الراغبين فى الطريق إلى التقدم .

والنتيجة خليط غريب تقوم فيه الحكومة وليس رجل الصناعة بدور الرائد ويستخدم فيه دافع الكسب الخاص كوسيلة لتحقيق أهداف عامة . وهنا

لا يزال فى إمكان الكثير من هذه الاقتصاديات أن تسير فى أى الاتجاهين . إنها تقع فى منتصف الطريق بين الرأسمالية والجماعية ، والهدف النهائى الذى تتجه إليه ليس واضحاً بالتأكيد .

وبالرغم من أن الرأسمالية الأحدث عهداً قد لا تبلغ أبداً مرحلة الرأسمالية التى اكتمل نموها ، فإن الرأسمالية القديمة بأوربا قد لا تحتفظ أبداً بتلك الصورة الكاملة النمو ، والسبب فى هذا أن الرأسمالية الأوربية نضجت فى عالم ذاب تحت أعينها نفسها . فمستعمراتها ، والتى كانت أساس ثروتها ، تحولت بين يوم وليلة إلى دول مستقلة وغالباً معادية . إن الرأسمالية الأوربية أشبه برجل كان يعيش على ريع ولا يحمل هماً ثم حرم من ميراثه فجأة . أما أن تتمكن تلك الرأسمالية التى كانت تعيش على ما تحصل عليه من ريع ، من التلاءم مع ظروفها الجديدة ودون التعرض لقدر بالغ من التغيير الاجتماعى فأمر أبعد عن أن يكون مؤكداً .

لذلك حين نتحدث عن مستقبل الرأسمالية فإننا نتحدث بوجه عام عن أنفسنا وأنفسنا وحدنا . سوف يتبعنا معظم العالم الحر فى الطريق الذى نختاره إذ قد تسير الرأسماليات الحديثة العهد والقديمة فى اتجاهنا . ولكن يجب الاعتراف بأنه بالرغم من أننا ننتج نصف بضائع العالم فإن شعبنا لا يمثل سوى ستة فى المائة من سكان العالم ، وأنه إذا ضعفت الرأسمالية الأمريكية فلن تجد من تتطلع إليه كى يساندها . إننا جزيرة من النجاح فى عالم يعضه الفقر بنابه ، وجموح ويشعر بالعداء

كل هذا كان يمكن ألا يكون سوى مسألة تستأهل الاهتمام المنبعث عن اعتبارات إنسانية لولا أن هذا العالم يضغط علينا فى عنف . فلو استطعنا أن نحتفظ بعزلة رائعة فقد نحل عقد الرأسمالية ، من اجتماعية واقتصادية ، عند ما تسنح لنا الفرص . ولكنا لا نستطيع الاحتفاظ بعزلتنا . لقد انغمسنا ، شئنا أو لم نشأ فى منافسة من أجل كسب صداقة وتأييد ملايين من الناس

يبعدون عنا آلاف الأميال وحقباً زمنية طويلة . ويتأرجحون بين ثقافتين ويعجبون أيهما تهيء لهم أفضل فرصة كي يحققوا لأنفسهم بعض مظاهر اللياقة والاحترام ..

والصعاب القائمة فى مثل هذه المنافسة هائلة . إننا ثمار مدنية فريدة بشكل ظاهر . ولكنا لسوء الحظ على غير دراية بتفردنا هذا . وهنا تكمن الصعاب الضخمة أمامنا عند ما نشرح أسلوبنا فى الحياة لشعوب تحمل كلمة « الرأسمالية » لها معانى مختلفة اختلافاً كلياً . كما أننا نواجه صعوبة فى أن نفهم السبب الذى من أجله نلقى ما يبدو فى نظرنا شكلا ناجحاً تماماً للمجتمع يثير الشكوك والمخاوف فى جزء كبير من بقية العالم .

أما أننا قادرون على تحقيق الالتقاء بين تفكيرنا وتفكير الجماهير الجموحة الجائعة ، والجاهلة والساذجة والسريعة التصديق ، فأمر ينطوى على مشكلة ولكن عليه يحتمل أن يتوقف بقاء الرأسمالية أكثر مما يتوقف على أى عامل بمفرده والسبب فى هذا أن هناك بائعاً آخر فى نفس البلاد الأجنبية ، وإذا لم تجد الرأسمالية طريقاً لعرض وجهة نظرها بشكل يبعث على الإقناع فعلينا أن نكون على يقين فى هذه الحالة من نجاح الشيوعية فى عرض وجهة نظرها .

والسبب فى هذا أنه بالرغم مما للشيوعية من دوافع خفية وأغراض منحرفة فإن عندها سلعة للتصدير لا تتوافر لدينا ، ونقصد بذلك تكنيكاً يعجل إلى درجة هائلة بمعدل النمو فى بلاد العالم التى تئن من الفقر .

هذا التكنيك هو الجماعية — وغالباً ما تكون جماعية حديدية نلقى أعنف تعبير عنها فى الكوميونات الشبيهة بالثكنات والتى أنشأها الصينيون . إن ما تفعله الجماعية وتفعله بلا نزاع على نحو أشد فعالية من اقتصاد حر أو « مختلط » — هو تعبئة الموارد المادية والبشرية فى الاقتصاد المتخلف وتوجيهها بحيث يكون لها تأثير ضخم على مشكلة تكوين رأس المال اللازم لانطلاقها « إلى مرحلة النمو الثابت الدعائم » .

ومن وجهة نظرنا تعتبر تكلفة هذه الجماعية عالية بدرجة مخيفة ، فلا يقتصر أمرها على أنها غالباً ما تستغنى بصورة تعسفية وعاجلة عن الحريات السياسية التى هى أثمن وأرق ما حقق الغرب من إنجازات ، بل أنها تنكر عن عمد الحرية الاقتصادية التى لا تقل عن هذا إنجازاً غربياً ثميناً تم الحصول عليها بصعوبة . إن الجماعة لا تنتظر أساليب السوق فى إدراك النمو وهى أساليب بطيئة وغالباً ما تنطوى على الإسراف . ولكنها ببساطة تضع الناس حيث ثمة حاجة إليهم سواء يؤهلهم أو لا يؤهلهم لذلك ما يملكون من نوازع استحواذية . إنها وسيله العصا وليست أسلوب اللين — أى طريقة القوة التى لا ترحم بدلا من الاختيار المنبعث من الرضا .

مثل هذا النظام مقيت فى نظر الغربيين ، ولكن ليس من الضرورى أن يكون كذلك فى نظر الكثيرين من أهل الشرق والجنوب . إن النظام العنيف الذى تفرضه الجماعية من الأمور التى تقل ملاحظتها إلى حد كبير فى البلاد التى يعيش أهلها على حافة الوجود حيث الحياة قاسية إلى حد مخيف وفقدان الحرية لا تكاد تعتبر خسارة فى نظر قوم لم يعرفوا الحرية أبداً . وفوق هذا كله يسفر الأسلوب الجماعى فى تحقيق النمو عن نتائج ، فقد كان الاقتصاد فى الروسيا يتقدم بنسبة سبعة ونصف فى المائة سنوياً أى ما يعادل ضعف المعدل فى الولايات المتحدة . ويزيد الإنتاج فى الصين بمعدل يزيد ثلاث أو أربع مرات على مثيلة فى الشعوب التى تماثلها كالهند أو أندونيسيا أو أفغانستان . مثل هذا الأسلوب فى تحقيق النمو مما لا يمكن أن يحتمله قوم استفادوا من تاريخ طويل من النمو الماضى ، ولكنه قد يهىء للشعوب التى تعيش الآن فى أحوال من البؤس واليأس الوسيلة الوحيدة للنجاة بسرعة من الحاضر الذى لا يطاق إلى مستقبل أفضل .

فى ظل هذا الصراع بين النظم الاقتصادية لا أهمية لما إذا كانت أغراضنا أنبل فى نهاية الأمر وأكثر إنسانية وبل وأدنى إلى تحقيق المساواة من أغراض الشيوعيين . ونظراً لأننا لا نستطيع بسهولة أن نشجع جماعية ثورية فإننا أقرب

إلى الظهور فى نظر عمال المناجم المرهقين فى بوليفيا أو الفلاحين المستأجرين ممن تثقل الديون كواهلهم فى جاوه بمظهر الذين يدافعون عن الرجعية بينما يلعب الروس دور روبين هود . وليس من الأمور الواقعية أو المستحسنة بالضرورة أن نحاول سرقة شعارات الشيوعيين ودعايتهم الصاخبة الرنانة . ولكن هذا يدع لنا تلك المهمة الأصعب والأدق بدرجة لا تقاس بشأن إقناع المحرومين فى العالم بأننا نهتم بمصيرهم ونريد مساعدة الإصلاح تماماً كالروس — وإن كانت وسائلنا وشعاراتنا أقل إثارة للعاطفة وكانت وعودنا أقل اصطباغاً بالآمال البراقة من وعودهم . وربما يترك هذا لنا مهمة أولى وهى إقناع أنفسنا بأن الأمر كذلك .

ولذلك فالمشكلة الطاغية التى تواجه الرأسمالية ليست اقتصادية على الإطلاق . إنها المشكلة السياسية المتعلقة بأن تجعل من نفسها ترسانة لا للإنتاج فحسب بل وللأمل والحرية ذات الأثر لتلك المئات المجهولة الاسم من الملايين الذين بغير هذا قد ينظرون إلينا بعين الشك والخوف . ويحملون السلاح ضدنا لو حدث أن حل اليوم الرهيب .

تلك هى المشكلة الخارجية .

وهناك مشكلة داخلية أيضاً . إذ كلما ابتعدنا بالتدريج عن فلسفة الاقتصاد المرسل laissez-faire واعتنقنا فلسفة التوجيه الفعال . فلا مفر من أن تقع على عاتقنا مشكلة المسئولية الاجتماعية . فطالما كانت لعبة الاقتصاد تجرى ممارستها بلا خوف من النتائج وفى تقبل هذه النتائج بفرح وسرور فإن موضوع المسئولية كان يشغل مكاناً خلفياً من تفكيرنا . لم يكن من مهمة مشروع العمل أن يقلق باله بصدد التزاماته الاجتماعية كما لم تكن النقابة لتهتم بردود الأفعال الناجمة عن أفعالها . كانت المسئولية بصورة خالصة مسألة تعنى الحكومة ، أى أنها كانت سياسية بدلا من أن تكون اقتصادية .

ولا بد أن يتسع مجال المسئولية بدرجة هائلة فى المستقبل . فطالما مصيرنا

فى أيدى عملية غير شخصية فمن ذا يعتبر مسئولا عن أية نتائج سيئة قد تحدث ؟

ولكن إذ يصبح مستقبلنا بصورة متزايدة أمراً فى وسعنا اختياره لهذا لن يعود فى الإمكان أن نتجنب المسألة المتعلقة بنوع المستقبل الذى نريده . هل نريد توزيعاً للدخل أقرب إلى المساواة أو أقل اتفاقاً معها ؟ هل نريد المشروعات الكبيرة أو الصغيرة ؟ وهل نريد التضخم أو الانكماش ؟ هذه النواحى من الاختيار وكثير غيرها مما نستطيع أن نتحكم فيه .

ومن الغريب أنه كلما عظم نجاح جهازنا الاقتصادى ، أصبحت هذه المشكلات السياسية — والأخلاقية — أشد إلحاحاً . إن النمو كما أبان الأستاذ جلبريث يخرجنا أكثر فأكثر من بيئة العوز القديمة إلى بيئة جديدة تسودها الوفرة ، وفى هذا الجو من الرفاهية والوفرة المتزايدتين نجد المبررات العقلية التى لقيت الاحترام على مر الزمن وكانت تبارك الإنتاج الذى ينحو ناحية اجتناء الربح ، تبدأ فى أن تفقد غرضها الواضح بذاته . لقد كان هناك وقت كان فيه كل عمل إنتاجى يضيف الجزء المطلوب إلى الثروة الاجتماعية يبرر نفسه ولكن إذ تكتظ شوارعنا بوسائل النقل ، وتمتلىء ثلاجاتنا بالطعام ، وخزانات الملابس بها ، فإن قدراً متزايداً من إنتاج المجتمع يتخذ مظهر « الترف » — وهو مظهر سار ولكن لا يكاد أن يقبل الموازنة مع إنتاج الطرق حين لم يكن لها وجود أو الغذاء حينما كنا فى حالة جوع ، أو الملابس حين كان الكثيرون من الناس ما يزالون يرتدون الأسمال . وأسوأ من هذا إذ نواصل تجميع العناصر التى تتكون منها حياة تزداد ثراءً فإن السلع والخدمات التى لا تشبع طلب السوق فى مجتمع الرخاء ، تتخلف وراءه . فمدارسنا ، والأحياء الفقيرة من مدننا ، وصحتنا ، وساحات الرياضة عندنا ، وضروب نشاطنا الثقافى ، هذه كلها لا يطرأ عليها تنبؤ كبير ، كما يهتز « توازننا الاجتماعى » بدرجة سيئة . وكما كتب الدكتور جلبريث فى كتابه « مجتمع الوفرة » يقول : « إن الأسرة التى تقوم برحلة فى سيارتها ذات اللون البنفسجى الزاهى —

والمكيفة الهواء ، والتي تسير أو توقف بطريقة أوتوماتيكية ، تمر خلال مدن شوارعها سيئة الرصف وذات منظر كريه بسبب ما يتجمع فيها من القمامة ومبانيها التي عفا عليها الزمن ، واللوحات وأعمدة الأسلاك مما كان ينبغي وضعه تحت الأرض من زمن طويل . ثم تنتقل في طريقها إلى الريف الذي لم يعد في الإمكان رؤيته بفعل الفن التجاري . . وهي تقوم بنزهتها وتأكل غذاء معبأ بأناقة تحصل عليه من ثلاجة متنقلة بجوار مجرى ملوث ، وتقضي الليل في حديقة تشكل تهديداً للصحة والآداب العامة . وقبل أن تضطجع للنوم على مرتبة من المطاط المنفوخ تحت خيمة من النيلون ووسط الرائحة الكريهة المتصاعدة من الفضلات المتحللة ، فإنها قد تتأمل بصورة غامضة في تلك النعم المتباينة بشكل غريب . فهل هذه حقاً هي العبقرية الأمريكية ؟

إن الوفرة ومنافعها ومساوئها ليست مشكلات يمكن للحكومة وحدها أن تحلها بل الأحرى أنها تجعل من الحقائق الواضحة والتي لا مفر منها أن يصبح الإشراف السياسي على العملية الاقتصادية أكثر فأكثر مشكلة تعني جماعة الناخبين بأسرها . فكلما ازدادت رغبتنا في التدخل في الطريقة الآلية التي يعمل بها نظام السوق ، زاد عمق الرغبة في أن نعيد تشكيل بشرة المجتمع الاقتصادية وأصبحت هيئة الناخبين نفسها الحارس على مصالحها بما فيه الخير والشر والموجه لمصيرها . قد تفرض الحكومة إرادتها على احتكار أو توسع ظاهر صاخب في الائتمان أو أزمة في الذهب ، ولكن الشعب بأسره هو وحده الذي يستطيع أن يوافق على إجراء تغيير في نسيج جهوده الاقتصادية الأساسية وتوازنها الاجتماعي .

ومن هنا ، وهذا ما يثير الغرابة ، يصبح للاقتصاد مغزى جديد في عالم يسير فيه المجتمع الاقتصادي « الخاص » في طريق الضعف والتضاؤل . « لا يستطيع الناس أن يعيشوا بغير علم لاهوت اقتصادي » هذا ما كتبه الدكتور جلبريث في عام ١٩٥٢ ولم يكن ذلك أصدق منه حين يتعين على الناس أنفسهم أن يحددوا المجرى الذي يسير فيه مجتمعهم وأن يختاروا الجهة

التى يرغبون فى السير نحوها . ففى الماضى ، حين كان الاقتصاد عملية تجميعية وجماعية ، كان فى استطاعة الاقتصاديين الكبار أن يبتعدوا عن مجرى الأحداث ويلقوا الضوء على التاريخ بوصفهم فقط معقبين أو محللين أو أنبياء ليست لهم مصلحة ذاتية . أما فى الوقت الحاضر حيث يصبح الاقتصاد مشتبكاً مع عملية اتخاذ القرارات السياسية فإن ذلك الابتعاد عن مجرى الأحداث لم يعد له ما يبرره . لم تعد هناك نتيجة واحدة فقط يمكن أن تسفر عنها الدراما الاقتصادية وإنما هناك نتائج كثيرة ، ويجب على الاقتصاديين ألا يقتصروا على وصف المجرى الذى تسير فيه وإنما عليهم أن يصفوا سبلاً أخرى ، وأهدافاً أخرى قد نتجه نحوها لو رغبنا فى هذا .

ليس معنى هذا أن نقول للأسف إننا نجد الاقتصاديين بوجه عام اليوم على دراية شديدة بما يصحب عملهم من مسئوليات تاريخية ومعان . إن الفكر الاقتصادى فى عصرنا لا يتجه نحو « الديناميكية العظيمة » فى المستقبل ، ولكنه يتحول عن مثل هذا التنبؤ الاجتماعى إلى بحث مسائل أكثر « علمية » فى طابعها . إن الكثيرين من الاقتصاديين يبنون « نماذج » تكشف بمهارة عن علاقات الاقتصاد وهو فى حالة النمو ، أو يهتمون بمشكلات شبه هندسية معقدة خاصة من قبيل عرض القوة العاملة وإنتاج السلع . هذه دراسات مفيدة جداً ولكنها لا تفتح أعيننا على المعنى الكامل الذى تنطوى عليه أنواع المستقبل التى يبرزها إذ فى هذه النظريات نجد فى العادة شيئاً لم يجر بحثه وهو الطريقة التى يؤثر بها النمو الاقتصادى فى التغيير الاجتماعى أو المسألة المتعلقة بأهمية الاعتبارات الكمية البحتة بالنسبة إلى نظام لا ينتج السلع فحسب بل ويخلق اتجاهات وروحاً معنوية ونظماً أخلاقية . . . . .

وربما ما يسود من عدم الاهتمام بالمقومات الثورية الطويلة الأجل للرأسمالية إن هو إلا مجرد تعبير صامت عن ثقة هادئة بأن الرأسمالية موجودة هنا إن لم تكن إلى الأبد فلفترة طويلة إلى حد ما . وربما هو دليل على عدم رغبة فى إمعان النظر فى الإمكانيات الخطيرة التى تكمن فى عصر من الشدة التاريخية العظيمة .

ولكن إذا كان معظم الاقتصاديين المعاصرين يميلون إلى عدم المقامرة وإلى الانصراف إلى النواحي الأكاديمية فإن فى الجو ما يحمل طابع النبوءة والإقناع ، ولكن كل ما فى الأمر أن هذه الأصوات التى نسمعها ليست جديدة ولكنها ترتد جميعاً إلى حجج وأفكار الاقتصاديين الكبار أنفسهم .

وهكذا يقف فى أقصى اليسار الماركسيون الذين لم تتغير نبوءتهم عن دمار بصيب نظامنا فى النهاية عما كانت عليه فى أيام كارل ماركس نفسه . ونحن نعرف نبوءتهم . أما وسيلتهم فى الإقناع فهى أنهم يدعوننا إلى الوقوف إلى جانب التاريخ كما يتراءى لهم . إن ما يحاول الماركسيون أن يبيعون لنا ليس كتاباً أزرق عن المستقبل ولكنه إحساس بالمشاركة التاريخية أو الانضمام إلى الفريق الرابح أى نعتلى « موجة المستقبل » ولو لم تكن هناك الروسيا كدرس يوضح الماركسية التطبيقية لجاز أن تكون دعواتهم وحججهم منافساً أقوى بكثير لمعتقداتنا . أما والأمور على ما هى عليه الآن فإن الآلام التى تعتبر ثمن النمو السريع بالأسلوب الجماعى لا تستهوى إلا أشد الشعوب تعاسة فى العالم — أى التى لم تعرف أبداً سوى حظ المتسول . ولعل مهمتنا هى أن نفهم بروح من العطف الصادق الاختيار الصعب الذى فرضه التاريخ على الفقراء ، وأن نحاول بكل طريقة أن نسهل لهم النجاة من الفقر .

وإلى يمين الماركسيين نلقى الاشتراكيين . إن الكثيرين منهم ماركسيون فى تحليلهم لنهاية الرأسمالية ولكنهم غير ماركسيين من ناحية تنبؤهم بما سوف يحدث فى المستقبل . فالماركسيون يمجدون حتمية التاريخ أما الاشتراكيون فيمجدون فكرة الحرية الكامنة فى التغيير الاجتماعى . والماركسيون لا يهتمون كثيراً بالمرحلة التالية ولكن هذا هو لب الحجج الاشتراكية وجوهرها . فسواء قام مجتمع المستقبل على أساس المركزية أو النقابات الحرفية والمهنية العتيقة الطراز ، وسواء كان مخططاً بصورة كلية أو جزئية وإلى أى حد يجب أن يكون للمستهلك صوت وإلى أى مدى ينبغى أن يسمع رأى المنتج — هذه كلها هى المسائل الملحة التى تشغل بال الاشتراكية ولكنها لا تعنى الشيوعية .

وبينما يلوح لنا الماركسيون بالأمل داعين إيانا إلى أن ننحاز بصورة عمياء وفى ثقة بهم إلى جانب عملية التاريخ التى لا تتحول عن طريقها ، فإن الاشتراكيين يطلبون منا أن ننضم إليهم فى تشكيل التاريخ وفقاً لرغباتهم .

ويلى هؤلاء وأولئك فى ميدان النبوءة والإغراء الدعاة إلى الرأسمالية الموجهة . وهؤلاء الأخيرون على خلاف الاشتراكيين لا يعتقدون أن الرأسمالية يجب أن تزول ولا يريدون أن يستبدلوا نظام الملكية الخاصة بالملكية العامة . إن فلسفتهم الرئيسية شيء مختلف عن هذا كله ، فهم يشعرون أن الرأسمالية يمكن الإبقاء عليها لو تدخلنا بالدرجة الكافية التى تجعلها قابلة للحياة وهم يقولون إننا لو تركنا الرأسمالية وشأنها لخرجت على قواعدها وهى قواعد إن لم تكن اقتصادية فإنها أخلاقية ، أما إذا هيأنا لها سياسة قوية من التوجيه لأصبح فى وسعها الانتعاش والازدهار ومن هنا فنحن مطالبون بأن نعمل على ضمان مستقبلنا عن طريق دعامة قوية من الاستثمار الحكومى ، مصحوبة بعملية فعالة لتطبيق القوانين الموضوعة لمنع الاحتكار وبتشجيع النشاط العام فضلا عن الخاص . إن طريق المستقبل يكمن فى حمل الرأسمالية على القيام بوظيفتها بدلا من الاعتماد على استقرارها الباطنى .

ولكن هذا لا يلقى الموافقة من جانب المجموعة التالية من المستشارين العموميين ونقصد بها أنصار مذهب اليمين المعتدل . فعند هؤلاء لا يمكن للرأسمالية أن تؤدى عملها إلا فى جو تنتفى فيه أية قيود عليها . وبينما قد تستحسن الأهداف الليبرالية إلا أن الوسائل الليبرالية لا تتفق مع جوهر اقتصاد السوق نفسه . إنهم يقولون إننا لو تركنا النظام وشأنه لحقق نجاحاً طيباً أما لو حاولنا تقييده ، فلن ننجح إلا فى شله بصورة تبعث على اليأس .

فالذى نواجهه هو بعض من أمثال هذه النبوءات والحجج التى يراد بها إقناعنا وإغراؤنا .

وإذ نستمع إلى المناقشات التى تحيط بنا الآن ، والتى سوف تسترعى

اهتمامنا طالما يظل مجتمعنا قائماً ؛ فإن فى وسعنا أن نتعرف أصوات الماضى . فلا يزال آدم سميث يتحدث إلينا وهو واقف على يمين المنبر ، بينما يحاول كارل ماركس أن يضمنا إلى كتائب اليسار . ونستطيع أن نميز صوت جون ستيوارت مل فى كلمات الاشتراكيين وصوت جون مينارد كينز فى حجج دعاة الإصلاح الرأسماليين الليبراليين . ونظرة ريكاردو العميقة التحليلية وهواجس مالتس المظلمة والرؤيا التى يتحدث عنها أشد اليوتوبيين مثالية وحالة الرضاء التى كان يستشعرها الاقتصاديون فى العصر الفكتورى والاضطراب الذى ساد العالم السفلى وروح الشك البارعة عند فبلن — هذه كلها أصوات تصل إلى أسماعنا .

لم يعد الكثير من تعاليم الاقتصاديين الكبار صالحاً للتطبيق تماماً ، ولكنها لم تعد بالرغم من ذلك شيئاً بالياً لا خير فيه ، ذلك أنهم قدموا للناس أسلوباً لفهم العالم الذى أصبح جزءاً من فلسفتنا اليومية . لقد علمونا أن العالم ليس مجرد فوضى لا ارتباط بين أجزائها ولكنه عملية مترابطة ، وأن هذا العالم لا يوجد فحسب ولكنه يتطور وينمو . لقد جعلونا نفهم البيئة التى نعيش فيها حتى نستطيع أن نفهم على نحو أفضل العملية التى تدفعنا صوب المستقبل .

سوف نحتاج إلى نظراتهم العميقة ونحن سائرون فى طريقنا إلى المستقبل . وإذ نصبح مسئولين بصورة متزايدة عن مصيرنا فسوف يتعين علينا الاختيار من بين النصائح التى يسديها إلينا الحاضر وهذا أمر بالغ الأهمية . فمن اتساع نطاق أفكار اقتصاديى الماضى وحكمتهم يجب أن نكتسب المعرفة التى نواجه بها المستقبل .

مطابع كوستاتسوماس وشركاه

٥ شارع [illegible] بالقاهرة - تليفون ٢٢١١٨ ع ع م

١٣ شارع [illegible] بالقاهرة - تليفون [illegible]

٥٠

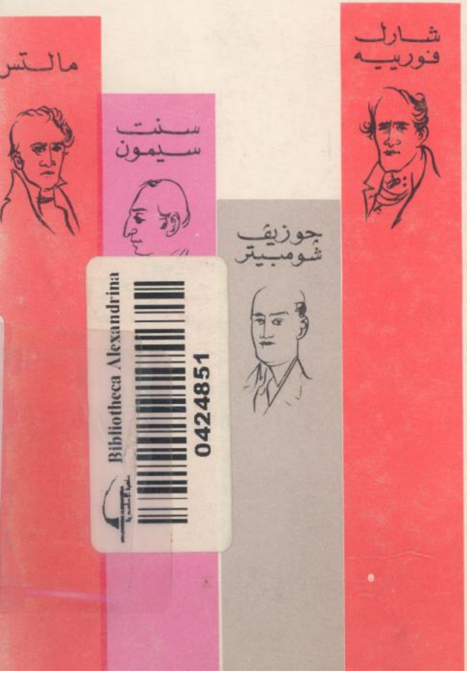

Bibliotheca Alexandrina
04224851

مكتبة النهضة المصرية
القاهرة